

فِيضُ الْخَاطِرِ

وهو مجموعة مقالات أدبية واجتماعية

بقلم
الأديب أحمد أمين

الجزء الأول

الناشر
شركة نوازل الفكر

الطبعة الاولى
1431هـ - 2010
حقوق الطبع محفوظة للناسر
شركة نوابغ الفكر
19 القطامية (القاهرة)

هاتف: 25936402 ، فاكس: 27865553

E-mail: nawabgh_elfekr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

احمد امين ، احمد امين بن ابراهيم الطباخ ، 1878-1954
فيض خاطر: مجموعة مقالات ادبية واجتماعية / تأليف: احمد امين
- ط 1 - القاهرة : شركة نوابغ الفكر ، 2010
1مج ، 24سم
تدمك : 978-977-6305-67-0
1- المقالات العربية
ا- العنوان

ديوى : 814

رقم الايداع : 7879

مقدمة

هذه مقالات نشر بعضها في مجلة «الرسالة» وبعضها في مجلة «الهلال» وبعضها لم ينشر في هذه ولا تلك، استحسننت أن أجمعها في كتاب، لا لأنها بدائع أو روائع، ولا لأن الناس ألحوا علي في جمعها، فنزلت علي حكمهم، واثمرت بأمرهم، لا لأنها ستفتح في الأدب فتحاً جديداً لا عهد للناس به، ولكن لأنها قطع من نفسي، أحرص عليها حرص الحياة، وأجتهد في تسجيلها إجابة لغريزة حب البقاء، وهي - مجموعة - أدل منها مفرقة، وفي كتاب أبين منها في «أعداد».

ثم لعلني أقع علي قراء مزاجهم من طبيعة مزاجي، وعقليتهم من جنس عقلي، وفنهم من فني، يجدون فيها صورة من نفوسهم وضرباً من ضروب تفكيرهم فيشعرون بشيء من الفائدة في قراءتها، واللذة في مطالعتها، فيزيدني ذلك غبطة ويملؤني سروراً.

بعض هذه المقالات وليد مطالعات هادئة، وبعضها نتيجة عاطفة مائجة، وكلها تعبيرات صادقة.

أصدق كاتب في نظري من احتفظ بشخصيته، وجعل أفكاره وعواطفه تمتزج امتزاجاً تاماً بأسلوبه، وخير أسلوب عندي ما أدي أكثر ما يمكن من أفكار وعواطف في أقل ما يمكن من عسر وغموض والتواء، وراعتك بجمال معانيه أكثر مما شغلك بزينة لفظه، وكان كالغانية تستغني بطبيعة جمالها عن كثرة حيالها.

لم يكن لي شرف إدراك هذه الغاية، ولكن كان لي شرف السير في سبيلها.

أحمد أمين

٦ رمضان سنة ١٣٥٧

الرأي والعقيدة

فرق كبير بين أن ترى الرأي وأن تعتقده، إذا رأيت الرأي فقد أدخلته في دائرة معلوماتك، وإذا اعتقدته جرى في دمك، وسري في مخ عظامك، وتغلغل إلى أعماق قلبك.

ذو الرأي فيلسوف، يقول إني أرى الرأي صواباً وقد يكون في الواقع باطلاً، وهذا ما قامت الأدلة عليه اليوم وقد تقوم الأدلة على عكسه غداً، وقد أكون مخطئاً فيه وقد أكون مصيباً، أما ذو العقيدة فجازم بات لا شك عنده ولا ظن، عقيدته هي الحق لا محالة، هي الحق اليوم وهي الحق غداً، خرجت من أن تكون مجالاً للدليل، وسمت من معترك الشكوك والظنون.

ذو الرأي فاتر أو بارد، إن تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة رزينة، وإن لم يتحقق ما رأى فلا بأس، فقد احترز من قبل بأن رأيه صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيره خطأ يحتمل الصواب، وذو العقيدة حار متحمس لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته. هو حرج الصدر، لهيف القلب، تتناجي في صدره الهموم، أرق جفنه وأطال ليله تفكيره في عقيدته، كيف يعمل لها، ويدعو إليها، وهو طلق المحيا مشرق الجبين، إذا أدرك غايته، أو قارب بغيته.

ذو الرأي سهل أن يتحول ويتحور، هو عبد الدليل، أو عبد المصلحة تظهر في شكل دليل، أما ذو العقيدة فخير مظهر له ما قاله رسول الله: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أدع هذا الذي جئت به ما تركته»، وكما يتجلى في دعاء عمر: «اللهم إيماناً كإيمان العجائز».

لقد رووا عن «سقراط» أنه قال: «أن الفضيلة هي المعرفة»، وناقشوه في رأيه، وأبانوا خطأه، واستدلوا بأن العلم قد يكون في ناحية والعمل في ناحية؛ وكثيرا ما رأينا أعرف الناس بمضار الخمر شاربها، وبمضار القمار لاعبه، ولكن لو قال سقراط إن الفضيلة هي العقيدة، لم أعرف وجهها للرد عليه؛ فالعقيدة تستبج العمل على وفقها لا محالة - قد ترى أن الكرم فضيلة ثم تبخل، والشجاعة خيرا ثم تحبب، ولكن محال أن تؤمن بالشجاعة والكرم، ثم تحبب أو تبخل.

العقيدة حق مشاع بين الناس على السواء، تجدها في السذج، وفي الأوساط؛ وفي الفلاسفة - أما الرأي فليس إلا للخاصة الذين يعرفون الدليل وأنواعه، والقياس وأشكاله؛ والناس يسرون في الحياة بعقيدتهم، أكثر مما يسرون بآرائهم، والمؤمن يرى بعقيدته ما لا يرى الباحث برأيه، قد مُنح المؤمن من الحواس الباطنة والذوق ما قصر عن إدراكه القياس والدليل.

لقد ضلّ من طلب الإيمان بعلم الكلام وحججه وبراهينه، فنتيجة ذلك كله عواصف في الدماغ أقصى غايتها أن تنتج رأيا؛ أما الإيمان والعقيدة فموطنهما القلب، ووسائلهما مدّ خيوط بين الأشجار والأزهار والبحار والأنهار وبين قلب الإنسان؛ ومن أجل هذا كانت {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت} أفعل في الإيمان من قولهم: «العالم متغير وكل متغير حادث»؛ فالأول عقيدة والثاني رأي.

الناس إنما يخضعون لذي العقيدة، وليس ذوو الرأي إلا ثرثارين، عُنوا بظواهر الحجج أكثر مما عُنوا بالواقع، لا يزالون يتجادلون في آرائهم حتى يأتي ذو العقيدة فيكتسحهم.

قد يجود الرأي، وقد ينفع، وقد ينير الظلام، وقد يُظهر الصواب، ولكن لا قيمة لذلك كله ما لم تدعمه العقيدة، وقُلَّ أن تُؤتَى أمة من نقص في الرأي، ولكن أكثر ما تُؤتَى من ضعف في العقيدة، بل قد تؤتى من قِبَل كثرة الآراء أكثر مما تؤتى من قلتها. الرأي جثة هامدة، لا حياة لها ما لم تنفخ فيها العقيدة من روحها، والرأي كهف مظلم لا ينير حتى تلقى عليه العقيدة من أشعتها، والرأي مستنقع راكد يبيض فوقه البعوض، والعقيدة بحر زاهر لا يسمح للهوامّ الوضيعة أن تتولد على سطحه، والرأي سديم يتكون، والعقيدة نجم يتألق.

ذو الرأي يخضع للظالم وللقوي، لأنه يرى أن للظالم والقوي رأيا كرايه، ولكن ذا العقيدة يأبى الضيم ويمقت الظلم، لأنه يؤمن أن ما يعتقده من عدل وإباء هو الحق، ولا حق غيره.

من العقيدة ينبثق نور باطني يضيء جوانب النفس، ويبعث فيها القوة والحياة، يستعذب صاحبها العذاب، ويستصغر العظائم، ويستخف بالأهوال؛ وما المصلحون الصادقون في كل أمة إلا أصحاب العقائد فيها.

الرأي يخلق المصاعب، ويضع العقبات، ويصغي لأمانى الجسد، ويثير الشبهات ويبعث على التردد، والعقيدة تقتحم الأخطار، وتزلزل الجبال، وتلفت وجه الدهر، وتغير سير التاريخ، وتنسف الشك والتردد، وتبعث الحزم واليقين ولا تسمح إلا لمُرَاد الروح.

ليس ينقص الشرق لنهوضه رأي، ولكن تنقصه العقيدة، فلو منح الشرق عظماء يعتقدون ما يقولون لتغير وجهه وحال حاله، وأصبح شيئاً آخر.

وبعد، فهل حُرِّم الإيمان مهبط الإيمان؟

الكيف لا الكم

رُوي أن «ابن سينا» كان يسأل الله أن يهبه حياة عريضة وإن لم تكن طويلة، ولعله يعني بالحياة العريضة حياة غنية بالتفكير والإنتاج؛ ويرى أن هذا هو القياس الصحيح للحياة؛ وليس مقياسها طولها إذا كان الطول في غير إنتاج؛ فكثير من الناس ليست حياتهم إلا يوما واحدا متكررا، برنامجهم في الحياة: أكل وشرب ونوم؛ أمسهم كيومهم، ويومهم كغدهم؛ هؤلاء إن عُمرُوا مائة عام فابن سينا يقدره بيوم واحد، على حين أنه قد يقدر يوما واحدا -طوله أربع وعشرون ساعة- بعشرات السنين إذا كان عريضا في منتهى العرض، فقد يوفق المفكر في يومه إلى فكرة تُسعد الناس أجيالا، أو إلى عمل يسعد آلاف؛ فحياة هذا -وإن قصرت- تساوي أعمار آلاف، بل قد تساوي عمر أمة، لأن العبرة بالكيف لا بالكم.

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

ولعل ساعة اجتمع فيها أقطاب الأمم الأربعة فانتهاوا فيها إلى السلم وأنقذوا أرواح الملايين من البشر ومنعوا من الكوارث ما لا يعلم هَوْلُهُ إلا الله خير آلاف آلاف من سنين صرفت في التسليح وما إليه.

وتقدير الأشياء بالكيف لا بالكم، منزلة لا يصل إليها العقل إلا بعد نضوجه؛ أما الطفل في نشأته، والأمة في طفولتها، فأكثر ما يعجبهما الكم، فالريفي خير «الخيار» عنده ما كبر حجمه وبيع بالكوم، والمدني خير «الخيار» عنده ما نحف جسمه وكان «كالقشة» وبيع بالرطل. والطفل وأشباهه يرغّبون بكثرة العدّد لا بجودة الصنف، فحيثما مررت في الشارع أو زرت متجرا رأيت أكثر الترغيب بالكم «فأربعون ظرفًا وجوابًا بتعريف»، و«دسته أقلام رصاص بصاغ»، وهكذا. وسبب

هذا أن البيع و الشراء يعتمدان على أدق قوانين علم النفس، والباعة من أعرف الناس بهذه القوانين التي تتصل بعقلية الجمهور، فهم يعلمون أنهم أكثر تقويًا للكم، وأكثر انخداعا بالعدد، فهم يأتونهم من نواحي ضعفهم وموضع المرض منهم، وَقَلَّ أن يرغبوهم في الشيء بأنه من «العال»، أو «عال العال»، لأن هذا تقدير للكيف، وليس يقدره إلا الخاصة.

وكل إنسان قد مر بدور الطفولة، والأمم جميعها مرت كذلك بهذا الدور فعَلِقَ بأذهانهم تقدير الكم، ولم يستطيعوا أن يتحرروا منه مهما ارتقَوْا؛ وأصبحوا -حتى الخاصة منهم- ينخدعون بالكم من غير شعور وبلا وعي؛ وصار هذا مرضا ملازما، إنما يتحرر منه الفلاسفة وإلى حد. ألا ترانا نرى الرجل الضخم حسن الهيئة جميل الطلعة فنمنحه الاحترام ولو لم نعرف قيمته؛ ونرى الرجل صغير الجسم غير مهندم الثياب فنحتقره لأول وهلة من غير أن نعرفه؛ وأساس معاملتنا بالإجمال احترام ذوي المظاهر الجميلة حتى يثبت العكس، واحتقار ذوي المظاهر الوضيعة حتى يثبت العكس، وليس ذلك إلا من خداع الكم، ولو أنصفنا لوقفنا على الحياء من الجميع حتى نتبين الكيف.

ونرى ذا العمامة الكبيرة واللحية الطويلة، فنعتقد فيه العلم والدين، مع أ، لا علاقة بين كبر العمامة وطول اللحية وبين العلم والدين، وإن كانت ثمة علاقة فعلاقة الضدية، لأن الدين محله القلب، والعلم موطنه الدماغ، وإذا ملئ القلب دينًا والدماغ علما احتقر المظهر وأبى أن يدل على دينه أو علمه بمظهر خارجي، بل هو إن امتلأ دينًا وعلما أنكر على نفسه الدين والعلم، واعتقد أنه أبعد ما يكون عما ينشده من دين وعلم، وكذلك الشأن في اللباس الجامعي واللباس الكهنوتي.

وقديماً أدرك العرب خداع الكم، فقالوا: «ترى الفتیان كالنخل وما يُدْرِك ما الدَّخْل».

وقال شاعرهم:

نرى الرجل النحيف فتزدرية وفي أثوابه أسد مزير^(١)
ويعجبك الطريق فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطير

وفي كل شأن من شؤون الحياة، وضرب من ضروب العلم والفن ترى خداع الكم.

المؤلفون يعلنون عن كتبهم أنها في أربعمائة صفحة -مثلاً- من القطع الكبير، والمتعلمون كثيراً ما باهوا بكثرة ما قرءوا، والكتاب بكثرة ما كتبوا، والصحافة كثيراً ما خدعت القراء بالكم، فكان ما اصطنعت زيادة عدد الصفحات في الجرائد والمجلات، مع أن الصفحات وحدها كم، ولا قيمة لها ما لم يصحبها الكيف، وكم أتمنى أن أرى جريدة أو مجلة تُرغّب قراءها بالكيف فقط، وإن كنت أجزم بأن مصيرها الفشل، لأن أكثر الناس لم يُمنحوا -بعد- ميزان الكيف.

وقد جرت كثرة الصفحات في الجرائد والمجلات إلى تحوير الأسلوب إلى ما يناسبها، فكان الأسلوب أحياناً كالعهن المنفوش، يصاغ منه في صفحة ما يصح أن يصاغ في عمود، وفي عمود ما يصح أن يصاغ في سطر -ولست أدري لم كان الناس إذا أرسلوا برقية، تخيروا أوجز الألفاظ لأغزر المعاني؛ ولم يفعلوا من ذلك شيئاً في كتبهم ورسائلهم ومقالاتهم؟ ولعلمهم يفعلون ذلك لأن الكلمات في البرقية تقدر بالقروش، وليس كذلك فيما عداها- إن كان هذا هو السبب دل على تقدير القرش أكثر مما يقدر زمن القارئ والكاتب، وفي هذا منتهى الشر، وفي هذا أقسى مثل لغفلة الناس في تقدير الكم لا الكيف.

(١) المزير: الشديد القوي.

وقديماً عرض علماء البلاغة للكيف والكم في الأدب، وسموها اسماً خاصاً هو الإيجاز والإطناب؛ وعدُّوا الإيجاز أشرف الكلام، والإجادة فيه بعيدة المثال لما فيه من الفظ قليل يدل على معنى كثير، ومثلوا للإيجاز والإطناب بالجوهر الواحد بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة، فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها، ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهر الواحد لنفاستها، ولا يعدل عن الإيجاز إلى الإطناب إلا لإيضاح معنى أو تأكيد رأي.

والحق أن الأدب العربي في هذا الباب من خير الآداب، فأكثر صدر في عصوره الأولى حبات من المطر تجمعت من سحاب منتشر، أو قطرات من العطر استخلصت من كثير من الزهر.

وبعد، فلست أحب أن تكون كتابتنا كلها برقيات، وإذن لعدمنا ما للأسلوب من جمال، وما لتوضيح الفكرة وتجليتها وتحليلتها من قيمة، وإنما أريد أن يكون المعنى هو القصد وهو المقياس، فإن أطنبنا فللمعنى، وإن أوجزنا فللمعنى.

وأريد أن يقوم الناس الكيف للكيف، وإذا قدروا الكم فللكيف.

ولعل من أطف ما كان، أني حين بلغت هذا الموضع من مقالتي أخذت أعد صفحات ما كتبت، فوجدتها قليلة العدد؛ فألّمني ذلك لأنني لم أبلغ ما حَزَرْتُ أن يكون، وفرحت بهذه الملاحظة لأنها سدت فراغاً في المقالة يُكْمَلُ بعض ما فيها من قصر. ألسنا جميعاً عبّاد (كم)، أو ليس هذا من نوع تقدير الخيار «بالكوم»؟

. صديق

لي صديق، اصطلحت عليه الأضداد، وأتلفت فيه المتناقضات، سواء في ذلك خلقه وخلقه وعلمه.

حيي خجول، يغشى المجلس فيتعثر في مشيته، ويضطرب في حركته، ويصادف أول مقعد فيرمي بنفسه فيه، ويجلس وقد لف الحياء رأسه، وغض الخجل طرفه، وتقدم له القهوة فترتعش يده، وترتجف أعصابه، وقد يداري ذلك فيتظاهر أن ليس له فيها رغبة، ولا به إليها حاجة، وقد يشعل لفافته فيحمله خجله أن ينفضها كل حين، وهي لا تحترق بهذا القدر كل حين، وقد يهرب من هذا كله فيتحدث إلى جلسه لينسى نفسه وخجله، ولكن سرعان ما تعاوده الفكرة فيعاود الهرب، وهكذا دواليك حتى يحين موعد الانصراف، فيخرج كما دخل، ويتنفس الصعداء حامداً الله على أنه لم يخر صعباً، ولم يدركه حينه كرباً وقلقاً.

من أجل هذا أكره شيء عنده أن يشترك في عزاء أو هناء. أو يُدعى إلى وليمة أو يدعو إليها، يشعر أنه عبء ثقيل على الناس وأنهم عبء عليه، يحب العزلة لا كرهاً للناس ولكن سترًا لنفسه، ويأنس بالوحدة وهي تضنيه وتبريه.

ثم هو - مع هذا - جريء إلى الوقاحة، يخطب فلا يهاب، ويتكلم في مسألة علمية فلا ينضب مأوه، ولا يئلى جبينه، ويعرض عليه الأمر في جمع حافل فيبلي برأيه في غير هية ولا وجل، وقد تبلغ به الجرأة أن يجرح حسهم، ويدمي شعورهم فلا يأبه لذلك، ويرسل نفسه على سجيته فلا يتحفظ ولا يتحرز.

يحكم من يراه في حالته الأولى أنه أحياء من مخدرة، ومن يراه في الثانية أنه أوقع من ذئب وأصلب من صخر، ومن يراه فيهما أنه شجاع القلب، جبان الوجه.

وهو طموح قنوع، نابه خامل، يرمي بهمته إلى أبعد مرمى، وتترع نفسه إلى أسنى
المراتب، وتحفزه إلى أبعد المدارك، فيوفر على ذلك همه، ويجمع له نفسه، ويتحمل فيه
أشق العناء، وأكبر البلاء، ولا يسأم ولا يضجر، وكلما نال منزلة ملّها، وطلب أسمى
منها. وبينما هو في جده وكده، وحزمه وعزمه إذ طاف به طائف من التصوف،
فاحتقر الدنيا وشؤونها، والنعيم والبؤس، والشقاء والهناء. وسمع قول المتنبي:

وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زَقًّا وَقَيْنَةً فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السِّيفُ وَالطَّعْنَةُ الْبَكْرُ
وَتَرَكُّكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّا تَدَاوَلَ سَمْعَ الْمَرْءِ أَثْمَلُهُ الْعَشْرُ

فهزئ به وسخر منه، واستوطأ مهاد الخمول ورضى من زمانه بما قسم له، وبينما
يأمل أن يكون أشهر من قمر، ومن نار على علم، يسافر في الشرق والغرب ذكره،
ويطوي المراحل اسمه، إذا به يجبل يوم ينشر اسمه في صحيفة، ويدوب حين يشار
إليه في حقل، ويردد مع الصوفية قولهم «ادفن وجودك في أرض الخمول فما بنت مما لم
يُدْفَن لا يتم نتاجه». يَعْجَبُ من يراه مُجَدِّدًا خاملاً، ومعرفة نكرة. وعاملاً مغموراً.

وأغرب ما فيه أنه متكبر يتجاوز قدره، ويعدو طوره. ومتواضع ينخفض
جناحه، وتتضاءل نفسه. يتكبر حيث يصغر الكبراء. ويتصاغر حيث يكبر الصغراء.
يتأله على العظماء حتى تظن أنه نسل الأكاسر ووارث الجبابرة ويجلس إلى الفقير
المسكين يؤاكله ويستذل له؛ هو نسر أمام الأغنياء، وبغاث لدى الفقراء، لا تلين قناته
لكبير، ويخزم أنفه الصغير.

يجب الناس جملة، ويكرههم جملة. يدعوه الحب أن يندمج فيهم، ويدعوه الكره
أن يفر منهم، حار في أمره، فامتزج الحب بالكره، فاستهان بهم في غير احتقار.

صحيح الجسم مريضه. ليس فيه موضع ضعف ولكن كذلك ليس فيه موضع قوة. يشكو المرض. فيحار في شأنه الطبيب فيحتمل على الأطباء ويرميهم بالعجز وما العاجز إلا جسمه لم يستطع أن ينوء بنفسه.

كذلك كان رأسه: مضطرب، مرتبك، كأنه مخزن مهوش، أو دكان مبعر، وضع فيه النعل القديم بجانب الحجر الكريم، يؤمن بقول الفقهاء: القديم على قدمه، ثم يدعو إلى التجديد. ويتلاقى فيه مذهب أهل السنة بمذهب أهل النشوء والارتقاء، ومذهب الاختيار بمذهب الجبر، وحب الغنى بمذهب «أبي ذر» وتجمع في مكتبته كتب خطية قديمة قد أكلتها الأرضة، ونسج الزمان عليها خيوطه، وأحدث الكتب الأوروبية فكراً وطبعاً وتجليداً. ولكل من هذين ظل في عقله، وأثر في رأسه. يسره «تأبط شراً» في بداوته وصعلكته و«جوته» في حضارته وإمارته، ويؤمن بشاعرية هذا وذاك. يسمع إلى الملحنين فيصغي إليهم. وإلى المؤمنين فيحن شوقاً لذكراهم، يهمل في صلاته ويحافظ على صومه. إن ألحد فكره لم تطاوعه طبيعته، وإن كفر عقله آمن قلبه. ومن أصدقائه السكير والزاهد، والفاجر الداعر والعابد. وكلهم على اختلاف مذاهبهم يصفه بأنه يجيد الإصغاء كما يجيد البليغ الكلام.

سرت معه سيرة من جنسه، فأحييته وكرهته، ونقمت منه ورحمته، وكنت آنس به وأستوحش منه، يبعد عني فاتوق إليه، ويطول مقامي معه فأبترهم به.

وأخيراً، لم يقو جسمه على هذه الأضداد مؤتلفة، والمتناقضات مجتمعة. فعاجله الشيب في شبابه، وتقوس ظهره في ربيع عمره، وأصبح مترهل العضل، منسرق القوى، يظنه من رآه أنه بلغ أرذل العمر، ولدأته في رونق الشباب وميعة النشاط.

بلغني مرضه، فلم أدركه إلا جنازة فشيعة إلى أن أنزل حُفرتَه، وأجن في رسمه ونُقِضَتْ من ترابه الأيدي!

وعدت موجع القلب باكياً، ضيق الصدر، مكروب النفس، أخذني من الحزن
عليه ما تنقض منه الجوانح، وتنشق له المرائر، فعلمت أن حبي له كان أعمق من
كرهي إياه، وأن نقمتي عليه لم تكن إلا مظهرًا من عطفني عليه، وأني كنت أفسو عليه
رحمة به!

رحمة الله عليه فقد حطم بعضه بعضًا، ومضى قتيل روحه وشهيد نفسه!

مشروع مقالة

جلست إلى مكتبي وأمسكت بالقلم واستعرضت ما مر علي أثناء الأسبوع لأختار منه موضوعاً أكتب فيه، فخطر لي:

١

أن أكتب في المساجلات الأدبية التي دارت بين شيخ العروبة والأستاذ مسعود في (الطرطوشي ولآردة)، وبين الدكتور زكي مبارك والأستاذ عبد الله عفيفي في كتاب (زهرات مثورة)، وبين الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد في (اللاتينيين والسكسونيين). وقلت: إن هذا موضوع طريف جدير أن يكتب فيه الكاتب ويعرض فيه لنوعي النقد اللذين ظهرا في كتابة هؤلاء الأدباء؛ فأحد النوعين قاس عنيف. حتى يخيل إلي أن أصحابه لم يبق لهم إلا أن يتسابوا بالأباء، أو يتضاربوا بالأكف، أو يتبارزوا بالسيوف! والآخر عفيف خفيف فيه لدع، ولكن بالإيحاء والإشارة، وفيه مهاجمة عنيفة، ولكن للفكرة لا لقائلها، ويخيل إليّ أنهما إذا تقابلا تعانقا، ومهما أطلاا فلن يتباغضا، وليس في أسلوبيهما إدلال وفخر وإعجاب وعجب، وليس فيه إسفاف وتنازع بالألقاب، وإدخال للعمامة والقبة في وسط المعمة، يدعو أحدهما الآخر إلى التلمذة له، ويلقي كلاهما درساً في النحو على أخيه.

وقلت من الحق أن تصرخ في وجه هؤلاء، وأن تعلن أن تقدمهم يعجبك موضوعاً ولا يعجبك شكلاً، وأن الذوق إذا رقى اكتفي فيه الخصام بلمحة، وأن الأديب يعجبه التعريض والتلميح، ويشمئز من الهجو المكشوف والتصريح، وأن العامة إذا تسابوا أقذعوا، وأن أولى الذوق إذا تخاصموا كان لهم في الكناية ومراتبها،

والإيحاء ودرجاته، والتعريض ومقاماته، مندوحة من الأسلوب العريان والصراحة المخزية، وأن الحقيقة الواحدة يمكن أن تقال على ألف وجه، يتخير الأديب أحسنها، على حين لا يعرف العامي إلا وجهها واحداً يتلوه الضرب وان في أعناق شيوخ الأدب حقاً للناشئة من المتعلمين الذين يضربون على قلوبهم ويسرون على منوالهم، وأن هؤلاء الناشئة ليجدون في هذه الصحف والمجلات مدرسة تثقفهم وتغذيهم، ثم هم بعد قادة الأدب وهداة الأمة، فلو أنا علمنا النشء هذا النقد الذي لا يعري صداقة ولا يابه لوفاء كان علينا وزرهم، ووزر الأجيال بعدهم، وكانت مدرستنا التي ننشئها قاسية البرامج فاسدة الطريقة.

وقلت: إن هذه الطريقة لا تخدم الحق كما يزعم أصحابها، فلسنا نطلب منهم أن يسكتوا على باطل، وأن يغمضوا عن خطأ، بل نحمد منهم جدتهم في خدمة الحق، وسهرهم في كشف الصواب، ولكنهم يسيثون إلى الحق إذا ظنوا أنه لا يؤدي إلى بهجر، ولا يكشف إلا بسباب، والحق إذا عرض في أدب كان أجمل وأجدي على رواده، وإذا عرض في سفه حمل المعاند أن يصر على عناده، وحمل الخجول أن يكتم آراءه في نفسه لا يُنهش عِرْضَهُ ولا تبتذل كرامته، فقلّ التأليف وضعف الإنتاج.

حال كل هذا في نفسي، ولكنني خفت أن أكتب مقالتي في هذا الموضوع وقلت إنك إن فعلت هاجوا بك، وتركوا خصومتهم لخصومتك، وتصادقوا لعداوتك، وقالوا أتلقي علينا درسا في الأدب ونحن أساتذة الأدب؟ ومن أنت وما شأنك؟ وجلسوا مني مجلس الملكين يسألون ويسفهون. وأنت ما أغناك عن هذا الموقف! وما أبعدك من هذا المأزق! فتركت هذا الموضوع، وعدلت عن المشروع.

فقيم أكتب إذن؟

٢

كنت في الترام عصر يوم من هذا الأسبوع، فصاح بائع الجرائد: المقطم! البلاغ؟ فلم ألتفت إليه لأنني كنت قرأتها، فلم يصدق أنني سمعت، فصاح صيحة أنكر من الأولى، فكان موقفني منه موقفي، فأمعن في الصراخ وأمعنت في البرود، فما وسعه إلا أن صعد الترام، ومسني بالمقطم والبلاغ، فاضطرت إلى أن أقول إني قرأتها ليصدق أنني سمعت وفهمت.

وقلت: إن هذا موضوع للكتابة طريف، أدعو فيه إلى دقة الحس ورقة الشعور وظرف المعاملة، فإن ذلك لو كان لأغنانا عن كثير مما نلاقي من عناء وجفاء، وما معاملاتنا إلا كالألة بلا زيت: تسير ولكن تصدّع.

على أنني قلت إن هذا الموضوع من جنس الأول، فلو أن أساتذة الأدب رُقُوا في نقدهم، لرق بائعو الجرائد في عرضهم، فأعرضت عن هذه إذ أعرضت عن تلك.

٣

وجلس في مجلس يجمع طائفة مختارة من الأدباء، فعُرِضَت بعض القصائد والمقالات، فما من قصيدة أو مقالة إلا استحسناها قوم واستهجنها آخرون، ورأيت من استحسّن لم يستطع أن يُقنِع من استهجن، ولا من استهجن قد استطاع أن يقيم الدليل على من استحسّن، ورأيتهم إذا تناقشوا في المعقولات أطالوا حججهم وسددوا براهينهم، وذكروا لقولهم الأسباب والنتائج، وهم أعجز ما يكون عن ذلك في الفنون والآداب.

فقلت هذا موضوع جيد، أليس من الممكن أن يوضع للذوق منطق كما وضع أرسطو للعقل منطقاً، فتكتب في «الذوق الفني»، ولتحاول أن تبين أسباب الخلاف ووجه الصواب ووجه الخطأ. وترسم سلماً للراقي في الذوق تعرّف به من أخطأ ومن أصاب، وتبين به علة الخطأ والإصابة للمصيب، وكيف تحكم على ذوق بأنه أرقى من ذوق، كما تحكم على عقل بأنه أرقى من عقل.

ولكنني رأيت الموضوع عميقاً يحتاج أن أفرغ له، وأهجم عليه ابتداء من غير أن أشتت فكري في موضوعات مختلفة، فأرجأته إلى حين.

وقلت: ما الذي يمنع أن أجعل مشروع المقالة مقالة؟ فليكن!

أدب القوة وأدب الضعف

يَزُورُونَ أَنْ جَمَاعَةً مِنْ آلِ الزَّبِيرِ كَانُوا يَجْتَمِعُونَ إِلَى مَغْنِيَةٍ فَيَسْمَعُونَ وَيَطْرِبُونَ.
حتى إذا استخف الطربُ أحدهم (وهو عبد الله بن مصعب بن ثابت ابن عبد الله بن الزبير) قال فيها:

أَحْلَفُ بِاللهِ يَمِينًا وَمَنْ يَحْلِفُ بِاللهِ فَقَدْ أَخْلَصَا
لَوْ أَنَّهُ تَدَعَوْ إِلَى يَنْعَةٍ بَايَعْتُهُنَّ أَتَمَّ شَقَقْتُ الْعَصَا

فبلغت هذه الأبيات أبا جعفر المنصور فدعاه إليه وعنفه على قوله، وعيره بضعف آل الزبير من هذه الناحية إلى أن قال له: «حتى صرت أنت آخر الحمقى تباع المغنيات، فدونكم يا آل الزبير وهذا المرتع الوخيم!».

وسخر المنصور من هذا الضرب من القول، وهذا النوع من الحياة، وقال إنما يعجبني أن يُخَدِّي لي بهذه الأبيات:

إِنْ قَنَاقِي لَنْبَعٍ لَا يُؤْبِسُهَا غَمَزُ الثَّقَافِ وَلَا دُھْنٌ وَلَا نَارٌ^(٢)
مَتَى أَجَزُ خَائِفًا تَأْمَنُ مَسَارِحَهُ وَإِنْ أَخْفَ أَمْنًا تَقْلَقُ بِهِ الدَّارُ

هذه القصة تمثل نوعين من الأدب: فنوع يصح أن تسميه أدبًا رقيقًا، وإن كنت أشد صراحة فسمه أدبًا ضعيفًا أو أدبًا «مائعًا» كما يصح أن تسمى النوع الثاني أدبًا قويًا أو أدبًا رصينًا.

ولست أعني بالضعف أو القوة ضعف الأدب أو قوته من الناحية الفنية، وإنما أعني ضعفه وقوته من الناحية الخلقية والاجتماعية، فقد يكون هذا النوع الذي

(٢) أيس القناة: لينها.

أسميه ضعيفاً أو مائلاً في منتهى الرقى من الناحية الفنية، كما قد يكون الأدب القوي ليس قويا بالمقياس الفني.

وهذه القصة تمثل لنا أيضاً أن الأدب المائع والقوى أثر من آثار الحوادث والظروف، فقد فشل آل الزبير سياسياً ولم تتحقق مطامعهم، فاستولى عليهم اليأس وانصرفوا إلى اللهو وأنسوا بالسماع وما إليه واحتقروا الخلافة حتى ليهمون أن يبايعوا جارية مغنية، ويحدث عبد الله بن مصعب هذا عن نفسه فيقول: إذا غنتني هذه الجارية:

حَسِبْتُ أَنِي مَالِكٌ جَالِسٌ حُقِّتْ بِهِ الْأَمْلاكُ وَالْمَوَكِبُ
فَلَا أَبْسَالِي وَإِلَهُ السُّورِي أَشْرَقَ الْعَالَمُ أُمَّ غُرَيَّوَا

أما المنصور فتجح وأسس ملكاً ضخماً، ووصل إلى هذا النجاح بقوته وحزمه، فكان أحب شعر إليه شعر القوة والعظمة والحمة.

يخيل إليّ أنا إذا ألقينا نظرة عامة على الأدب العربي من هذه الناحية رأينا الأدب الجاهلي قويا -كجلمود صخر حطه السيل من عل- حماسية قوية، وفخر قوي، بل وغزل قوي، والأدب الإسلامي إلى آخر العهد الأموي، أدب قوي فيه عزة الفاتح، وإعجاب الظافر، ونشوة المنتصر، وإن كان فيه نغمات ضعف فنغمات الحزب الذي غلب على أمره، أو المحب الذي يئس في حبه، أما ما عدا هذا ففخر وإعجاب، وهجاء في أعلى درجات القوة.

فإذا نحن انتقلنا إلى العصر العباسي رأينا العزة العربية تأخذ في الضعف، ورأينا الانهياك في اللهو يبعث أدبا جيلا في فنه ضعيفا في روحه، فيقول رئيس المجددين في عصره بشار بن برد:

قد عشت بين الريحان والراح والـ مِزْهَرٍ فِي ظِلِّ مَجْلِسِ حَسَنِ

وقد ملأت البلاد ما بين فُغْ - سُفُور^(٣) إلى القيروان فاليمين
شعرًا نُصِّلِي له العواتق والـ - شُيْبُ صلاة الغواني للوثن

وتوالى النكبات على الشرق من ظلم وجور، وسوء في كل نظم الحياة الاجتماعية، فكان الأدب العربي ظلًا لهذه الحياة - كان أدبا ضعيفا، إن أنت حصرته وجدته بين باك على مصائب الدهر كأبي العلاء، ومادح للولاة والأمراء والأغنياء. ومستهتر يصف استهتاره وصفاً أنيقاً بديعا يرضي الفن ولا يرضي الروح، وما اخترعت من الفنون كان من هذا الضرب، مقامات للبديع والحريري بنيت على التسول والاستجداء، وإفراط في المجون، أو إفراط في التصوف، وكلاهما فرار من حياة الجدل - والشر تحل كل أنواع الزينة من سجع وبديع، فكان كالثقة تسرف في التجميل الصناعي لما شعرت بنقصان جمالها الطبيعي.

ولم يظفر العالم العربي من العهد العباسي إلا بأفراد قلائل منحوا من القوة في أدبهم ما كان موضع الإعجاب كالمتنبي والبارودي، وكلاهما كانت قوته صدى لحياته، فالمتنبي فارس شجاع، كان في أكثر شعره يسجل وقائع سيف الدولة مع الروم، ويدون مظاهر القوة والفروسية، والبارودي كذلك رب سيف وقلم فكان قلمه مسجلا لآثار سيفه، وأمثال هؤلاء قليل، وإلا فخبني عن شعر البطولة والفروسية والحياة والقوة بعد، وأين الشعر الغنائي الذي صدر عن شعور بالعزة القومية في الأدب العربي - أليس عجيبا أن نرى شعر «البهاء زهير» وقد كان في أسمى منصب من مناصب الدولة، وكان مشرفا على الحروب الصليبية ومساهما في تدبير شؤونها لا يذكر لنا في شعره شيئا من أغاني الفروسية، ثم ينصرف ب كله إلى الغزل المائع. على حين أن الصليبيين خلفوا لقومهم أغاني وأشعارا صليبية قوية، ولم

(٣) فغفور: ملك الصين.

يخلف لنا الأدب العربي في هذا الباب إلا ما كان تافها ضعيفا- لعل السبب في هذا أن المسلمين كان موقفهم في هذا موقف دفاع لا هجوم «وما غزى قوم في عُقر دارهم إلا ذلوا».

وبعد، فكل عاطفة من عواطف الإنسان -على كثرتها وتعددتها- موضوع للأدب، وخير الأدب ما انبعث عن عاطفة صحيحة لا مريضة، فالشعر المتناهي في وصف ما يلاقي المحب من عذاب والذي يذوب رقة وحنانا ليس -في نظري- مؤسسًا على عاطفة صحيحة كالذي في شعر العباس بن الأحنف وأمثاله، وهذا الشعر وإن أرضي الجمهور ولذَّهم هو في كثير من الأحيان أجوف وهو في كثير من الأحيان نتاج عاطفة مريضة. وليس من الحق أن يبيع الإنسان عواطفه بهذه السهولة- والشاعر المجيد هو الذي يثير العواطف بقدر، وينيهها على أساس عميق، أما إن هو تغالي في ذلك وأثار عواطف حادة لأسباب واهية كان أدبه أدبًا خفيفًا ضعيف القيمة مهما استلذه الناس وأعجبوا به.

هناك عواطف حنان، وعواطف إجلال. وعواطف جمال، وعواطف قوة، وهناك ما يثير الحزن، وما يثير السرور، وما يثير الشهوة، وما يثير البطولة، وما يدفع إلى المجد، وما يدفع إلى اللهو، وكلها صالحة للأدب، وكلها في نظر الأدب سواء وإن اختلفت قيمتها في نظر الأخلاق ونظر دعاة الإصلاح، فالأخلاقي يرى أن الأدب الذي يثير لذة حسية أقل رقىا من أدب يثير شعورًا أخلاقيًا كالإعجاب بالبطولة، واحتمال الآلام في سبيل أعمال جليلة- وأرقى الأدب في نظرنا ما أحيا الضمير وزاد حياة الناس قوة.

وأغرب ما في الأمر أن أدباءنا الذين انتفعوا بالأدب الغربي، وعملوا على نقله إلى الأدب العربي أفرطوا في نقل هذا النوع من الأدب المائع، وفرطوا في نقل الأدب القوي؛ وسبب ذلك أنهم جاروا ميول الجمهور، وسايروا رغباته؛ فكانوا تجارا أكثر

منهم قادة؛ والجمهور إنما استلذ هذا النوع لأنه من قديم ألف البكاء، وكانت حالته الاجتماعية تدعو إليه، ولأنه ترك جده على كاهل غيره ففرغ للهو.

وكان هذا النوع من الأدب أضر بالشرقي من ضرره بالغربي، لأن الغربي عنده بجانب هذا الأدب الضعيف أدب آخر قوي، فإذا بعث الأول حنانًا ورقة، بعث الآخر قوة وجلدًا، فتعادلت حياته وتغذت نواحي عواطفه، أما الشرقي فليس له تراث حاضر من أجب قوي يسند ضعفه ويحيي نفسه، وسبب آخر وهو أن الشرقي -على العموم- ذو عاطفة أحد، وهو لها أقل ضبطًا، فإذا نحن غذيناه دائمًا بهذا الأدب الحاد، زادت عواطفه ميوعة -مع أنه أحوج ما يكون إلى ما يقوى عاطفته ويضبط جموحها.

الحق أن الأدب عود ذو أوتار، ويجب أن تكون أوتاره على نظام ما عند الإنسان من عواطف جدية وهزلية، ورقيقة وقوية، وضاحكة وباكية، ورخيصة وغالية -والعود الذي يوقع عليه الأديب الشرقي ناقص الأوتار، تنقصه الأوتار القوية، والأوتار التي تبعث الحياة، والأوتار التي تبعث الضحك ليتلوه جد، والأوتار التي تهز النفس لتملأها أملا، والأوتار التي تبعث النغم يصور بطولة، والتي تبعث النغم ليوقظ من سبات -عود الأديب الشرقي على نحو عود المغني الشرقي، أشجى أغانيه أحزنها، وخير نغماته أبكاها.

فهل يتقي الله الفنانون والأدباء في الجيل الناشئ فيصلحوا أغانيهم ويكملوا ما نقص من أوتارهم، ويستدرِكوا ما فاتهم، وينشدوا طويلا نشيد الحياة، كما أنشدوا من قبل طويلا نشيد الموت؟

من غير عنوان

أكلت أكلة ساء هضمها - فانبضت نفسي، وغاضت بشاشتي؛ وتقطب ما بين
عيني، وسئمت كل شيء حولي، ويرمت بمخالطة الناس كما برمت بالعزلة عنهم،
وكرهت السكوت كما كرهت الكلام.

ونظرت إلى العالم فتجهمت، رأيته ثقیل الروح، فاسد المنطق، يمجّ السمع
نغماته، ويعاف الطبع منظره، وتأخذ بخناقي ألامه وأحداثه.

أي شيء فيه يسر؟ إن هو إلا جيفة تنبها الكلاب، وميته يتساقط عليها
الذباب، عدو لكل ألفة، ومصدع كل شمل، يئلي الجديد ولا يجيد البالي. ليست لذته
إلا ألمًا مفضضًا، ولا مسرته إلا حزنًا مبهرجًا!

ودعوتُ ربي بالسلامة جاهداً ليُصَحِّني فإذا السلامة داءُ
ما حال من آفته بقاؤه نغصَ عيشي كله فناؤه

أليس عجيبًا ألا تكون لذة حتى يحذها ألمان، ولا راحة حتى يكتنفها عناء؟
سعيد وشقي، وفقير وغني، وذكي وغبي، ليست إلا ألفاظا اصطلاح عليها، فإن
أنت تأملتها لم تجد كبير فرق بين مدلولاتها:

ما الظافرون بعزها ويسارها إلا قريئو الحال من خيائها
أكبر الناس قيمة الأشياء وأضاعها الموت! وتفاوتوا في الجاه والثراء وسوى
بينهم القبر!

ومن ضمه جدت لم يُبَلِّ على ما أفاد ولا ما اقتنى
يصيرُ ترابًا سواءً عليه من الحرير وطعن القنا!

ليست الدنيا إلا قطرة من شهد في بحار من علقم، وذرة من سعادة في أمواج من شقاء، يمعن الدهر في بؤسه وعنته؛ حتى إذا استيأست النفس وبلغت الروح التراقي سخا بقبس من نعيم ثم أطفأه بريح عاتية من عذاب!

قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها
وكل حي فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها

نظام كله فوزى! وحياة كلها فساد، رذيلة تسعد وفضيلة تُشقى!

والناس شتى فيعطى المقت صادقهم عن الأمور ويُجَبى الكاذب الملق

بحار تشكو الرّي، وصحراء تشكو الظمأ، وماء ولا شارب، وشارب ولا ماء!
وغني عقيم، وفقير عائل:

سبحان من قَسَمَ الحُظُو ظَ فلا عِتَابَ ولا مَلَامَةَ!
أعمى وأعشى ثم ذو بَصَرٍ وزَرْقَاءَ اليَمامَةِ!

عيش كله هذيان، أعاليل بأباطيل، والدنيا تلعب بنا لعب الكرة!

ثُرِينَا الدُّجَى في هيئة النور خُدعة وتُطْعِمُنَا صَابًا فنحسبه شَهْدًا

كذب المؤرخون فسمّوا زمنًا سلمًا وزمنًا حربًا، وما السلم إلا حرب صامتة
شرب من الحرب الناطقة كل شيء في العالم مفترس، أسد يفترس ذئبًا، وذئب
يفترس كحلاً، وإنسان يفترس كل شيء حتى نفسه!

كان العالم عالم سوء فتوّج الإنسان شروره:

كلما أثبت الزمان قنأة رَكَّبُ المرء في القنأة سِنَانًا

عالم كله أحاجي وألغاز، وعقل قاصر عنيد، منذ خلقه الله يحاول أن يفهم فلا يفهم، يحوم حول العالم يريد أن يعرف الغرض منه فلا هو يصل ولا هو يعدل.

نفارق العَيْشَ لم نَظْفَرْ بمعرفةِ أيُّ المعاني بأهلِ الأرضِ مقصودِ
الله صوّرنِي ولستُ بعالمِ لِمَ ذاكِ، سبحانَ القديرِ الواحدِ!

حياة حار فيها الحكيم وضل فيها الفيلسوف، مبادئ تتضارب، وصور تتنازع،
وكلام مزخرف، ظاهره جميل وباطنه مزيف، وكلما ظنوا أن قد حلوا مشكلة نجمت
مشاكل - وقدبنا قضى الفلاسفة حياتهم في الجوهر والعرض والكمية والكيفية
وأيس وليس، ثم عادوا آخر المطاف يعترفون بالفشل ويقولون بالعجز ويقولون مع
القائل:

نهاية إقدام العقولِ عَقَالُ وأكثرُ سغى العالمين ضلالِ
وأرواحنا في وحشةٍ من جُسومنا وحاصلُ دنيانا أذى ووبالِ
ولم نستفدْ من بحثنا طولَ عُمرنا سوى أن جمعنا فيه قِلَ وقالوا

زاد تلبك معدتي، فزادت من الحياة نقمتي!

فيا موتُ زُرْ إن الحياة ذميمةٌ ويا نفسُ جِدِّي إن دهرَكَ هازلُ

تناولت دواء هاضماً فأخذت أهش للحياة وأبش، وبدأت أنظر إلى العالم بوجه
منطلق، ومحياً منبسط - ها هو ذا قد تألقت صفحته، وأسفرت عُزَّتُهُ، وانقشعت
غمامته.

الحق أن العالم جميل، فهذا نسيم يعطر الجو بعُرفه، ويحيي النفوس برقته ولطفه،
وهذا الربيع نزهة العين، ومنطق الطير. وهذه الحديقة عقد منظوم، ووشي مرقوم:

أصحبت الدنيا تروقُ من نظَرِ بمنظَرٍ فيه جلاءٌ للبصرِ
والأرض في روضِ كأفوافِ الحَبَرِ تبرّجت بعد حياءٍ وخَفَرِ

كل شيء حولي يضحك! ليس في الإمكان أبدع مما كان:

قلبي وثابٌ إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فإبأه

يَسِيمُ بِالْحُسْنِ كَمَا يَنْبَغِي وَرَحِمُ الْقُسْبِ فِيهِ وَاهُ!

إن الحياة غنية باللذائذ، وليست الآلام فيها إلا توابل تهين لاستمراء اللذة.

وَالشَّوْقُ فِي شَجَرَاتِ الْوَرْدِ مُحْتَمَلٌ

ما الدنيا إلا قيثارةٌ يوقَّع عليها شجي الألحان! أو مائدة شهية صُففت عليها

صنوف الألوان!

وَقَدْ تُحْمَدُ الشَّمْسُ الصَّبَاحَ بِضَوْئِهَا تَفَاوَتْ الْأَنْوَارُ وَالْكَلِّ رَائِقُ

إن كان في الدنيا سخف وهذيان، فكن الفيلسوف الضاحك، ولا تكن

الفيلسوف الباكي!

وإن كانت الدنيا ألغازًا وأحاجي، فكم نجح العقل في حلها واستجلاء

غامضها. وكل يوم تتسع دائرة المعلوم، وتضيق دائرة المجهول. والعقل يلكذه البحث

ولو لم يصل، ويشعر بالغبطة ولو لم ينل. وفي نجاحه فيما أدرك، عدة له فيما لم يدرك.

رحمك اللهم! إن كان درهم من دواء هاضم يُغيّر وجه العالم، ويحيل السواد

ببياض، والشقاء سعادة، والقبح جمالا، والظلام نورًا، والحزن سرورًا، فأين الحق!

الإشعاع

كتب أخي الدكتور أحمد زكي في مجلة الرسالة مقالا ممتعا في الإشعاع العلمي تكلم فيه عن إشعاع الشمعة والنجوم والشمس والإشعاع اللاسلكي وموجات الضوء واختلافها، فأوحت مقالته إليّ معاني في الإشعاع النفسي.

إن للنفوس والعقول إشعاعات لا تقل جمالا عن إشعاعات النجوم والكواكب نشعر بها وقد لا نستطيع التعبير عنها، وهي أشد غموضا وتعقدا من الإشعاع الحسي، وهي مختلفة أكثر من الاختلاف بين أشعة الألوان من حمراء وبنفسجية وتحت الحمراء وفوق البنفسجية وما بين ذلك، وهي مختلفة في القوة أشد من اختلاف المصابيح الكهربائية، فثلث كانت قوة المصباح شمعة أو شمعتين أو ألفا أو ألفين فالنفوس قوى تختلف إلى ما لا نهاية له صغرا وضآلة، وإلى ما لا نهاية له عظمة وسناء.

لعلك تشعر معي أنك ترى الرجل أو تحادثه أو تجالسه، أو تسمع لمحاضرتة، فيُشعّ عليك نوعا من الإشعاع يخالف الآخر كل المخالفة، قد تحسن التعبير عنه وقد لا تحسن، فهذا يشع عليك سرورا وأريحية واطمئنانا، وهذا يشع حزنا ووجدا ورقة وحنانا، وذاك يشع هيبية وجلالا ووقارا، وآخر يشع ضعة وذلة وهوانا، وقد تحس من رجل بنوع من الأشعة تدركه وتستطعمه ولكنك لا تستطيع وصفه، كما إذا أكلت كمثرى وتذوقتها وأردت أن تصف طعمها لمن لم يذوقها.

في الناس من إذا جالسته أشع عليك نورًا أضاء لك ما بين جوانبك فأدركت نفسك، وأشع نورا على العالم الذي حولك فتبينته وعرفت محاسنه ومساوئه، وأدركت مكانك منه، ورأيت كل شيء حولك صافيا بيّنا كأنك تنظر إليه من مصباح

{المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار}.

وفي الناس من يجالسك فتلقى منه أشعة مظلمة تنقبض لها نفسك وتظلم جوانبها، وتحس بميل إلى الفرار منها، وتنفس الصُّعداء إذا بعدت عنها ونجوت من ظلامها وخرجت إلى النور.

قديما قالوا: «دِرَّةُ عمر أهيب من سيفِ الحجاج» ذلك لأن عصا عمر كان معها يد عمر ومعها نفس عمر، وهي تشع جلالات وعظمة وتُخضع أمام أشعتها نفوس الجبابرة، ويحس كل من وقعت عليه هذه الأشعة أنها صادرة من مستودع قوي دونه المصباح الكهربائي، البالغ ما وصل إليه العلم من القوة، وأما سيف الحجاج فمعه نفس الحجاج، وهي تشع من غير شك قوة، ولكنها قوة على الجسم لا على الروح، قوة تُخاف وترهب، ولكن لا تحترم ولا تحب، أشعة عمر كانت تطاع سرا وعلنا، وأشعة الحجاج تطاع علنا لا سرا، لذلك كفت عمر عصاه، ولم يغن الحجاج سيفه.

هذا الإشعاع هو السر في أنك تلقي عظيمًا فيملؤك حياة ويملؤك قوة، بهيئته وبنبرات صوته وبطريقة تعبيره وبنظراته، بإشاراته وبهزة رأسه وبحركة يديه، فكأن في كل عمل من هذه الأعمال يوصل بينك وبينه تيارا كهربائيا قويا يهزك هذا عنيقا. قد لا يحدثك طويلا، وقد لا يكون لكلامه في الواقع قيمة ذاتية، ولكنه يوقظ نفسك ويحيي روحك، وتبقى رنات كلماته في الأذن الأيام والليالي، تعمل عمله في هدوء حيناً وعنفا حيناً، وأصدقك أني لقيت عظيمًا من هذا النوع يوما فخرجت من مجلسه مملوءا حماسة وقوة وحياة، حتى إذا بلغت إلى محطة الترام لأركبه إلى مسافة بعيدة عَفْتُ الركوب لأنه يبعث على السكون، ونفسي ثائرة، والمشى في شدة القبط ظهرها أنسب لها وأكثر اتفاقا لما هي فيه من نشاط وقوة- إذا ذكرت الآن كلامه لم أجده ذا قيمة، وكثير من الناس يتكلمونه ويتكلمون خيرا منه وأسمى وأعمق، ولكن أحدا

منهم ليس له هذا الإشعاع ولا قوته وعظمته. وحدثني من أثنى به أن الأستاذ جمال الدين الأفغاني كان يرتطن عجمة، ولم يكن فصيح اللسان ولا سلس القول، ولكن تجلس معه فيشعلك نارا دونها فصاحة الفصيح وبلاغة البليغ، لأنها النفس مستودع كهربائي قوي يصعق أحيانا، ويضيء أحيانا، ويدفع للحركة أحيانا.

والرجل العظيم، أو الكاتب الكبير، أو المؤلف القدير، يخرج ما ينتجه كتلة من الأشعة من جنس نفسه. ألتست تقرأ المقالة أو الكتاب فيشع عليك معاني مختلفة، منها الهادئ الرزين، ومنها القوي المتين، منها المضحك، ومنها المبكي، منها الذي يأخذ بيدك فيصعد بك إلى السماء، ومنها ما يدفعك إلى الخضيض، وآية هذا الإشعاع أنك تقرأ المقالة أو الكتاب فيبعث عندك من المعاني ما لا تدل عليه الألفاظ، من طريق الحقيقة ولا المجاز، بل ما بين السطور يشع كالسطور نفسها، أو لست ترى مقالة الإشعاع في باب العلوم أشعت عليّ معاني في باب الأدب!

ليس هذا علماء النفس تداعي المعاني، أو ليسموه إيعازا أو اقتراحا أو ليسموه ما شاءوا، فليست إلا إشعاعات نفسية من جنس الإشعاعات التي يعشها الأشخاص في كلامهم وحديثهم وحركاتهم فتلقف منها من المعاني ما يقرب وما يبعد.

. وفي الأماكن كذلك أشعة مختلفة، فشارع عماد الدين يشع رغبة في اللهو وميلا إلى مسرات الحياة، والمساجد تشع ميلا للعبادة، وتمجيذا لله، والبحر الجليل يشع عظمة وجلالا، ونجوم السماء تشع حسنا وجمالا، والبنك يشع حبا في المال، والجامعة تشع حبا في العلم، بل وكل بلد يشع نوعا من الأخلاق، وإلا فلِمَ يذهب المصري إلى إنجلترا وقد اعتاد الفوضى في حياته ومواعيده وصحوه ونومه، فما هو إلا أن يطأ أرضها حتى ينقلب خلقا آخر دقيقا في نظامه، دقيقا في معيشته؟ ويذهب المصري إلى ألمانيا فيكون في بيئة علمية، فيشرب من مشربهم ويسير سيرتهم، فإذا عاد

هذا وذاك إلى مصر عادا سيرتهما الأولى. ما هو إلا الجو النفسي تلقي فيه أشعة نفسية مختلفة الأثر، مختلفة الألوان.

ومن قوانين هذا الإشعاع النفسي أنه في كثير من الأحيان يعتمد على الفاعل والقابل معًا، واعتماده على القابل أيّن فيه من الإشعاع الحسي، فاللون الأبيض أبيض عند كل الناس، والأحمر أحمر عند كل الناس، إلا من أصيب بعمى اللون، وليس كذلك الإشعاع النفسي، فالخطيب يخطب وإشعاعه يختلف باختلاف السامعين، والكلمة قد تهذي ضالا، وقد تضل هاديا، كما يقول المثل الإنجليزي «إن الليل الذي يغمض عين الدجاج يفتح عين الخفاش» وهذا هو السبب في أنك تستخف روح إنسان وغيرك يستقله، وتُعجّب بقول متحدث ومن بجانبك يستسخفه، وتفتتح نفسك لكتاب وغيرك يتقبض منه، ما هذا إلا لأن الإشعاع الواحد يختلف باختلاف من وقع عليه الشعاع، وأن هناك تفاعلا قويا بين مصدر الإشعاع وقابله، ومن أجل هذا قد ترى لصبا في مسجد وعابدا في حانة.

وموسى الذي رباه جبريل كافرٌ وموسى الذي رباه فرعونُ مرسلٌ والأرض يملؤها السحاب، فمنها جنان ناضرة، ومنها صحراء مجدبة قاحلة، والنار تضيء للساري فيهتدي وللغراش فيحترق.

لقد أثبت العلم الإشعاع اللاسلكي وأصبحنا نسمع الآن من الراديو أصوات الموسيقى في أوربا، ونسمعها من أمريكا، ونسمعها من أنحاء العالم، ومعنى هذا أن في جو مصر تموجات من أوربا وأمريكا وأنحاء العالم، وإذا كان هذا في المادة فإشعاع النفوس أبعد مدى، وأنفذ شعاعا، وأسرع سيرا، وإذا كان في حجرتي أمواج هوائية من مناحي العالم يظهرها الراديو، فإن في حجرتي ملايين وأكثر من الملايين من إشعاعات نفسية تشع من السماء ومن الأرض ومن النفوس البشرية، ومما لا يعلمه

إلا الله. وما الفكرة تصدر عني، ولا إلهام أُهَمُّ به فلست أعرف له مصدرا وليس يخضع لقوانين المنطق، ولا نظريات الاستنتاج، ولا الظواهر النفسية تتعاقب علي فلا أعرف تعليلها من انقباض وانبساط، وسمو وانحطاط، وكدورة وصفاء، وظلمة وضياء إلا أثر من هذا الإشعاع.

إن وراء هذا العالم المادي عالما روحانيا نفسيا أسنى وأبهى، وإذا كان للأجسام والحواس جو يحيط بها قد امتلأ أشعة من نجوم وكواكب وشموع ومصابيح، فللنفس جو يحيط به اشتبكت فيه أشعة نفسية لا عداد لها، وإذا كان للعين أفق يختلف باختلاف النظر قصرا وطولا فللنفوس أفق يختلف كذلك، فبعضها ينفذ إلى ما وراء الحجب، ويستمد منه ما يستخرج العجب، وبعضها قصير المدى قريب المتناول، ولئن كانت قوانين الإشعاع الحسي لما يُستكشف منها إلا قليل، فقوانين الإشعاع النفسي أشد تعقدا وأكثر التواء وغموضا، والعاكفون على دراستها، والموفقون لاستكشاف بعضها اقل وأندر، خضع كل الناس للإشعاع المادي، وخضع كل الناس للإشعاع النفسي، ولكن آمن بالأول كل الناس، وما آمن بالثاني إلا قليل.

هل تنبعث من عالم النفس شرارة قوية. تضيء جوانب النفوس؟ وهل يبعث العالم النفسي موجة قوية تعم العالم وتهزه هزة عنيفة فتنبهه من سباته، ويهب علماءه لتنظيم الحياة الروحية كما نظموا الحياة المادية، ويتخصص علماء النفس لاستكشاف قوانين الإشعاع النفسي كما استكشف الماديون قوانين الإشعاع الحسي، ثم ينتفعون وينفعون الناس كما انتفعوا بقوانين الضوء وما إليه، وإذا ذاك يكون الناس أسعد حالا وأهدأ بالا وأكثر اطمئنانا؟ من يدري!!!

حلقة مفقودة

في مصر حلقة مفقودة لا نكاد نشعر بوجودها في البيئات العلمية، مع أنها ركن من أقوى الأركان التي نبني عليها نهضتنا، وفقدانها سبب من أسباب فقرنا في الإنتاج القيم والغذاء الصالح.

تلك الحلقة هي طائفة من العلماء جمعوا بين الثقافة العربية الإسلامية العميقة، والثقافة الأوروبية العلمية الدقيقة، وهؤلاء يعوزنا الكثير منها، ولا يتسنى لنا أن نهض إلا بهم، ولا نسلك الطريق إلا على ضوئهم.

إن أكثر من عندنا قوم تثقفوا ثقافة عربية إسلامية بحتة، وهم جاهلون كل الجهل بما يجري في العصر الحديث من آراء ونظريات في العلم، والأدب، والفلسفة؛ لا يسمعون بكأنت، ولا برجسون، ولا بأدباء أوربا وشعرائها، ولا بعلمائها وأبحاثهم، إلا أسماء تذكر في المجلات والجرائد والكتب الخفيفة، لا تغني قليلا ولا تستوجب علما. وطائفة أخرى تثقفت ثقافة أجنبية بحتة، يعرفون آخر ما وصلت إليه نظريات العلم في الطبيعية، والكيمياء، والرياضة، ويتبعون تطورات الأدب الأوربي الحديث، وما أنتج من كتب وروايات وأشعار، ويعلمون نشوء الآراء الفلسفية وارتقاءها إلى عصرنا، ولكنهم يجهلون الثقافة العربية الإسلامية كل الجهل، فإن حدثتهم عن جرير، والفرزدق، والأخطل، أشاحوا بوجوههم وأعرضوا عنك، كأنك تتكلم في عالم غير عالمنا، وإن ذكرت الكندي والفارابي وابن سينا، قالوا إن هي إلا أسماء سميتوها ما لنا بها م علم، وماذا نحصل من هؤلاء إلا على جمل غامضة ومعان مبهمه لا تفيد علما ولا تبعث حياة- وبالأمس كنت أتحدث مع طائفة من المتعلمين عن «البيروني» العالم الإسلامي الرياضي المتوفى سنة ٤٤٠هـ، وما كشف من نظريات رياضية وفلكية، وأن المستشرق الألماني «سحاو» يقرر أنه أكبر

عقلية عرفها التاريخ في كل عصوره، وأنه يدعو إلى تأليف جمعية لتمجيده وإحياء ذكره تسمى جمعية «البيروني»، فحدثني أكثرهم أنه لم يسمع بهذا الاسم، ولم يصادفه في جميع قراءاته، وهو يعرف عن ديكارت ويكون وهيوم وجون ستوارت ملّ كثيرا، ولكنه لا يعرف شيئا عن فلاسفة الإسلام. ومثل ذلك قل في الأدب العربي والأوربي والعلم العربي والأوربي؛ كل ثقافته العربية تنحصر في كتاب القواعد وأدب اللغة للمدارس الثانوية، إن كان قد بقي منها شيء في ذاكرته.

هاتان الطائفتان عندنا، يمثل الأولى خريجو الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء، ويمثل الأخرى نوابغ خريجي المدارس العصرية والبعثات الأوربية، أما الذين حذقوا العربية والعلوم الإسلامية، ونالوا حظا وافرا من الثقافة الأجنبية، فأولئك هم الحلقة المفقودة في مصر، وفقدانها سبب الركود في الحياة العقلية والأدبية.

ذلك أن الأولين إذا أنتجوا، فعيب إنتاجهم أنهم لم يستطيعوا أن يفهموا روح العصر، ولا لغة العصر، ولا أسلوب العصر؛ وإنما التزموا التعبير القديم في الكتابة، والنمط القديم في التأليف، وتحجرت أمثلتهم، ومَلّ الناس بلاغتهم، وعمادها رأيت أسدا في الحمام، وعضت على العناب بالبرد، وعشرة أمثلة من هذا الطراز؛ ومَلّ الناس نحوهم، ومداره ضرب زيدا عمرا، ورأيت زيدا حسنا وجهه؛ وسئم الناس منطقهم، وكله الإنسان حيوان، وكل حيوان يموت، فالإنسان يموت؛ وهذا حجر، وكل حجر جماد، فهذا جماد - ضجوا بالشكوى لأن الناس لا يسمعون منهم، وضج الناس بالشكوى لأنهم لا يأتون بجديد، ولا يضعون القديم في شكل جذاب، ولا يلمسون الحياة التي يحيونها، ولا البيئة التي يعيشون فيها، فانصرفوا عن الناس، وانصرف الناس عنهم، ورضوا أن يعيشوا في جوهم الخاص، ورضى الناس منهم بذلك، وسلكوا سبيلا غير سبيلهم، واتبعوا دليلا غير دليلهم.

وأما الآخرون فضعفت ثقافتهم العربية الإسلامية، فلما أرادوا أن يخرجوا شيئاً لقومهم وأُمَّتَهُمْ أعجزهم الأسباب والروح الإسلامي، فلم يستطيعوا التأليف ولا الترجمة، وحاولوا ذلك مراراً فلم يفهم الناس منهم ما يريدون، وسبوا القراء ورموهم بالضعف والانحطاط، وسبهم القراء ورموهم بالعي، وأنهم لا يفهمون ما يكتبون، فعاشوا في أنفسهم ولأنفسهم، ورضوا من ذلك بالإياب.

كان من نتيجة ذلك أن الأدب العربي الإسلامي، والعلم العربي الإسلامي، والفلسفة العربية الإسلامية على غناها ظلت مهجورة لا يتفه بها، تنتظر جيلاً جديداً يسيغها ويضمها، ويبرزها في شكل تألفه الناس، وأن الأدب الغربي، والعلم الغربي، والفلسفة الغربية حُرِّمَ منها أكثر الشرقيون، ولم يصل إليهم إلا نوع خفيف ينشر في المجلات والجرائد وأمثالها، يقرأها الناس ليطردوا بها الضجر، أو يستعطفوا بها النوم؛ وأما أدب غزير، وعلم عميق، وكتب محترمة، ومجلات قيمة، فقليل نادر.

والذي جرَّ إلى فقدان هذه الحلقة أن التعليم عندنا سار في خطين متوازيين لم يلتقيا، فالتعليم العربي الإسلامي سار في خط، والتعليم المدني الحديث سار في خط آخر، ولم تكن هناك محاولات جدية لتلاقي الخطين أو ربط بعضهما ببعض.

لا أمل في إصلاح هذه الحال إلا بالعمل على إيجاد الحلقة المفقودة، وهي تذوق الثقافتين، والاعتراف من المنهلين، وإخراج أدب وعلم وفلسفة غذيت بها للعرب والإسلام من ثقافة، ولقحت بها للأوروبيين من ثقافة ومنهج، فيها اللغة العربية قوية رصينة، وروح الإسلام قوية متينة. وفيها ما للأوروبيين من عرض للمسائل جذاب، ومنهج في الكتابة رشيق، وفيها مقارنة شهية بين ما أتجه الأولون والآخرون.

لو تم ذلك لرأيت التاريخ الإسلامي يُعرَض على القراء في شكل محبوب يقرأونه ويستسيغونه، ورأيت الأدب العربي يقدم إلى الجمهور في ثوبه الجديد

فيآلفونه ويحبونه، ورأيت الفلسفة الإسلامية يغاص عليها غوصا عميقا ثم تخرج من أصدافها وتجلي للقراء درة لامعة.

هذا هو السبب في نجاح رفاة باشا ومدرسته، فأنجحت إنتاجا غذي عصرهم بل كان فوق كفايتهم، فقد أرسل رفاة إلى فرنسا بعد أن درس في الأزهر وتعمق في العربية والعلوم الإسلامية، فلما حصل على الثقافة الفرنسية وضع يده على المنبعين فأخرج هو ومدرسته للناس ما استساغوه وأحبوه ونهضوا به، ولم يكن كذلك من لحق بهم وخلف من بعدهم.

وقد كان إخواننا الهنود أسبق منا إلى إيجاد هذه الحلقة والانتفاع بها. أخرجوا التاريخ الإسلامي في ثوب جديد على نمط ما يكتب الغربيون ولكن بروح إسلامي، وكتبوا في الدين الإسلامي والفقه الإسلامي بلغة العصر، وروح العصر، ونظام العصر، كما فعل السيد أمير علي والسيد محمد إقبال، فقد تضلع هذان العالمان الجليلان من الثقافة الإسلامية والأوربية، وأشرب قلباهما حب الإسلام، فأخرجوا كتبًا يقرؤها الشباب المثقف فيحبها ويحب موضوعها، ويستزيد منها، ويقرؤها الشباب المتعلم المتخصص في الطبيعة والكيمياء، فيجدها تتمشى مع العلم الذي ثقفه، والنهج الذي ألفه - وتقرأ للسيد محمد إقبال، فتجده يعرض لفلسفة «كانت»، فإذا هو فيها دارس عميق، والغزالي فإذا هو باحث دقيق، ويقارن بين النصرانية والإسلام فيكشف عن باحث خبير فيما يكتب، ويعرض لشعراء الألمان كجوته فيحلله تحليلًا يدعو إلى الإعجاب، ويتكلم في المعتزلة والصوفية فإذا هو قد تغلغل في أعماقهم، واستبطن دخائلهم، ثم عرض تعاليمهم كما يعرض الأوربي لفلسفة قومه شيقة عذبة لذيدة.

ولكن الهنود يعرضون ذلك باللغة الإنجليزية، فلا يغذون جمهورنا، ولا يسدون حاجة العالم العربي؛ إنما يتغذى الشرق بهذا يوم توجد هذه الحلقة المفقودة في العالم

العربي كمصر والشام، فتُحي آثار الأولين بأسلوب الآخرين، ويوم يكسر هذا
الحاجز الذي يحجز بين علم الشرق وعلم الغرب، ويوم يلوي الخطان المتوازيان
فيلتقيان.

شاعر

شاعرنا اليوم نشأ جاهلياً، ونشأ في الطائف. والطائف مدينة في الجنوب الشرقي من مكة، تبعد عنها خمسة وسبعين ميلاً، اشتهرت بطيب هوائها وجودة مزارعها. وقد اعتاد المترفون من العرب أن يقضوا الصيف بها، والشتاء بمكة. قال النُمَيْرِيُّ يصف أخت الحجاج بالنعمة:

تَشْتَوِ بِمَكَّةَ نَعْمَةً وَمَصِيفُهَا بِالطَّائِفِ

أخصبت أرضها، وجرى الماء في وديانها، فكثرت مزارعها، وجادت فواكهها. بها جبل يقال له «غزوان» كثرت كرومه، وكان عنبه العذب وزيبه الحلو مضرب المثل جودة وكثرة، حتى ليروون أن سليمان بن عبد الملك لما حج رأى بيار الزبيب فظنها جرّاراً^(٤).

وقد حسدهم العرب على ما هم فيه من نعمة، فسوروا بلدتهم وحصنوها من أعدائهم، فصارت ملجأً الهارب وملأذاً الخائف، وضرب المثل بمناعتها حتى قال القائل:

مَنْعَنَا أَرْضُنَا مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَمَا امْتَنَعَتْ بِطَائِفِهَا ثَقِيفٌ

كان يسكن الطائف قبيلة ثَقِيف، وقد أكسبتهم أرضهم وثروتهم وطبيعة بلادهم وجوهم رقيّاً في الحياة من الناحية الاجتماعية والعقلية، فاقوا فيها من حولهم من السكان، وشعروا بعظمتهم فأكثروا من الفخر بأنفسهم؛ وقال قائلهم:

وَقَدْ عَلِمَتْ قَبَائِلُ جِذْمٍ قَيْسٍ وَلَيْسَ ذُووُ الْجَهَالَةِ كَالْعَلِيمِ

(٤) الحارر جمع حرة أرض بركانية سوداء، وبلاد العرب حرار كثيرة.

بَأْنَا نُضِجُ الْأَعْدَاءَ قَدْماً سَجَّالَ الْمَوْتِ بِالْكَأْسِ الْوَحِيمِ
وَأَنَا نَبْتَزِي شَرْفَ الْعَالِي وَنُنْعِشُ عَشْرَةَ الْمَوْلَى الْعَدِيمِ
وَأَنَا لَمْ نَزَلْ بَجَاءٍ وَكَهْفًا كَذَاكَ الْكَهْلُ مِنَّا وَالْفُطَيْمُ

وقد أنجبت ثقيف شعراء مجيدين في الجاهلية والإسلام، كما أنجبت ساسة وقادة نبه ذكرهم، وعظم أمرهم، فاشتهر منها من شعراء الجاهلية الشاعر المتأله أُمَيَّة بن أَبِي الصَّلْتِ، وفي العصر الأموي الشاعر الشريف طَرْيَحُ الثَّقَفِيِّ، والشاعر الحكيم الأجرد الثَّقَفِيُّ - واشتهر من أمرائها وساستها وقادتها الأمير القوي الحجاج بن يوسف الثَّقَفِيُّ، والقائد الشاب محمد بن القاسم الثَّقَفِيُّ فاتح السُّنْدِ ولم يكتمل العشرين، والذي قال فيه القائل:

سَاسَ الْجِيُوشَ لِسَبْعِ عَشْرَةِ حِجَّةً يَا قُرْبَ ذَلِكَ سُودَدًا مِنْ مَوْلِدِ

كما أن ثروتهم وحضارتهم استتبع شهرتهم بالفجور والربا، حتى إن رسول الله لما صالحهم كان من شروط الصلح أن يُسْلِمُوا وَلَا يَزْنُوا وَلَا يُزْبُوا.

كلك كانت كثرة العنب والزبيب في بلادهم سبباً في شيوع الخمر بينهم وولوع أهلها بشربها..

وقد كانت الخمر شائعة بين العرب في الجاهلية، ولكن بين خاصتهم لا بين عامتهم، إذ أن عامتهم قد عَدِمُوا الْقُوَّةَ وَحُرِّمُوا ضَرُورَاتِ الْعَيْشِ. أما المترفون فشرَبُوا كَثِيراً وَقَالُوا فِي شَرِبِهَا كَثِيراً. وَقُلَّ أَنْ نَجِدَ شَاعِراً جَاهِلِيّاً لَمْ يَتَمَدَّحْ بِشَرِبِهَا وَإِتْلَافَ مَالِهِ فِي سَبِيلِهَا.

وكانت الخمر تأتيهم من الشام ومن اليمن ومن الطائف، وكان الأعشى الشاعر يتجر فيها، وكان له بقية في اليمن يقال لها «أَثَافِت» مَغْصَرَةٌ يَعْصُرُ فِيهَا مَا يَقْدَمُ لَهُ مِنْ أَعْنَابٍ.

ونلاحظ من تاريخ العرب في الجاهلية وتراجم رجالها أن قد كان هناك طبقة من الشباب اعتادت أن تُتلف مالها في الشراب، هم فئة من أولاد السَّراة، نشئوا في ثروة وجاه، وألفت بينهم وحدة النزعة، يجتمعون في المواسم والأعياد والمناسبات فينحرون الجُرُور ويهيا لهم، ويشربون عليه وتغنيهم القيان أو الموالي من الفرس والروم والأحباش، ولكن هذه الطبقة لم تفقد مع شربها ولهوها شرفها وإبائها، فهي مع ذلك كله نبيلة لك النبيل شريف كل الشرف - ثارت على كل شيء إلا قانون المروءة، وقانون المروءة يتلخص في الشجاعة والكرم.

لا يعبثون بالحياة يبذلونها - في سخاء - لإنجاد من استنجد بهم، ونصرة الضعيف يستصرخهم ويلجأ إليهم، لا قيمة لحياتهم إذا مُسَّت كرامتهم أو كرامة قبيلتهم أو اعتدى أحد على جارهم أو حليفهم أو عبدهم، ولا قيمة للمال يوم يسألهم سائل أو يدعوهم لبذله داع، ولا بأس بالفقر يحل بهم وينزل بساحتهم، ولا ضرر إذا خسروا المال وكسبوا الشرف، وويل لزوجاتهم إذا لمنهم في الاستهتار بالحياة أو إتلاف المال، إذ ذاك يصبون عليهم نقماتهم ويملئون الدنيا شعراً في لومهن وتأنيبهن.

شاعرنا اليوم كان من هذه الطبقة، فتى، غني، من ثقيف، من الطائف شجاع، كريم، يُكثر الشراب، ويُتلف المال ويحتفظ بالمروءة ويقول:

لا تسألني الناس عن مالي وكثرت	وسألني الناس عن حزمي وعن خلقي
القسوم أعلم أني من سرائهم	إذا تطيش يد الرعدة الفرق ^(٥)
قد أركب الهول مسدولاً عساكره	وأكتم السر فيه ضربة العنق
عف المطالب عما لست نائله	وإن ظلمت شديد الحقد والحق

(٥) الرعدة: الجبان، والفرق: الفزع.

وقد أجود وما مالي بذى فَنَعَ (٦) وقد أَكْثَرُ وراءَ المُجَحَّرِ السَّرِقِ (٧)
سيكثر المالُ يوماً بعد قَلَّتْهُ ويُنْكَسَى العودُ بعد الجَذْبِ بالوَرَقِ

ظلت ثقيفاً على جاهليتها لا تدعن لدعوة الإسلام حتى أسلم من حولها ورأت نفسها بمعزل، فاضطرت إلى الإسلام في السنة التاسعة للهجرة، وسمع شاعرنا بالإسلام وتعاليمه فوقف حائراً؛ إن الإسلام يدعو إلى المروءة وهو ذو مروءة، والإسلام يدعو إلى الصدق ومكارم الأخلاق وكل هذا حسن «فليسلم» ولكنه يأمر المؤمنين أن يَغُضُّوا من أبصارهم، ولا يمدوا أعينهم إلى غير نساءهم، كما ينهى عن الخمر ويعاقب على شربها، فكيف يسلم وقد ألف الغزل؟ وكيف يهجر الخمر ولا حياة له بغير الخمر؟ وقف قليلاً ولكنه أسلم مع قومه وفوض إلى الله أمره - ولم نسمع عنه في حياة رسول الله وأبي بكر شيئاً ولكننا نراه اصطدام مع عمر وهو الشديد في الحق لا تأخذه فيه هوادة. فعاد شاعرنا يتغزل ويشرب. يرى امرأة من الأنصار تسمى «الشَّمُوس» فيحبها ويحاول رؤيتها بكل حيلة فلا يستطيع، فيؤجر نفسه ويعمل في حائط يُبْنَى بجانب منزلها ويُطَلُّ عليها من كُوَّة البستان ويقول:

ولقد نظرت إلى الشَّمُوس ودونها حَرَجٌ مِنَ الرَّحْمَنِ غَيْرُ قَلِيلِ
ويشرب ويقول الشعر في الخمر:

إن كانتِ الخمر قد عَزَّتْ وقد مُنَعَتْ وحَالَ من دُونِها الإسلامُ والحَرَجُ
فقد أَبَا كُرْها صِرْفاً وأَمَزُجْها رِيّاً وأَطْرَبَ أحياناً وأَمْتَزِجُ

فيحده عمر حد الشرب، فيفكر شاعرنا ويطيل التفكير: هل يترك الغزل والخمر؟ - لقد كان ذلك قبل الحد أما بعده فلا - إن من العار أن يتحدث الناس أي

(٦) الفنع زيادة المال ومال ذو فنع «كثير».

(٧) المجحر الهارب الذي أُلْجئ إلى الحجر والبرق الشاخص البصر المتحير.

تركت الخمر خوفاً من العقوبة وأنا الأبيّ الشجاع الذي لا يعبأ بالحياة - إذن فلا شرب وليُحدّثني عمر - وفعلاً شرب فحدّ، وشرب فحدّ، وبلغ ذلك سبع مرات أو ثمانية، وهو لا يزال على رأيه، مصمم على تفكيره، ماضٍ في غزله وشربه، حتى يشس عمر من علاجه وضاق به ذرعاً، فقرر أن ينفيه في جزيرة كانت تنفى فيها العرب في الجاهلية خُلَعَاها، وبعث معه حرسياً يحافظ عليه حتى لا يهرب، وأوصاه لا يأخذ سجينه سيقاً معه، وقد عرف عمر كيف ينتقم، فلم يألم شاعرنا من شيء آله من هذا الرأي - سيكون في جزيرة وحده لا غزل ولا شراب، ولكن ليس هذا ما آلم نفسه وأدمى قلبه، إنما آله أن يعيش عيشة الضعفاء المساكين والرجال في غزوات الحرب يُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وأن يعيش عيشة النساء في خدورهن وهو الفارس الكميّ، لا. لا. الموت أهون من هذا.

تظاهر شاعرنا بأنه يحمل غِرَارَتَيْنِ ملئتَا دقيقا، وعمد إلى سيفه فجعل نصله في غرارة، وجفنه في غرارة، ودفنهما في الدقيق حتى إذا جاوز هو والحرسى المدينة ولقيا من سفرهما هذا نَصَبًا جلسا للغداء، فقام شاعرنا يوهم أنه يخرج دقيقا فأخرج سيفه ووثب على الحرسى فخرج يعدو على بعيره راجعاً إلى المدينة وظل صاحبنا وحده. الآن، لا أعود إلى المدينة وفيها عمر، ولا أطوف في البلاد ألهو. فلست بعد اليوم لاهياً، ولكن إلى حيث يحيا الرجال والفرسان حياة النجدة والشهامة - إلى مواقع الغزوات، إلى أشدها هولاً، وأصعبها مراساً، إلى «القادسية» حيث المواقع الفاصلة بين سيادة العرب وسيادة الفرس.

ولكن عمر الساهر على كل شيء في مملكته، لم يخفَ عليه أمر شاعرنا، فعرف أين توجه، فما وصل إلى القادسية حتى سبقه كتاب عمر يأمر سعد بن أبي وقاص بحبسه، ففعل ذلك وحبسه في قصره وقيدّه، فمشى يرشّف في قيوده ويستعطف سعداً أن يطلقه فيأبى، فذهب إلى سلمى زوج سعد وقال لها: هل لك إلى خير؟ قالت: وما

ذاك؟ قال: تخَلِّين عني وتعيّرني البلقاء (فرس سعد) فله عليّ إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى تضعي رجليّ في قيدي، فأبت، فقام ثائراً حزينا، يرى القتال على الباب وهو يرسف في القيد، وانطلق لسانه بهذه الأبيات:

كفى حزناً أن تَطْعُنَ الخيلَ بالقنَا	وأتركُ مشدوداً عليّ وثاقِيَا
إذا قمتُ عَنّاني الحديدَ وعُلِّقْتُ	مَغاليقُ من دوني تُصِمْ المناوِيَا
وقد كنتُ ذا أهلٍ كثيرٍ وإخوة	فقد تركوني واحداً لا أخاليا
هلم سلاحي لا أبالكِ إني	أرى الحربَ لا تزاد إلا تماديا
ولله عهد لا أخيس بعَهْدِهِ	لئن قُرِجْتُ ألا أزورَ الحوائِيَا ^(٨)

سمعت سلمى هذا الشعر فرثت له، ورأت الصديق في قوله فأطلقته، واقتاد فرس سعد وخرج إلى مواطن القتال وإذا به أمام الناس يقف بين الصفين ويحمل على العدو حملات صادقة حتى عجب الناس من أمره، ورأوا الفرس فرس سعد والطاعن لم يشهد الحرب معهم قبل اليوم، حتى إذا انتصف الليل وتحاجز العسكران رجع صاحبنا إلى القصر وأعاد رجله في القيد!

فلما أصبح الصباح تحدث الناس به وأخبرت سلمى سعدا بما كان منه فأطلقه وعاهده ألا يحده أبدا إذا شرب.

الآن ظهرت نفس شاعرنا في شرفها ونبهها وقال لسعد: كنت آنف أن أتركها من أجل الحد، فأما إذا بهَرَجَتني فلا والله لا أشربها أبداً.

لقد كان مما أخذه عمر عليه قوله:

إذا مِتُّ إلى أصلِ كَرْمِيَةِ	تروى عظامي بعد موتي عُرُوقَهَا
ولأ تدفني بالقلاة فلاني	أخافُ إذا مِتُّ ألا أذوقَهَا

(٨) خاص بعهده: نقضه، الحوائى جمع حانية وهي الخانوت.

ويشاء قاص من الطرفاء فيروي أنه رأى قبره بنواحي أذربيجان أو جرجان وقد
نبتت عليه ثلاث كروم قد طالت وأثمرت واعتريشت، وعلى قبره مكتوب: هذا قبر
أبي مجنن الثقي

أفاض الله عليه سجال رحمته فقد كان رجلا وكان نبلا.

الذوق العام

يظهر لي أن للأمة ذوقا عاما، كما أن لها رأيا عاما وعرفا عاما، ولكل دائرة اختصاص لا يتعداها.

فالرأي العام مداره الآراء والأفكار والمعقولات، والعرف العام مداره العادات، أما الذوق العام فمداره الفن والجمال.

وكما أن هناك قدرا مشتركا بين المصريين في لونهم وتقاطيع وجوههم وملاحظهم، حتى لنستطيع في سهولة ويسر أن نميز المصري من الأجنبي - وكما أن هناك قدرا مشتركا في الرأي العام المصري في النواحي السياسية والاجتماعية يميزه عن غيره من الرأي العام الأوربي - فكذلك الشأن في الذوق العام.

يتجلى هذا في كل أنواع الفنون كالطعوم، فلكل أمة أنواع من الطعوم تستلذها وتُغَرَّم بها، هي نتيجة ذوقها، ومن أجل هذا كان طهي كل أمة يخالف طهي الأمة الأخرى - ولا يقتصر هذا على نوع المأكول بل يتعداه إلى كيفية إعداده، وبذا نستطيع أن نحكم على الأمة بأنها تستجيد كذا من ألوان الطعام وأنواعه، على حين أن الأمة الأخرى لا تستسيغه ولا تتذوقه.

ومثل الطعوم غيرها من الفنون، فالذوق العام المصري يقدر الموسيقى المصرية أكثر مما يقدر الموسيقى الغربية، بل لا يستلذها ولا يرى فيها جمالا، كما أن أكثر الغربيين لا يجد في الموسيقى الشرقية طعما، ولا يقيم لها وزنا.

وكذلك أشكال البناء وما يستجاد منها وما لا يستجاد، وأنواع الملابس وألوانها وما يُستجمل منها وما يُستهجن: كلها خاضعة للذوق العام في الأمة، ولكل أمة في هذه الشؤون ذوقها يميزها من غيرها ويضعها في درجة خاصة من سلم الرقي.

وهذا الذوق العام في كل أمة هو الذي يقوم الأدب ويتذوقه؛ وهو الذي يجعل لكل أمة أدبا خاصا، فالأدب المصري مثله مثل الطعوم المصرية، والغناء المصري، والبناء المصري؛ إنما يتذوقه المصريون بذوقهم العام، ولا يتذوقه الغربيون بذوقهم العام؛ كما لا يتذوقون طعومنا وغنائنا، فالنوادير المصرية التي تُعجب المصري حتى تبعثه على أشد الضحك وأعمقه قد لا تحمل الأجنبي على التبسم، والقصص «والحواديت» المصرية التي تسترق لب المصري وتستهويه، قد لا يأبه لها الأوربي ولا يعيرها التفاتا إذا ترجمت له - نعم قد يعجب المصري بآيات من الآداب الغربية، ولكنه لا يتم له ذلك إلا بعد أن يحوّر ذوقه ويمرّنه تمرينا طويلا على تذوق هذا الأدب، كما يرن المصري ذوقه على استجادة الموسيقى الغربية، فيستجدها بعد طول المران، ولكن هذا ليس من الذوق العام في شيء.

كما لا نستطيع أن ننكر أن هناك نوعا من الآداب عالميا، إذا ترجم إلى أية لغة استجيد، كنوع من القصص، ونوع من الأمثال؛ ولكن سبب ذلك أن هناك قدرا مشتركا بين الأذواق، كما أن هناك قدرا مشتركا بين العقول، فاستجادة المصريين لبعض الأدب الغربي، أو الغربيين لبعض الأدب العربي، شأنها كشأن اشتراك الناس جميعا في استجادة بعض الطعوم أو بعض قطع الموسيقى، وهذا لا يغير فيما ادعينا شيئا من أن لكل أمة ذوقا عاما خاصا بها.

وهذا الذوق العام للأمة يستبد بالأفراد استبدادا لا حد له، فالناس جميعا خاضعون لأنواع شتى من الاستبداد، كاستبداد النظم السياسية، واستبداد العقول، واستبداد الرؤساء، ولكن هذه كلها محدودة الدائرة. أما استبداد الذوق العام فلا حد له، ولا سلطان يشبه سلطانه؛ ذلك أنه بجانب الذوق العام للأمة ذوق خاص بالفرد، فكل فرد له ذوقه الخاص يستجيد به بعض الأشياء ولا يستجيد بعضا، ويستحسن به ويستهن، ويستجمل ويستقبح؛ ولكنه في كل ذلك مسلوب الحرية

خاضع خضوعاً تاماً للذوق العام. قد يشتد الحر فلا يطيق الإنسان نفسه، وقد يكون في نوع من اللبس ما يخفف وطأته ويكسر من حدته؛ ولكن لا بد أن يخضع للذوق العام، فيلبس الخناق أو رباط الرقبة، وما إلى ذلك خضوعاً للذوق العام وخشية من استهجانه، فليس إنسان يلبس ما يجب ولا يأكل ما يجب على النمط الذي يجب، ولا يتكلم كما يجب على النمط الذي يجب، إنما هو كل ذلك عبد أسير ذليل مقيد مغلول، في كل خطوة يخطوها، وفي كل نفس يتنفسه. - لقد قيدتنا القوانين بأعمال يجب أن نعملها، وأعمال يجب أن نتجنبها، ولكنها ليست شيئاً بجانب أوامر الذوق العام ونواهيهِ - وعقوبات الذوق العام سريعة فاتكة متنوعة، فهو يعاقب بالاحتقار والازدراء، ويعاقب بالنظر الشرر، والكلمة الجارحة القاسية، ويعاقب بالنقد والتجريح، وهو في كل ذلك لا يسمع دفاعاً، ولا يقبل عذراً، ولا يؤجل عقوبة، ولا يقبل حكمه نقضاً وإبراماً، ولا يعرف حكماً مع وقف التنفيذ - لا شيء من ذلك كله، ولكن حكمه حكم صارم، قاس ظالم.

وكذلك الشأن في كل نوع من أنواع الفنون، فإذا اشتهر مغن وأعجب ذوق الجمهور فلا حق لك أن تعيبه، وإذا عبته فعبه سرا، وحذار أن تجهز بذلك فيكون دليلاً على فساد ذوقك وضعف حسك.

ومثل ذلك في الأدب - إذا قال الناس إن سبحان وائل خطيب يضرب به المثل في البيان، فيقال أفصح من سبحان، فقل مثلهم، وإن كنت لم تقف على شيء يثبت فصاحته ويبرهن على بلاغته، وإن فتشت عن كل أقواله فلم تجد إلا أسطراً قال فيها إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار النخ. ولم تستجد هذا فاتهم ذوقك وكرر قولهم: «أبلغ من سبحان».

وإذا قالوا إن من أبلغ خطب العرب خطبة قس بن ساعدة: أيها الناس، اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، النخ، فقل كما قالوا، وإن لم تتذوق.

وكذلك فاخضع دائما لحكمهم وذوقهم، فمن قالوا فيه إنه إمام الأدب أو سيد الشعراء غير مدافع. أو قالوا إنه شاعر متكلف، أو أديب متخلف؛ فإياك أن تحدثك نفسك بأن تقلب أوضاعهم أو تخالف إجماعهم.

هكذا استبداد الذوق العام، ولست تستطيع الخروج عليه وإعلان استقلال ذوقك عنه إلا بثورة عنيفة على الذوق، وتعرض لكل أنواع العقوبات الذوقية.

ثم إن كل ما ترى في الأمة من مظاهر القبح علته ضعف الذوق العام - فإذا رأيت الأمة تصدف عما في بلادها من أزهار، ولا يخفق قلبها لرؤية جمالها وجمال طبيعتها، ولا تتغزل في محاسنها؛ فاعلم أن سبب ذلك ضعف الذوق العام، وإذا رأيت الأمة لا تقدس النظافة، ولا تسمتئ من القذارة اشمئزازها من أبغض شيء وأقبحه، فعلم ذلك بضعف الذوق العام، وإذا رأيتنا في المجتمعات لا نرعى نظاما، ولا ننصت لفن، ولا نتقيد بآداب اللياقة، فقل إنه ضعف الذوق العام وهكذا...

ومن غريب الأمر أن هذا الذوق العام، الذي يستبد بي في مأكلي وملبسي ومسمعي - كما رأيت - لا يستبد في هذه الأشياء، ولا يبدي أي سلطان على هذا النوع من الضعف، فهو لا يحتقر المرء لا يقوم الزهر، ولا يزدري من يسيء في المجتمعات العامة؛ ولكن يزدريني إذا خرجت من غير طربوش أو رباط رقبة في يوم حار؛ وسبب ذلك أن الذوق العام لا يعاقب إلا على ما يتذوق، وفي دائرة ما يفهم؛ فهو إذا قوّم مناظر الطبيعة عاقب من لم يتذوقها؛ وإذا أدرك جمال النظام وآداب المجتمعات عاقب من مسها بسوء، ولما يصل إلى هذه الدرجة.

وبعد فشان الذوق العام شأن الرأي العام كلاهما قابل للإصلاح والرقى، فالرأي العام ضعيف وسخيف إذا صدر عن أمة جاهلة، ويرى الرأي العام بانتشار الثقافة وتعميم التربية، ويدل تاريخ كل أمة على أنها في أول أمرها لا يكون لها رأي

عام، ثم تمنح أفراد قليلين أقوياء، زعماء مثقفين يوفقون في دعوتهم فيخلقون رأيا عاما، وأن هؤلاء القادة يجب أن يسبقوا بنوع من الثقافة العامة في الأمة حتى تستطيع أن تفهم قاداتها وآراءهم، فيأتي هؤلاء القادة فيكونون إرادة عامة للأمة، ويؤلفون بين اتجاهاتها ويكوّنون منها وحدة.

وعما نأسف له أن مجهودات كبيرة بذلت في ترقية الثقافة العقلية، وبرامج كثيرة وضعت في تعميم التربية العقلية وفي تكوين الرأي العام، ولكن لم توضع برامج لتربية الذوق العام. ولا بذل مجهود في ترقيته ورفع مستواه، فكان لنا زعماء سياسيون وزعماء عقليون ولكن لم يكن لنا زعماء فنيون.

وفي ظني أن الذين يبحثون في ترقية الفنون عامة من موسيقى ونقش وتصوير وأدب مخطئون كل الخطأ، لأنهم يحاولون أن يصلحوا النتائج من غير أن يصلحوا المقدمات، فليس الفنان في الأمة إلا صدى لذوقها العام، فإذا صح الذوق صح الفن وإلا فلا. ليس الفن والأدب من جنس النباتات التي تنبت من تلقاء نفسها. ولا هو مما يظهر مصادفة واتفاقا، وإنما هو نتيجة لازمة لعوامل طبيعية سأحاول أن أبينها.

كيف يرقى الأدب

أشرت في مقالتي السابق إلى العلاقة بين الذوق العام وراقي الأدب، وأعود الآن إلى هذه العلاقة، أزيدها بسطا وإيضاحا.

يذهب بعض المفكرين إلى أن الفنون - ومنها الأدب - ترتقي وتنحط، وتعلو وتسفل، وتتقدم وتتأخر، في الأمم اعتبارا من غير أن يكون لذلك أسباب، أو على الأقل أسباب ظاهرة، فالناظر لتاريخ الفنون في العالم يرى أن أمة في عصر من العصور قد ترقى في فن من الفنون كالموسيقى أو الحفر أو التصوير أو الشعر، على حين أن أمة أخرى ترقى في فن آخر من هذه الفنون، ثم بعد رقي عظيم تنحط الأمة في هذا الفن، ويحل محل الفن فن آخر، أو لا يحل محله شيء؛ وتتبادل الأمم ذلك من غير أن يكون لهذا التقدم وهذا التأخر علة مفهومة، وشأن الفنون شأن النابغين الفنانين، فقد ينبغ النابغ في أمة ولا نعرف لم ينبغ وكيف ينبغ؛ وتحاول الأمة أن تخلق نابغين فلا يخلقوا - بل ترى الأمر عجبا؛ فقد يوجد النابغة والأمة على أسوأ ما يكون من ضعف في الخلق، وضعف في العقل، ثم ترقى الأمة عقلا وترقى خلقا وتتلفت فلا تجد نبوغا، وكان مقتضى هذا أن يكثر عدد النابغين فيها ويزداد نبوغا بازدياد الأمة رقا، ولكن ينعكس الأمر حتى لتجد الأمة وأعضاؤها قوية ولا رأس، بينما كان لها في حال ضعفها رأس قوى ولا أعضاء - ما ذاك إلا لأن النابغة يوهب ولا يخلق، وقد قال هؤلاء إن الفنون في ذلك ليست كالعلوم، فالرقى في العلوم سبيله ميسور ممهد، وتستطيع الأمة أن تضع لها خطة تسير عليها لترقى في الطبيعة أو الكيمياء أو الرياضة، فإذا هي جدت في ذلك وصلت إلى درجة من الرقي تناسب جدّها واستعدادها، ولكنها لا تستطيع أن تضع خطة تسير عليها للرقى في الشعر والموسيقى والتصوير، لأن ذلك نوع من الإلهام، والإلهام بيد الله، يمنحه من يشاء

كيف شاء متى شاء - ولعل الكاتب يشعر بهذا تمام الشعور في نوع ما يكتب، فهو إذا أراد أن يكتب بحثاً علمياً، أو يحقق لفظاً لغوياً، أو يحزر حادثاً تاريخياً؛ فهو في أكثر أوقاته مستعد لذلك، ما لم يكن مريضاً أو مهموماً - ولكنه إذا شاء أن يكتب قطعة فنية أدبية إنشائية لا يستطيع ذلك إلا في حالة نفسية صافية، ومزاج يتناسب والقطعة الفنية التي ينشئها، من حزن أو سرور، وحلم أو غضب؛ ويصادفه وقت هو كما يسميه الصوفية - وقت تجلٍّ، يجيد فيه ويغزر، ويسمو فيه ويصفو، ويعجب كيف أجاد وكيف غزر؛ ثم هو يحاول بعد مرارا أن يخلق مثل هذا التجلي، فيفشل ثم يفشل؛ ويحار في تحليل ذلك، وتعليله ما قاله علماء الكلام «ولم تكن ثبوت مكتسبة» - هو في العلم مالك وقته يصرفه كما يشاء، وهو في الأدب ينتظر الإلهام.

وقالوا إن رقي الأمة في الأدب لا يرتبط بدرجة ثقافتها، ولا يرقىها العقلي، ولا بأي سبب من الأسباب؛ فالأمة المصرية - قديماً - رقيت في فنون النحت والنقش والبناء رقىا بديعاً جعلها من أساتذة العالم في هذا الباب، وخلقت على مر الأزمان ثروة لا تقوّم؛ ولا تزال قبلة الفنانين إلى الآن تستخرج إعجابهم، وتلهم أذواقهم؛ والمصريون الآن ليسوا أساتذة في الفن، حتى ولا تلامذة، مع أن أحداً لا يستطيع أن يقول إن المصريين القدماء كانوا أرقى منا عقلاً وأعلى ثقافة؛ وكذلك يشكون كثير من الأوروبيين من أن الفن - ما عدا الموسيقى - أخذ يتدهور من القرن السادس عشر، مع أن أنواع العلوم في رقي مستمر، وعقليات الأمم في تقدم دائم - ولو كان الأمر بالعلل والأسباب المنطقية لوجب أن يكون المصريون اليوم أعلى فناً وأكثر نبوغاً، ولكان الفن الأوربي الآن أسمى وأتم منه في القرون الوسطى - فأما وقد عجز المنطق عن تقديم مقدمات ونتائج صحيحة فليس إلا الإلهام، وليس للأمة إلا أن تنتظر ما يأتي به القدر.

هكذا قالوا، أو حاولوا أن يقولوا، وبذا احتجوا، أو حاولوا أن يحتجوا؛ ولكن هل هذا صحيح؟ - إن في هذا الرأي غلوا مفرطاً؛ فهو يخرج الأدب عن دائرة الإرادة، ويجعله مجرد انتظار للوحي والإلهام؛ ومن الحق أن للأدب خطة تُتَّهَج كمنهج العلم، وأن من نُعده للأدب يجب أن تثقفه ثقافة خاصة كالذي نعهده للعلم، ولكن من الحق أيضاً أننا لا نخلق الأديب ببرنامجننا، بل لا بد أن تكون قد هيأت الطبيعة ومنحته استعدادات خاصة، وكفايات ممتازة، وتهيئوا لقبول الإلهام؛ ولكنه في كل ذلك كالعالم، فبرنامج العلم لا يخلق نابغة في العلم إنما يُعده؛ والعالم لا بد أن يكون مهياً للإلهام كالأديب، وأكثر المخترعات والمستكشفات في العالم كانت نتيجة إلهام أكثر منها نتيجة لمقدمات منطقية وتجارب عملية؛ وإنما التجارب تهيئ للإلهام وتحقق ما يأتي به، وتبين صححيته من فاسده، وتسمى هذه الإلهامات فروضاً.

ويظهر أن اتجاه هؤلاء الباحثين هذا الاتجاه سببه عقيدة سادت بين رجال الفن عهداً طويلاً، وهي «أن الذوق لا يعلل»، فالناظر ينظر إلى الصورة فيستجملها أو يستقبحها، فإن أنت سألته لم يستجملها أو لم يستقبحها؟ لم يُجِر جواباً؛ وإذا أجاب بكلمات منمقة، ولكنها جوفاء، لا تحوي علة ولا توضح سبباً؛ وإنما هي نفس الدعوة بالفاظ رشيقة جميلة؛ وإذا رأيت طاقة من الزهر قلت ما أجملها، ولكن إن سئلت لم كانت جميلة؛ قلت إنها منسقة، إنها بديعة الألوان، إن نفسي لترتاح إلى رؤيتها، إنها لتسر النظر، وتبهر العقل؛ وأنت غنيٌّ بعدُ عن أن أقول لك إن هذه ألفاظ وجل قد تُرضي البلاغة، ولكن لا ترضي المنطق، وقد تُعرض صورة أو يظهر إنسان أمام جمع من النَّظَّارة فهذا يستحسنه وذاك يستقبحه؛ وثالث لا يستحسنه ولا يستقبحه، فإذا سألت من استحسن لم استحسن، ومن استهجن لم استهجن، ومن حديد لم حديد؛ كانت الإجابات مثاراً للعجب، وموضعاً للضحك - وقد ترى إنساناً وكل عضو من أعضائه على انفراده جميل، ولكنه ليس جميلاً ككل، فما الذي كونه هذا

التكوين؛ وما الذي وضعه هذا الوضع؟ ولم استحسنته مفرقا، ولم تستحسنه جملة؟
 لاشيء في الحقيقة إلا الذوق الذي لا يعلل، وهذا هو الشأن في الأدب، وأظهر مثل
 لذلك ما فعله عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، فماذا صنع؟
 إنه يأتي بالبيت الجميل ثم يقف ويتساءل: فيم كان جماله، فما هو إلا أن يصوغ لك
 جملا رشيقا، فيقول: إن هذا اللفظ يروقك ويؤنسك، وغيره يثقل عليك ويوحشك،
 وهذا الوضع يَهْرُكُ جماله، وهز النظم يأخذ بلبك ما فيه من نسج وصياغة، ووشى
 وتحبير، ويعلل سبب ذلك أحيانا بالتقديم والتأخير، وأحيانا بالفصل والوصل -
 وكلها علل لا تصلح، فأنا كفيل بأن آتيك بتقديم يحسن، وتقديم مثله يقبح، وفصل
 يروعك وفصل مثله يسوءك. وقد تحاول أن تفرق بينهما فلا تستطيع، ثم تسلم
 سلاحك وتكتفي بأن تقول هذا جميل، وهذا قبيح، وهذا يحسن في ذوقي وهذا لا
 يحسن، وبذلك تكون قد قطعت شوطا بعيدا ثم في آخر الأمر عدت إلى النقطة التي
 بدأت منها سيرك، وما علوم البلاغة كلها إلا محاولة لتعليل الذوق الأدبي، ولكن
 هل أفلحت في التعليل؟ إنا لنخشى أن تكون قد دارت حول نفسها، ولم تأت بشيء
 «لأن الذوق لا يعلل».

وإذا كان الذوق لا يعلل فكل ما ترتب عليه لا يعلل، وإذا كان الفن وليد
 الذوق فالفن لا يعلل، لا يعلل كيف ظهر وكيف قَوِيَ وكيف ضعف.

هكذا أيضا قالوا أو يصح أن يقولوا -وهذه الآراء- وإن كان فيها شية من
 الحق - ليست حقا كلها، وليست حقا في أساسها، وقد بذل بعض العلماء المحدثين
 مجهودا حميدا في بيان ما فيها من حق وباطل وحاولوا أن يفلسفوا الذوق، ويفلسفوا
 الجمال، ووضعوا للذوق والجمال علما، وعدوه فرعا من فروع الفلسفة، وحاربوا فيه
 الفكرة السائدة؛ «إن الذوق لا يعلل»، ووضعوا قواعد لتعليله نجحوا فيها أحيانا
 وفشوا أحيانا، ولا يزال مجال البحث أمامهم فسيحا، وكان لهذا الاتجاه الجديد في

علم الجمال أثر كبير في خلق نظريات في الأدب، ووضع أسس جديدة للبلاغة والنقد الأدبي مما ليس هذا موضعه.

والذي أميل إليه أن الفن نتيجة الذوق لا محالة، وأن الذوق يمكن تربيته وترقيته، فالطفل إذا لُفَّت نظره إلى الأزهار وجمالها تكوّن فيه الميل إلى حبها والاستمتاع بها، فإذا كان بعدُ أدبيًا اتصلت حياته الأدبية بها، وظهر في نتاجه الفني هذا الحب وهذا التقدير.

والذوق العام للأمة في وقته وضعفه ورقبه وانحطاطه، ليس يظهر فجأة ولا هو نتيجة المصادفة البحتة، إنما هو نتيجة لكل ما يحيط بالأمة من ظروف وأحداث، هو نتيجة النظم السياسية، والحياة الاقتصادية والاجتماعية، والثقافة العقلية وغير ذلك، وإن شئت فقل إن ذوق الأمة هو تعبيرها عما تُقوّم، فالأمة إذا قوّمَت المناظر الطبيعية تذوقتها، وإذا قومت جمال الأزهار تذوقته، وإذا لم تقوم النظام في المجتمعات لم تذوقه، ولم يجرح ذوقها تهويش على مُحاضِر أو مغن أو ممثل - والفنان ليس إلا معبرا عن ذوق الأمة، والأديب ليس إلا الموقع للأصوات التي تستلذها الأمة.

ومن أهم أسباب ضعف الأدب العربي مسألتان متصلان بهذه الحقيقة: الأولى أن الأدب العربي لا يتصل بالذوق العام للأمة اتصالاً وثيقاً، لأنه يصاغ بلغة غير لغة الشعوب، ولا يتصل إلا بذوق خاص وهو ذوق محترفي الأدب، ومن تكوّن ذوقهم تكونوا «كلاسيكياً» ولا أمل في نجاحه إلا أن نعمل بأي شكل كان على أن نصل الأدب أو أكثره بالذوق العام. والثانية تتصل بالأولى، وهي أن الآداب في أكثر الأمم كانت أرستقراطية النزعة يوم كانت القوة في يد الأرستقراطيين، فلما انتشرت الديمقراطية تبعها الأدب، فأصبح ديمقراطي الموضوع، ديمقراطي النزعة، أما الأدب العربي فقد أصبح أرستقراطياً منذ العهد الأموي، وأصبح أهم أنواع الأدب إنما ينشأ حول قصور الأمراء والأغنياء، وفي الموضوعات التي تناسبهم من مديح لهم

وهجاء لأعدائهم، فلما عمت النزعة الديمقراطية العالم لم تؤثر في الأدب العربي أثرها في غيره من الآداب، بل ظل محتفظاً إلى حد ما بأرستقراطيته، وهذا قلل من غير شك اتصاله بالذوق العام للأمة.

على كل حال لا وسيلة لترقية الفن ومنه الأدب إلا بترقية الذوق، وربط الفن به، ولذلك وسائل:

من أهمها التأذين في الناس بصوت عال يهزم هذا عتيقاً حتى يشعروا بأن أذواقهم مريضة، لا يشعرون بالجمال كما ينبغي ولا يقيمون بالحسن كما يجب، ولست أعني جمال الوجوه وحدها، ولكن جمال الأزهار، وجمال الطبيعة، وجمال الموسيقى، وجمال الحركة، وجمال النظام، وجمال النظافة، وجمال المعاني، ويجب ألا يقتصر دعاة الفن على الدعوة لجمال الكرنك وأنس الوجود والمساجد الأثرية بل يجمعون إلى الدعوة لجمال الماضي جمال الحاضر - وهذا أكثر وضوحاً في الأدب، فدعوة الأدباء دائماً وقول الأدباء دائماً إنما هو إلى الماضي وفي الماضي، وهذا حسن لدرجة ما، ولكن يجب أن يقرن به الدعوة القوية أيضاً إلى النظر إلى أنفسنا والقول في أنفسنا.

يجب أن نغير تسعيرة الأشياء، ونضع تسعيرة جديدة لما يدور حولنا، ونضع أمام ناشئتنا قيماً جديدة لما يقع عليه نظرهم، فإذا كانت بيوتنا تعنى بكمية الأكل وتعطيها أكبر قيمة، وجب أن نرفع قيمة الكيفية فنضع قيمة كبرى للأزهار على المائدة والجمال الترتيب والنظام والجمال الحديث.

يجب أن نوجه إرادتنا في ترقية الذوق كما نوجه إرادتنا لترقية العلم ولترقية النظام السياسي، ونضع للذوق برامج كالتي نضع لبرامج التعليم.

إننا إن فعلنا ذلك تمخض المجتمع عن فنان ماهر، وأديب قادر.

بين اليأس والرجاء

صوتان لا بد أن يرتفعا في كل أمة، ويجب أن يتوازنا حتى لا يطفى أحدهما على الآخر، صوت يبين عيوب الأمة في رفق وهوادة، ويستحث على التخلص منها والتحرر من قيودها، وصوت يُظهر محاسنها ويشجع على الاحتفاظ بها والاستزادة منها، والصوتان معا إذا اعتدلا كَوّنا موسيقى جميلة منسقة تحدو الأمة إلى السير إلى الأمام دائما، هي موسيقى الجيش تبعث الرجاء والأمل، وتمنّى بالنصر والظفر؛ فإن بغى أحد الصوتين على الآخر كانت موسيقى مضطربة تهوش النفس وتدعو إلى الفوضى والارتباك، وإذا كان «الدور» في الموسيقى يكون منسجما كله، ويشد أحد أصواته لحظة فيكون «نشازا» يחדش السمع ويجرح النفس، فما ظنك «بدور» كله «نشاز»؟

لما يدعو إلى الأسف أن صوتا في الشرق علا كل صوت، وهو ليس خير الأصوات وأحبها إلى النفس، هو صوت اليأس والتشيط يتغنى به كل أصناف الدعاة، فخطيب المسجد تدور خطبته دائما على أن من يخطبهم ليسوا مؤمنين حقا، فقد ارتكبوا من الأوزار، واجتروا من الآثام، ما أخرجهم عن الإيمان الحق، وأبعدهم عن الدين الصحيح، ولو أخذهم الله بأعمالهم لأمطرهم حجارة من السماء، أو خسف بهم الأرض، ثم يصب هذا المعنى كل أسبوع في قالب، وكل القوالب متشابهة متقاربة، ويخرج السامع دائما وقد ملأه اليأس، وانقطع به الرجاء، إلا أن يتداركه الله بعفو ليس جزاء على عمل..

ودعاة اللغة والأدب يلحون في أن اللغات الأجنبية خير من اللغة العربية، وأن الأدب الأجنبي أدب الثقافة والفن والعلم، ولا شيء من ذلك في الأدب العربي، وأن من شاء أن يفتح عينيه فليفتحها على أدب أجنبي ولغة أجنبية، وإلا ظل أعمى،

وموجز دعوتهم أن يتحول الشرق في لغته وأدبه إلى الغرب في لغته وأدبه، لا أن يختار من لغة الغرب وأدب الغرب ما تلقح به لغة العرب وأدب العرب.

ودعاة الاجتماع أدهى وأمر، فليس في الشرق كله ما يسر، قد جرده الله من كل حسن، فلا طبيعته جميلة ولا مناظره جذابة، ولا شيء فيه يأخذ باللب ويدعو إلى الإعجاب، والقمر في الغرب أنور منه في الشرق، والبحر الأبيض قد جهل منه ما لامس الغرب، وقبح ما لامس الشرق، وكل شيء في عادات الشرق وتقاليده تعافها النفس، وينفر منها الطبع، وعلى الجملة فالله تعالى الواهب ما شاء لمن شاء قد جمع الحسن كله في ناحية، وقال له كن الغرب فكان، وجمع القبح كل في ناحية وقال له كن الشرق فكان. وهم إذا لم يقولوا ذلك كله جهاراً آمنوا به إيماناً، وصدرت عنه أفعالهم، واتجهت إليه حياتهم.

ودعاة العلم من هذا الطراز، فكتب العلم العربي إنما تصلح لدارس التاريخ أو طعمة للنار، وماذا فيها إلا تحريف أو تحريف، قد كانت نتاج القرون الوسطى، ونحن نتاج العصر الحديث - ومجالسنا صدى لهذا الصوت، فإذا استئنيت عشر معشارها فكلها نقد للأخلاق، وطعن في حياة الشرق، وتهجم على حال أمتهم، وتجهّم لكل ما يصدر منهم. وقُلْ أن تسمع صوتاً ينطق بمدح أو يعجب ببطولة، أو يتغنى بعمل مجيد.

هذه نغمة مملولة كانت أجنبي على الشرق من كل عيبه، ولن تفلح أمة من غير ذخيرة تعتز بها، ومجد طارف وتليد تعتد به، وتُغَرِّق قومية تدعوها إلى الفخر والإعجاب. ولأمر ما قال تعالى: {كتّم خير أمة أخرجت للناس} وليس عبثاً أن يكون في أناشيد الألمان «ألمانيا فوق الجميع» وأن يعتقد بعض الأمم في أنفسهم أنهم شعب الله المختار، ونحو هذا مما ينعش الأمل، ويدعو إلى العمل.

تَلُظ ظَاهِرَةٌ نَفْسِيَّةٌ لَا مَجَالَ لِانْكَارِهَا، فَاعْتَقِدِ الْغِبَاوَةَ فِي طِفْلِكَ وَكَرَّرْ عَلَيْهِ
اعْتِقَادَكَ تَقْتُلُ كُلَّ مَا فِيهِ مِنْ ذُكَاءٍ، وَأَعْلَنْ أَنَّهُ ذَكِيٌّ وَشَجِّعْهُ عَلَى مَا يَبْدُرُ مِنْهُ مِنْ
ضُرُوبِ الذُّكَاءِ تَسْتَخْرِجُ أَقْصَى مَا عِنْدَهُ مِنْ عَقْلِ. وَفِي الْمَثَلِ الْإِنْجِلِيزِيِّ «دَعَوْا
الْكَلْبَ عَقُورًا فَشَتَّقَ» يَعْنُونَ أَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا فِي كَلْبٍ سُوءًا وَسَمَوْهُ عَقُورًا وَظَلَمُوا
يُطْلَقُونَ عَلَيْهِ هَذَا الْأَسْمَ حَتَّى صَدَرَ مِنْهُ مِنْ أَعْفَالِ السُّوءِ مَا اسْتَوْجِبَ قَتْلَهُ، وَفِي
أَمْثَالِنَا الْعَامِيَةِ «قَالُوا لِلْفَلَّاحِ يَا حَرَامِي شَرُّشَرٌ مِنْجَلُهُ» ذَلِكَ أَنَّ الْإِتِّهَامَ يَحْمِلُ عَلَى
ارْتِكَابِ الْجَرِيْمَةِ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ: مِنْ نَاحِيَةِ الْإِيْعَازِ، فَمِنْ اتِّهَمْتَهُ فَقَدْ أَوْعَزْتَ إِلَيْهِ
وَأَقْرَحْتَ عَلَيْهِ الْعَمَلَ، وَأُظْهِرْتَ لَهُ الْجَرِيْمَةَ مَائِلَةً أَمَامَ عَيْنِهِ حِينَئِذٍ بَعْدَ حِينَ - وَمِنْ
نَاحِيَةِ أَنْ أَكْبَرَ مَا كَانَ يَمْنَعُهُ مِنَ الشَّرِّ خَوْفُهُ أَنْ يَتَّهَمَ بِالشَّرِّ، فَإِذَا اتِّهَمْتَهُ فَقَدْ كَانَ مَا
يُخْشَاهُ، وَأَقْدَمَ عَلَى مَا كَانَ يَتَحَمَّاهُ، هَذَا إِلَى مَا يُوَحِّيه الْإِتِّهَامُ الدَّائِمُ مِنْ شُعُورٍ بَاطِنِيٍّ
يَسِيرُهُ نَحْوَ الْعَمَلِ وَفَقِ الْإِتِّهَامِ، وَهَذَا هُوَ السَّرُّ فِي أَنَّ بَعْضَ الْقَوَانِينِ تُسَنُّ لِمُعَاقَبَةِ
بَعْضِ أَنْوَاعِ الْإِجْرَامِ فَتَكُونُ سَبَبًا لَكَثْرَةِ الْإِجْرَامِ، ثُمَّ تَرْفَعُ فَيَقِلُّ الْإِجْرَامُ، لِأَنَّ وُجُودَ
الْقَوَانِينِ كَانَ مُوَعِّزًا بَارْتِكَابِهَا - وَلَعَلَّ أَنْوَاعَ مِنَ الْإِتِّهَامِ زَادَتْ بِكَثْرَةِ الْكَلَامِ فِيهَا مِنْ
جَهْلَةِ الْوَعَاظِ مَنْ لَمْ يَحْسِنُوا دِرَاسَةَ النُّفُوسِ وَقَوَانِينِهَا.

إِذَا سَقَطَ الْفَتَى فَآرَيْتَهُ أَنَّ سَقَطَتِهِ قَابِلَةٌ لِلْعِلَاجِ، وَأَخَذْتَ بِيَدِهِ لِانْتِشَالِهِ، كَفَّرَ عَنْ
سَقَطَتِهِ وَعَادَ إِلَى حَالِهِ؛ وَإِنْ أَنْتَ آرَيْتَهُ أَنَّ سَقَطَتَهُ لَا تَغْتَفَرُ، وَأَنَّهُ لَمْ يَصْبِحْ إِنْسَانًا،
اسْتَمَرَّ يَسْقُطُ أَبَدًا - وَكَثِيرٌ مِنَ السَّاقِطِينَ وَالسَّاقِطَاتِ لَوْ أَحْسَوْا فِي النَّاسِ اسْتِعْدَادًا
لِقَبُولِهِمْ، وَشَعَرُوا أَنَّهُمْ يَفْسَحُونَ لَهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، لَعَدَلُوا عَنْ سَقَطَتِهِمْ، وَنَهَضُوا مِنْ
عَشْرَتِهِمْ.

وَيَعْدُ فَلَيْسَ الشَّرِّقُ، بِدَعَا مِنَ الْخَلْقِ، إِنْ اعْتَرَزَ أَحَدٌ بِمَاضٍ فَلَيْسَ أَمْجَدُ مِنْ مَاضِيهِ؛
وَإِنْ كَانَ لِكُلِّ أُمَّةٍ غَرِيْبَةٌ مُحَاسِنٌ وَمَسَاوِيٌّ فَلِلشَّرِّقِ مُحَاسِنَةٌ وَمَسَاوِيٌّ، وَإِنْ كَانَتْ

مساوى الغرب لم تمنعه من نهوضه فلم تمنع الشرق مساويه من نهوضه؟ ليس أعوق للشرق من هذا الصوت الكريه يصدر من دعائه فيبعث اليأس وينفث السم.

أيها الدعاة: كسروا قيثاركم هذه التي لا توقع إلا نغمة واحدة بغیضة؛ واستبدلوا بها قيثارة ذات ألحان صنعها طَبُّ بأدواء النفوس عليم؛ وأكثرُوا من ألحان تبعث الأمل، وتدعو إلى العمل، وتزيد الحياة قوة؛ ولا تُشهِرُوا برذيلة إلا إذا أشدتم بفضيلة، ولا تسمعونا صوت المعاول إلا إذا أريتمونا حجر البناء.

سيبويه المصري

شخصية غريبة كانت في مصر في عهد الدولة الإخشيدية قبل بناء القاهرة، وكان يدوي اسمها في الفسقاط والقطائع وما بينهما قبيل مجيء الفاطميين، كانت شخصية تُرْهَب وتُحَب، ويُضحك منها، ويعتبر بها، إن شئت علما فعالم، أو شعرا فشاعر، أو أدبا فأديب، أو وعظا فواعظ، أو فكاهة ففكّاه، أو نقّدا مقذعا فناقد، أو جنونا فمجنون.

وُلد بمصر سنة ٢٨٤هـ، وعاش أربعا وسبعين سنة، وأتقن النحو حتى لقب بـسيبويه.

الطف ما فيه لَوْنَة كانت بعقله، هي سر عظمته، فقد جَرَّؤُ على ما لم يجرؤ عليه أحد في عصره، كان معتزليا يقف في المسجد وفي الشارع فيصرح بأرائه في الاعتزال، ويصيح بأن القرآن مخلوق، فيقولون مجنون، ويتركونه يقول ما شاء، حيث لا يقول أحد شيئا من ذلك إلا همسا، أو من وراء حجاب، ويتعرض للناس بالقول اللاذع، سواء في ذلك كافور الإخشيد أو وزيره، أو العلماء أو التجار، فيتضحكون منه ويتقنون لسانه ببره والإهداء إليه سرا وجهرا.

كانت نوادره كثيرة، تتلقفها الألسن، ويتناقلها الرواة، فتشيع في الناس، وتكون سلوتهم ومثار ضحكهم.

وقديما عرف المصريون بالفكاهة الحلوة والنادرة اللطيفة، كما عرفوا بالإعجاب بها والجد في طلبها والإمعان في الضحك منها.

من أجل هذا ألف ابن زولاق المصري كتابه اللطيف في نوادر سيبويه، لم يذكر فيه إلا قليلا عن علمه، ولم يذكر شيئا عن نحوه ولا عن جده، وإنما ملأه كله بفكاهته ولوئته.

عُرف منذ شب بهذه اللوثة، تظهر في حركاته ورمش عينه، وزادت بترديه في بحر أُمّام بيته، يهيج أحيانا فيطرح ثيابه ويمشي عريان في الطريق، على عورته خرقه، وعلى أكتافه خرقه، وبيده عصا ومصحف، ويروح إلى الجامع وهو على هذا الحال يعظ ويتزهد، وأحيانا تهدأ ثائرته فينادم الأمراء والوزراء، ويعجبون بلطفه وظرفه، وتقول زوجته: إنه إنما كان يهيج إذا لم يأكل اللحم والدسم، فإذا أكلها هدأ.

قلت إن لوئته سر عظمته، فإذا هاج أتى بالنوادر الطريفة والكلم السيّار، ولذلك قالوا فيه: «إنه إذا لم يكن له من يهيجه لم يخرج علمه».

سب مرة خازن الإخشيد أو وزير ماليته، فأخذه وعذبه، ثم أطلقه وأجرى عليه الرزق، فكان الصبيان أحيانا إذا رأوه يتصايحون: «يا خازن اخرج عليه» فيهيج ما به وينطق بالقول اللطيف.

كان يقول القول على سجيته، لا يرهّب أحدا ولا يخشى سلطانا، قد أدخل مرة مستشفى المجاذيب، ثم أخرجه كافور الإخشيد، فلما مثل بين يديه قال له سيبويه: «ما مثلك يصطنع بعشرين ألف دينار ولا بثلاثين ألفا إذا كنت عادلا، فأما إذا كنت جائرا فأسود بعشرة دنائير يقوم مقامك».

وكان أكثر قوله سجعاً، ومن ثم كان أكثر دورانا على الألسنة وأسهل حفظا.

لقي المحتسب وبين يديه أجراسه، فقال: «ما هذه الأجراس يا أنجاس، والله ما ثم حق أقمتموه، ولا سعر أصلحتموه، ولا جان أدبتموه، ولا ذو حسب وقرتموه؛

وما هي إلا أجراس تسمع، لباطل يوضع، وأقفاء تصفع، وبراطيل تقطع، لا حفظ الله من جعلك محتسبًا، ولا رحم لك ولا له أما ولا أبا».

وكان تحشّي اللسان، يهزّب الوجهاء والأعيان إذا سمعوا صوته من بعيد، حتى لا يقذفهم من لذعاته تسير في الناس، وكان كافور يعجب كيف يسكت المصريون على سبه ويقول: «سبحان من سلط سيويه عليكم ينتقم منكم وما تقدرون على الانتصار»!

وما السبب في هذا إلا أنه كان يعمد إلى الرؤساء فيرميهم بكلماته القارسة، تصيب منهم مقتلاً، ويُسّر الشعب من هذا لأنه يعبر عما في نفوسهم، ويتنقم من خصومهم ويجرؤ بجنونه على ما لم يجرؤ عليه عقلاؤهم، وكان يستطيع بلسانه أن يصل إلى ما يتحرج من ذكره المتدينون - لقد كان يوماً يؤاكل ابن المادرائي الوزير، وعنده هارون العباسي فقدمت هريسة فقال هارون: أكثر منها يا سيويه فإنها تذهب بالوسواس من رأسك؛ فكف سيويه عن الطعام وأخذ يفكر؛ فقالوا فيم تفكر؟ قال أفكر في امتناع إبليس من السجود لآدم؛ والآن ظهر عذره - علم إبليس أن هذا في صلب آدم فلم يسجد له؛ ولو عُرض على كلاب اليهود أن تسجد لنسمة هذا في ظهرها ما فعلت.

ونحو هذا من أنواع الهجاء القاسي.

وهو مع هذا أديب ظريف له نظرات في الأدب جميلة؛ يقول: إن أفضل الكلام ما اعتدلت مبانيه، وعذبت معانيه، واستسلس على ألسنة ناطقيه، ولم يستأذن على آذان سامعيه.

وقد هجا بعض الناس شيخاً من شيوخه فقال سيويه:

مَا يَضُرُّ الْبَحْرَ أَمْسَى زَاخِرًا أَنْ رَمَى فِيهِ صَبِيٌّ بِحَجَرٍ

وسمع بيت المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوَّ له ما من صداقة بُدِّ
فقال هذا كلام فاسد، لأن الصداقة ضد العداوة ولو قال:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوَّ له ما من مداراته بد
لكان أحسن وأجود.

وبلغ المتنبي هذا النقد فذهب إلى سبويه وسمعه منه فتبسم وانصرف، فصاح
سبويه -انبيكم!-.

ومع هذا فلما سمع قول المتنبي:

ما كنتُ أملُ قبل نَعَشِكَ أن أرى رَضَوَى على أيدي الأنام تَسِيرُ الخ
صاح سبويه لبيك لبيك! أنا عبد هذه الأبيات.

مما يدل على ذوق حسن ونقد صحيح وتقدير للأدب.

ولقد كان عالي النفس، دقيق الحس، يرى الناس كلهم دونه، فلا يذل لعظيم،
ولا يهين لكبير، طلبه أنوجور بن الإخشيد أمير مصر لينادمه، فقال على شرط أن
أنزل حيث تنزل، وأركب حيث تركب، وأجلس متكئاً، فأجابه إلى شرطه.

وكان سبويه يُحدِّث عظيمًا فجاء خادماً يُسرَّ حديثاً إلى هذا الجليس فسمع له
وقطع الاستماع لسبويه. فقام سبويه مُغضباً، فسأله إلى أين؟ قال لا تجالس من لا
يرى مجالستك رفعة، ولا تحدِّث من لا يرى حديثك متعة، ولا تسألن من لا تأمن
منعه، ولا تأمرن من لا تأمن طوعه.

ولما ماتت أم سبيويه حضر في جنازتها كل كبير في مصر إلا ابن المادرائي الوزير، وعاد والناس حوله، فأخذ سبيويه يطلق لسانه في هجاء ابن المادرائي، وما نجاه من لسانه إلا أن لقيه في الطريق يأتي مسرعاً ليدرك الجنازة.

وعلى الجملة كان سبيويه طرفة مصر في عصره، علماً وأدباً وفكاهة وجنوناً - كان يقوم فيهم مقام العالم والواعظ والأديب، ومقام الجريدة السيارة الناقدة للذاعة، وكان منظره بديعاً، يدور في الأسواق على حماره أو حمار غيره، وما أكثر من كان يتقى لسانه بتقديم حماره!

فبحق قال «جواهر الصقلي» لما دخل مصر وذكرت له أخباره «لو أدركته لأهديته إلى مولانا المعز في جملة الهدية».

وبحق لما سمع به «فاتك» ممدوح المتنبي قال: ذكروني به لعلني أستدعيه فإنه نزهة.

القلب

رمتني آنسة «بأن لا قلب لي، وإن كان فليس يخفق» لأنني كتبت موضوعا في مجلة الرسالة عنوانه «أدب القوة وأدب الضعف» سميت فيه الأدب الذي يضعف النفس ويمرض العاطفة أدبا ضعيفا مائعا.

لك الله يا آنسة! أفتردين أن أشنع سبة يسب بها إنسان: أنه لا قلب له؟ وهل المرء إلا قلبه؟

ليس الإنسان جسما بعضه القلب، لكنه قلب غلافه الجسم.

لقد قالوا: «إن المرء بأصغريه قلبه ولسانه» ولكنهم -بقولهم- قد رفعوا من شأن اللسان إذا قرنوه بالقلب، ووضعوا من قيمة القلب إذ قرنوه باللسان، وهل اللسان إلا حاكٍ بكى لأحط حركات القلب وانفعالاته؟ وكيف يعبر المحدث عن القديم؟ أم كيف يحيط المحدود باللامحدود؟ وأين يقع معجم اللغة من معجم العالم؟

إن القلب يقرأ ما رسمه الله على السماء والأرض من أشعار، ولا يسمح منها للسان إلا بالقليل التافه، وما الشعر الملقوظ بجانب الشعر المحسوس؟

القلب لا يكذب أبداً واللسان لا يصدق إلا قليلا.

لعلك يا آنسة إن فتشت عن أعجب ما خلق الله في السماء وفي الأرض لم تجدي أعجب ولا أروع ولا أدق ولا أجل من قلب الإنسان -تصلح أوتاره فيفيض رحمة وشفقة وحبا وحنانا، ومعاني لطافا وشعورا رقيقا، حتى يتجاوز في سموه الملائكة المقربين، وتفسد أوتاره فينضح قسوة وسوء حتى يهوى إلى أسفل سافلين.

حوى على دقته كنه العالم! فما أدقه وأجله، وما أصغره وأعظمه!

يكبر - ولا نرى كبره - فيتضاءل أمامه كل كبير، ويصغر - ولا نرى صغره - فيتعاظم عليه كل صغير.

اتحد شكل القلب واختلقت معانيه، فقلب كالجوهر الكريم صفا لونه.

وراق ماؤه، يتلقى الإشعاع ويعكسه وهو على أشد ما يكون ضوءاً ولمعانا، وقلب كالصخر قوي متين، ينفع ولا يلمع، وقلب هواء، خف وزنه، وحال لونه - وقلب... وقلب... مما لا يحصيها إلا خالقها - إن اتحدت عيون الناس وآذانهم ووجوههم ورءوسهم نوعا من الاتحاد فإن لكل إنسان قلبا وحده، ينبض بنوع من حب وكره، وقسوة وحنان، وإعظام واحتقار، ورفعة وانحطاط لا يشركه فيه قلب آخر - وبهذا، وبهذا وحده. اختلفت قِيَمُ الناس وتعددت مراتبهم.

يموت القلب ثم يحيا، ويحيا ثم يموت، ويرتفع إلى الأوج، ويهبط إلى الحضيض، وبينما هو يسامي النجوم رفعة، إذا به قد لامس القاع ضعة، وهكذا يتذبذب في لحظة بين السماء والأرض، والطول والعرض، وخير الناس من احتفظ برفعة قلبه، وسمو نفسه.

هو إن شئت فردوس، وإن شئت جحيم، هو إن شئت مَلَك، وإن شئت شيطان، هو إن شئت نار تتقد بالحب:

هَلِ الْوَجْدُ إِلَّا أَنْ قَلْبِي لَوْ دَنَا
مِنْ الْجَمْرِ قَيْدَ الرُّمَحِ لاحتَرَقَ الْجَمْرُ

وإن شئت سلا فكان بردًا وسلامًا:

وَقَلْتُ لِقَلْبِي حِينَ لَجَّ بِهِ الْهَوَى
أَلَا أَيُّهَا الْقَلْبُ الَّذِي قَادَهُ الْهَوَى

وَكَلَّفَنِي مَا لَا أَطِيقُ مِنَ الْحَبِ
أَفِيقْ لَا أَقْرَأُ اللَّهَ عَيْنَكَ مِنْ قَلْبٍ

القلب مركز العاطفة، والرأس مركز العقل، وما العقل لولا العاطفة؟ إن العقل أكثر ما ينفع للهدم، والقلب أكثر ما ينفع للبناء، إن القلب يؤمن والعقل يلحد، والقلب يحب والعقل يحذر.

القلب يؤسس العالم، والعقل يسكنه، والقلب يخلق الشيء، والعقل يغصبه، سلى التاريخ أليس أعظم بناء العالم قد امتازوا بكبر القلب، وصدق الشعور، وقوة الإرادة، أكثر مما امتازوا بسعة العقل وقوة الإدراك؟

القلب بَنَى البناء والعقل تَقَدَّه، والقلب أَحيا الشعور والعقل حَدَّه.

هل تعلمين -يا آنسة- أن من وجد كل شيء وفقد قلبه لم يجد شيئا - وأن من جُرِّد من قلبه لا يعرف صداقة ولا يدين بوطنية ولا يشعر بحنان، ولا ينطوي على إيمان؟

أو تعلمين أن من سُلِب القلب فقد سُلِب الفن والأدب، لأن الفن مناطه القلب، والعلم مناط العقل؟ وقد سئل مصور ماهر كيف تمزج ألوانك؟ فقال: أمزجها بدم قلبي. وكذلك الأدب الحق، هو ما كان ذوب القلب.

يا آنسة لقد رَمَيْتِ فَأَصْمَمْتِ، ولشد ما خفق قلبي لسُبتك، كأنه يريد أن يثبت

وجوده!

الجامعة كما أتصورها

للجامعة - كما أتصور - وظيفتان: وظيفة علمية ووظيفة خلقية، وكلتا الوظيفتين متصلة بالأخرى أتم اتصال، فالضعف العلمي يتبعه ضعف خلقي والعكس، كما أن القوة العلمية تتبعها قوة خلقية والعكس.

فمن الناحية العلمية أرى أن وظيفتها تخالف الوظيفة العلمية للمدارس الابتدائية والثانوية، ففيها توجه العناية إلى وسائل التعليم أولاً، وكمية من العلم أثبت العلم صحتها ثانياً، أما في الجامعة فوسائل التعليم فيها ثانوية وإنما القصد الأول إلى البحث العلمي ووضع القضايا العلمية والأدبية موضع البحث والنظر، من أجل هذا لا يمكنك أن تتصور مدرسة ابتدائية أو ثانوية من غير طلبة، لأنه لا يمكن تعليم من غير متعلم ولكن يمكنني أن أتصور دراسة في كلية أو جامعة من غير طلبة، وذلك بعكوف طائفة من العلماء، ومساعدتهم يبحثون وينقبون - بل ولو كان هناك طلبة فالجزء الأهم من الجامعة لا يُقضى بين الفصول ولكنه يقضى في مكاتب الأساتذة والمكاتب العامة والمعامل.

وقديماً قالوا: «العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك» وهذا أكثر انطباقاً على العلم الجامعي والبحث الجامعي.

فأستاذية الجامعة - كما أتصورها - نوع من الرهينة، فكما ينقطع الواهب للعبادة في دير ينقطع الأستاذ للعلم وخدمته، أو بعبارة أخرى إن الراهب يعبد الله عن طريق الصوم والصلاة وهذا يعبد عن طريق العلم أيضاً.

فإذا شُغل الراهب بالمال وطرق تحصيله وحب الشهرة والرياسة والجاه فهو راهب فسد، كذلك العامل إذا شغله العلاوات والدرجات وحب الشهرة والجاه

فهو عالم فسد، إنما يجب على الأمة والحكومة أن توفر له وسائل راحته الضرورية التي تتناسب مع تفرغه للعلم وتضحيته لذائد الحياة من أجل العلم، فإن هو بعد ذلك ضل عن منهجه العلمي فاللوم عليه.

هذا العالم - في هذا الوضع - قد وُطن نفسه على خدمة العلم وخدمة الأمة من طريق العلم، وخدمة الإنسانية من طريق العلم، لا غرض له في الحياة إلا ذلك، العلم مثله الأعلى، والعلم لذته العظمى، والعلم يشغل أهم جزء من مخه، في أكله وشربه وراحته ورياضته وأحياناً في نومه، هو يحب الحقيقة كما أحب المجنون ليل، يرى أنه لا يخفف آلام الإنسانية إلا الإخلاص في الفكر، والإخلاص للعلم، ومواجهة الحقائق كما تبدو له، كائنة ما كانت ولو خالف الناس جميعاً.

من أجل هذا كله تتطلب حياته الاستقلال التام، بل إن الاستقلال له ألزم من الاستقلال السياسي لأن العلم لا يمكن أن ينهض إلا إذا كان حراً - والعالم لا يعد عالماً إلا إذا عشق الحق سواء كان ما اعتقده حقيقة يرضي الحكومة أو لا يرضيها، يرضي السياسة أو لا يرضيها، يرضي الآراء الشائعة أو لا يرضيها - إن كانت السياسة تعترف بأن من وسائلها المشروعة تقريب وجهات النظر فالعلم لا يعرف ذلك، إنما يعرف أن هذا أسود أو أبيض ولا شيء غير ذلك. أما أن يكون أغبش فلا - لا يبيع رأيه بهال ولا بجاه ولا بمنصب بل ولا بالدنيا كلها بل ولا بحياته، فكثير ضحوا حياتهم لنظريتهم العلمية.

هذا ما أتصوره في الأستاذ الجامعي، فإن انحرف عن هذا النهج لم يكن أستاذاً بحثاً بل كان أستاذاً وتاجراً، وكل ما في الأمر أنه تاجر بعلمه والآخر تاجر بسلعته بل هو شر من التاجر البحث لأنه اتخذ من العلم سلعة فقلب الوضع وتاجر في غير متاجر.

مثل هذا الأستاذ عزيز، وإذا ظفرنا بواحد من هذا الصنف في كل بيئة جامعية ضمنا نجاحها، لأنه إذ ذاك يصبح منارًا يهتدي به المدرسون والطلبة في الظلمات. هو مثل حي للتضحية، ومثل حي في سمو الخلق، ومثل حي لغلبة المعنويات على الماديات، هو خير على العلم والخلق جميعًا.

هناك عامل آخر في البناء الخلقي الجامعي يعين الأستاذ على تحقيق مثله، هو الجامعة ككل، ممثلة في مجالس كلياتها ومجلس جامعتها ومديرها وإدارتها.

وهي أن تكون متمشية مع الأستاذ في استقلاله، تعمل الواجب بقطع النظر عن كل اعتبار آخر، لا تخدم إلا شيئين: العلم والخلق، ليست تخدم حزبًا سياسيًا، ولا تخدم رغبة وزير، إنما تخدم العلم كعلم عالمي لا وطن له، وتخدم الخلق كخلق إنساني، فإن كان ولا بد من حصر هذه الدائرة الخلقية فإنها تخدم أمتها ككل، تتخذ لنفسها مركز النجم في السماء يسترشد به الساري، سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا، وسواء أكان لونه السياسي أبيض أم أسود، تعتقد أنها الجامعة المصرية لا الجامعة السياسية الحزبية، فإذا هي موضع التقديس من كل حزب، وموضع الإكبار من كل هيئة، ومتى اتخذت هذا الوضع كانت كل العواصف السياسية والحزبية تمُتُّ بعيدًا عنها ولا تلمسها، تهب حولها لا عليها، فإن أريد منها أن تتنحى قيد شعرة عن هذا النهج قال كل من فيها «لا» بملء فيه، حرة في معالجة مسائلها، حرة في وضع برامجها، حرة في تصريف مالها في حدود ميزانيتها، حرة في معالجة مشاكلها كما يترأى لها، قد تخطئ في ذلك ولكنها تتعلم من الخطأ كما تتعلم من الصواب، وتسترشد بضلالها كما تسترشد بهدائيتها، وهي بهذا تنمو من الداخل لا تنمو من الخارج، تكون كالإنسان يكبر وترعرع من الأكل الصحي والهواء الصحي، لا كالإنسان يضخم بكثرة الملابس عليه.

إن الجامعة إن فعلت ذلك كانت مثلاً للطلبة يحتذي في تصرفاتهم، إنهم ينجعلون أن يتحزبوا إذا كان كل الجو الجامعي حولهم لا يتحزب. إنهم يعودون إلى آباءهم الروحيين إذا لعبت بهم الأهواء، إنهم يسمعون نبضات قلوب أساتذتهم كما يسمعون دقات ساعاتهم، يضبطون بأعمال أساتذتهم أخلاقهم كما يضبطون على ساعة الجامعة ساعاتهم؛ أما إن عكس الوضع وسير الخارج الأساتذة وسير الطلبة الأساتذة والخارج كان ذلك هرماً مقلوباً أو كان رجلاً يمشي على رأسه أو كان ضبطاً لساعة المرصد على ساعة رجل الشارع، وفي ذلك إنذار بالخيبة.

بجانب أستاذ الجامعة وهيئة الأساتذة والإدارة عامل آخر كبير من عوامل الخلق الجامعي، هو تكوين رأي عام بين الطلبة يشعر بالواجب ويقدر المسؤولية وأعتقد أن تسعين في المائة من زلات الطلبة ترجع إلى فقدان هذا العامل الهام، فلو أن هناك رآياً عاماً يحترق الطالب إذا كلم فتاة كلمة نابية أو نظر إليها نظرة شاذة فهل يجرو الطالب على ارتكاب هذا الخطأ؟ وإذا كان الرأي العام بين الطلبة يحترق الكاذب ويحترق المستهتر ويحترق الهازل فما أعظم الإصلاح الذي يرجي من وراء ذلك.

إن معظم الزلات الخلقية من الطلبة لا تقع تحت سلطان القانون فليس القانون يؤاخذ على كذبة ولا نظرة نابية ولا كلمة جارحة ولا ضحكة مستهترة ولا نحو ذلك من الشرور إنما يترك ذلك كله للرأي الجامعي يعاقب عليه بالازدراء والاحتقار والمقت. فما لم يوجد رأي عام من هذا القبيل واكتفى بالقانون فلا أمل في النجاح.

لا بد من الإكثار من اجتماع الطلبة بمناسبات مختلفة يتعرضون فيها للخطأ ويهيا الرأي العام فيها للنقد على هذا الخطأ حتى يتبلور الرأي العام ويأخذ سبيله في سلطانه على النفوس - يجب أن يعودوا أن يحكموا أنفسهم بتكوين قضاة منهم يحكمون على زلاتهم وينفذون قضاءهم بأيديهم وألستهم، بهذا يسود في الطلبة

الشعور بالشرف والندم على الهفوة- يجب أن يكون للجامعة تقاليد قد أسست على قانون الشرف، يخشى كل طالب من كسرها كما يخشى من ارتكاب السرقة أو الخيانة. حكى لي أستاذي المرحوم عاطف بركات باشا أنه لما سافر في بعثة إلى جامعة من جامعات إنجلترا، وكان حديث عهد بها دخن في حجرة كان التدخين فيها محرماً فمر بعض رجال الجامعة في هذه الحجرة وشم رائحة الدخان فسأل من المدخن؟ فلم يجب أحد ولا عاطف بركات فتركهم الأستاذ وانصرف. قال عاطف باشا: فأحسست أن كل من حولي من الطلبة ينظرون إلي نظرة فيها شيء كثير من الاحتقار. فمن ذلك اليوم عظم شأن الصدق في نفسي واستفطعت غلطي ولم أعد بعد إلى مثلها.

وما يتصل بهذا بث الروح بين الطلبة بشدة ارتباطهم بكليتهم فيفخرون بأستاذهم الشهير بعلمهم ومؤلفاته. ويفخرون بالنابغة فيها من أساتذتهم وطلبتهم ويانتصار كليتهم في الألعاب وفي جميع أفعال البطولة وفي ميادين الأعمال الشريفة ويستهنون أعمال النذالة والسلوك الوضيع، وعلى الجملة يشعر كل طالب بأنه جزء من كل يعتز بعزة الكل ويهون بهوانه.

أستاذ صالح يقوم مقام المنارة في الكلية وهيئة صالحة من الأساتذة والإدارة ورأي عام من الطلبة له سلطان على نفوسهم، هي أهم ما أرى من عوامل الإصلاح للخلق الجامعي والعلم الجامعي.

سلطة الآباء

رحم الله زمانا كان الأب فيه الأمر الناهي، والحاكم المطلق، والملك غير المتوج؛ ينادي فيتسابق من في البيت إلى ندائه، ويشير بإشارته أمر، وطاعته غنم؛ يتحدث الزوجة في خفر وحياء، ويحدثه الابن في إكبار وإجلال؛ من سوء الأدب أن يرفع إليه بصره، أو يردّ عليه قوله، أو يراجعه في رأي، أو يجادله في أمر. أما البنت، فإذا حدثها لف الحياء رأسها، وغض الخجل طرفها؛ قليلة الكلام، متحفظة الضحك، خافضة الصوت، تتوهم أنها أخطأت في التافه من الأمر فيندى جبينها، ويصبغ الخجل وجهها، وإذا جاء حديث الزوج والزواج فإلى أمها الحديث لا إلى أبيها، وبالتلويح والتلميح لا بالتصريح، والأمر إلى الأب فيما يقبل وفيما يرفض، وفيما يفعل وما لا يفعل.

في جملة الأمر أن البيت ينقسم إلى قسمين: حاكم وهو الأب، ومحكوم وهو سائر الأسرة، منه الأمر ومنهم الطاعة، له السيادة وعليهم الخضوع، يرسم الخطط وهم ينفذونها، يجلب الرزق ويتولى الإنفاق وهم يسيرون على ما رسم، وويل لمن عارض أو تبرم! إن أحس الابن حاجة ملحة إلى مال، أو شعر بضرورة ملجئة إلى أكثر مما أخذ، لم يجرؤ أن يجابه بالطلب؛ إنما يحاور ويداور ويلمح ويرمز، فإن أعياه الأمر وسط الأم لعلها تستطيع أن تعبر تعبيراً أوضح وأصرح، وقل أن تنجح.

وبجانب سلطة الأب الدنيوية كانت سلطته الدينية. فهو يوقظهم قبل الشمس ليصلوا الصبح أداء لا قضاء، ويسألهم في أكثر الأوقات عن صلاتهم كيف صلوا، وعن وضوئهم كيف توضئوا، يعلم الجاهل ويؤم المتعلم، ويجمعهم حوله من آن لأن يصلي بهم، ويذكرهم ويعظهم، ويقص عليهم قصص الأنبياء، وحكايات الأولياء والصلحاء - وإن أنس فلن أنس جمال المواسم الدينية - كيوم نصف شعبان، إذ تشعر

في البيت من الصباح بحركة غير عادية: هذه ترتب البيت، وهذه تعد الأكل الحافل، وتهيأ الجميع قبل الغروب استعدادًا لصلاة المغرب، قد لبس النساء البياض؛ وتقنعن بالشاش الأبيض، وإذا رب البيت يؤم جميع من في البيت، ثم يُخرج دعاء نصف شعبان من جيبه ويتلوه عليهم، يقول جملة فيرددونها، ويتهلل معهم إلى الله أن يسعده ويسعدهم ويصلحه ويصلحهم، ويبارك له في ماله وفي نفسه وفي ذريته، ثم يأخذون حظهم لبطونهم كما أخذوا حظهم لأرواحهم، وشملتهم السعادة، وعمهم البشر والهناء.

لقد ودعنا ذاك الزمان بخيره وشره، وحلوه ومره، واستقبلنا زمانًا صار فيه الأبناء آباء، والمرءوس رئيسًا والرئيس مرءوسًا.

قالت الخطيبة لخطيبها: الناس أحرار، وأنا إنسان وأنت إنسان، فإن اعتزرت بالكسب اعتزرت بالإنفاق، وإن اعتزرت بالرجولة اعتزرت بالأنوثة، وإن اعتزرت بأي شيء فأنا أعتز بمثله ويخير منه؛ فأنا وأنت شريكان لا سيد وأمة ولا مالك ومملوك، لي كل الحقوق التي لك، وقد يكون عليّ بعض الواجبات التي عليك، فإن سفرت سفرت، وإن غشيت دور الملاهي غشيتها؛ عليك أن تحصل المال وعليّ الإنفاق، ولك السلطان التام في اختيار طرق التحصيل، ولي الخيار التام في وجوه التبديد. أنت للبيت والبيت لي. إن كان لك أم فقد شيعت سلطة في الماضي أيام كانت زوجة، فلا حق لها أن تنعم بسلطانها وسلطان غيره، فليس لها الحق إلا أن تأكل. كما ليس لك الحق في حبها؛ فالحب كله للزوجة، إنما لك أن ترحمها. والدين، لا شأن لك فيه بتاتًا فهو علاقة بين العبد وربه؛ وكل إنسان حر أن يحدد هذه العلاقة كما يوحى إليه قلبه؛ فإن شئت أنت أن تتدين فتدين، على شرط ألا تقلب نظام البيت، وتقلق راحتي وراحة الخدم.

ورأي الرجل أن الأحكام القاسية، والشروط فادحة، وهام يبحث بين الممدّنات
عمن يرضى به زوجًا على الشروط القديمة فأعياه البحث.

وأخيرًا نزل على حكم القضاء، وأسلم نفسه لسلطان الزمان، وقدم الطاعة
للزوجة، بعد أن كانت هي تقدم الطاعة له، ولا يزال في دار الآثار في المحاكم
الشرعية قضايا اسمها قضايا الطاعة، يحكم فيها للأزواج على الزوجات، حفظ
شكلها وبطل روحها، ولو كانت المحاكم محاكم عصرية لحكمت بالطاعة على الزوج
لزوجته وحكمت بالنفقة على الزوجة لزوجها.

وتم الزواج، وفرحت الزوجة بالظفر فغالت في الطلب، وابتدعت كل يوم
مطلبًا جديدًا، وأرادت أن تتقم لأمهاتها من آباءه في شخصه، فطلما أطنن وظالما
خضعن، فليطع دائئًا وليخضع دائئًا، جزاء وفاقًا على ما جنى آباؤه وأجداده.

قالت: إن رقصت رقصتُ، فذلك حقك وحقي، قال نعم. قالت: بل إن لم
ترقص رقصتُ لأنك إن أضعت حقك لم أضع حقي، وإن خاللت خاللتُ فالجزاء
من جنس العمل، بل إن لم تخالل ربها خاللت، لأن حياة الزوجية البحتة قد يعترها
الركود والسأم والملل، فصرخ ولف الغضب وجهه، وحاول أن ينكل بها فتراجعت،
وسحبت مطلبها الأخير، ورأت الحكمة أن تترث بعض الشيء حتى يبلع ريقه من
أثر الصدمة الأولى، ويستعد للصدمة الثانية، فإن لم يسعفها الزمان أوصت بناتها
بشروطها الجديدة.

قالت: وسيكون أول ما أوصي به ابنتي أن تتخذ قياس خطيبتها، ثم يكون من
أول جهازها أن تفصل له برّدة ولجامًا على قدره، فتضع البردة عليه وتركبه إذا
شاءت، وتشكمه باللجام إذا حاول أن يتحرك يمينًا أو شمالًا على غير رغبتها.

وشاء الله أن يُرزقا بنين وبنات.

وقد رأوا أن الأم لا تُجِل الأب فلم يُجِلّوه، ولم تُعره كبير التفات فلم يعبروه، ورأوها تبذر في مال الأب فبذروا، ورأوها حرة التصرف فتحرروا، ورأوها تخرج من البيت من غير إذن الأب فخرجوا خروجها، وتعود متى شاءت ففعلوا فعلها، ورأوها لا تتدين فلم يتدينوا، ورأوها تطالب الأب ألا يفتح رسائلها فطالبوا، ورأوها تتكلم في المسائل الدقيقة أمام أبنائها وبناتها في صراحة فتفتحت شهواتهم، وتحركت رغباتهم، وجمحت تخيلاتهم.

وقال الأبناء لأبيهم: إنا مخلوقون لزمان غير زمانك فاخضع لحكم الزمان، وقد نشأنا في زمن حرية في الآراء، وحرية في الأعمال، وحرية في التصرف، لا كما نشأت في جو من الطاعة والقيّد والأسر والتقاليد، فمحال أن يسع ثيابك الضيق أبداننا، وتقاليدك العتيقة البالية نفوسنا، فإن حاولت ذلك فإننا نحاول إدخال الثور في قارورة، أو لف القصر الكبير بمنديل صغير! قال نعم. قالوا وأنت الذي سمح لنا بادئ ذي بدء أن نغشى دور السينما والتمثيل، وأن نسمع الأغاني البلدية، ونشاهد المراقص الأوربية، فإذا أقررت المقدمة فلا تهرب من النتيجة. وأنت الذي عودنا ألا نضع للبيت «ميزانية» فأنت تعطي «ماهيتك» لأمنّا تنفق من غير حساب فإن انتهت في نصف الشهر طلبت منك أن تقترض فاقترضت، وأن تشتري ما لا حاجة لنا به فاشتريت، وأن تقدم الكمال على الضروري فأطعت، فليس لك أن تطالبنا بالاقتصاد في الجدول الصغير، والنهر الكبير ليس له ضابط. وخرق أن تحاول أن تضع ميزانية دقيقة لمصلحة وميزانية الدولة مبعثرة! قال نعم. قالوا وقد أضعت سيادتك على أمنّا فلم تفرض سيادتك علينا؟ ورضيت بالخضوع لها فلم تأباه علينا، وهي أم الحاضر وأنت أبو الماضي ونحن رجال المستقبل؟ قال نعم. قالوا وأنت نشأت في زمن خضوع تام: خضعت لأبيك في المهدي صبيّا، وخضعت للفقهاء في المكتب، وللمدرس في المدرسة، فإذا قلت برأسك هكذا، قال الأستاذ بعصاه هكذا، فنكست رأسك،

وغضضت بصرک، وأسعفتک عينک بالبكاء، ولم يسعفک لسانک بالقول، فلما صرت «موظفا» وقفت من رئيسک موقفک من أيبک وأستاذک، تنفذ دائما وتطيع دائما- ولم یجِرْ على ذهنک يوما تفکیر في استقلال، ولا على لسانک نداء بحرية أما نحن فحريتنا في بيتنا حررتنا على أستاذتنا، وناديننا بالحرية القومية فتبعتمونا في شيء من الرياء، تظهرون الطاعة لرؤسائکم، وتبطنون الرضا عن حركاتنا، وتريدون أن تجمعوا بين الحرص على ماهيتکم والحرص على وطنيتکم المكبوتة قال نعم. قالوا: فلما قُذِّناک وقدنا رجالنا في السياسة فلنقدکم جميعا في كل شيء: في البيت وفي المال وفي العلم وفي رسم الخطط: ولنقلب الوضع فنكون قادة وتكونوا جنودًا وإلا لم نرض عنکم جنودًا ولا قادة.

وقالت البنات لأبيهن:

يا أبانا الذي ليس في السماء! رقصت أمانة فرقصنا، وشربت أمانة فشربنا، وشربت سرا فلتسمح لنا بحکم تقدم الزمان أن نشرب جهراً، ورأينا في روايات السينما والتمثيل حبا فأحبينا، ورأينا عريا على الشواطئ فتعربنا، وتزوجت أمانة بإذن أبيها فلتتزوج نحن بإذنتنا. قال نعم. قلن: وقد أوصتنا أمانة أن نركب الزوج ولكنتنا أمام مشكلة يشغلنا حلها. فإن نرى شبان اليوم متمردين لا يخضعون خضوعك ولا يستسلمون استسلامك، فأرادتهم قوية كإرادتنا، وهم يحبون السلطة حبنا؛ فهم أحرار ونحن أحرار، وهم مستبدون ونحن مستبدات، فكيف نتفق؟ هل يمكن أن يبقى البيت بعدة استبدادات؟ ولكن لا بأس يا أبانا! هل البيت ضرورة من ضرورات الحياة؟ أوليس نظام الأسرة نظاماً عتيقاً من آثار القرون الوسطى؟ قال نعم. قلن: على كل حال فيصح أن يجرّب جيل النساء الجديد مع جيل الرجال الجديد، فإن وقع ما خشينا عشنا أحراراً وعاشوا أحراراً، وطالبنا بتسهيل الطلاق ويهدم المحاكم الشرعية على رؤوس أصحابها، وتعاقدنا تعاقداً مدنياً. قال الأب:

وماذا تفعلن بها ترزقن من أبناء وبنات؟ قلن لك الله يا أبانا! إنك لا تزال تفكر بعقل جدنا وجدتنا! لقد كنت أنت وأبوك وجدك تحمّلون أنفسكم عناء كبيرًا في التفكير في الأولاد، وتضحّون بأنفسكم وأموالكم في سبيلهم، وتعيشون لهم لا لكم. أما عقليتنا أهل الجيل الحاضر فأن نعيش لأنفسنا لا لغيرنا. لقد ضحك عليكم الدين والأخلاق ففهمتم أن الواجب كل شيء، وكشفنا اللعبة ففهمنا أن اللذة كل شيء، فنحن نمنع النسل، فإذا جاء قسرا فليعيش كما يشاء القدر؛ ولنقدم حظنا على حظه، وسعادتنا على سعادته، ولا نفكر فيه طويلا، ولا يتدخل في شؤوننا كثيرًا ولا قليلا.

قال الأب: وأمر المال كيف يدبّر؟ كيف تعشن أنتن وأولادكم إذا كان طلاق وكان فراق؟ قلن هذا ظل آخر ظريف من ظلال تفكيرك، دع هذا يا أبانا والبركة أخيرًا فيك.

أما بعد فقد خلا الأب يومًا إلى نفسه، وأجال النظر في يومه وأمسه، فبكى على إطلاق سلطته المتهاورة، وعزته الزائلة، ورأى أنهم خدعوه بنظرياتهم الحديثة، وتعاليمهم الجديدة - قال: لقد قالوا إن زمان الاستبداد قد فات ومات، فلا استبداد في الحكومة، ولا استبداد في المدرسة، فيجب ألا يكون استبداد في البيت؛ إنما هناك ديمقراطية في كل شيء، فيجب أن يكون البيت برلمانًا صغيرًا يسمع فيه الأب رأي ابنه ورأي بنته ورأي زوجه، وتؤخذ الأصوات بالأغلبية في العمل وفي المال وفي كل شيء؛ وقالوا تنازل عن سلطتك طوعًا، وإلا تنازلت عنها كرهاً، وقالوا إن هذا أسعد للبيت، وأبعث للراحة والطمأنينة، وقالوا إن هذا يخفف العبء عنك، فنحن نقسم البيت إلى مناطق نفوذ، فمنطقة نفوذ للمرأة، وأخرى للرجل، وثالثة للأولاد، وكلهم يتعاونون في الرأي ويتبادلون المشورة. سمعت وأطعت فماذا رأيت؟ رأيت كل إنسان في البيت له منطقة نفوذ إلا شخصي، ولم أر البيت برلمانًا، بل رأيت حكامًا بلا ماء، وسوقًا بلا نظام، إن حصلتُ على مال أرادته المرأة فستائنًا، وأرادته البنت بيانو،

وأراد ابن سيارة؛ ولا تسل عما يحدث بعد ذلك من نزاع وخصام. وإن أردنا راحة في الصيف أردت رأس البر لأستريح، وأرادت الأم والبنات الإسكندرية قريباً من ستانلي بأي، وأراد ابن أوربا؛ إلى ما لا يحصى، ولا يمكن أن يستقصى؛ وأخيراً يتفقون على كل شيء إلا على رأيي. فوالله لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما تزوجت، فإن كان ولا بد ففلاحة صعيدية، لم تسمع يوماً بمدينة، ولم تترك يوماً قطاراً إلى القاهرة والإسكندرية، لها يد صناع في عمل «الأقراص»، ورأس صناع في حمل «البلاص».

أيتها الزوجة! ويا أيها الأبناء والبنات! ارحموا عزيز قوم ذل!

والراديو أخيراً

نشأت في حي وطني، لم يأخذ من المدنية الحديثة بحظ قليل ولا كثير، يعيش أهله عيشة وادعة هادئة بطيئة، لم تتغير عن معيشة القرون الوسطى إلا قليلاً، ولم تنقطع الصلة بينهم وبين آبائهم وأجداده، إذا عرضت عليهم صفحة من حياة مصر قبل بضع مئات من السنين فهموها حق الفهم، وقرءوها في أنفسهم وفي معيشتهم، فكانت الصلة بيني وبين سكان القاهرة في عهد الفاطميين أو الأيوبيين أو المماليك، أقرب من الصلة بين ابني وعهد إسماعيل؛ فالحياة في السنين الأخيرة غيرت سكان المدن تغييراً كبيراً، ونقلتهم نقلة مفاجئة سريعة، حتى ليحملق الطفل في عينك استغراباً إذا حدثته بحدث يتصل بالحياة الاجتماعية في عهد جده أو جدته، ويرى كأن الدنيا خلقت خلقاً جديداً.

كانت حارتنا تمثل طبقات الشعب المختلفة، يسكنها البائع المتجول، يظل نهاره وشطرا من ليله متنقلاً في الحارات والشوارع، ينادي على البلح في موسم البلح، والخيار في موسم الخيار. وأسرته وأقاربه يعيشون جماعات في بيت كبير عيشة يائسة تعسة، كل جماعة في حجرة.

وطائفة من الموظفين من رئيس قلم في وزارة الأوقاف، وكاتب في وزارة الأشغال يمثلون الطبقة الوسطى في حياتهم الاجتماعية والمدنية.

وبيت أرستقراطي واحد، كان ربه نائب المحكمة الشرعية العليا، وكان متقدماً في السن، عظيم الجاه، وافر المال؛ له الخدم والحشم، يرهبه الكبير، والصغير، وله عربة فخمة، تضرب خيولها الأرض بأرجلها فتملأ القلوب هيبة؛ وكان كل سكان الحارة يسمونه «الشيخ» من غير حاجة إلى ذكر اسم، فالشيخ ركب، والشيخ جاء،

وعند بيت الشيخ- وكان الشيخ نعمة على الحارة، فلا تستطيع امرأة أن ترمي ماء قدرا أمام بيتها خوفا من الشيخ، ولا يستطيع قوم أن يرفعوا أصواتهم في السباب والنزاع خوفا من الشيخ؛ ولذلك امتازت حارتنا عن مثيلاتها وعمها يحاورها بالنظافة والهدوء.

كان بين سكان الحارة رابطةً تشبه الرابطة بين أفراد القبيلة، يعتر الأولاد بحارتهم ويهتفون بها في النداء، ويكون بينهم وبين أولاد الحارة الأخرى منافرة فيحتكمون إلى القوة، ويعتزون بالناشئ الشجاع يظهر بينهم يذود عنهم، ويجلب النصر لحارتهم- ويرى سكان الحارة حق الجوار بأدق معانيه، يعودون أحده إذا مرض، ويهتئونه إذ عوفي، ويواسونه في مأتمه، ويشاركوه في أفراحه، وهم في ذلك سواسية، لا يتعاضم غني لغناه، ولا يتضاءل فقير لفقره.

وكان لكل بيت من بيوت الطبقة الوسطى منظره (مندرة) لاجتماع الأصدقاء في إحداها. فيسمرون فيها السمر الحلو اللطيف، وأحيانا يجتمعون فيحلو لهم العشاء معا فيرسل كل رسولاً إلى بيته يحضر منه خير ما عنده، وأحيانا يجيئون الليلة في سماع قرآن أو حفلة طرب، ولحسن حظي كان بجوار بيتنا موظف في الأوقاف يهوي الناي ويتقنه، فكان كثيرا ما يجيي أصدقاؤه في منظرته حفلات شيقة بديعة، إليها يعود الفضل فيألي من أذن موسيقية، وميل لسماع الغناء والافتتان به.

كان من المناظر التي لا أنساها طائفة من الرجال، قد لبس كل منهم على جلبابه الأزرق ميدعة من الجلد، يحمل القربة على ظهره ويمشي بها في ركوع، وهم يغدون في الحارة ويروحون، ينادي أحدهم بعد أن يُفرغ قربه في الزير: «سقا عَوْض»، وهي كلمة كنت أفهم منها المنادة على الماء، ولكن بما كنت أفهم معناها تفصيلا، بل لعلمي لم أفهمه إلى الآن. فإذا سمعته سيدة أطلت من الشباك وأمرته أن يأتي لها بقربة حلوة

أحيانا، وربما تصنعت في مناداتها فرققت من صوتها وتدللت في نغمتها، فكانت فتنة للسامعين.

وكثيرا ما طال النزاع بين السقاء وربة البيت؛ فهو يقول إن القرب صارت سبعا، وهي تأبى إلا ستا، ويطول الحوار والجدل والقسم بالأيان، وأحيانا يتفادى السقاء هذا الجدل بطريقة من طريقتين، إحداهما أن يوزع خرزا من نوع خاص على صاحبة البيت عشرا عشرا، أو عشرين عشرين، وكلما أتى أخذ خرزة، فإذا فرغ الخرز علم أن تم العدد فأخذ حسابه؛ وثانيتهما أنه كلما أتى بقربة خط على الباب بحجر أبيض خطأ - ولم يكن يعرف الطباشير ولا كتابة الأرقام - وأحيانا يتهم السقاء ربة البيت بأنها مسحت خطأ، وأحيانا تتهمه هي أنه خط خطين لقربة واحدة، فإذا تكرر مثل ذلك أبى السقاء في معاملة هذا البيت إلا أن يأخذ نصف القرش ثمن القربة الحلوة قبل أن يتحرك من مركزه أمام باب الحارة.

وفي يوم من الأيام حول سنة ١٩٠٠ رأيت الحارة قد مزقت وحفرت فيها الحفر طولاً وعراً، ومُدت المواسير وأدخلت في بيتنا الحنيفة واستغينا عن السقاء، وأراحنا الله من سماع النزاع حولنا، وأصبح الماء في كل طبقة من بيتنا، في أسفله وأوسطه وأعلاه، وشعرت أن البيت قد دب فيه الحياة. فالله يقول {وجعلنا من الماء كل شيء حيا} وما أنس لا أنس خادما أتت منزلنا إذ ذاك من قرية من قرى الفلاحين فعجبت أشد العجب من الماء يخرج من الحائط ثم لا ينقطع إلا إذا شئنا، وحارت في تحليل ذلك، وأظنها حائرة إلى اليوم إن كانت على قيد الحياة.

وألفنا الماء يخرج من الحائط، وذهب الإلف بالعجب، ولكن ظللنا نستضيء بالجاز، وهو ما يسميه سادتنا العلماء زيت البترول، وكان لمضايقاته أشكال من العذاب وألوان، فيوما ضربتُ لأنني أرسلت لأشتري زجاجة لمبة فكسرت مني في الطريق، وكثيرا ما فسد مفتاحها فإذا أدناه يمينا أخذ يرتفع اللهب ثم يرمينا

بالهباب، وإذا أدرناه شالاً أخذ يهبط حتى لا نرى، وهكذا دواليك، حتى يضيق الصدر ونذهب إلى النوم قبل الموعد- وكثيراً ما نكون في سمر لذيد أو حديث ظريف أو قراءة مُلِحَّة، ثم نسمع الزجاجة كسرت فينكسر قلبنا لأن الوقت ليس وقت بيع وشراء، أو ننظر فإذا الجاز قد فرغ ولا جاز لنا!

ثم رأينا الأسلاك تحزم البيت، وتحزم كل حجرة فيه وتدخل بيتنا الكهرباء، فتدير المفتاح مرة فتضيء الحجرة ونديره مرة فتظلم- وأبى الله إلا أن يرزقنا هذه المرة أيضاً بخادم خطبت في قريتها وأرادت السفر لتزوج، فطلبت منا أن نعطيها لمبة من اللمبات الكهربائية أو لمبتين لتنيرها في حجرتها ليلة زفافها- وكان هذه الخادم فصل أظرف من هذا وألطف، فقد نظرت أول ما أتت من قريتها إلى السقف فلم تر فيه عروفاً تحمل ألواح الخشب (لأنه كان من الأسمت المسلح) فصعدت إلى السطح لتحقيق الأمر لعل السقف مقلوب، وأن العروق من فوق والأخشاب من تحت، فلما لم تر عروفاً فوق ولا تحت، أحست بالخيبة في تعليلها، وفوضت إلى الله أمرها!..

ثم دار الزمن دورته وإذا بعامل يأتي ليحزم البيت من جديد، وإذا بالأسلاك تمتد وآلة صغيرة تركب وحرس يدق وإذا بالتليفون، وإذا بنا نتصل بمن في القاهرة وضواحيها بل بمن في أنحاء القطر ويتصل بنا من أحب، وأحسست إذ ذاك أن البيت قد استوفى حظه من الحياة كما يستوفيهما الجسم الحي الراقي من شرايين وأوردة على أدق ما تكون من نظام- وكان لي مع التليفون متاعب أود معها لو لم يكن، وأحياناً محامد أحد الله أن كان- فقد كنت قاضياً، وبيتي وحده من بين القضاة فيه تليفون يصلني برئيس المحكمة، فقد يتغيب قاض فجأة عن الجلسة فيدق التليفون - ألو- انتدبناكم اليوم لمحكمة العياط، ومرة أخرى لمحكمة الصف، وقد يكون الجو

قاسيا، حر يذيب رأس الضب، أو برد يقف منه الجلد، على كل حال، كثيرا ما كان نذيرا بشرا، وكثيرا ما كان بشيرا بخير.

وأخيرا أتى العامل أول أمس يزيد الأحزمة حزاما، ولكنه في هذه المرة حزام ناقص - خط رأسي وخط أفقي، وآلة لا يابه لها النظر، وفي ذلك سر عجب، هذا هو الراديو - فيه علم إن شئت، وفن إن أردت، وناطق إن أصغيت، وساکت إن أعرضت، ومتحدث بكل لسان، وأصلك بكل مكان - إن شئت معلما فمعلم، أو غناء فمغن، أو فنا ففنان - يهزل حيث تحب الهزل، ويمجد حيث تهوى الجلد. يمتاز عن التليفون بأن التليفون طالب ومطلوب فإذا كان طالبا فقد يفجعك بخبر، أو يوقظك من نوم، أو يحملك مطلبًا يشق عليك، أو يصلك بمحدث يثقل على نفسك، ثم تريد أن تتخلص منه فلا تستطيع فقد لزم الأمر، وحُمّ القضاء. أما الراديو فليس إلا مطلوبا، هو عبد مطيع، وخادم أمين. إما ساكت أو متكلم بما أحببت، نديم ظريف، جُهينة أخبار، وحقية أسرار، ترياق الهم، ورُقينة الأحزان، قد تكون له مساو لم تعرفها فإن جربتها فسأحدثك عنها.

أين أنت أيتها الخادم التي عجبت من حنيفة الماء، وأين أنت أيتها الأخرى التي عجبت من مصباح الكهرباء، لو كنتما اليوم في بيتنا لشاركتكما العجب، ولو قفت معكما حائرا من العلم الحديث، والفن الحديث، ولانفردت عنكما بالحزن العميق على أن ليس لنا من هذه المخترعات إلا المشاركة في الاستهلاك لا في الإنتاج، وأننا، في -مواسير الماء ومصابيح الكهرباء، وآلات الراديو والتليفون - وما إلى ذلك من شؤون المدنية، لنا أن نشترى وليس لنا أن نبيع، لنا أن نكون من النظارة ولكن ليس لنا أن نكون من الممثلين، ولنا أن نستورد ولكن ليس لنا أن نصدر.

إن كنت أيها الراديو قد دخلت البيت أخيرا فلست آخر ما يدخل، فهم يحدثوننا عن سلك آخر سيدخل قريبا يحمل الصور كما تحمل أنت الصوت، فإن كنا الآن

نسمع لك فسنسمع بعدُ ونرى - ومن يدري! لعل أسلاكاً أخرى تدخل فتوزع الحرارة والبرودة بقدر، وأسلاكاً وأسلاكاً - بل لعل هذه الأسلاك لا تعجب الجيل القادم فيراها بعد أن يتحرر رمزاً لعصر بغيض أولع الناس فيه بالقيود حتى سلسلوا بيوتهم بهذه السلاسل، وسيهزءون بهذا النوع من الحياة الساذجة التي تستعين على الرغبات بالمواسير والأسلاك، وسينظرون إلينا كما ننظر نحن إلى سكان ما قبل التاريخ، وسيعجبون إذ فرحنا باتصالنا بأهل الأرض مع أنهم اتصلوا بأهل السماء. وستعود البيوت من غير أسلاك، ولكنها وافية بالمطالب التي نستمتع بها، والتي نصبو إليها، والتي لا يقدر خيالنا الآن حتى على الحلم بها، ويخلق ما لا تعلمون.

عدو الديمقراطية

لندع الديمقراطية السياسية، فلها نظرياتها ورجالها، ولها نزاعها الحار بين أنصارها وأعدائها.

ولتكلم في الديمقراطية الاجتماعية وأعدائها- فأكبر مظاهرها الاشتراك في مرافق الحياة من غير أن تتميز طبقة من طبقة، فإذا رأيت في القطار درجة أولى وثانية وثالثة فهذا مظهر أرستقراطي، وإذا رأيت ذلك في عربات الترام والسيارات العامة والسينما والتمثيل فهذا أيضًا مظهر من مظاهر الأرستقراطية، وإذا رأيت أحياء يعني فيها بالكنس والرش والنور، وأحياء لا يعني فيها هذه العناية. فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية، وإذا رأيت في المآتم والأفراح كراسي ضخمة مذهبة، وأخرى بسيطة ساذجة، وقوما يستقبلهم آل الميت وآل العرس بالحفاوة فيجلسونهم في الصدر، وآخرين يُستقبلون في غير حفاوة فيُجلسون في الذيل فهذا أيضًا مظهر من مظاهر الأرستقراطية- وإذا رأيت في قاعات المحاضرات أماكن حجزت لكبار المدعوين، وأخرى حقا مشاعا للدهماء، فهذا كذلك مظهر من مظاهر الأرستقراطية- وإذا رأيت الحجاب على الأبواب يفتحونها لمن نزل من سيارة، ويغلقونها في وجه ذي الجلباب الأزرق فذلك نوع من الأرستقراطية، وإذا رأيت مقهى أفرنجيا فيه فنجان القهوة بخمسة قروش أو تزيد، ومقهى بلديا فيه فنجان بخمسة مليات أو تنقص، فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية، ولا أسترسل في ذلك، فلعلك -يا صاحبي- فهمت مظاهر الأرستقراطية والديمقراطية، وعلمت أنك في كل خطوة تخطوها ترى هذه المظاهر في أشكالها المختلفة، وألوانها المتعددة.

وهناك دعاة يدعون إلى هذه الديمقراطية الاجتماعية، كما أن هناك دعاة يدعون إلى الديمقراطية السياسية، ولهم على ذلك حجج وبراهين.

ولكن لعل أعدى الديمقراطية وأهم طعنة توجه إلى دعايتها، وأقوى حجة يتسلح بها دعاة الأرستقراطية شيء واحد هو «القذارة» فأكثر تصرفات الأرستقراطيين وأشباههم عذرهم فيها طلب النظافة والترفع عن القذارة.

قد يركب راكب الدرجة الأولى في القطار أو الترام أو السيارات طلباً للوجاهة وخشية أن يراه الناس بين جمهور الفقراء أو نحو ذلك من أعذار كلها سخيفة، ولكن عذراً واحداً يصح أن يقام له وزن، وهو قذارة بعض ركاب الدرجة الثالثة والخوف من أذاهم ومن عدواهم.

وقد يتطلب بعض الناس أعلى مطعم وأعلى مقهى حبا في الظهور ورغبة في الجاه، وطلباً لمخالطة العظماء، ولكن العذر الصحيح أنه ينشد النظافة في هذا المطعم وهذا المقهى، ويفر من قذارة المطاعم الرخيصة والمقاهي الرخيصة.

فلو عني الناس بالنظافة، وكان من لبس لبس نظيفاً، ومن فتح مطعماً أو مقهى عني بنظافته، وكان الفرق بين لبس الغني والفقير، والمطعم الغني والفقير ليس فرقاً في الكيف، فالكل نظيف، وإنما هو فرق في النوع والكم، لانهارت الأرستقراطية الاجتماعية في كثير من نواحيها، ولما تفرزت أوساط الناس وخيارهم من أن يخالطوا الفقراء في مأكلهم ومشربهم ومركبهم، ولسلخوا الديمقراطية بسلاح قوي متين، ولهذا ترى الأمم التي عنت بالنظافة والتزمتها في صغيرها وكبيرها، وفي فقرها وغناها قد أفسحت الطريق أما محبي المساواة ودعاة الديمقراطية. وتراهم وقد قضوا على اختلاف الدرجات في السيارات العامة، وقلّ منهم من يركب الدرجة الأولى في القطار، وقلّ من يتطلب أفخم مطعم وأعلى مقهى، علماً بأن الكل نظيف والكل مريح، وأن الذين يركبون بجوارهم أو يجلسون بجانبهم لا يؤذونهم بمنظرهم ولا برائحتهم ولا بأي شيء فيهم، إنما تتميز هذه الطبقات بوضوح وجلاء، في مرافق الحياة الاجتماعية حيث تفسو القذارة.

إن عقلاء الناس يحتملون الديمقراطية الاجتماعية بل يتعشقونها، ولكن إذا وصل الأمر إلى احتمال عدوى مرض، أو آلمت أنوفهم رائحة كريهة، أو آلم عيونهم منظر بغض، سهل عليهم بيع الديمقراطية للأرستقراطية.

لو جرى الأمر على المعقول لكان المسلم من أنظف الناس في العالم، فقد رُبِطت صلواته الخمس بالوضوء، وفُرض عليه الاستحمام في أوقات، وكان أول باب من أبواب فقهه باب الطهارة.

وأغبط إذ أسمع وصف «ابن سعيد» لمسلمي الأندلس فيقول فيهم: «إنهم أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم. وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائئاً، ويتناح صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها».

ويؤلني أشد الألم ما ذكره ابن سعيد نفسه، وقد زار القاهرة، وركب منها حماراً إلى الفسطاط إذ يقول: «فأثار الحمار من الغبار الأسود ما أعمى عيني، ودنس ثيابي، وعانيت ما كرهت، وقلت:

لَقَيْتُ بِمَصْرَ أَشَدَّ الْبَوَازِ رُكُوبَ الْحِمَارِ وَكُخْلَ الْغُبَارِ

ألم من منظر الفسطاط، وقال إنه رأى شوارعها غير مستقيمة، ورأى حول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس التنظيف، ويغض طرف الظريف، ورأى الباعين يبيعون في مسجد عمرو، والناس يأكلون فيه، ورأى في زوايا المسجد العنكبوت، قد عظم نسجه في السقوف والأركان والحيطان، ورأى حيطانه مكتوباً عليها بالفحم والحمره بخطوط قبيحة مختلفة من كتابة فقراء العامة الخ...

آلني هذا الوصف لمصر، ولو زارها اليوم لما عثر بحماره، ولأقلته سيارة فخمة من باب زويلة إلى الفسطاط في أرض معبدة معبدة، لا تثير غبارا ولا تدنس ثيابا، ولرأى مسجد عمرو نظيفاً، لا يأكل فيه آكل، ولا يكتب على حيطانه كاتب.

ولكن هل كان يعدل عن حكمه القاسي في مقارنته بين أهل مصر وأهل الأندلس في النظافة؟ ذلك ما أشك فيه كل الشك.

لست أدري لم لم يلتفت الدعاة إلى هذا الأمر في الأمة، فيدعون ويلحون في الدعوة إلى النظافة، ويضعون الخطط الدقيقة لها، فإنها خير وسيلة للتقريب بين طبقات الأمة، فلا يأنف بعدُ مثقف أن يجلس مع غير المثقفين، ولا متعلم أن يجالس غير المتعلمين، وفي هذا الاختلاط نشر للثقافة، ودعوة للآداب العامة، وغلبة للعنصر المذهب.

يظن الناس أن النظافة غالية، وأنها مرتبطة بالغنى، وهذا خطأ بين، فكم من غني قدر، ومن فقير نظيف، والأمر يتوقف على تعود النظافة أكثر مما يتوقف على المال، فليست النظافة أن تلبس أغلى اللباس، وأن تأكل أفخم الطعام، وإنما النظافة أن تلبس نظيفاً ولو كان أحقر الثياب، وأن تأكل نظيفاً ولو كان أحقر الطعام.

هذه بديهيات أولية، ولكننا مع الأسف مضطرون أن نقولها.

لعل الأمر في العلماء والأدباء على نحو ما بيننا في الماديات، فالذي يفرق بين عالم أرستقراطي وعالم ديمقراطي، وأديب أرستقراطي وأديب ديمقراطي، هو نظافة آراء الأولين وأفكارهم وأسلوبهم، وعكس ذلك في الآخرين - ولو التزم كل العلماء والأدباء نظافة نظرياتهم، ونظافة كتاباتهم مهما اختلفت في النوع والقيمة لإنهارت الارستقراطية العلمية والأدبية أيضاً، وكان الكل سواء في الاحترام.

جزعت لموته واستكنت للعبرة، وفقدت بفقده السلطان على دمعي وقلبي،
فرحمه الله ورحمني.

ولكن ما الجزع من الموت وقد طال عهدنا به، وعرفه بنو آدم منذ عرفوا الحياة؟
ولم لم يألوه كما أألوه كثيرًا من المر حتى اعتادوه؟ وليس الموت في ذاته مرًا ولا أليًا،
وكما قال أحد الرواقين: «إن الموت هو وحده المصيبة التي لا تمسنا، ففي حياتنا لا
موت، وإذا جاء الموت فلا حياة». وقد نظم المتنبي هذا المعنى فقال:

والأسى قبل فُرقة الروح عجزٌ والأسى لا يكونُ بعد الفراقِ

ولكن أعظم الناس شأن الموت لما أحاط به من ظروف، وما اتصل به من
خيالات، وأثير حوله من رعب - بالغ بعض رجال الدين في تفضيع الموت، وهولوا
من شأنه تهويلًا تنخلع له القلوب، وتقشعر منه الجلود، لأنهم رأوا في ذلك درسًا
قاسيًا يردع المجرم عن إجرامه، ويزع الآثم عن إثمه، ولكن أخشى أن يكونوا قد
أفرطوا إفراطًا شل النفس وأشاع فيها اليأس. وأنهم - وقد عهد إليهم أن يعادلوا
بين الترغيب والترهيب - قد أزهقوا كفة الترهيب حتى ثقلت وهوت، وخففوا كفة
الترغيب حتى شالت وعلت - ولعل هذا كان من الأسباب التي جعلتنا نتسخط
الحياة ونتبرم بها. ثم ما هذه الأخلاق التي هي أشبه ما تكون بأخلاق العبيد! لا
نُدعى للخير إلا بالعصا، ولا تطلب منا الفضيلة إلا بالسياط؟ - أليس خيرًا من ذلك
أن يحدونا إلى الخير الحب. لا أن يسوقنا إليه الرعب؟

ثم زاد الموت سوءًا ما أحاطه به الأحياء من مظاهر الفزع والألم، فصبراخ تنفطر
له المرائر، وبكاء يذيب لفائف القلوب، والناس حول الميت بين ساهم البصر،
ومطرقة الطرف، ومكروب النفس، وناكس الرأس، يتأوه الآهة تنقص منها
ضلوعه، ويزفر الزفرة تتصدع منها نفسه - لست أظن أن هذا وأمثاله من طبيعة

الإنسان، قد يكون من طبيعته الحزن على فقد القريب والصديق، ولكن ليس من طبيعته الجزع، فلو اعتاد قوم أن يقابلوا الموت كما يقابلون أية ظاهرة طبيعية في الحياة لزال الجزع وخف الألم، كما حدث عند بعض الأمم، استطاعوا أن يضبطوا عواطفهم وينفقوا من الحزن بقدره، وأن يرددوا قول القائل: «مات الميت فليحيى الحي» وتفاخروا بالجلد كما تتفاخر بالجزع، وتواسوا بالشباب، كما نتواسى بالهلع.

ثم كان من الأدباء ما كان من رجال الدين: حزنوا للشيب إذ فقدوا الشباب أكثر مما فرحوا بالشباب يوم أن كان، ووقفوا في مراثيهم موقف النادبات في المآتم، يعجبون كيف كان الموت وكيف نزل، ويلهبون عواطف الناس، ويثيرون أشجانهم، ويعدون أقدرهم على القول وأقربهم إلى الإجابة من عرف كيف يستخرج الدمع ويستنزف الشئون، فكان من هذا وذاك إفساد عواطف الناس من الموت ودفعهم إلى التغالي في المشاعر.

ثم أخطأ الناس في القياس، فظنوا أن النفس تألم في الحياة الأخرى بما تألم به في الحياة الدنيا. ظنوا أن القبر يوحش بعزلته كما يستوحش الحي من عزلته، وأن القبر يرهب بضيقه وظلمته، كما يتبرم الحي بضيق المكان وظلمته، وأن الميت يألم من البرد القارس كما نألم، ويضجر من الحر القاسي كما نضجر، وغاب عنهم إدراك الفرق بين الحياتين، والاختلاف الواسع بين الطبيعتين:

إذا افترقت أجزاء جسمي لم أبطل حلول الرزايا في مصيف ولا مشى

إن تفضيع الموت يدعو إلى نوع من الحياة لا هو حياة ولا هو موت، ولعل كثيرًا من رذائل الشرق سببه ما اعتاده قادتهم من تهويل الموت وتفضيع شأنه وإلا فما الذي يجعلنا نرضى بالعيش الذليل بين أحضان آبائنا وأمهاتنا ولا نتطلب العيش السعيد بالهجرة والارتحال؟ وما الذي يدعونا إلى الفرار من المغامرة في شؤون الحياة،

والركون إلى عيش الدعة والاطمئنان، إلى كثير من أمثال ذلك؟ لا شيء إلا التغالي في الخوف من الموت، للتغالي في تهويل الموت.

لقد جَلَّ خَطْبُ الحياة إن كان كلما مات قريب أو صديق ذابت النفس حسرات، وأظلمت في وجهنا الدنيا، وتطرق إلينا اليأس.

لا. لا. اعمل لندياك كأنك تعيش أبداً، وتباً هؤلاء الذين يخلعون قلوبنا بالموت فنكون طعمة لمن يحبون الحياة.

ولنبداً دعوة جديدة قوامها العمل للحياة «ولا بأس بالموت إذا الموت نزل».

الضحك

ما أحوجني إلى ضحكة تخرج من أعماق صدري فيدوي بها جوي! ضحكة حية صافية عالية، ليست من جنس التبسم، ولا من قبيل السخرية والاستهزاء؛ ولا هي ضحكة صفراء لا تعبر عما في القلب؛ وإنما أريدها ضحكة أمسك منها صدري، وأفحص منها الأرض برجلي؛ ضحكة تملأ شديقي، وتُبدي ناجذي، وتفرّج كربى، وتكشف همى.

ولست أدري لماذا تيجيني الدمعة، وتستعصي علي الضحكة، ويسرع إليّ الحزن، ويبطئ عني السرور؛ حتى لئن كان تسعة وتسعون سبباً يدعو إلى الضحكة وسبب واحد يدعو إلى الدمعة؛ غلب الجمع وانهمز الضحك، وأطاع القلب داعي الحزن ولم يطع دواعي السرور!

ولي نفس قد مهت في خلق أسباب الحزن، ونبتت في اقتناص دواعيه؛ تخلقها من الكثير، ومن القليل، ومن لا شيء؛ بل وتخلقها من دواعي الفرح أيضاً؛ وليست لها هذه المهارة ولا بعضها في خلق أسباب السرور، كأن في نفسي مستودعا كبيرا من اللون الأسود، لا يظهر مظهر أمام العين حتى تسرع النفس تغترف منه غرقة تسود بها كل المناظر التي تعرض لها؛ ثم ليس لها مثل هذا المستودع من اللون الأحمر أو اللون الأبيض!

يقولون لي: اضحك يدخل على قلبك السرور؛ وأنا أقول لهم: أَدْخِلُوا السرور على قلبي أضحك؛ ففي المسألة «دور»، كما يقول علماء الكلام، وكما يقول الشاعر:

مسألة «الدور» جَرَتْ بيني وبين مَنْ أَجِبَ
لولا مشيبي ما جفا لولا جفاه لم أَشِبَ

وإلى الآن لم أدر من المصيب! هل الضحك يبعث السرور، أو السرور يبعث الضحك؟ ودخلت المسألة في دور من الفلسفة مظلم كالعادة، وانتقلت إلى بحث بيزنطي، فلنغلق هذا الباب، ولنعد إلى «الضحك».

يقول المنطقة في أحد تعريفاتهم للإنسان: «الإنسان حيوان ضاحك»، وهذا عندي أظرف من تعريفهم الآخر: «الإنسان حيوان ناطق»، فالإنسان في هذا الزمان أحوج إلى الضحك منه إلى التفكير، أو على الأصح نحن أحوج ما نكون إلى التفكير والضحك معا.

ولكن لم خصت الطبيعة الإنسان بالضحك؟

السبب بسيط جداً؛ فالطبيعة لم تجعل حيواناً آخر من المهوم ما حملته الإنسان، فهم الحمار والكلب والقرود وسائر أنواع الحيوان أكله يأكلها في سذاجة وبساطة، وشربة يشربها في سذاجة وبساطة أيضاً؛ فإذا نال الحمار قبضة من تبين وحفنة من فول وغرفة من ماء، فعلى الدنيا العفاء؛ ولكن تعال معي فانظر إلى الإنسان المعقد المركب! يحسب حساب غده كما يحسب حساب يومه، وكما يحسب حساب أمسه؛ ويخلق من هموم الحياة ما لا طاقة له به، فيحب ويهيم بالحب حتى الجنون، ويشتهي ويعقد شهواته حتى لا يكون لعقدها حل، فإذا حُلّت من ناحية عقدها من ناحية؛ ثم إذا سذجت اللذة وتبسطت لم تعجبه، بل أخرجها من باب اللذة، وعقد أمله على لذة معقدة؛ وإذا تفلسف -والعياذ بالله من فلسفته- خرج بها عن المعقول، وحاول أن يتال ما فوق عقله، ولم تعجبه الأرض والسماوات مجالا لبحثه، إنما يريد الحقيقة والماهية والكُنْه، وويل له من كل ذلك! أستغفر الله، فقد نسيت أن أذكر هموم الموظف بالعلاوات والترقيات، وما كان منها استثنائياً، وما كان غير استثنائي، وما يترتب على ذلك من معاشات وحساب ثمغة، وما إلى ذلك من أمور لا تنتهي، وهذا أيضاً من ضروب الفلسفة المظلمة، فلنعد إلى الضحك.

أقول إن الطبيعة عودتنا أن تجعل لكل باب مفتاحا، ولكل كرب خلاصا، ولكل عقدة حلا، ولكل شدة فرجا؛ فلما رأت الإنسان يكثر من الهموم ويخلق لنفسه المشاكل والمتابع التي لا حدها، أوجدت لكل ذلك علاجا؛ فكان الضحك.

والطبيعة ليست مسرفة في المنح، فلما لم نجد للحيوانات كلها هموما لم تضحكها، ولما وجدت الإنسان وحده هو المهموم المغموم، جعلته وحده هو الحيوان الضاحك.

لو أنصف الناس لاستغنوا عن ثلاثة أرباع ما في «الصيدليات» بالضحك، فضحكة واحدة خير ألف مرة من «برشامة أسبيرين» وحب «كينين» وما شئت من أسماء أعجمية وعربية. ذلك لأن الضحكة علاج الطبيعة، والأسبيرين وما إليه علاج الإنسان. والطبيعة أمهر علاجا وصدق نظرا وأكثر حُكمة. ألا ترى كيف تعالج الطبيعة جسم الإنسان بما تُدّيه من حرارة وبرودة، وكرات حُر وبيض، وآلاف من الأشياء يعالج بها الجسم نفسه ليتغلب على المر ويعود إلى الصحة، ولا يقاس بذلك شيء من العلاج المصطنع.

فانفجار الإنسان بضحكة يُجري في عروقه الدم؛ ولذلك يحمر وجهه، وتتفخ عروقه. وفوق هذا كله فللضحكة فعل سحري في شفاء النفس وكشف الغم، وإعادة الحياة والنشاط للروح والبدن، وإعداد الإنسان لأن يستقبل الحياة ومتاعها بالبشر والترحاب.

ولو أنصفنا -أيضا- لعددنا مؤلفي الروايات المضحكة والنكت والنوادر الباردة التي تستخرج منك الضحك وتثير فيك الإعجاب، والطرب، وهؤلاء الذين يُضحكون بأشكالهم وألاعيبهم وحركاتهم؛ أقول لو أنصفنا لعددنا كل هؤلاء أطباء يداوون النفوس، ويعالجون الأرواح، ويزيحون عنا آلاما أكثر مما يفعل أطباء

الأجسام، ولعددنا من يستكشف الضحكات في عداد من يستكشف دواء للسلس أو للسرطان أو نحو ذلك من الأدوية المستعصية؛ فكلاهما منقذ للإنسانية من آلام، مصلح لما ينتابها من أمراض.

والضحك بلسم الهموم ومرهم الأحزان؛ وله طريقة عجيبة يستطيع بها أن يحمل عنك الأثقال، ويحط عنك الصعاب، ويفك منك الأغلال -ولو إلى حين- حتى يقوي ظهرك على النهوض بها، وتشتد سواعدك لحملها.

ومن مظاهر رقي الأمم أن نجد نواحي المضحكات ملائمة لاختلاف الطبقات فللأطفال قصصهم والأعيهم ومضحكاتهم، ولعامة الشعب مثل ذلك، وللخاصة وذوي العقول الراقية المثقفة ملاهيمهم وأنديتهم ومضحكاتهم. فإن رأيت أما -كأمننا الشرقية- حُرِّمَ مثقفوها من معاهد الضحك وكانت مسلاتهم الوحيدة أن ينحطوا ليضحكوا، أو يرتشفوا من الأدب الغربي والتمثيل الغربي ليضحكوا، فهي أمم ناقصة في أدبها، فقيرة في معاهدها. وهذا أيضًا ضرب من ضروب الفلسفة المظلمة، فلنعد إلى الضحك.

تعال معي نتعاهد على أن نرعى في حياتنا جانب الضحك كما نرعى جوانب الصحة والمرض، وجانب الهزل بجوار جانب الجدد، ولتتخذ علاجًا في بعض أمورنا. قال لي صديق مرة إنه حاول أن يتغلب على همومه وأحزانه بعلاج بسيط فتجح. ذلك أنه إذا اشتد به الكرب، وتعمدت أمامه الأمور حتى لا يَظُن لها حلًا، انفجر بضحكة مصطنعة فسُرِّي عنه وتبخرت همومه.

ويروى أنه كان عند اليونان فيلسوفان يلقب أحدهما الفيلسوف الضاحك، والآخر الفيلسوف الباكي؛ كان أولهما يضحك من كل شيء، ضحك جِدًّا أحيانًا،

وضحك بخيرية أحيانا: يضحك من سخف الناس ومن وضاعتهم وحقارتهم، ويبكي الثاني مما يضحك منه الأول.

وقرأت مرة قصة لطيفة أن برّا ركب عليها دلوان، ينزل أحدهما فارغاً، ويطلع الآخر ملأً؛ فلما تقابلا في منتصف البئر سأل الفارغ الملأ مم تبكي؟ فقال: ومالي لا لأبيك؟ أخذ الرجل مائي وسأخذه وسيعيدني إلى قاع البئر المظلم! وأنت مم تضحك وترقص؟ فقال الفارغ: ومالي لا اضحك؟ سأنزل البئر وأمتلئ ماء صافيا وأطلع بعدُ إلى النور والضياء.

وقد أراد مؤلف القصة أن يصور نفس الموقفين اللذين وقفهما الفيلسوف الضاحك والفيلسوف الباكي، وأن الحياة مليئة بأشخاص يتولون عملاً واحداً، ثم هذا ينظر إليه من الجانب السار المفرح، وذاك ينظر إليه من الجانب الحزين القابض.

فكن الفيلسوف الضاحك، ولا تكن الفيلسوف الباكي. وكن الدلو الراقص، ولا تكن الدلو الدامع. وجرب أن تلقى الحياة باسم أحيانا، ضاحكا أحيانا، ولأجرب معك!

سِيدُنَا

كان لسيدنا الشيخ «سيد عبد الرحمن» كتاب في حي وطني في قسم الخليفة، أسلمني له أبي وأنا في السادسة من عمري.

كان هذا الكتاب بيتًا من بيوت الوقف، يتكون من طابقين، طابق أرضي فيه حجرتان إحداهما «سبيل» لسقي الماء كان قد هجر عندما ذهبت إليه، والأخرى لسيدنا ينام فيها أحياناً، وفي الطابق العلوي حجرتان كذلك، إحداهما لأولاد الكتاب يقرءون فيها، والأخرى لسيدنا أيضاً، وبين الحجرتين «فَسْحَة» في أحد أركانها زير ماء لا تعرف لونه مما توالى عليه من أحداث الزمان، وعليه غطاء من خشب، قد كسر ولم يهتم أحد بإصلاحه، وعلى الغطاء كوز صفيح قد شُد بحبل في مسمار في الحائط، حتى لا يذهب به الأولاد من مكان إلى مكان، وخشية أن يقع الكوز في أسفل الزير، فإذا كان مربوطاً ووقع استطعنا أن نشده بالحبل، والماء إن تلوث بوقوع الحبل فيه، فهو أقل ضرراً من مد اليد عارية وغوصها لاستخراجه.

وأدوات الكُتَّاب: حصير فرش على البلاط، يبلى أحياناً فتتأثر عيدانه، ومع ذلك يبقى إلى أن يحزن الله على سيدنا فيشتري حصيراً جديداً، وصندوق من صناديق السكر أو الجاز وضع في زاوية من زوايا الحجرة، نضع فيها ألواحنا - وهذه الألواح أكثرها من صفيح، تسود أحياناً ويذهب طلاؤها حتى لا نتبين الكتابة منها - وكيف يبين أسود من أسود؟ وأقلها خشب قد طلي بدهان أبيض، وله إطار لُون بلون بُني، وذلك خاص بأولاد الذوات وأشباههم.

هذا كل ما بالكُتَّاب من أدوات، ومعاذ الله أن أنسى شيئاً أهم من ذلك كله، وهو مجموعة عِصِيّ من جريد النخل، تختلف طولاً وقصرًا، أما القصيرة فيستعملها

سيدنا لمن يُسمَع عليه اللوح أو «الماضي» فيخطئ فتدركه هذه العصا، وأما الطويلة فعندما يرى سيدنا طفلاً في آخر الحجرة لا يهتز وقت قراءته أو يتهاون في حفظه، فما يشعر إلا والعصا الطويلة نزلت عليه وصحبها من سيدنا «اهتز يا ولد». وقد كان لهذه العصا - ما طال منها وما قصر - أثر في نفوسنا لا ينكر، فكثيراً ما رعبنا لأن خيالنا صور لنا أن سيدنا يريد أن يهوى علينا بعصاه، وفي الواقع لم يكن شيء من ذلك، وإنما هو الرعب ملك نفوسنا، ويحصل هذا أحياناً حتى في البيت، فتنسى أننا خرجنا من الكتاب، وأنا بين أهلينا، فنرتجف بغتة لحركة تشبه حركة سيدنا في الكتاب.

وإلى جانب هذه العصا «فلقة» وهي عصي غليظة من خشب متين قد ثقب في وسطها ثقبان يبعد ما بينهما نحو شبر، ورُكِّب في هذين الثقين سير من جلد أو نحوه، فإذا شكا الولد أبوه أو غضب عليه سيدنا أدخل رجله في هذا السير ولواه عليهما، وأمسك بطرفي الفلقة ولدان كبيران شديدان من أولاد الكتاب، فلم تستطع الرجلان حركة، وانهاك عليهما سيدنا ضرباً بالعصا والولد يصيح: «في عرضك يا سيدنا» «حرمت» «أتواب»! ولست أنسى مرة أفرط فيها سيدنا شق عقبي وسال منه الدم؛ وكان عزائي الوحيد أني مكثت بعيداً عن سيدنا نحو أسبوعين.

وهذا كل ما كان في الكتاب من «مويليات».

كان سيدنا يحفظ القرآن حفظاً جيداً، ويكتب كتابة عاجزة، وهذا هو ما له من ثقافة، كان يطوف في الصباح على البيوت يقرأ فيها ما تيسر من القرآن ويخرج من بيت إلى بيت حتى يتم دورته، وكان موظفاً في مسجد يؤذن فيه، فإذا حان وقت الظهر أو العصر خرج من الكتاب للأذان والصلاة - وفي غيابه صباحاً أو ظهراً أو عصرًا يتركنا لعريف يقوم مقامه، ولكن كان العريف والله الحمد أهون علينا من سيدنا، لكننا نتنفس الصُّعداء إذا خرج، ونصاب بالعرشة إذا حضر.

وكان برنامج الكتاب ينحصر في كلمة هي «تخفيظ القرآن» فيبتدئ بتعليم حروف الهجاء على طريقة غريبة، فأول درس كان هو «أ ألف» وهي كلمة حفظتها ولم أفهمها إلا وأنا طالب في مدرسة القضاء. إذ فهمت أننا لو تهجينا كلمة ألف كانت ألفًا ولا مًا وفاءً، وما أدري ما السر في هذا البدء على هذا الوضع - حتى إذا عرف الوفد شيئًا من القراءة والكتابة بدأ بكتابة جزء من القرآن في اللوح يحفظه كل يوم وهو في أثناء ذلك «يُثَبِّت الماضي» ويمضي النهار كله في هذا الباب، فلا إملاء ولا حساب، ولا يعرف سيدنا شيئًا من ذلك، ولا نستريح من هذا العمل إلا وقت الغداء.

فإذا حان الظهر جمع «سيدنا» من كل ولد مليمين أو ثلاثة أو خمسة ثم بعث بولد كبير فأتى له بماجورين مملوءين، أحدهما فيه قليل من فول نابت وكثير من مرق، والآخر مملوء مغللا بيمائه وخله، وتحلق الأولاد حلقة، وأخرج كل رغيفه، وكان قد أحضره معه في الصباح تحت إبطه، وضربوا بأيديهم في الماجورين وأكلوا هنيئًا مريئًا - وقد رحمني الله من تمثيل هذا الفصل إذ كان بيتنا بنجوار الكتاب أستطيع أن أكل فيه وأعود - وبين هؤلاء المريض والقدر ومن تلوثت يده بالخبر ومن أصيب بعاة.

لا تعجبين من هالك كيف ثوى بل فاعجبين من سالم كيف نجا

كان سيدنا غريب الأطوار، عرف في الحي باسم الشيخ سيد المجذوب، يلبس المرقع من الثياب فلم أره يرمًا يلبس «مركوبًا» جديدًا ولا عمة نظيفة ولا قباء ولا عباءة جديدين، فكانه كان يتحرى القديم من كل شيء ويشتريه، كان يتزهّد في أكله ولبسه وحديثه؛ ويهزأ بالناس ولا يعيرهم التفاتًا، فهو يمشي مشيًا يشبه الجري، ويأكل في الشارع وهو على هذه الحال، وإذا ناداه مناد لا يتلفت إليه، فكان بذلك يلفت أنظار الناس والأطفال، ويعجب منه بعضهم، ويتبرك به بعضهم، وكان في

المجالس العامة غريبًا ينتحي ناحية وحده ويفر من الناس ويستوحش منهم، وفي مجالسه الخاصة واعيًا أنيسًا لطيفًا.

لم أره مرة يقرأ في كتاب، وما أظنه كان يعرف ذلك، ولكني مع هذا أذكر له حادثة حيرتني حقًا - فقد خرجت من كتّابه، وأتممت التعليم في مدرسة ابتدائية، ثم قطعت مرحلة بعدها في التعلم، ثم ذهبت إلى مدرسة القضاء ومكثت فيها نحو أربع سنوات؛ ثم لقيت سيدنا في الطريق فسلمت عليه في احترام وإجلال اعترافًا بفضلته علي في أول مراحل التعليم، ولكنني أطوي بين نفسي إدلالًا بنفسي عليه، فأين هو الآن مني؟ لقد درست طبيعة وكيمياء، ودرست رياضة نظرية واسعة من حساب مثلثات وتوافيق وتراتيب ولوغارتمات، ودرست عوما دينية مختلفة الأشكال والأنواع، وعلوما مدينة من تاريخ وأصول قوانين ونظام إدارة وما إلى ذلك - فأين سيدنا من هذا كله وهو لا حظ له من علم إلا أن يحفظ القرآن، ولكن ما أدهشني حقًا أنه أخذ يسألني عن حالي، وجرى من ذلك إلى الإدلاء برأيه في العالم وفلسفة الكون عن طريق صوفي، فإذا أنا أسير معه ملتدًا من حديثه معجبا بقوله إعجابا يفوق ما كنت أضمره لأساندي في المدارس العالية، وإذا أنا أذهب معه حيث يذهب وأجلس معه حيث يجلس حتى أتم حديثه الممتع اللذيذ في ساعتين أو أكثر، ولوددت أنه أطل أكثر مما كان - لست أذكر الآن حديثه وقوله، ولا أذكر ماذا كانت نظراته في الحياة، ولكنني أذكر لذة حديثه وفائدة درسه.

ثم راحت أيام وجاءت أيام، وإذا لي ولد، وإذا بي أرسله إلى (روضة الأطفال)، وإذا مكان الكتاب ذي السبيل والحصر، بناء فسيح ذو حديقة غناء، وتحت وأدوات شتى، ومكان العصا و(الفلقة)، بيانو وآلات موسيقية ومكان مواجير الفول والمخلل، لبن وبسكوت في الساعة العاشرة، وأكل نظيف يشرف عليه الطبيب في الظهر، ومكان برنامج كتابنا الذي ليس فيه إلا حفظ القرآن برنامج دقيق مفصل

محدود بالساعة والدقيقة فيه غناء وفيه لعب، وفيه مبادئ القراءة، وفيه ما شئت من تنوع واختلاف، ومكان سيدنا الشيخ سيد عبد الرحمن أنسات عزيزات.

وأتى ابني يوماً يقول إن (أبلة) فلانة علمتهم اليوم درساً جديداً، قالت: هذه (ستي) أ، وهذه (ستي) ب، وستي أ لا شيء عليها، وستي ب من تحتها نقطة؛ فقلت أين هذا مما كنا نتعلمه من ألف، بابا ليف، بوبا واو بي بايه.

ورأيت ينشد أناشيد (سمير الأطفال) ونحوها فقلت أين أنت من أبيك، وقد كان ينشد في العصر قبل الذهاب إلى البيت الأناشيد الدينية.

ورأيت يزكم فيجلس في البيت ثم يذهب إلى المدرسة فتأبى عليه إلا أن يأتي بشهادة طبيب بأنه برئ ولم يكن مرضه معدياً، فقلت لحا الله زمانا لم نكن نعرف فيه طبياً، وكان حولنا في الكتاب مرضى لا يعرفون أن الزكام مرض وكان أصحابهم ومرضاهم يشربون من زير واحد بكوز واحد.

ورأيت في سنه لا يحفظ شيئاً، وكنت وأنا في سنه أحفظ جزءاً كبيراً من القرآن.

ورأيت يعرف من الأشغال اليدوية والرسم والتلوين ما لا أعرفه إلى اليوم.

ورأيت ورأيت، ورأيتني ورأيتني.

أخشى أن نكون في كلا الحالين مفرطين ومفرطين، وأن نكون في (كتابنا) قد غلونا وفي (رياض أطفالنا) قد غلونا.

أخشى أن يكون الكتاب قسا وأسرف في القسوة، ورياض الأطفال ماعت وأسرفت في الميوعة، أخشى أن نكون في كتابنا قد وضعنا أمام الطفل كل العقبات فلم يستطع أن يجتازها إلا القليل، ونحينا في (رياض الأطفال) كل العقبات فاجتازوها جميعاً، ولكنهم خرجوا لا يعرفون كيف يجتازون عقبة عرضت، ولا

يصبرون على شدة ألمت، ولا يتحملون مشقات العلم وعاناة الدرس، ولا يعالجون ما يعن من مصاعب الحياة - وآية ذلك أن الجيل السابق - مع كثرة من تخلف - كانوا أصبر على الدرس وأحمل للمكاره والمشاق، وأن الجيل الحاضر أنم وأظرف وأليق، ولكنهم لا يصبرون على مكروه حتى العلم.

نعمة الألم

لندع الآن جانبا وصف ما كان من الخلاف بين علماء النفس في الألم، والفرق بينه وبين اللذة؛ ولندع كذلك بحوثهم الطويلة في تقسيم الألم إلى أنواع: فنوع منه كالذي نشعر به عند وجع الأسنان، ونوع كالذي نشعر به عند الفشل في محاولة، ونوع كالذي نشعر به عند مواجهة ما نكره... الخ.

ولندع أيضاً بحوث علماء الأخلاق في أن الإنسان في جميع أفعاله يطلب اللذة، ولا يطلب شيئا غيرها، ويهرب من الألم، ولا يهرب من شيء غيره؛ وأنه حين يفر من لذة فإنما يفعل ذلك لطلب لذة أكبر منها، وأنه حين يتحمل الألم، فإنما هو يفر من ألم أكبر منه، أو يتطلب بألمه لذة أكبر مما تحمل - ولندع التعرض لما قام حول هذه النظرية من نزاع.

لندع هذا كله، ولننظر إلى أثر اللذة في الحياة العامة وأثر الألم فيها، فيخيل إلي أنا مدينون للألم بأكثر مما نحن مدينون للذة؛ وأن فضل الألم على العالم أكبر من فضل اللذة.

إن شئت فتعال معي نبحث في عالم الأدب؛ أليس أكثره وخيره وليد الألم؟ أو ليس الغزل الرقيق نتيجة لألم الهجر أو الصد أو الفراق؟ ذلك الألم الطويل العريض العميق تتخلله لحظات قصيرة من وصال لذيق؛ وليس هذا الوصال اللذيذ بمنتج أدبا كالذي ينتجه ألم الفراق، وإن الأديب كلما صهره الحب، وبرح به الألم، كان أرقى أدبا، وأصدق قولاً، وأشد في نفوس السامعين أثراً، ولو عشق الأديب فوفق كل التوفيق في عشقه، وأسعفه الحبيب دائماً، ومتعه بما يرغب دائماً، ووجد كل ما يطلبه حاضراً دائماً لسئم ومل، وتبلدت نفسه، وجدت قريحته، ولم يخلف لنا أدبا ولا شبه

أدب، ولو كان مكان مجنون ليلى عاقل ليلى لكان كسائر العقلاء - وإنما فضل المجنون لأن نفسه كانت أشد حسا وأكثر ألما.

لولا علو همة المتنبى ما كان شعره، وما علو همته؟ أليست كراهية الحياة الدون، والألم من أن يعد من سقط المتاع، والتطلع لأن يكون له الصدر أو القبر؟ وعلى هذا المحور دارت حياته، ودار شعره؛ ولو نشأ قانعا لما فارق بلدته، ولكان سقاء كأبيه، يروي الماء ولا يروي الشعر.

وما قيمة المعرى لولا ألمه من الفقر والجمي - لو كان غنيا بصيرا لما رأيت لزومياته، ولا أعجبت بكلماته، ولكان إنسانا آخر ذهب فيمن ذهب - إنها خلده ألم نفسه، وأبقي اسمه قوة حسه.

ولو شئت لعددت كثيرا من أدباء العرب والغرب أنطقهم بالأدب حيناً ألم الفقر، وحيناً ألم الحب، وحيناً ألم النفي، وحيناً ألم الحنين إلى الأوطان؛ إلي غير هذا من أنواع الآلام.

نعم لقد أجدت اللذة على الأدب كثيرا - لقد أنتجت هو امرئ القيس وطرفة، وخر أبي نواس، وفخر أبي فراس؛ ومجون الماجنين، وفكاهة العابثين؛ وكان غناء ابن المعتز ولذته ينبوعا صافيا لحسن التشبيهات، وجمال الاستعارات - وخلفت لذة هؤلاء أدبا ضاحكا، كما خلف الألم أدبا باكيا. خلفت اللذة أدب المسلاة (الكوميديا)، وخلف الألم أدب المأساة (التراجيديا)؛ ولكن أي الأديبن أفعل في النفس، وأيها أدل على صدق الحس، وأيها أنبل عاطفة، وأيها أكرم شعورا، أي النفسين خير؟ أمن ييكى من رؤية البائسين، أم من ضحك من رؤية الساخرين؟ أمن رأى فقيرا فعطف عليه، أو هزأة فضحك منه؟!

على أي أخشى أن تكون اللذة التي أخرجت الأدب الضاحك ليست إلا ألما مفضضا أو علقما مبهرجا؛ أليست خمر أبي نواس محورها: (وداوني بالتي كانت هي الداء)؟ أو ليس قد هام بها فرارا من ألم الدنيا ومتاعب الحياة؟ ولو فتشت عن دخيلة ابن المعتز، لرأيت ألما قد بطن بلذة، وجحيا في ثوب نعيم.

ثم تعال إلي الحياة الاجتماعية، أليست تري معي أن خير الأمم من تألم للشر يصيبه، والضر يلحق به، وهل تحاول أمة أن تصلح ما بها إلا إذا بدأت فأحست بالألم، أو ليس من علامة تماثل المريض للشفاء أن يحس بالألم بعد الغيوبة. ثم من هو المصلح؟ أليس أكثر قومه ألما مما هم فيه. أو ليس هو أبعدهم نظرا وأصدقهم حسا؛ دعتة رؤية ما لم يروا، وإحساسه ما لم يحسوا، أن يكون أعمق منهم ألما وأشد منهم سخطا، فلم يسعه إلا أن يجهر بالإصلاح، وأن يتحمل عن رضي ما يصيبه من ألم، لأن ألم نفسه مما يري بهم، أكبر من أي ألم يتاله منهم؟ -وما الوطنية؟ أليست شعورا بألم يتطلب العمل؟ ومن نعم الله أن أوجد أنواعا من الألم هي آلام للذيدة تتطلبها النفوس الراقية وتعشقها. ولو عرض عليها أن تعوض عنها لذائد صرفة لما قبلتها.

فلو عرض على الفيلسوف المتألم لذة غنى جاهل لرفض في غير تردد، ولو خير المصلح المجاهد ينغص عليه قومه، وينغص عليه بعد نظره، وينغص عليه قوة شعوره، ما اختار من حياته بديلا -ذلك لأن آلامه سرى فيها نوع من اللذة لا يدركه إلا العارفون، وأصبح ييم بهذا الألم اللذيذ، ويرى اللذة الصرفة لذة أليمة - وكل ميسر لما خلق له.

ديمقراطية الطبيعة

يعجبني البحر في جماله وبهائه، وجلاله ولا نهايته، ويعجبني كذلك في ديمقراطيته، فلا يسمح لأحد أن ينغمس في مائه إلا إذا تجرد من كل المظاهر الكاذبة التي خلقتها المدنية، من ملابسه التي تميز بين الغني والفقير، ومن ريائه ونفاقه ومظاهره التي اصطنعها ليجعل من الناس طبقات يتحكم بعضها في بعض.

ففي البحر تتساوى الرؤوس، لا غني ولا فقير، ولا ذو جاه ولا عديم الجاه، ولا عالم ولا جاهل، ولا حاكم ولا محكوم، لا يتميزون بشيء إلا بلباس البحر، وفي الحقيقة ليس هو لباس البحر، وإنما هو لباس البر، فليس للبحر لباس إلا ماؤه. ودليل أنه لباس البر أن الناس حاولوا به أن يتميز بعضهم من بعض واتخذوا منه شعاراً للغنى والأناقة واللباقة والوجاهة، والبحر لا يعرف شيئاً من ذلك، إنما يعرف ذلك البر، ومن أجل هذا لا يكاد ينغمس الناس في البحر، حتى يسدل -بإيائه الأزرق الجميل- ستاراً على كل أثواب الرياء فلا ترى بعد إلا رءوساً عارية لا يميز بينها شيء من الصنعة، ثم هو يرسل أمواجه تداعب الناس على السواء، فتغازل الأسود كما تغازل الأبيض، وتصفع الجميل كما تصفع القبيح، وتعبث بلحية العالم كما تلعب برأس الجاهل. وأحياناً يهيج هائجه، وتثور حفيظته، فيزفر من الغضب، حتى ليكاد يخرج من إهابه، ويظهر من ثيابه، ويربد وجهه فيلفظ بالزبد، وينتفخ ويرتعد، ويرقص من غير طرب؛ وهو في هذه الحال لا ينسى ديمقراطيته، يأتي للباخرة المضخمة قد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليه فيبتلعها في لحظة لا تغني عنه محصنات العلم القديم ولا الحديث، كما يبتلع أحياناً صبياً وديعاً ضعيفاً، ليبرهن أنه لا يعبأ بقوة ولا ضعف، ولا يخشى بأس كمي، ولا يرحم

ضعف أعزل، سواء هو في هزله وجدده، وسواء هو في حلمه وغضبه - ما أجمل البحر، وما أجله، وما ألطفه، وما أقساه!

على أنه يظهر لي أن الطبيعة في جملتها ديمقراطية لا أرستقراطية، ولا أرستقراطية إلا في الإنسان الكاذب، فالشمس ترسل أشعتها الذهبية، والقمر أشعته الفضية على الناس سواء: على المؤمن والكافر، والأسود والأبيض، والغني والفقير، والكوخ والحقير، والقصر الكبير.

ويأتي الجو بريح سموم فتلفح وجوه الناس على السواء، لا تميز عظيمًا ولا حقيرًا، ولا شريفًا ولا وضيعًا؟ ثم يأتي بريح طيبة تنعش الناس كذلك، لا يعرف في شيء من ذلك محابة، ولا يعرف طبقات، ولا يعرف أي نوع من أنواع التفاوت التي تواضع عليها الناس، ويرسل في الصيف شواظًا من نار فيدخل على الأمير في قصره، وعلى الفقير في كوخه، فلا يهاب عظيمًا، ولا يحتقر وضيعًا ويرسل في الشتاء برده القارس فلا يستطيع أن يتقيه الغني بصوفه وملابسه، ولا بمدفأته وناره؛ كما لا يتقيه الفقير في عدمه وبؤسه؛ ثم تطلع شمس جميلة، ويعتدل الجو، فتحضن الطبيعة الناس على السواء وتكون لهم جميعًا أما حنونا، مشفقة بارة - إن تحدث الباشا أو البيك في نفسه بأنه فوق طبقات العامة، وأنه يستطيع في شرع العرف والعادة أن ينعم بما لا ينعموا، فتفسح له الطريق، وتحلي له السبيل، وتفتح له أبواب المجتمعات، ويعامل أولاده وأقاربه بما لا يعامل به الفقراء، فلن تحدثه نفسه أن يمتاز من الفقير في حر ولا برد، ولا نور ولا ظلام، فإن أخطأ في ذلك وظن أنه يغالب الطبيعة في شيء من قوانينها صفعته صفة آمن بعدها بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وأدرك أنه إن علا الناس بهاله أو جابهه، وإن تلاعب بأوضاع الناس لسخف الناس، فهو أمام أوضاع الطبيعة حقير ذليل.

ثم يأتي القدر فينثر نعمه ونقمه، وشره وخيره على الناس جميعا، فصحة في الأغنياء والفقراء، ومرض في الأغنياء والفقراء، وتجد غنيا فاطر القوى منقوف الوجه، يبيت يتضور من الألم، ودلو خرج عن كل ماله وجاهه لتعود إليه صحته، ويجانبه فقير مستحكم الخلقة، متين البنية، ممتلئ قوة وشدة وصلابة - وتجد جمالا في الأغنياء والفقراء، وقبحا في الأغنياء والفقراء، فهذه فقيرة مشرقة الجبين صافية الأديم، مفرطة الجمال، معتدلة القوام، لا تفتح العين على أجل منها حسنا؛ هذه سيدتها الغنية دميمة الخلقة، منكرة الطلعة، تنبؤ عن منظرها الأحداق، وتتفادي من مرآها الأبصار، تريد أن تتجمل بالصناعة والأصباغ والحلى والملابس فلا يزيدها ذلك كله إلا قبحا، على حين أن جارتها الفقيرة جميلة في طبيعتها، جميلة في بساطتها، جميلة حتى في ثيابها المهلهلة!

وللقدر في ذلك بدع، فأشهر طبيب في القلب يموت بالقلب، وأعظم جراح يموت بالتسمم، وتلد الفلاحة الفقيرة في الطريق وهي حاملة قدرتها مملوءة ماء على رأسها، وتحمل طفلها وتذهب إلى بيتها سالمة غانمة؛ وسيدتها الغنية يحلل دمها وغير دمها قبل الوضع، ويعقم كل شيء في حجرة ولادتها، ويقف مشهورو الطبيبات والأطباء على بابها، حتى إذا آذنت ساعة الولادة بالقدوم استخدم كل ما وصل إليه الطب الحديث، والكيمياء الحديثة، والعلم الحديث، وأمعت جمهرة الأطباء في التطهير والنظافة واتخاذ وسائل الراحة والحصانة، وغير ذلك مما لم أذكر منه إلا قليلا؛ ثم هي بعد تصيبيها حمى النفاس، ويقف الطب والعلم دهشا حائرا، ثم تسلم الروح إلى ربها، والقدر يهزأ بكل ذلك.

وهناك نوع من الأرستقراطية غريب، هو الأرستقراطية العلمية، فالمتعلمون ذوو الشهادات يعدون أنفسهم - وربما عدهم الناس أيضًا - نوعا ممتازا من الناس، يختلفون عنهم نوعا من الاختلاف، ويرتفعون عليهم نوعا من الرفعة، كما ترتفع

طبقة الأغنياء وكما ترتفع طبقة الأمراء، فالتعلم ينظر إلى أخيه الشقيق الجاهل نظرة فيها شيء من التعاطف، وشيء من الازدراء، وشيء من الغرور وإن ساواه في الدم، وإن ساواه في الغنى أو الفقر، وهو لغروره يظن أن شهادته تخوله الحق أن تكون آراؤه في كل شيء خير الآراء، وأن غير ذوي الشهادات لا يحق له أن يبدي رأيا بجانب رأيه حتى فيما ليس له اختصاص فيه.

وهو كذلك نوع من الأرستقراطية الكاذبة لا تعباً به الطبيعة ولا تعيره أي التفات، فقد جعلت بين المتعلمين أذكياء وأغبياء، وجعلت بين الأميين أذكياء وأغبياء، بل من غرور المتعلمين أن يسموا من لم يقرأ ولا يكتب جاهلاً وأمياً ونحو ذلك من الأسماء، ويسموا من يقرأ ويكتب متعلماً، كأن وسيلة العلم والحكمة والعقل القراءة والكتابة وحدهم، ونحن لو نحينا غرور المتعلمين جانباً لهزئنا بالقراءة والكتابة في كثير من الأحيان، ولوجدناها وسيلة من وسائل الرقي ولكن بجانبها وسائل أخرى، ولوجدنا أنها لا تستحقان هذا الغرور الذي ينشئ نوعاً من الأرستقراطية، فالحكمة في تصريف الأمور لا تعتمد على التعليم الجامعي، وسعة العلم، كما تعتمد على الفطرة البشرية، والغريزة الإنسانية. ومن ثم قد ترى الجامعي الحائز لأرقى الشهادات العلمية وهو أخرق في الحياة، سفیه في التصرف، وأخاه - الذي يسمونه جاهلاً أمياً - حكيماً في تصرفه مدبراً لشؤونه وشؤون إخوته الجامعيين، وترى الأمة قد تصاب على يد متعلميها في أحوالها السياسية والاجتماعية أكثر مما تصاب على يد جاهليها، والفلاح القروي الأمي قد يرزق من الخزم في تصريفه، وبعد النظر في آرائه، وصدق الشعور في وطنيته، ما لا يرزقه أخوه الأستاذ في الجامعة أو العالم الحائز لأرقى الدرجات العلمية، بل قد يصدر من الرأي العام الجاهل في شؤون وطنه، وفي المسائل الهامة التي تعرض عليه ما يفوق رأي متفلسفة المشرعين، وحيل القانونيين.

إن نظرنا إلى الذكاء، فالذكاء مشاع بين المتعلم والجاهل، وإن نظرنا إلى حكمة التصرف، والحزم في إدارة الأمور، وتدبير شؤون الحياة، فذلك أيضًا أمر مشاع بين الناس، فقيم غرور المتعلمين وإنشاؤهم أرستقراطية بجانب أرستقراطية الأموال والأعمال والطبقات؟ يطالبون أن يكال لهم المال جزافًا، ويطالبون ألا يهينوا أنفسهم في عمل، ويطالبون أن يكون ميراثهم من آباءهم أكبر نصيب، ويطالبون أن يكون زبدة ما تخرجه الأمة لهم، وحثالته لما يسمونه الجاهلين.

ما أسعد الأمة تخفف من غلوها في أرستقراطيتها، بجميع أنواعها، وتقلد الطبيعة في ديمقراطيتها واعتدالها.

ما فعلت الأيام

عرفته بالإسكندرية منذ عشرين عاماً، شاباً رقيق البدن، ضئيل الجسم، مسنون الوجه، شاحب اللون، أظهر مميزات الرقة والتواضع والتدين، حي الطبع، شديد الخجل، إن جلس في قوم اعتقل لسانه، وأطرق رأسه وأرخى عينيه؛ وإن صدرت منه هفوة أو شيء ظنه هفوة، تمنى لو ساخت به الأرض؛ وظل يحاسب نفسه ويظيل تأنيبها، فأثر الانفراد وأخلد إلى الوحدة، واستأنس بالوحشة، فقلت معرفته بالناس، وقلت معرفة الناس به، لا يعرف من العالم إلا مدرسته التي يدرس فيها، وبيته الذي يأوي إليه، ومسجده الذي يتعبد فيه؛ فأما الحياة وشؤونها، وجدها وهزلها، وملاهيها وألعيها، فلا يدري منها شيئاً، لا يجلس في مقهى لأنه يخل بمروءته، ولا يذهب إلى تمثيل أو سينما لأنها لا يخلوان من امرأة سافرة، ولا يشتري شيئاً من بقال عنده لحم خنزير خوفاً من أن تكون سكنته التي يقطع بها الجبن والحلوى قد مست الخنزير، فلا يطهرها مسح، إنما يطهرها غسل سبع مرات إحداهن بالتراب؛ ويغض طرفه إذا سار حذر أن تقع عينه على امرأة.

أعز شيء عليه في الوجود دينه، ومثله الأعلى رجل ظهارته دين، وبطانته دين، تفتير عينه في خشوع دليل أنه قضى شطر ليله في عبادة ومناجاة، أسبل عليه الدين نوعاً لطيفاً من الرضي بالقضاء والقدر، فلا يأسى على فائب، ولا يجزع على ميت، ولا يستخفه الفرح لخير، ولا يغلو في الحزن على شر، راض بما كان وما يكون، فكل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس، الرجل الطيب عنده من تدين، ورجل السوء من لم يتدين، ويستحيل علي رجل أن يكون طيباً إذا شرب كأساً من خمر، أو لعب لعبة ميسر، أو ترك صلاة أو زكاة - يوفق دائماً بين أعماله في الحياة وأوامر الدين، إذا أراد الرياضة ذهب إلى سيدي بشر لزيارته، أو لسيدي جابر لصلاة الجمعة فيه، أو

أخذ جزاءً من (الإحياء) وذهب إلى روبة عالية يخلو فيها بنفسه ودينه وكتاب (الإحياء). وإن أراد أن يحفظ شيئاً من الأدب حفظ في (نهج البلاغة) لأنه يجمع بين البلاغة والدين، وإن عرضت فرصة في دراسته للغة العربية خرج من اللغة إلى الدين، وانقلب واعظاً لتلاميذه، حتى استطاع أن يكون منهم فرقة دينية تلتزم الصلاة والصوم وشعائر الدين.

عرفته اتفاقاً، ولست أدري الآن سبب المعرفة وكيف كانت، وكل ما أذكره أني عرفته، وفي لمحة تحولت المعرفة إلى صداقة وحب، فكان من خاصة إخواني وأقربهم مودة إلى قلبي، يأنس بي وآنس به، ويفضي إلي بدخيلة نفسه وكامن أسرار، عطفني عليه ظرف فيه، وأرأفني به رقة حواشيه، وملأ نفسي رحمة عليه قسوته على نفسه وأخذها لها في كل شيء بالأشد الأحزم، قد ملك الدين على نفسه، فروعته من كل نعيم خشية الحساب، وهول عليه كل لذة خوف العقاب، وغلبت عليه في كل تصرف فكرة الموت مخافة ما بعده، إن قال له قائل: {ولا تنس نصيبك من الدنيا} قال: {ثم لتسألن يومئذ عن النعيم}.

على كل حال نعمنا بالصدقة حينما تساهمنا فيه الوفاء، وتقاسمنا الصفاء، أسافر إلى الإسكندرية فأري أول واجب علي أن أزوره، ويحضر إلى القاهرة فيري أول واجب عليه أن يزورني، وأكتب إليه، ويكتب إلي، ثم عفي الزمان على الصداقة ففترت حرارتها، وخدت جذوتها، لا لسبب إلا أن الصداقة ككل حي إذا لم تغذ بالمقابلة والمكاتبة أسرع إليها الذبول فالفناء.

ثم دارت الأيام دورتها، وتعرفت في الإسكندرية بإنسان جديد، فإذا هو صديقي القديم، هو في هذه المرة بدين بطين، مطهم الوجه، ريان السواعد؛ كنت في أيامي الأولى أقرأ في أرنبة أنفه وصفاء جبهته آيات السداجة والإخلاص، وكنت أري في وجهه وجلسته عزوفاً عن الدنيا، وزهداً في الاستكثار منها، ورضي

بميسورها؛ وكنت ألح في فتور عينه بحياء العذراء وخجل المخدرات؛ وكنت أري في نبرات صوته وحركات جفونه ونظرات عينه ديناً وورعاً، فإذا كل ذلك قد استحال كما يستحيل الماء إلى ثلج، علمت أنه قد ورث من أبيه فأثري، وسمحت لي الظروف بمخالطته فأدهشني ما رأيت من تغير وانقلاب - رأيته وقد أمارط عن وجهه قناع الحياء، وخلع ريقة الحشمة، يداخل الناس ويمازجهم، حسن الصحبة، جميل العشرة، يضرب بسهم وافر في المفاكهة والتناذر، جيد القصص، حسن الحديث، لا يأنف من حديث فاجر إذا كانت فيه نكتة حلوة، كثرت أصحابه على اختلاف منازلهم وطبقاتهم، وهو عند كل جماعة منهم قطب الرchy، يمتزج بأرواحهم ويتصل بقلوبهم، خير كل الخبرة بأندية اللهو وما إليها، يعرف جد المعرفة برامج السينما في كل أسبوع؛ وما يمثل من روايات في كل فصل من الفصول، وعنده الخبر اليقين عن كل مغن ومغنية وفنان وفنانة أتت من مصر إلى الإسكندرية تغني أو تمثل، ذهب عنه خفر عينيه وأصبح يتعشق الجمال ويتبعه، ومحلق فيه ويشتهي، حلت المسائل المالية جزاءً كبيراً من عقله فهو كثير التفكير فيها، له ديون وعليه ديون، وله قضايا وعليه قضايا، وله دفاتر حساب دقيقة، وله آمال مالية واسعة.

حادثته مرة، وكان أشد ما أريد استطلاعه منه أن أعرف حال دينه الذي كان يملك عليه قلبه وعقله، والذي كان يغمر حياته ويسيطر على كل خطوة من خطواته، فإذا عقله حر شديد الحرية في تفكيره، قد تحرر من كل قيد، يعجب بالمدنية الحديثة ويستلهمها الرأي ويستوحىها النظر، ويتخذ عماد منطقته ومصدر حكمه على الأشياء ما يفعله الأوروبيون وما لا يفعلون. قد يعارض ما يراه من ضروب المدنية مبدأ من مبادئ دينه فيظهر عليه نوع من الارتباك والحيرة، ويجمع في القول ويتبين في قوله الاضطراب بين دين خالط لحمه ودمه شطراً من حياته، وبين عقل

نزع إلى الحرية في آخر أيامه، ويشعر بثقل الموقف على نفسه فيجتهد في تخوير الحديث، وتغيير مجري القول إلى حيث يسترد كامل رأيه، ومتتهي حريته. هذا عقله، وأما قلبه فدينه في رف من رفوفه، لم يملأه ولم يخل منه، لذلك حرت أن أسميه مؤمنا أو كافرا، ماشيته مرة على البحر فرآه جميلا جليلا، ورأي القمر يسطع عليه بنوره الساحر، فصاح هذا موضع سجود، فصلي على الرمل؛ ودعاني مرة إلى ملهي فكان فيه كمن لا يؤمن بحساب ولا عقاب، وهكذا تذبذبت حياته بين نزعة قديمة، ونزعة جديدة، ودين نشأ عليه، وتحرر مال حديثا إليه، حيناً يتحرك دينه ويتنفش حتى يعم قلبه، وحيناً ينكمش وينكمش حتى لا يكاد يرى أو يحس.

حننت إليه لما بيننا من حب قديم، ولكن لست أتدري لم لم تتأكد بيننا الصداقة في هذه المرة كما تأكدت من قبل، أكان يعطفني عليه دينه وقد رق؟ أن كان يحنتني عليه ما فيه من ضعف - مظهره الحياء والخجل، وقد قوى فلا حياء ولا خجل؟ أم كانت تؤلف بيننا وحدة فتعددت، وأسلوب واحد في الحياة فتفرقت بنا السبل، للعلّة شيء من ذلك، ولعلّه كل ذلك، ولعلّه شيء غير ذلك؛ عليّ كل حال تركته وبيننا ود دخله العقل فخف، وصداقة جال في نواحيها الفكر فقثرت.

لقد خلّيته، وأنا أفكر في شأنه، لقد عاش شيخا وهو شاب، وعاش شابا وهو شيخ. عصي هواه صغيرا وأطاعه كبيرا، فليته ولد كبيرا ثم عاد صغيرا، وليت شعري هو في أي حاله أسعد: أيوم فر من العالم إلى دينه، أم يوم فر من دينه إلى العالم؟ - إنه ليمثل في تحياته العالم خير تمثيل، موجة دين تتبعها موجة إلحاد، وموجة روحانية تتلوها موجة مادية، وهكذا دواليك، وما أدري أيقف صديقنا في تطوره عند هذا الحد، أم يعود سيرته الأولى، أم يخطط مسلكا جديدا لا هو هذا ولا هو ذاك؟ الله أعلم.

لذة الشراء

بالأمس ضحك مني بائع الكتب القديمة، إذ رأيَ أقلب في الكتب، وأذهب ذات اليمن وذات الشمال، وأصعد على الكرسي وأنزل من عليه، والكتب بعضها بالعتيق قد غلف بالتراب وأكلته الأرضة، وكلها وضعت حيثما اتفق، لم يُعَنَ فيها بترتيب حسب الموضوع ولا حسب الحجم ولا حسب أي شيء، ولم يُبذل أي جهد في تنظيفها وعرضها؛ فكتب في الأرض، وكتب في السماء، وكتب في الرف، وكتب على المقاعد، وكتب في الممشى؛ والبائع رجل تقدمت به السن، زهد البيع وزهد الشراء، وإنما يبيع ويشترى لأنه اعتاد أن يبيع ويشترى، كل ما في أمره أنه فضل أن يجلس في الدكان على أن يجلس في البيع إذ يرى الرائحين والغادين، ويستقبل الزائرين، ومن حين إلى حين يبيع كتابًا أو كتابين.

وسط هذه المكتبة المغمورة بالكتب، والمغمورة بالتراب، والمغمورة بالفوضى انغمست ببذلتى البيضاء، القرية العهد بالكواء. أبحث عن كتب نادرة أشتريها، وأتصفح كتبًا أعرف قيمتها، فضحك إذ رأي غرامًا بالكتب يشبه الجنون، ورغبة في البحث والشراء تشبه الخبل.

لا تضحك - يا سيدي - فإنما هي لذة الشراء أصيب الناس بها جميعًا، وإن اختلفوا في مقدار الإصابة، فقد تهور فيها قوم، واعتدل فيها آخرون، وهي ظاهرة في منتهى القوة والغرابة، تتجلى بأجلى مظاهرها في الهواة، فهذا هاوي سجاجيد يُجن جنونه إذ يرى سجادة قديمة، صنعت في أصفهان في القرن الخامس عشر أو السادس عشر، يحتقوها الرائي العادي، ولا يرضى أن يأخذها ولا بالمجان ويشمئز أن يراها في بيته، فإذا الهاوي يجري ريقه ويتحلب فمه، كأنه جائع سغب أمام أكلة لذيدة، ولا يجد ثمنها فيستدينه، وقد ينقصه الضروري من وسائل العيش ومرافق الحياة فيعْمَى

عنه، ولا يرى أمامه إلا السجادة وشراءها ولتكن النتيجة بعد ما تكون، وسيتكفل الزمن بسداد الدين، وليحمل الزمن وحده عبء ما يحتاج إليه من ضرورات العيش، بل سواء حلها أم لم يحلها، فليس في الوجود ما يعدل هذه السجادة.

وكذلك الشأن في هاوي طوابع البريد، وهاوي الكتب، وكل الهواة، نمت عندهم على مر الزمان لذة الشراء لما يهون، وغذاها كثرة الشراء وأحاديث أمثاله الذين يحيطون به وإظهارهم الإعجاب الشديد بها إقتنى، فإذا نظروا إلى سجادة عجبوا من لونها الباهت، وخيطانها التي هللها الزمن، وصورها غير المنسجمة، ونحو ذلك مما يدل على إمعانها في القدم؛ وكلما كان خيطها أبل، ونسيجها أبسط، وتصويرها أنفه، كانت أشد استخراجا للعجب، وكانوا أكثر لها تقويما، وأشد لها إعظاما، وكانت لذة الشراء عند الهواة أشد طغيانا، وهم أمامها أشد ضعفا.

هذه اللذة -لذة الشراء- يشتغلها أرباب «المزاد» فهم يثيرونها إلى أقصى حدودها، ويبلغون بها مبلغا جنونيا، فتحتدم الذات، ويخضع الشارون لتأثير الاستهواء، ويتغالون في أثان ما يُعرض حتى قد تفوق أثان الشيء الجديد ولكن الشيء الجديد يُشترى والعقل الواعي في سلطانه، وأما أشياء «المزاد» فتشترى والعقل الواعي قد أسدل عليه ستار من الاستغواء والاستهواء، ومن أغرب ما في هذا النوع أنك ترى الكثيرين يندمون إذا اشتروا، ويندمون إذا لم يشتروا.

ولذة الشراء هي السبب في أنك تشتري لزوجتك وبناتك الثوب الجميل، أو الحذاء الظريف، فتعرض عليهن فلا يعجبهن، ثم يخرجن ويشتري ما هو أقل منه جمالا وظرفا ويعدن راضيات، قد يكون السبب أن ما اشتريته ليس على ذوقهن، وأن هناك فرقا كبيرا بين ذوق الرجال وذوق النساء، وأنت إذ تشتري لهن تحكّم ذوقك في ذوقهن، ولكن يظهر لي أن ذلك في كثير من الأحيان ليس السبب الصحيح، وإنما السبب الصحيح أنك إذ تشتري لهن تحرمهن لذة الشراء، وهي في نفسها قد تفوق

الشيء المشتري نفسه، ويفسر هذا أن السيدة قد تخرج وليس في نفسها شيء معين تشتريه، ولا تحس حاجة إلى شيء يُشترى، وإنما هي - في أعماق نفسها - تريد أن تغذي لذة الشراء عندها فما هي إلا أن تمر في دكان سمعان أو شملا أو شيكوريل حتى تشتري، وتشتري كثيرا، وتشتري ما لم يخطر لها على بال، ثم ترجع راضية لأنها أشبعت لذة الشراء عندها.

ولو أن الناس - وخاصة السيدات - اقتصروا على شراء ما هم في حاجة إليه لأغلقت دكاكين كثيرة، ولقل العرض وقل الطلب - ولكن لذة الشراء عندهم دفعتهم أن يشتروا ما لم يحتاجوا، وأوهمتهم في كثير من الأحيان بالحاجة إلى ما ليس لهم به حاجة، وإلا فما حاجتي إلى شراء كل هذه الكتب والمكتبات العامة مفتحة الأبواب؟ وما الحاجة إلى شراء نسختين من كتاب واحد والتعلل في ذلك بأتفه الأسباب؟ وما الحاجة إلى ملء البيت بهذا الأثاث وأقل منه يكفي ويزيده حسنا؟ وما الحاجة إلى شراء المرأة هذه الثياب المختلفة الألوان والأنواع، وقد لا تحتاج إليها مرة في الحياة؟ - لا شيء إلا لذة الشراء.

ويحدث في هذا الباب غرائب. فما وقوفك على الدكاكين واستعراضك ما فيها إلا نوع مما تدعو إليه هذه اللذة، فإن اشتريت فيها، وإلا فهو نوع من ظل اللذة كالسكر يتلذذ قليلا من رؤية الشارين ولو لم يشرب معهم، والمحب يسر بعض الشيء من رؤية المحبين يتواصلون ولو هجره هو حبيبه.

قد كان من المعقول والطبعي أن الناس - وهم يتلذذون هذه اللذة الشديدة القوية بالشراء - يتلذذون كذلك لذة شديدة قوية بالملكية ثم يستمرون على التمتع بها، والتمتع الدائم بملكها، ولكن جرى الأمر في هذا العالم على غير ما يتوقع، فهم راغبون أشد الرغبة في ملك الأشياء، والملكية تذهب بلذتها. فالناس مولعون أشد الولع بالملكية حتى لو استطاعوا أن يملكوا القمر في السماء للكه، ولو ملكوه

لحرموا جماله، وهم مولعون أن يملكوا كل شيء إلى درجة الجنون، حتى لو استطاعوا أن يسلبوا السماء زرقته، والمزارع بهجتها، والبحار جهاها ليجعلوها في حوزتهم لفعلوا. وقد أدرك مَهَرَّة الباعة هذا الجنون في الإنسان فتفتنوا في عرض ما يبيعون بحسن الوضع وتزويق المعروض وإيهام الترخيص وكثرة الإعلان في شكل جذاب يوقع في الوهم أن الشراء فرصة لن تعود، وأن ملكية الشيء تملأ الحياة سعادة وغبطة. ولو أنك دخلت بيوت الأغنياء والطبقة الوسطى لرأيت كثيرًا مما فيها لا حاجة للبيت إليه، بل قد حُلَّ أكثر مما يُطبق حتى ذهبت بساطته، وزاد تعقده، واحتاج إلى زيادة الحَدَم والأتباع للعناية بنظافته وترتيبه، وجَعَلَ الحياة أكثر تعقّدًا واشد ارتباكًا، وما دعا إلى هذا كله إلا لذة الشراء وجنون الملكية، وما قصر الفقراء في هذا إلا أنهم لا يجدون ثم ما يطلبون، ولو أتيح لهم ذلك لأفراطوا في الشراء إفراط الأغنياء ولولا جنون الملكية لكانت الحياة أبسط، ووسائل العيش أيسر، والتنعم بها أتم.

وكان الطبيعة العادلة أرادت أن تعاقب على هذا النوع من الجنون فسلبت المالك أكثر ما يتصور من لذة، فالشيء الجميل لذيد ممتع، فيه كل ما يتمنى المرء من سعادة ما لم يُملِك، فإذا مُلِكَ لم يجد فيه المالك كل ما يتصور ويتخيل، وأصبح أقل قيمة مما أمَلَ، ولا تزال قيمته في نقصان حتى يصبح عاديًا تافهًا كأنه والحرمان سواء.

فالقصر الجميل هو أجمل ما يكون في عين من يمر به، ويقل جماله شيئًا فشيئًا في عين من له به علاقة ما، حتى إذا بلغت المالك وجذت القصر لا قيمة له في نظره، ووجدت شعوره به كشعور الفلاح نحو كوخه، والفقير نحو عشه، وكلما طال الزمن بالغنى تفه القصر في نظره، وحرم حرمانًا تامًا من لذة الملكية، وصارت لذته خيالًا فقط لمن يمر به ويتصور نعيم سكانه أو ملاكه.

وهذه قاعدة الحياة، فأجل أيام الزوجية قبيل الزواج أيام يتخيل المرء أو المرأة ما ينتظر من نعيم مقيم. وأيام يسبح خياله أو خيالها في الآمال والأمانى التي لا حد لها، ثم تصدمه أو تصدمها الملكية أو شبه الملكية، فإذا كل شيء مألوف.

وأجضن بالكتاب قبيل شرائه وعند شرائه، وأبيت ليلة وأنا أحلم به ولا أسمح لنفسي بالنوم ليلة الشراء قبل تصفحه ومعرفة ما فيه أو على الأقل عناوينه ثم يوضع في المكتبة وينسى وكأنه لم يملك.

والأملاك الواسعة والغنى الوافر أمل الناس جميعاً، ولو درسوا -في دقة- حال الأغنياء وشعورهم لوجدوا الفرق الواسع بين ما يتخيلون وما يدرسون، ولوجدوا أن أكثر أغنياء يعانون من غناهم ما لو عقلوا وخف عنهم جنون الملكية لنزلوا للمجتمع عن شيء مما يملكون ويعانون، فسعدوا وأسعدوا.

أليس عجيباً في هذه الحياة أن ألد شيء في الملكية خيالها؟

صندوق الكتاكيت

كان أمس، من أيام الشتاء المشهودة: ريح صرّ، وليل قرّ، حتى خَصِرَت اليد، وقففت الأسنان، ويبست الأطراف، وتجلّ «أمشير» بأجلى ما وسم به من هَوَج ورَعَن، حتى لو كان طفلاً لسال لعبه، أو رجلاً لسقطت عنه التكاليف.

ثم انجلى الليل عن صبح بديع: سماء صافية، وشمس مشرقة، حاولت أن آتي لها بتشبيه جديد، فكانت الشمس في السماء أجمل من كان تشبيه قديم وحديث.

غادرت حجرتي إلى حديقتي الصغيرة المتواضعة فوجدت خادمي قد سبقت، فأخرجت صندوق الكتاكيت إلى الشمس لينعم ما فيه بحرارتها ودفتها - وقع عليه نظري، وصادف ذلك منى تفكيراً في موضوع أكتبه.

شعرت إذ ذاك بشخصيتين من نفسي تتناظران منظر عجيبة عنيفة أسجلها للقراء:

لم لا يكون (صندوق الكتاكيت) موضوعاً طريفاً؟

إنه موضوع تافه لا يليق بأستاذ في جامعة، ولا بمدرس، ولا بمساعد مدرس. إن الجامعيين وأمثالهم يجب أن تكون موضوعاتهم في أعلى السماء، أو أعمق الأرض، ويجب أن تصبغ بصبغة ميتافيزيقية، ويكون فيها الجوهر والعرض، والكمية والكيفية، والآتية والعليّة. أما صندوق الكتاكيت فموضوع يثير الهزؤ والسخرية، ويستخرج من النفس عاطفة الازدراء والاحتقار.

ليس ذلك بصحيح، فكل شيء في الحياة موضوع أدب، وخير الأدب ما مس الحياة الواقعية، واستخرج من تافه الأشياء فكرة بديعة، أو رأياً طريفاً. لقد قال تعالى: {إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها} والكتكوت خير من

البعوضة من جميع الوجوه، فالبعوضة منبع ألم، والكتكوت منبع لذة - والبعوضة إذا كبرت كانت أقوى على اللدغ وأقدر على الإيلام، والكتكوت إذا كبر كان دجاجة أو ديكاً، يسيل لعاب الإنسان إذا تصوره على مائدة أنيقة، أو تخيله وقد أنضجه طاه ماهر.

وضرب الله الذباب مثلاً فقال تعالى: {إن الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب}. وأين الذباب من الكتكوت؟ وقد سُمِّيت في القرآن الكريم سورة منه بالبقرة والنحل والنمل والعنكبوت!

وقرأت لأديب كبير لا أذكره الآن مقالا بديعاً في زنبار أراد أن يخرج من شباك فاصطدم بزجاجه، وحاول مراراً أن يخرج فلم يستطع، فاستخرج الكاتب من ذلك قطعة فنية طريفة في الحرية والاسترقاق، وكيف يبحث الزنبار عن حريته فلا يجدها، ثم هو لا ينساها مهما صادفه من عقبات، وتحمل من آلام.

وكتب فيكتور هوجوه قصة طريفة عن برغوث أنقذ أمة من الأمم سُلط عليها حاكم ظالم لم تستطع حمله على العدل ولا إبعاده عن الحكم.

ويعد هذا وذاك كتب مستشرق كبير معاصر كتاباً جمع فيه ما قيل في الأدب العربي عن «البراغيث» واقترح عليه مستشرق آخر أن يسمى الكتاب «صيحة المستغيث من البراغيث» إلى ما لا يعد ولا يحصى.

إذن فنظرتكم في اختيار الموضوع وأنه يجب أن يكون «أكاديمياً»، وأن يُعْطَى عنواناً ضخماً يستعمل في اختياره كل ضروب التكلف والتعمق والفلسفة نظرة أرسقراطية بغية يجب أن تتخلص منها وتهزأ بما جرى عليه العرف فيها.

على هذا النحو ظلت الشخصيتان تتناظران، وظللت أصغي إليهما وأقيد أفكارهما، إلى أن طال الأخذ والرد، وأشفقت على القراء استرسالهما في الجدل وحاولت أن أبتعد عن الصندوق، وأهرب من الموضوع فلم أستطع.

أيها الكتكوت! فيك كل معاني الحياة ومشاكلها ومظاهرها. فاسمك -أولاً- كتكوت، ويجمع على كتاكيت، ولم أدر من أين أتى لك بهذا الاسم، فقد راجعت القاموس المحيط ولسان العرب، وغيرهما من كتب اللغة، فلم أجد فيها هذا اللفظ للدلالة عليك، ولا يستعمله إلا أهل مصر. أما أهل الشام والعراق فلا يعرفونه. أتعمدت اللغة العربية إهمالك لحقارتك؟ ذلك ما لا أظن لأني أعلم أن اللغة ديمقراطية تُعنى بالجليل والحقير على السواء، بل اللغة العربية مفرطة من الديمقراطية فقد وضعت لآتفه الأشياء أسماء تعد بالآلاف، واحتقرت أشياء عظيمة فلم تضع لها اسماً للآن كالراديو والبيانو والآلات من المخترعات الحديثة بل هم وضعوا لك اسماً آخر هو «الفرخ» ولكن الفرخ غير مقصور عليك، شارك فيه كل صغار الطيور حتى استعملوه أحياناً في صغار الشجر والنبات، وأخيراً علمت أنهم وضعوا لك اسم (الفرُّوج) فلم يطلقوه على غيرك من صغار الحيوان، ولكنهم أشركوا معك فيه نوعاً من الملابس وغيرها، ولعل العامة كانوا لك أنصف فوضعوا لك اسماً خاصاً، ومن أولى بالتخصص منك؟

وبعد، فلا أدري من أين أتى اسمك «الكتكوت» فسأترك لعلماء اللغة والاشتقاق ومقارنة اللغات، من سريانية وآرامية وفارسية وعبرية وهيروغليفية، لعلمهم يجدون لك أصلاً -وعلى كل حال فقد أثبت أن فيك مشكلة من مشكلة الحياة العظمى، وهي مشكلة اللغة، وسببت أن لك مشكلة أخرى أعظم من هذا وأعقد. فهب أن علماء اللغة استنكروا هذه الكلمة فأين سلطانهم على لفظك الذي تداولته العامة ونطقت به قرونًا.

فهل إذا صدر قرار بمحو هذه الكلمة لأنها ليست عربية يسمع ويطاع؟ على أي وجه من الوجوه أنت مشكلة حتى في اسمك.

هذه هي الخادم قد رمت الحب لكثاكت، فلا تسأل عما كان بينهما من خصام ونزاع، ومباراة وسباق، وضرب وطعان.

وهل الإنسان إلا هذا؟ وهل تاريخ حياته إلا نزاع وصراع؟ وقد عبروا عن ذلك أصدق تعبير فقالوا: إن الحياة جهاد- أو ليس أكبر باب في كتب التاريخ هو تاريخ الحروب والفتوح، وإعلان الحرب، ومعاهدات الصلح؟ وكل الفرق بينك أيها الكتكوت وبين الإنسان أنك استعملت في جهادك ونزاعك منقارك الوديع، وجسمك اللين الغض، وجاء الإنسان الراقى، فاستعمل في الحصول على غذائه الكذب والخديعة والرياء والتفاق، واستعمل في مدافعة خصومه كل طرق الكيد والدهاء، واستخدمت الجماعات في حربها كل أنواع المدمرات والمهكلات- وقد أعطى الإنسان عقلاً أرقى من عقلك لينظم عيشه فأفسده، ولينظم السلم فنظم الحرب، وليعاون أخاه فعاده.

- أيها الصندوق!

فيك تنازع البقاء وبقاء الأصلح، فيك استكانة الضعيف وغلبة القوي، فيك الضعيف يكره العراك، وفيك القوي يصول ويجول ويدعو إلى النزال، فيك الجمال، وفيك القبح.

- استأنست أيها الكتكوت بالإنسان صغيراً، ثم علمتك التجارب ففرت منه كبيراً.

وكنت مادة صالحة للغذاء كما كنت مادة صالحة للأدب، فمن قديم استعيرت منك الاستعارات اللطيفة، والأبيات الجميلة، فقد قال الشاعر:

أرى فتنة هاجت وياضت وفرخت ولو تركت طارت إليها فراخها
وفي حديث عمر: يا أهل الشام تجهزوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم
وفرخ.

ثم قالت العامة: «الكتكوت الفصيح من البيضة يصيح».

وأخيراً، فيك سر الحياة الغامض - كيف دبت الحياة فيك يوم كنت بيضة،
وكيف تطورت جنيناً وكيف نبض قلبك لأول مرة، وكيف خرجت إلى هذا
الوجود، وكيف تموت، ولم خرجت ولم تموت؟ لو أفصحت لنا عن كل هذه الأسرار
لكشفت سر الوجود، ولما كان هناك مجال لفلسفة ولا حكمة ولكنك أعجزت
الفلاسفة، إذ كتمت سر ك بين جناحيك فهامت الفلاسفة على وجوهها، وارتبكت
في تفكيرها.

إذن فيك أيها الصندوق الصغير، كل ما في العالم الكبير، من معاني الحياة
وغوامضها وأسرارها، وفيك كل مظاهر الإنسان على تبججه وغروره - وفيك ما
حير العقول قرونًا، وأجهد الفكر أجيالا. وهل العالم إلا لغز، لو حل جزؤه لحل
كله؟..

الأحنف بن قيس

ضئيل الجسم، صغير الرأس، متراكب الأسنان، مائل الذقن، ناتئ الوجنة، غائر العينين، خفيف العارضين، أحنف الرُّجُل، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بحظ، تنبو عن مَرَّاه الأحداق، وتتفادى من شخصه الأبصار؛ وهو مع هذا سيد قومه، سيد تميم، وهي ما هي في العظمة. إن غَضِبَ غضب لغضبه مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب؛ خطير النفس، بعيد المرمى، ما زال يسود حتى بلغ مرتبة لا يسمو إليها أمل، ومنزلة لا يتعلق بها ذرٌّ؛ إذا أوفد وال وافدا إلى خليفة فالأحنف أحد الوفود أو رئيسه وخطيبه؛ وإذا اختلف الأمراء على الخلافة، فالأحنف أول من يفكرون في اصطناعه، وإذا حزب الأمر وعظَّم الخطب، فالأحنف من يُفَرِّع إليه في المشورة، دوى اسمه بين المسلمين في الأحداث الأولى للإسلام، وخرج منها - على كثرتها وتعقدها واضطراب الأهواء فيها - نقى السيرة يُقر بعظمته من كان له ومن كان عليه، وظل اسمه علما رفيعا في نواحي مختلفة على مر الأزمان؛ إن أرُخت الحروب الإسلامية فأحد قادتها وغزاتها، وإن ذُكرت الأخلاق فأحد أشرافها ونبلائها، وإن أرُخ الأدب والخطب والحكم والأمثال فهو ابن بَجْدتها.

ولد قبل الإسلام، ولكن لم ينل شرف الصحبة، ووقف من أول أمره وهو فتى موقفا يدل على قوة عقله وصدق نظره، فقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا إلى بني سعد - رهط الأحنف - فجعل يعرض عليه الإسلام، فقال الأحنف لقومه: «إنه يدعو إلى خير، ويأمر بخير، فلم لا نجيب دعوته».

وسرعان ما ساد تميم، وهي قبيلة من أعز القبائل وأقواها وأشرفها، كانت تسكن مساحة كبير من جزيرة العرب، وانقسمت تميم لكثرتها إلى فروع كثيرة كانت تتعاضد أحيانا وتتحالف أحيانا، ولذلك لم يكن عجيبا أن تهاجي الفرزدق وجريـر

شر هجاء، وكلاهما من تميم، ولكنها من فرعين مختلفين. حاربت تميم نفسها ومن حولها في الجاهلية، وشغلت حروبها أياما كثيرة من أيام العرب، وكان لتمييم راية في الحروب خاصة على صورة العقاب، كما كانت راية بني أسد على صورة الأسد - ثم أسلمت وحسن إسلامها، ولكنها ارتدت أيام الردة إلى أن ردها خالد بن الوليد إلى الطاعة، وكفرت عن ردها بما بذلت من جهود في الفتوح، حتى إذا تم الفتح سكن بعضها الكوفة وبعضها البصرة، وكان الأحنف بن قيس سيد تميم البصرة.

أنجبت تميم كثيرا من نوابغ الشعراء لا يعنوننا الآن، كما أنجبت كثيرا من السادة والأشراف والعظماء، وكانوا سلسلة كسلسلة الذهب متصلة الحلقات يتعلم بعضهم من بعض خلق السيادة كما يتعلم العلم على الأستاذة، وكان أستاذ الأحنف بن قيس في ذلك «قيس بن عاصم» المنقري التميمي، الذي قال فيه رسول الله لما رآه: «هذا سيد أهل الدير»، وقد قيل لقيس هذا: صف نفسك؛ فقال: أما في الجاهلية فما هممت بملازمة، ولا خُتت على تهمة، ولم أر إلا في خيل مغيرة، أو نادي عشيرة، أو حامي جريرة؛ وأما في الإسلام، فقد قال الله تعالى: {ولا تزكوا أنفسكم}. وقد نزل في البصرة، وتعلم الأحنف منه الحلم. ولما مات قال فيه القائل:

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحمها
وما كان قيس هُلكه هلك واحد ولكنه ببيان قوم تهذما

خلف الأحنف قيسا في السيادة، وكان أبو موسى الأشعري واليا على البصرة فبعث بوفد منها إلى عمر بن الخطاب، فكان الأحنف أحدهم، وخطب بين يدي عمر يسترعيه النظر لأهل البصرة، فأعجب به عمر وقال: «هذا والله السيد!» فدوت هذه الكلمة في الأنحاء.

أكثر الواصفون في ذكر الأحنف ومزاياه وسيادته، والسيادة أنواع، وقد ترى لكل سيد طعما لا تجده في سيد آخر، ولكل سيد نقطة تتركز فيها عظمته قد لا

يشاركه فيها سيد آخر؛ فسيدٌ عظمته في شجاعته، وسيد عظمته في سخائه، وسيد عظمته في قول الحق بجهر به والسيف على رأسه؛ فإن نحن سئلنا عن مركز العظمة في الأحنف، فعظمته كانت تتركز في خصلتين تتصل إحداهما بالأخرى اتصالاً وثيقاً: أنه مُنِحَ نظراً صائباً يتعزف به المحاسن والمساوي، ومعالي الأمور وسفاسفها، وقُلَّ أن يخطئ في ذلك، ثم منح إلى ذلك إرادة قوية يحمل بها نفسه على ما أدرك من معالي ومحاسن مهما كلفه من مشقة، وحمله من جهد، فلو علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه، وهي - كما ترى - نقطة ارتكاز تحمل فوقها كثيراً من الفضائل، على حين أن نقطة الارتكاز عند كثير من الناس لا تحمل إلا فضيلة واحدة.

وهذا يفسر كل ما روى عن الأحنف، كان لا يعبأ بالمال، وكان لا يعبأ بالحياة، وكان يفر من الشرف والشرف يتبعه، وكان يخضع للحق إذا لزمه خضوع الدليل المستخذي، وإذا كان الحق بجانبه دافع عنه دفاع المستأسد الضاري، يقفل أمام علي وأمام معاوية وأمام زياد بن أبيه، فيجهر بالحق الصريح من غير مجمعة ولا مواربة ولا يبالى ما بعده.

تولى في زمن عمر بن الخطاب فتح خراسان، فدوخ الفرس ومَلِكهم يزدجرد، ولقي من الحروف ما تشيَّب من هوله الولدان، ولكنه صبر وظفر، وأنجد ملك الفرس الترك وأهل فرغانة والصُّغْد، فلم يكن فيهم أمام الأحنف وجنده غناء.

ووقف الأحنف العربي البدوي وليد الصحراء في شملته يطارد يزدجرد المتوَّج، ربيب النعمة، وعُصَاة المدينة، وسليل الأكاسرة، ونتاج الحروب المنظمة بين فارس والروم، في العدد والعديد، والجنود والبنود، فظفر التميمي بسيد فارس وطارده حيثما حل حتى جاوز حدود بلاده وخرج منها لا إلى رجعة، وأقبل أهل فارس على الأحنف فصافحوه ودفعوا إليه الخزائن والأموال وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم، على أفضل مما كانوا عليه زمن الأكاسرة.

فلما نشبت الحرب بين علي ومعاوية رأى الحق في جانب علي فانضم إليه بقومه، وأعانته بسيفه ورأيه، فاشترك معه في حرب صفين ونصحه ألا يكون أبو موسى الأشعري حكماً، وظل مخلصاً له العمل والقول حتى قتل علي. ودانت البلاد لمعاوية، فأطاع معاوية في شمم وإباء. دخل عليه يوماً فقال له معاوية أنت الشاهر علينا سيفك يوم صفين؟ فقال له: يا معاوية لا تذكر ما مضى منا ولا ترد الأمور على أدبارها، فإن السيوف التي قاتلناك بها على عواتقنا، والقلوب التي أبغضناك بها بين جوانحننا، والله لا تمدد إلينا شبراً من غدر إلا مددنا إليك ذراعاً من ختر، وإن شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفر من عفوك. فقال له معاوية: فإني أفعل، ثم استرضاه ومن معه.

ولما أراد معاوية أن يبايع لابنه يزيد أخذ الناس يتكلمون في مدح يزيد والثناء عليه، ويمدحون معاوية على عمله والأحف ساكت، فقال له معاوية: ما لك لا تتكلم يا أبا بحر - وكانت كنيته - فقال قوله المشهورة: «أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت». فكانت كنيته أبلغ من التصريح.

بعد أن قتل علي رأى من مصلحة المسلمين أن يشايح الأمويين، فإن هذا أقرب إلى الوحدة وأدعى إلى الألفة حتى مع ما هم فيه من ظلم أحياناً وطغيان أحياناً، يدل على ذلك تاريخه وأقواله فقد استنصر به الحسن بن علي على معاوية فلم يجبه وقال: «قد بلونا حسناً وآل حسن فلم نجد عندهم إيالة الملك ولا مكيدة الحرب» - وكان بينه وبين عبد الله بن الزبير جفاء، فلم يشايحه في الخروج، ورأيناه ينصح قومًا من تميم أرادوا أن ينضموا إلى ابن الزبير ألا يفعلوا.

ولكنه كان يطبع الأمويين وولاتهم طاعة الحازم العاقل، ينقدهم فيما يرى ويمحضهم النصيح في صدق وإخلاص؛ وله موقف مع زياد من خير المواقف أثرًا في تاريخ الإسلام، فقد همَّ زياد أن يقتل الموالي لكثرتهم ومزاحمتهم العرب فاستشار

الأحنف فقال: إن ذلك ليس لك، إن رسول الله لم يقتل من الناس من قال لا إله إلا الله وشهد أن محمدًا رسول الله، وإنهم غَلَّةُ الناس، وهم الذين يقيمون أسواق المسلمين، أفتجعل العرب يقيمون أسواقهم قصايين وقصارين وحجامين؟ فأذعن زياد لرأيه ونزل على إشارته؛ ويقول الأحنف إنه ما بات ليلة أطول منها خشية أن ينفذ زياد فكرته.

ووقف في البصرة موقفًا بديعًا يصلح بين القبائل المختلفة المتعادية من الأزدي و بكر وعبد القيس، ويبذل من ماله ديات لما يقع من القتل حتى يلتئم صدعهم ويجتمع شملهم ويعيشوا في البصرة عيشة هادئة مطمئنة.

لقد عابوا عليه أنه ذكر أمامه الزبير بن العوام عندما تكبر القتال يوم الجمل ومر ببني تميم، وقال: جمع الزبير بين الناس يقتل بعضهم بعضًا ويريد أن ينجو إلى أهله! فتبعه رجل سمع هذا القول فقتله، فقال الناس إن الأحنف قتل الزبير بكلامه.

كما عابوه بأنه كان سميحًا مطيعًا لجارته «زُبراء» حتى كان الناس يكونون عن وقوع الحرب بقولهم «غضبت زبراء» لأنها إذا غضبت غضب الأحنف، وإذا غضب الأحنف شُرعت الأسنة وانتضيت السيوف.

ولكن أي عظيم لا يعاب؟ وكفى الأحنف نبلا أن كانت عيوبه من هذا القبيل لا تتخذش شرفًا ولا تجرح عرضًا.

وللأحنف ناحية أخرى بديعة، هي ناحية أدبية غزيرة أمدت كتب الأدب العربي بغذاء صالح قوي، هو ما روي عنه من جمل حكيمة جمعت إلى حسن اللفظ وقوته، جودة المعنى وصحته، ونضحت عليها صفات الأحنف النبيلة الشريفة وكانت خلاصة حياة حافلة بالتجارب. كانت هذه التجارب والمعاني في رأس أرسطو اليوناني الفيلسوف فصاغها صياغة علم وفلسفة، وكانت في رأس الأحنف ابن قيس

العربي البدوي فصاغها في شكل حكم وأمثال وجل موجزة، تحمل معاني غزيرة، فكان لكلّ مزايا منهجه في النظر، ومنهجه في القول. لقد وصل الأحنف في الإسلام ما بدأ به أكثم من صقيي من الحكم في الجاهلية، وزاده الإسلام غزارة وفيضاً، وكانت حياته العملية من حروب واتصال بالسلطان الولاية وخبرة بالناس ونزاعهم وأنظارهم، وسيادته وكثرة سؤال الناس له عما سوّده - مدداً صالحاً يستقى منها حكمه وأقواله.

من أجل هذا كله نال عند الناس منزلة قل أن يطمع فيها طامع؛ يعجب الناس بعقله حتى يقول سفيان: ما وُزن عقل الأحنف بعقل أحد إلا وزنه، ويعجبون بسيادته وهيئته حتى يقول القائل:

إذا الأبصار أبصرت ابن قيس ظللن مهابةً منه خشوعاً

فله الأحنف قائدًا في الحروب لا يبارى، والله الأحنف سيدًا في قومه مطاعاً، والله الأحنف حكيمًا مجرباً، والله الأحنف بليغاً مفوهاً، والله السعدية إذ رثته فقالت: «نسأل الله الذي ابتلانا بموتك، وفجعنا بفقدك، أن يوسع لك في قبرك، وأن يغفر لك يوم حشرك، فلقد عشت مودوداً حميداً، ومت سعيداً فقيداً، ولقد كنت رفيع العمد؛ وارى الزناد، ولقد كنت في المحافل شريفاً، وعلى الأرامل عطوفان ومن الناس قريباً، وفيهم غريباً، وإن كانوا لقولك مستمعين ولرأيك متبعين. رحنا الله وإياك».

أكاذيب المدنية

لكل مدنية جانبان: جانب يصح أن نسميه «الجانب المادي»، وجانب يصح أن نسميه «الجانب الروحي».

ونعني بالجانب المادي القوة الحسية وما يتبعها وما يُمدّها؛ فالتسليح وما إليه قوة مادية، والمخترعات الحديثة - من كهرباء وبواخر وقطارات وطائرات وغوصات - قوة مادية. وما اخترع من صنوف الترف - كاستخدام الكهرباء في شؤون الحياة، واستخدام القوى الميكانيكية في تنظيم الأعمال - قوة مادية؛ بل إن الوسائل التي تستخدم لهذه الغاية، كالعلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية والطبية هي أيضًا قوة مادية، لأن نتيجتها في الحياة هي هذه المخترعات والمستكشفات التي تزيد في ترف الناس ونعيمهم من الناحية المادية، بل المدارس والجامعات التي تعلّم لهذه الغاية هي قوة مادية للدولة.

والقوة الروحية هي رسم المثل الأعلى للإنسان، والسعي في الوصول إليه، وهي العلم على إصلاح النوع الإنساني بأكمله من الناحية الفردية ومن الناحية الاجتماعية والسياسية، وهي تعويد الإنسان أن يفكر ويشعر ويعمل لخير الإنسانية، حتى تقرب من المثل الأعلى لها، وهي أن يخفق قلب الإنسان بحب الناس جميعاً، وبحب الخير العام لهم جميعاً، وهي أن يوضع من النظم ومن طرق التربية ومن القوانين ومن المعاهدات ما يحقق هذه الغاية، أو على الأقل ما يقرب منها، وعلى الجملة هي تغذية الروح بحب الخير للإنسانية.

وليس يمكن أن تُعد المدنية مدنية راقية إلا إذا وجد فيها الجانبان، وكانا معا راقين، وكانا متوازنين.

فلنتظر - في ضوء هذا القول المجمل - إلى المدنية الحديثة، أي مدنية صالحة؟ أهى مدنية راقية؟ أهى أمل الإنسانية؟

الحق - مع الأسف - أنها ليست كذلك.

لقد نجحت في الجانب المادي نجاحا فوق ما كان يُتَظَر، وفشلت في الجانب الروحي فشلا أبعد مما كان يتَظَر، فأما الذين يهتمم الرُواء والمنظر وحسن الشكل والمتعة المادية فقد صفقوا للمدنية الحديثة حتى كلَّت أيديهم من التصفيق، وبَحَّت أصواتهم من نداء الاستحسان. وأما الذين يهتمم من الإنسان روحه لا جسمه، ومن المادية روحها لا مادتها، فنالهم شيء غيّر قليل من اليأس. أما المادية فحدّث عنها ولا حرج، لقد حلَّقت الطيارات في السماء، وغاصت الغواصات في قاع الماء، وأتت الكهرباء بالسحر الحلال، وتضغظ على زر فتبعث ما شئت من أنوار، وتضغظ على زر فتبعث ما شئت من حرارة، وتضغظ على زر فتبعث ما شئت من حركة؛ هذا التليفون بين أوربا وأمريكا، وهذا اللاسلكي يفعل أعاجيبه، بل كيف أعَدَّ والمخترعات لا تحصى عددا، والعجب منها لا ينتهي أبدا، حتى ظننا أن العالم احتفظ بأسراره كلها منذ خُلِقَ ثم باح بها جميعها لرجال المدنية الحديثة، فلم يعد لديه سر، وكل ما في الأمر تصفية حساب الأسرار.

ولكن لا تخدعنك هذه المظاهر، فالمثل العامي يقول: «لا يعجبنيك البيت وتزويقه، فساكنه قد جف ريقه»، لا تنظر إلى المكان وانظر إلى السكان.

هذه مشاكل العمال العاطلين، وهذه الملايين المملينة من البائسين، وهذه الحروف الطاحنة في أسبانيا، بين الشيوعيين والفاشستين، وهذه الدول كلها تتسلح لتقذف بأبنائها جميعا في أتون من نار مساحتها الأرض كلها، وهذا وهذه، مما لا يعد من ضروب الشقاء.

هذا هو القصر السعيد، فأين سكانه السعداء؟ وهذه هي السفينة الجميلة المعدة بكل وسائل الإعداد، فأين برّ السلامة؟ وهذا «الفرح»، فأين «العريس»؟!

سر هذا الشقاء كله طغيان جانب المادة على جانب الروح - سر هذا كله أن المدنية الحديثة عجزت عن أن تنظر إلى الإنسان كوحدة على الرغم من أنها قربت بطرق المواصلات والمعاملات بين أجزاء العالم. لقد قربت في المكان وباعدت بين السكان، تقدمت في علم الجغرافيا ولم تتقدم في علم الاجتماع، استكشفت الجبال والوديان والصحاري والأنهار والبحار، ولم تستكشف قلب الإنسان، عملت على وحدة الإنسان جغرافيا، وعملت على تفريقه اجتماعيا، فما أغرب شأنها، وما أصح عينها، وما أضعف ذكاءها!

لقد تساءلت المدنية كيف نعيش، فحسّنت كيف نعيش، ولكن لم تتساءل لم نعيش، وكيف يجب أن نعيش، وما الغاية التي لأجلها نعيش، فلم تتقدم في هذا الباب شيئا.

إن العلم كان وسيلة صحيحة لتحسين كيف نعيش، ولكن العلم لا يكفي للإجابة عن بقية الأسئلة، فلم يكن وسيلة صحيحة لها.

لقد ابتكرت المدنية الحديثة فكرة الوطنية فكانت سبب شقائها، ومصدر محتتها، وفقدانها روحانيتها.

لقد كانت الأسرة هي الوحدة، ثم كانت القبيلة، ثم كانت المدينة، ثم كانت أهل الدين الواحد، ثم كانت في المدنية الحديثة الأمة؛ ولكن في كل ذلك شقاء، ولا يمكن أن يسعد العالم حتى تأتي مدنية تجعل الإنسانية كلها هي الوحدة، وهي الغاية، وهي المثل الأعلى.

فكّر في أكثر شروط هذا العالم، وكلما بدا سبب فأرجعه إلى علته الأولى، تصل أخيرا إلى أن علة العلل ضيق هذا النظر في جعل الأمة لا الإنسانية هي الوحدة، فالتسلح، والحروب الماضية، والحروب المستقبلية، وكثرة العاطلين، وغلاء الأسعار، والخصومات بين الأحزاب، والخصومات بين الأمم، وعدم وجود المال الكافي للإصلاح الاجتماعي، سببه كله هذه النظرة الضيقة، نظرة الساسة المستبدين إلى أمتهم، يؤيدهم من وراء ستار رجال الأموال والأعمال، وحتى الرجال الذين كانوا موضع الأمل في إعزاز جانب الروح، وهم رجال الدين أصبحوا -كذلك- رجال سلطة.

هذه المدنية التي شرحتها طغت على كل شيء، فالأخلاق أساسها هذه المادية، وبرامج التعليم أساسها الوطنية، ومالية الدولة مشلولة بالأغراض الحربية، والآلات المخترعة جعلت أصحاب الأموال والحكومات ينظرون إلى الإنسان نظرهم إلى ترس في آلة، واستغرقت المادة كل تفكير المفكرين من اقتصاديين وماليين وعلماء وحكوميين، ومن اتسع تفكيره لإصلاح روحي أو لإصلاح اجتماعي صدم بميزانية الدولة التي أسست على النظرة المادية، وصدم بالحالة الدولية العامة، كالذي كان في عصبة الأمم، فقد خذلت وأصيبت في صميمها لأنها حاولت محاولة بسيطة أن توجه تيار المدنية الحديثة إلى الناحية الروحية، فلما كانت البيئة التي حولها لا تساعدتها اختنقت وأصبحت هي الأخرى جسما بلا روح، ثم أصبح الناس جميعا وقد فقدوا حريتهم الحقيقية، على الرغم من الطلاء الكاذب من المناداة بالحرية، فالحالة الاقتصادية المادية سلبت الناس حريتهم، وجعلتهم يعانون أشد المعاناة وسائل العيش، ولا حرية لهم في التخلص منها، وكلما زادت المدنية زادت مطالب الحياة، وتعقدت سبل الحصول عليها، وشعر الناس بضيق من شدة الضغط، وهل من هذا حرية؟ والناس يرون الحرب أزمة المدنية، ولكن هذا خطأ، فالحرب نتيجة

سوء المدنية، ومظهر لحقيقة سوء الحال الاقتصادية والمادية، لا أن الحرب نفسها هي الأزمة، فالحرب هي عقرب الساعة التي نراها، ولكن العقارب نفسها ليست إلى مظهرها للآلات الدقيقة المستورة تحت العقارب، وإذا رفعت العقارب لم يتغير سير الآلات في شيء، وكل ما فقدناه هو المظهر والعلامة.

لقد أعلت المدنية الحديثة شأن العقل وغالت في تقديره، وآمن رجالها بأنه وحده هو الأساس الصالح للحياة، فكان من نتيجة ذلك ازدهار العلم إلى حد بعيد، وزادهم تحمسا له ما كان من نتائجه الباهرة في المخترعات والآلات، ولكنهم بعد سيرهم الطويل، ونجاحهم الباهر في هذه السبيل، اصطدموا بحقيقة مؤكدة وهي أن العلم وحده وما تبعه لم يكن السبيل لإسعاد الإنسان.

وأظن أن قد ظهرت موجة علت نفوس الناس تشعرهم بأنهم لم يكونوا بعد العلم أسعد مما كانوا قبل العلم، وتشعرهم بأن المدنية ينقصها شيء كبير.
ما هو هذا الشيء؟

هذا هو الجانب الروحي الذي أشرت إليه، ولست أنكر مزية العلم، ولكنني أتقد أنه وحده لا يكفي. إني أفهم من المدنية معنى خاصا، هو أنها «التقدم الذي يقوم به الناس في كل جانب من جوانب الحياة، وفي كل وجهة من وجهات النظر المختلفة»، فإذا انحصر التقدم في المادة وحدها والعلم وحده، كانت المدنية ناقصة، كما إذا انحصر التقدم في الروحانية وحدها.

لقد رجحت في المدنية الحديثة كفة المادية، فيجب أن نضع في الكفة الخفيفة روحانية كثيرة حتى تتوازن، ولكن ما هذه الروحانية التي نريد وضعها؟

هي أن يخفق القلب بحب الإنسانية كلها، فليس هناك أمة مستعمرة وأمة مستعمرة، وليس هناك أسود وأبيض، وليس هناك أصحاب رءوس أموال يتخذون

الملايين خدماً وعبيداً. هي أن يتجه من بيدهم زمام الأمور إلى الخير العام لا الخير الخاص.

هي أن تلغي الحدود الجغرافية، والحدود الجنسية، والحدود الوطنية، والحدود المالية ونحوها من حدود، ثم يكون المبدأ العام «الإنسان أخو الإنسان يكده ويعمل لخيره».

هي أن يكون مبدأ الإنسانية ديناً يُشتر به ويعمل من أجله، وتحوّر مناهج التعليم وقواعد الأخلاق على حسبه.

لو فعلنا ذلك لزال أكثر شرور المدنية الحديثة من حروب وعطلة وتناحر بين العمال وأرباب الأموال، ولتعاون الشرق والغرب، وتعاون أهل الأديان المختلفة، ولشعر الإنسان بأن أفق تفكيره اتسع، وأفق شعوره اتسع، وشعر أن الأرض كلها وطنه، والناس كلهم إخوانه، ولشاع الحب في جو الأرض، وأصبحنا نستنشق مع الهواء.

وما لم نصل إلى هذا الحد فالمدنية مجموعة أكاذيب.

المصاحبة

من الواضح أن اللغة الحية تتبع الحياة الواقعية للأمة التي تتكلم بها، فإذا استعملت الأمة آلة من الآلات أوجدوا لها اسماً للتعبير عنها، وإذا اخترعوا مخترعاً أو استكشفوا عنصرًا أو ركبوا تركيباً جاءت اللغة مباشرة فكلمت نقصها بوضع اسم لذلك الشيء الجديد، فتمشت اللغة مع العلم والفن والصناعة - وكذلك الشأن في المعاني، فإذا استكشفوا ظاهرة في علم النفس وضعوا لها اسماً، وإذا شعروا بمعنى من المعاني فلكذلك. ويكثر استعمال الألفاظ في اللغة ويقل بقدر وقوع الشيء في الحياة العملية وأهميته؛ على حين أن أمة أخرى لا تستعمل هذا اللفظ في لغتها ولا ما يرادفه ويقابله، لأنها لم تشعر بهذا المعنى ولم تستعمله.

سقنا هذه المقدمة لمناسبة أننا رأينا في اللغة الإنجليزية كلمة تدور على ألسنتهم كثيراً، ويستعملونها في كتبهم كثيراً، ثم لا نجد لها مقابلاً يستعمل في لغتنا العربية، وهذه الكلمة وأمثالها في اللغة الإنجليزية يصقلها الاستعمال، ويتحور مدلولها على مر الأزمان، تبعاً لما يجري عليه العمل.

تلك الكلمة هي **Compromise** وقد تنقلت في استعمالات مختلفة حتى صارت الآن تستعمل بمعنى حسم النزاع بين فردين أو أمتين أو حزينين، وذلك بتنازل كل منهما عن شيء من وجهة نظره ومن مطالبه واتفاقهما بعد ذلك على نتيجة هي وسط بينهما، أخذت بطرف من هذا وطرف من ذاك، وقربت بين وجهة نظر هذا ووجهة نظر ذاك.

وهذه الكلمة بهذا المعنى تدور في الكتب وعلى الألسنة دوراً كثيراً لأن حياة الإنجليز الأخلاقية والسياسية تخضع لهذا المعنى كثيراً، فهو مسلكهم في فض النزاع

بين الأفراد في المعاملات اليومية وفي الخلاف بين أفراد الأسرة وفي الأحزاب السياسية وفي المفاوضات بين الدول وهكذا؛ وعلى الجملة فقد استعملوا هذا المعنى كثيراً في حياتهم فكثرت استعماله في لغتهم.

ولكننا لا نستعمله كثيراً في حياتنا فلم نشعر بما يلجئنا إلى استعماله في لغتنا، فإننا إذا تنازع فردان منا أو حزبان صمم كل منهما على وجهة نظره إلى النهاية غالباً مهما كانت نتيجة ذلك من الخراب، واعتقد الاعتقاد الجازم أن رأيه كله صواب لا محالة، ورأى مخالفه كله خطأ لا محالة. ولأجل هذا لا يسمح أن يدخل في صوابه شيء من خطأ مخالفه - أما هذا الخلق التي تدل عليه هذه الكلمة الإنجليزية فيتطلب أن يحترم ذو الرأي رأي مخالفه ثم يميز في باطن نفسه أن يكون رأيه خطأ ورأى مخالفه صواباً، أو على الأقل يجوز أن يكون في رأيه بعض الصواب وبعض الخطأ وفي رأي مخالفه بعض الصواب وبعض الخطأ فيحملها ذلك على أن يتقاربا ويتفقا على حل وسط.

لا أجد أقرب في اللغة العربية للدلالة على هذا المعنى من كلمة «مصالحة»، فمن معاني المصالحة القانونية في كتب الفقه أن يكون بين اثنين خصومة وكل منهما يدعي بحق فيأخذ كل منهما بعض حقه وينزل للآخر عن بعض حقه، فإذا وسعنا هذا المعنى وجعلناه يطبق على المعنويات كما طبق على الحقوق المالية كانت هذه الكلمة أنسب للدلالة على كلمة Compromise الإنجليزية، ثم إذا أكثرنا استعمال هذا المعنى في حياتنا اليومية اضطر الناس للتعبير عنه بهذا اللفظ فصقل وأخذ جيزه من الأفكار ومن المعاجم.

وبعد، فما الدائرة التي يستعمل فيها هذا اللفظ، وأي مناحي الحياة يستخدم

فيها؟

إني أرى أن الحياة العملية في جميع مناحيها مضطرة إلى استخدام المصلحة أو التصالح، وهذا من أهم الفروق بين المنطق النظري والحياة العملية، فالمنطق بنظرياته يحكم أحكاما صارمة، فهذا أبيض وهذا اسود ولا شيء من الأبيض بأسود، وهذه القضية صحيحة أو خطأ ولا شيء بينهما، وهذا الرأي حق أو باطل لا محالة؛ أما الحياة العملية فليس فيها هذه الأحكام القاطعة الحاسمة، ولكن فيها المصلحة سواء كان ذلك في النواحي الأخلاقية أو القانونية أو السياسية، فكل إنسان إن دقت النظر فيه - مسرح صغير تلعب فيه الفضيلة والرذيلة وتتحاربان، ثم تتصالحان على أن تتنازل الفضيلة عن بعض تشدداتها، وتتنازل الرذيلة عن بعض استهتارها. وما الفضيلة في الحقيقة إلا الرذائل معدلة أو منقحة.

فالإنسان المتوحش كان يعيش بغرائزه فلما تمدين عدلت هذه الغرائز المتوحشة وسميت فضائل. فالفضائل بالنسبة للرذائل كالزهرة في البستان والزهرة في الوادي، أو كالقط المستأنس بالنسبة إلى القط المتوحش. فالرغبة الجنسية الفطرية عند المتوحش تحولت إلى حب لطيف في المدنية، والقتل والغارة والانتقام عند المتوحشين دخل فيها العقل والنظام فصارت قانونا وسياسة وعدلا عند المتمدنين. والأنانية عدلت فصارت الثقة بالنفس واحترام النفس ونحو ذلك مما يعد فضائل، والحرب بين الأفراد والجماعات دخلها التعديل فسميت منافسة مشروعة كالمنافسة بين التجار والعلماء والأدباء، والمنافسة بين الأمم.

ومالنا نذهب بعيدا ونظرية أرسطو في الأوساط وهي أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين، ليست في الحقيقة إلا من هذا القبيل؛ أي أن هناك رذيلتين تعادلنا وتصلحنا فكان منهما الفضيلة، فالجبن والتهور تصالحا فكانت الشجاعة، والبخل والسرف تصالحا فكان الكرم، والفجور والخمود تصالحا فكانت العفة.

بل لعل هذا هو الشأن في العلم والأدب. فالخرافات وأوهام المتوحشين صارت خيالاً خصباً عند المتمدنين ينتج الشعر والقصص، والتنجيم عند الأولين صار علم الفلك عند الآخرين، والسحر والكهانة في الجاهلية أصبحت علم النفس في العصور الحديثة، وتحويل المعادن إلى ذهب في القرون الوسطى أصبح الكيمياء في القرون القريبة، ووصفات العجائز والمعالجة بالتجارب أصبحت على مر الزمان علم الطب بعد أن دخلها كلها التعديل والمصالحة.

وهذا هو الشأن في القضاء، ففي القضية يتولى محامون جانباً من جوانب القضية يبذلون علمهم وفصاحتهم ومهارتهم الخطابية والقانونية في أحقية جانبهم، ويفعل مثل ذلك محامو الجانب الآخر - ثم يقف القاضي موقف الناظر إلى الجانبين ويفاضل بين وجهتي النظرين، فقد يقتنع بجانب منهما ويقضي به، ولكن في كثير من الأحيان يلجأ إلى المصالحة، ولست أعني أن يصلح بين الخصمين ولكن أعني أن يرى لكل خصم جانباً من الحق وجانباً من الباطل فيصالح بين وجهتي النظر ويشترك منهما معاً حكمه، فهذا هو التصالح.

فإن نحن جئنا إلى السياسة فمجال القول ذو سعة - فالأحزاب السياسية البرلمانية تقوم في قضايا الأمة العامة مقام المحامين في القضايا الشخصية في المحاكم، كل يؤدي رأي حزبه ويدعمه بالحجج ويبين الخطأ في وجهة نظر خصمه، ثم يقوم الاقتراع على الرأي مقام القاضي في المحاكم، وفي كثير من الأحيان تكون المصالحة أيضاً، أعني أن يتنازل كل حزب عن بعض رأيه ويأخذ ببعض رأي الآخر وهكذا، نزولاً على قاعدة أن كل حزب يجب أن تسيّره مصلحة الأمة لا مصلحة حزبه الخاص.

فمعنى الحزب السياسي جماعة لهم مبادئ معينة يرون أن الحكومة يجب أن تسيّر عليها لتحقيق مصلحة الأمة، ولهم وسائل معينة في تحقيق هذه المبادئ، ولهم خطة

معينة في ترقية الأمة من ناحية يرون أنها أهم النواحي، وهم يعملون للوصول إلى الحكم لتحقيق هذه الأغراض النافعة للأمة.

والحكم في صلاحية حزبهم أو بعبارة أخرى في صلاحية مبادئهم أو عدم صلاحيتها هو رأي الأمة في الانتخاب.

ولكن مبادئ كل حزب إذا نزلت من سماء نظريتها إلى حياتها الواقعية تبين أنها في حاجة إلى تعديل وإصلاح، وأن مبادئ الأحزاب الأخرى قد يكون فيها من الخير ما ليس عند غيرها، فتتصالح المبادئ.

هنا النظر يلفظ حدة كل من المتخاصمين ويحمل كل خصم على احترام خصمه كما يحترم نفسه، وألا يعتقد أنه هو وحده العاقل الأمين وأن خصمه هو الجاهل الخائن، بل يعتقد أن له وجهة نظر جديرة بالاحترام، وخصمه وجهة نظر أخرى جديرة بالاحترام كذلك.

وبعد فلعل ما يصيب الشرق الآن من اضطراب سياسي سببه أنهم لم يعرفوا هذا الخلق ولم يفهموا سره، ولذلك لا يجدون أنفسهم في حاجة إلى البحث عن كلمة تدل عليه.

أعتقد أن الخصومات الفردية تتلطف كثيرًا بهذا الخلق، وأن الخلافات الحزبية تفقد حدتها إذا سارت عليه.

فهذا الخلق يجعل الأحزاب السياسية المتنازعة تحترم وجهة نظر خصومها وتنظر إليهم كأشراف لا مجرمين، وتعاملهم معاملة الند لا معاملة المتهم، وترى أن الحزب إذا تولى الحكم فليس يحكم حزبه ولكنه يحكم الأمة على اختلاف أجزائها، فهو مطالب أن يعدل في خصمه كما يعدل في مؤيده - وهذا الخلق يجعل صاحبه ينظر إلى خصمه كما تنظر كل فرقة في لعب الكرة إلى الفرقة الأخرى، كلهم يتسابقون

ويتراکضون، وكل فريق يود الغلبة، ولكن قانونهم جميعاً في اللعب هو قانون الشرف، فإذا انتهى اللعب صافح كل خصم خصمه ولا غل ولا ضغينة، وتبين لهم أن الخصومة كانت مصطنعة، وأن الغرض قد تحقق للغالب والمغلوب معاً - وهو الرياضة البدنية للجميع.

كم أتمنى أن يتبه الناس لهذا الخلق «خلق المصالحة» وأنن يكرروه وأن يستعملوه في لغتهم وفي معاملتهم، وأن يضعوه في أول ثبت الأخلاق بجانب الصدق والشجاعة والعدل.

المادة لا تنعدم

هكذا يقول علماء الكيمياء ويشرحون قولهم، ويبرهنون عليه، ويرون أن المادة تتغير وتتحول وتعود إلى عناصرها الأولى، ولكن لا تنعدم؛ والعالم كله كساقية جُحاح، تغرف من البحر، وتصب في البحر؛ فقد يحترق هذا المكتب الذي أمامي، لا قدر الله، ولكنه لا ينعدم، بل يتحلل إلى عوامله الأولية، وسيغذى منها النبات، ويتكون منها خشب جديد، قد يكون مكتب المستقبل.

قال الكيميائيون ذلك، وقصروا قولهم على المادة، لأنها مادة عملهم، وموضع تجاربهم.

ولو عَرَض لهذا فيلسوف واسع النظر، غير محدود البحث، لقال: «لا شيء ينعدم».

إن الأعمال من خير وشر لا تنعدم، بل تنمو وتتحول، وتؤثر وتتأثر، ولكن على كل حال لا تنعدم، إن كذبة واحدة تكذبها على أولادك في بيتك - من غير أن تعيرها اهتماما - لا تنعدم، فسوف تبيض وتفرخ وتنتج كثيرا من أمثاله، وسوف يكذب أولادك، وستخرج الكذبة من حجرتك إلى سائر بيوتك، وستخرج من بيتك إلى المدرسة، وستخرج من المدرسة إلى مصالح الناس ومعاملتهم، فكيف تنعدم؟

قد يدق العمل ويصغر حتى لا تراه أعيننا، ولا تسمعه آذاننا، ولا تشعر به نفوسنا، ولكنه موجود، يعمل عمله في هذا الوجود، ويفعل ويفعل، ويتبع نطاقه، ويعمل في دوائر مختلفة قد لا تخطر بالبال؛ وما أظنك تجهل أن حصاة ترميها في البحر الأبيض المتوسط لا بد أن يتأثر بها المحيط الأطلنطي، وإن لم تر ذلك عيوننا، والدليل على ذلك بديهي، فلو كبرت هذه الحصاة ملايين المرات، أفلا تؤمن بهذا

الأثر؟ إذن فأمن بأن هذه من تلك، وعلى نسبتها ومقدار حجمها. وجزء من ألف من الشعرة له ظل حقيقي، وإن لم تره عيوننا، ولولا ذلك لما كان لألف ألف شعرة ظل، ولما كان لثوبك الذي تلبسه ظل.

وعملك الخير مهما صغر، له أثره في أمتك مهما صغر، أعلنته أو أسرته، نجحت فيه أو فشلت، علم الناس أنك مصدره أو لم يعلموا؛ وهل مقياس رقي الأمة وانحطاطها إلا عبارة عن عملية حسابية مركبة من جمع وطرح؟ جمع لما صدر منها من حسنات، وطرح لما صدر من سيئات - لتكن هذه العملية أشد ما تكون من صعوبة، ولتحتج إلى ما شئت من آلات دقيقة للجمع والطرح، فإن طريقة الحل لهذه المسألة في منتهى البداهة.

وليس الأمر قاصراً على الأعمال، فإذا قلنا «الأعمال لا تنعدم»، فهو تكرير لقول الطبيعيين «المادة لا تنعدم»، وهل الأعمال إلا نوع من المادة؟

بل الأفكار والآراء من هذا القبيل، فالفكرة لا تنعدم، والرأي لا ينعدم؛ فإذا دعوت إلى فكرة، أو جهرت برأي، فقد أخرجت إلى الوجود خلقاً جديداً ينطبق عليه القانون العام، قد ينجح الرأي وتعتنقه الأمة، بل يعتنقه العالم وتظهر آثاره في أعمال الناس وحياتهم ونظامهم، فتسلم معي بأنه لم ينعدم ولكنه قد يفشل، وقد يستعمل الناس في اضطهاده وحره كل أنواع الأسلحة المشروعة وغير المشروعة، والرفيعة والوضيعة، حتى يختفي ولا يظهر في الوجود، فتظن إذ ذاك أنه انعدم، وهو ظن غير موفق، فقد يخفي ليعود إن كان صالحاً، وقد يحدث قبل أوانه، فيستتر وينكمش، ويبقى حياً يتغذى في الخفاء، وتنمية الأحداث، حتى إذا تم نموه، وتهاوى الناس له، برز إلى العيون ثانية أو ثالثة، وهو أشد على مقاومة الحرب، وأقوى على مصارعة الباطل، حتى يكتب له النجاح - وحتى إذا كان الرأي فاسداً سيئاً لا يصلح لحال ولا لمستقبل فليس مما ينعدم، إنما هو يتحول ويتحول كلوح خشب لا يصلح

بحالته أن يكون شباكاً فينجر، أو لوح زجاج ليس بالحجم الذي تريده فيصغر، أو حديدة لا يناسب شكلها وحجمها فتوضع في قالب جديد بعد أن تصهر؛ وهكذا في الرأي يغير ويعدل، ويطعم بآراء أخرى حتى يخرج خلقاً آخر، ولكنه في كل ذلك لا ينعدم. وفرق كبير بين أن تقول: فشل الرأي وفشل المشروع، وأن تقول انعدم الرأي وانعدم المشروع. فالفاشل موجود والمعدوم معدوم، وشتان بين الموجود والمعدوم. فالرأي الفاشل أو المشروع الفاشل شيء حي قد تلقى درساً من الفشل ليصبح بعدُ رأياً قوياً ومشروعاً ناجحاً، وهذا لا ينطبق على المعدوم.

بل أذهب إلى أبعد من ذلك، وأرى أن العارض يمر على النفس، أو الخاطر يخطر بالذهن، لا يضيع ولا يذهب سدى ولا ينعدم، وإنما هو دخان قد يكون بعدُ سدياً، ثم قد يكون السديم كوكباً يلمع أو نجماً يتألق، وقد يكون على العكس من ذلك صاعقة تحرق، أو ميصاً خلّباً يبرق، وعلى الحالين فسيكون مولوداً جديداً، شقيّاً أو سعيداً، أليس كثير مما يعترينا من حزن يسبب الكسل والخمول والملل، أو فرح يدعو إلى العمل، سببه طائف مجهول طاف بالنفس، وخطرة متكررة خطرت لها، فغيرت حالها وكيفتها تكييفاً خاصاً في هذا الوجود؟ أوليس كثير من الآراء التي أسبغت على هذا العالم نعماً، وكثير من المشروعات التي عم الناس خيرها أ، شرها بدأت خطرة ثم كانت فكرة، ثم أصبحت بعدُ عملاً، أليس مما يكوّن الإنسان خطراته، فهو خير أو شرير بخطراته، وهو بائس أو منعم بخطراته، ولو كشف عنا الحجاب لقرأنا في صفحات الإنسان خطأ عميقاً خطته في نفس الإنسان خطراته وآراؤه، وهو أدل على الإنسان من مظاهره الكاذبة، ومناظره الخارجية الخادعة.

وعلى الجملة فإن قال علماء الكيمياء إن المادة لا تنعدم فكل ما في الوجود يقرر أن «لا شيء ينعدم». إن كان هذا حقاً فويل للخير يقعده عن الخير أنه لم ير بعينه آثار عمله، وويل للخير صرفه عن خيره نكران الجميل وجحد المعروف، وويل للمجد

عدل به عن جده إن لم يسبح الناس باسمه، ويشيدوا بذكره، ومرحى لمن كان مبدؤه
«الخير للخير، ولا شيء ينعدم».

نجار ونجار

استأجر دكانا أمام منزلنا الأسطى حسن النجار.

وهو شاب في نحو الثلاثين من عمره، مهزول الجسم، أصفر الوجه، يتعل نعلا بالية، ويلبس ثيابا رثة، وعلى رأسه طربوش أسفله أسود، وأعلاه أحمر، قد دفعه إلى الوراء ليظهر «قُصَّتُهُ» من شعره، فرعها فروعا ورفعها إلى السماء لتناطح السحاب!

ينظر إليك بعين متنفخة كأنه قريب العهد دائما بنوم طويل ثقيل، ويمشي متطرحا كأن في رأسه دائما فضلة حُمار، وعلى وجهه غبرة كأن الماء لم يمسه أبدا؛ أقوى شيء فيه لسانه في السباب، وصوته في النزاع.

ليس لفتح دكانه أو إغلاقه موعد، ولا لعمله وراحته وقت محدد، يحلو له أحيانا أن يغلقه في الصباح ويفتحه في الظهر إذا بدأ الناس يَقبلون، وأحيانا يسره أن يتركه مغلقا طول النهار ويفتحه ليلا حيث يبدأ الناس في النوم، فيضيء مصباحه، ويخرج عدده وأدواته في الشارع، ويأخذ في نجارته ما حلا له ذلك، فحيناً إلى الفجر، وحيناً إلى الصباح؛ تحاول أن تصده عن ذلك وتنصحه فيظهر الطاعة ثم يستمر في خطته؛ وأحيانا تنقلب دكانه في الليل حانة يجتمع وأصحابه فيتنادمون ويتشاربون، حتى إذا تمشت الخمر في مفاصلهم، ودبت في عظامهم، ذهب بهم كل مذهب، وأخذت منهم كل مأخذ، فتغنوا أحيانا، ووقع الغناء في نفوسهم أحسن وقع، وصاحوا جميعا بصوت واحد: آه! ممدودة ما طاوعتهم أنفاسهم - وأحيانا يعدلون عن الغناء إلى تبادل النكات، ويعقبون كل نكتة بضحكة عالية تسر نفوسهم، وتخرق آذان جيرانهم.

وإذا فتح الدكان نهارا فمعرض غريب، لا لجودة المصنوعات، ولا دقة المعروضات، ولكن لأصحاب الحاجات قد أتوا يطالبون بإنجاز أعمالهم، والشكوى من تأخير طلباتهم، ثم يصل الأمر في أغلب الأحيان إلى تدخل البوليس، وأحيانا يكون ما هو أدهى وأمر، إذ يكون قد سلّم إليه صاحب حاجة دولابه أو كرسيه لإصلاحه، فلم يجد دولابه ولا كرسيه، لأن الأسطى حسن اضطرته الحاجة الملحة فباعه وأضاع ثمنه.

وهكذا أصبح شارعنا بحمد الله معرضا في النهار للسباب والمشاكل والخصومات والبوليس، وامتدى جميلا ليلا لأهل السباح الملاح، إلى الصباح. وأخيرا عدت من عملي يوما فرأيت الزحام شديدا على دكان الأسطى حسن، وإذا جلبة وضوء، وصياح يملأ الآذان، وإذا المنادي ينادي لبيع عدد النجارة وأدواتها:

منشار في حالة جيدة!

عشرة قروش - أحد عشر - اثنا عشر.

ألاؤنا - ألاؤو - ألاؤريه.

وهكذا حتى تم بيع كل ما في الدكان، وفاء لأجرتها خمسة شهور تأخرت على الأسطى حسن.

وكان شعوري إذ ذاك مزيجا من غبطة وألم، وحزن وفرح، فقد آلمتني خاتمته، وأفرحني ما منيت به نفسي بعد ذلك من نوم هادئ سعيد.

ودعوت ربي جاهدا ألا يرغب في الدكان مستأجر بعد، فإن كان ولا بد فكواء أو عطار، لا نجار ولا بائع فراخ ولا مبيض نحاس؛ وقصرت شكواي على الله بعد

أن جربت البوليس فوجدته لا يأبه لهذه السفاسف، وليس له من الزمن ما يلفته لهذه الصغائر.

ولكن أبى القدر أن يستجيب دعوتي -وكان الدكان وقف على سكنى النجارين- فقد بسكنها هذه المرة أيضًا نجار، ولكنه من صنف آخر - هو نجار رومي، لم أشعر بسكنائه إلا بعد شهر، إذ لم يكن في عمله شيء غير عادي، فهو يفتح دكانه وقت العمل، ويغلقها عند الغروب، وينجر فتندمج أصوات دقاته ونجارته في أصوات البائعين وحركات المارين.

دعوته يوما لإصلاح دولاب، فإذا شاب يشترك مع الأسطى حسن في سنه، ويختلف عنه في كل شيء آخر، جميل الهندام، وإن لم يكن ثمينه، صنف شعره في أناقة ولمعان، بينما اعتنى الأسطى حسن «بقصته» فقط - عمل عمله في هدوء وإتقان، وكأنه يحترم نفسه ويحترم عمله، ويقدر نوع معيشته وما يلزم لها، فطلب ضعف ما كان يطلبه زميله فدفعته راضيا.

له في جوارنا ستة أشهر أو تزيد، لم اسمع صوته، ولم أسمع شاكيًا من تأخر موعد أو تصرف سيء؛ ولم يقلق راحتي كما أقلقها من كان قبله، فهو وإن لم يكمن كواء أو عطارا كالذي رجوت، فليس شرا منهما، وتبين بعد أن الأمر ليس نوع الصناعة، وإنما هو نوع الصانع.

ونزلت بيتا في ضاحية من ضواحي الإسكندرية، فرأيت (فيلا) جميلة على شاطئ البحر، لا يسكن مثلها -عادة- إلا من ورمت جيوبهم، وانتفخت محافظهم، راديو، وبيانو، وما شئت من أسباب النعيم ورفاهة العيش؛ ولكن لفت نظري رجل يلبس قباء، ويحزم وسطه بحزام، وعليه جاكته بسيطة نظيفة، قد أرخى لحيته، ودفع طربوشه إلى الوراء، يحمل أقمشة على كتفه يكاد ينمو بحملها، وهو من الصنف

اليهودي الذي تراه يجول في الشارع كل يوم يبيع (الدمور) و(الزفير) و(الباتستا). حيرني أمر هذه (الفيلة) بجملها ونظافتها، وأمر هذا الرجل يخرج صباحا يحمل سلعته على كتفه وقد سمت، ويعود مساء وسلعته على كتفه وقد هزلت؛ أمستأجر هذا الرجل حجرة صغيرة في البيت، أم قريبٌ فقير لأصحابه عطفوا عليه وآووه، واحتملوا منه أن يعيش بينهم ويتزل في مسكنهم؟ - وفي الحق كان هذا لغزا شغلني شرحه، وأعياي حله؛ ثم هدتني المصادقة البحتة إلى استكشاف الأمر واقتضاح السر: هو ربُّ البيت! وعميد الأسرة، وليس فيها إلا زوجه وأولاده؛ ولكن كلهم يعمل، وكلهم يكسب: هذه خياطة، وإحدى بناتها معلمة بيانو، وهذا ابنه كهربائي، وهذا الآخر يعمل في مصلحة التلغراف، وكل كاسب يعطي ما كسبه لأبيه، ويجمعون من ذلك ما يجمعه موظف وسط أو فوق الوسط، ثم هم جميعا يعلمون كيف يعيشون، وكيف ينعمون بالعيش أقل مصرف، ويعلمون ما ينفقون وما يدخرون.

قارنت بين هذا الرجل ورجل مصري آخر، كان يجول أما بيتنا أيضًا، ويحمل سلعة كسلعة اليهودي، وينادي على (حريز المحلة)، وتصورته وبؤسه، وتصورت أسرته وبؤسها، وكيف يتحد العمالان، وتباين المعيشتان.

ثم نسمع الشكوى الحارة من العمال العاطلين، والمتعلمين العاطلين، ونسمع من يرجع العلة إلى تفشي الأمية حينًا، وإلى نوع الدراسة حينًا؛ وإلى غير ذلك من أسباب؛ وليس في نظري سبب أهم من نقص الأخلاق، ولست أعني أخلاق الكتب، ولكن أعني أخلاق العمل، من معرفة طرق الكسب، وإجادة العمل، وحسن العرض، وعدم الأنفة من مزاولة الحرفة مهما حقرت، وضبط الدخل والخرج، وفوق ذلك كله العلم بفن الحياة.

• عاطف بركات في مدرسة القضاء^(١٠)

عزيز علينا أن نقف بالأمس نكرمّه ونقف اليوم نؤبّه.

أتت البشارة والنعي معاً يا قرب مأتمه من العرس
ولكنها الدنيا خط في ماء، أو أثر في بیداء. وما الحياة إلا مهزلة. عمليات حسابية
مختلفة الأعداد نتیجتها صفر دائماً، يرینا الموت هذه الحقيقة، ولكنها لمعة كلمة
البرق ثم يعود الناس إلى ضلالهم القديم.

تلمذت للفقيد أربعة عشر عاماً، أيام كنت طالباً في مدرسة القضاء، وأيام كنت
مدرساً مساعداً له في دروس الأخلاق، فطالعت بإمعان وإعجاب صحيفة من حياته
غاية في الشرف والنبيل والمجد. بل قرأت منه كتاباً في التربية والتهدیب ملئ حكمة
وروحاً وحياة.

درس لنا الأخلاق فابتدع في المادة وفي الأسلوب جميعاً، أما في المادة فقد هجر ما
كان متعارفاً من تدريس الأخلاق على شكل مواعظ تسرد سرداء، وانتحى النحو
الفلسفي في بحثه بحثاً عقلياً علمياً، فكان يترجم خير ما يقرأ ويُمصّر ما يترجم،
وأحياناً وبالمناسبة ينحي البحث ناحية، ويقص علينا من تجاربه في الحياة ومن
مشاهداته في العالم ما يكون خير تطبيق على نظريات العلم.

(١٠) كان المرحوم عاطف بركات باشا ناظرًا لنا في مدرسة القضاء وظل فيها نحو أربعة عشر
عاماً ثم ساهم في الحركة السياسية، ونفي إلى سيشل وعاد منها فأقام له طلبته حفلاً بديعاً، ثم عين
وكيلاً لوزارة المعارف، وما لبث أن مات فقيلت هذه الكلمة في حفل تأبينه.

أما في الأسلوب فكان يرمي إلى أن يعودنا الاستقلال في الفكر والعمل، فكان يلقي الدرس ويشرح نظريته ثم يترك كل طالب يحمل عبء نفسه في كتابة ما سمع وربط الأفكار بعضها ببعض، فكان ذلك من أشق الدروس علينا أولاً، وأعودها بالفائدة أخيراً- حتى شعر كل طالب أن درس الأخلاق منحه عينين أخريين نظر بهما للحياة من جديد، وأكسبه قوة على الحكم لم تكن له من قبل، ومنحه قدرة على تقويم الأشياء قيماً جديدة.

كان للفقيد دروس أخرى قيّمة، ولكن لا بالمعنى المتعارف من الدروس. طريقته فيها أشبه بطريقة سقراط، يظهر في الطلبة أوقات فراغهم فيلتف حوله الكثير منهم، فيتكلم معهم في موضوع تخلقه المناسبة، فيرد عليه الطلبة ويرد عليهم ويدفع الحجة بالحجة حتى يصل في النهاية إلى تكوين فكرة واضحة عند الطلبة في الموضوع الذي يبحث فيه، فكان ذلك درساً في المنطق العملي من ألد الدروس.

رأينا منه كيف كانت تعرض الفكرة فيحللها تحليلًا في منتهى الدقة ويسلط عليها من أشعة ذهنه ما يضيئها من كل جانب. وكانت آراؤه تدوي بين الطلبة وتعارض وتحاكي وترن في الأذان حتى يأتي موضوع جديد يحل محل القديم.

كذلك كان شأنه مع الأساتذة، يتحين فرصة اجتماعهم فيجلس معهم يستمع لحديثهم، ثم يستمد من قولهم فكرة أو مبدأ يشرحه ويدلل عليه؛ وكثيراً ما يستطرد لنقد فكرة شائعة، أو أسلوب في التربية أو نحو ذلك، وهو فيما يقول شجاع لا يبالي أكان سامعوه على رأيه أو غير رأيه، هشوا له أو امتعضوا منه.

قد كان في المدرسة أساتذة من خيرة المحافظين، وآخرون من خيرة الأحرار، وكان عاطف حراً في تفكيره، تحرر عقله من كثير من التقاليد. ليست عادتنا عنده خير العادات ولا آراؤنا خير الآراء، ولا كتبنا المؤلفات خير الكتب، فكان يهاجم

المحافظين مع الأدب التام في نقده. ينزل إلى ميدان البحث وهو واثق بالظفر لإمعانه في الفكرة قبل أن يعتنقها، ولوضوح الحقائق في ذهنه وضوحاً تاماً، وتميز كل حقيقة عن أختها، فلا يختلط بها ما يشابهها، وأخيراً لشعوره بقوة إقناعه، ومن ثم كان كبير الثقة برأيه، يندر أن يعدل عنه. وقد أدته هذه الثقة إلى قوته وصلابته في تنفيذ ما يرى، فليس يرجع في منتصف الطريق، ولا يبالي بالعقبات العظيمة تعترضه وتقف في سبيله، كما لا يعبأ بغضب الغاضبين وسخط الساخطين، ثقة منه بأن الناس سوف يتطعمون الحق، فينقلب غضبهم رضا وكرهاتهم حبا. سمعته قبيلاً وفاته يصف حفلة أقيمت في مدرسة الأمريكيين للبنات فيقول إن خير ما سمعته في هذه الحفلة قول فتاة في وصف رجل: «إنه يضحي شهرته وجاهه في سبيل نصرة الحق» فكان إعجابه بهذه الجملة معبراً عما عرفناه عنه من تغلغل هذه الفكرة في نفسه ومصادفتها هوى في فؤاده.

تراه مع شدة وثوقه برأيه واسع الصدر جداً للرأي المخالف، فهو يصغي لكل ناقد، وأحياناً يشتد الناقد في نقده ويشوب نقده بشيء كثير من الحدة أو التعريض فيقابل ذلك باطمئنان، ويستخرج الحدة أو التعريض وحده ويضعه جانباً، ثم يستخلص ما في قول الخصم من رأي فيرة عليه.

ومع تمام حرите في التفكير لم يكن تام الحرية في العمل، فكان عند وضع الرأي موضع التنفيذ يراعي كل ما يحيط به من ظروف ويرى الإصلاح تدريجياً لا طفرة؛ فكان يمزج فكرته الحرة بشيء غير قليل من تقاليد المحافظين عند العمل.

ودرس آخر أعظم من هذا كله وهو إدارة المدرسة، فإنها الجو الأخلاقي الذي يتنفس منه طلبة المدرسة وأساتذتها، وفي الحق كانت به مدرسة القضاء مربي تنبت فيه الأخلاق الفاضلة. أساس الإدارة عنده مصلحة المدرسة لا مصلحة شخصه.

فخير أساتذة المدرسة أنفعهم لها ولو كان فيه جفاء، أكسد بضاعة عنده الملق والنفاق، إن دخلا في تقدير العامل فسلبا لا إيجابا.

جدُّ لا يعرف دعة ولا يستوطئ راحة؛ ألم تره قبيلا وفاته قد خذلته قواه ولم يسعفه نشاطه، يمشي متطرحا ويكاد يتساقط من الإعياء، وهو مع ذلك يتحامل على نفسه ويتطلب ما يآباه القدر عليه.

رجل بين الرجولة، يكره السفاسف ولا يتدنى إلى الصغائر؛ لا تسمع له حديثا في تافه من القول ولا مسخيف من الهذر؛ إذا تدنى محدثه رفعه هو إلى مستواه فهو مملوء الهيبة موفور الكرامة.

طُبِعَ على أن يعشق العمل يسند إليه فهو يعطيه كل قلبه وكل تفكيره وكل حديثه، وإن شئت فقل وكل أحلامك؛ أسندت إليه المدرسة فكانت شغله الشاغل؛ هي أغنيته وهي أهدوئته وهي شكواه وهي مفخرته.

من أجل هذا تراه يستقصي دقائق عمله ويستشف بواطنه ويدير بيده دقيقه وعظيمه، ولا يطمئن لشيء لم يشرف هو بنفسه عليه؛ فالناس منه في راحة وهو من نفسه في عناء.

كان في المدرسة نحو أربعائة طالب، ولست أكذبك إذا قلت إن كل طالب كان يشعر أن ناظره يعرفه ويقدره ويزن كفاياته العلمية والخلقية وأن نظره ينفذ إلى أعماق نفسه فيعرف بواطنه. قد أعد للطلبة دفترا وجعل لكل طالب صفحة يقيد فيها بخطه ما يصدر عنه.

ظهرة يشف ظاهره عن باطنه ويتمثل قلبه في لسانه. عمله في النور دائما، ليس للدس ولا للجاسوسية رواج عنده.

صدق في القول حتى لم يأخذ عنه أستاذ ولا طالب كذبة، وإرادة جبارة تستهين بالشهرة والمنصب والمرض، وعدل دقيق مضمّن مع من يحب ومن يكره، مع ذي الحول ومن لا حول له، لا يبالي من يعادي متى صادق الحق. من طلب منه غير الحق رده في أناة، فإن أعاد عليه الرجاء رده في جفاء.

هذا إلى صراحة في القول نادرة شعرنا بمرارتها لما شاع عندنا من نعومة في المعاملة وغلو في المجاملة - لا يجد التردد إلى نفسه منفذاً، إن قال لا فلا إلى الأبد أو نعم فنعم إلى حين.

وهو في سياسته سيكولوجي. ماهر يشند ويلين، ويوعد ويعد ويحبس ويبسم بميزان دقيق، يعالج فلا يخطئ في العلاج، تارة بالسّم وطورا بالترياق. شعر طلبته بأنه كبير العقل كبير النفس دقيق النظر دقيق العدل فهابوه، وشعروا بأنه يستر وراء ظاهره غير الناعم قلباً رحيماً فأحبوه؛ فكان من ذلك هيبة وحب قل أن يجتمعا لرئيس.

هل رأيت مثله كثيراً ناظراً يرى كلّ طالب إن علم ناظره بجريمته أكبر من كل عقوبة ويتمنى أن يعاقب على يد غيره ضعف العقوبة على يده، أو رأيت ناظراً فزع طلبته لخروجه من بينهم كما فزعوا يوم خروجه حتى كاد يقضي عليهم من الغم، أو رأيت جزعاً يفتك بالصبر وحزناً يقلقل الأحشاء كالذي كان عند وفاته.

ولم يكن ما يعانيه من شؤون المدرسة في الخارج بأقل مما يعانيه في شؤونها الداخلية، فما السفينة لعبت بها الأمواج وأشرفت على الغرق يحاول ربابها النجاة بها، ولا البيت تلتهم النيران ما حوله ويعمل صاحبه على الحيلة له يعادل ما كانت تعاني مدرسة القضاء من أغراض عديدة وسلطات قوية تريد القضاء عليها، ومع ذلك ظلت المدرسة زهرة المدارس ما بقيت في حماء.

تسلمها نواة صغيرة وسلمها شجرة يانعة.

ومن غريب أمره أنه مع كل ما يعمل ويعاني لا تكاد تسمع له حديثاً عن نفسه. تكون المدرسة في أخرج أوقاتهما وهو يعمل بجِد ويهرب بها من المعارف إلى المجلس الأعلى للأزهر، ومن المجلس الأعلى إلى الحقانية، ويعاني. في ذلك الأمرين فإذا جلست إليه سمعت كل شيء إلا أنه عمل أو عانى. وإذا ظفر بطلبته لم تظفر أنت منه بكلمة يحدثك بها عن نفسه.

هذا عاطف لمن لم يعرفه، وهذا عاطف الذي غاب عن مدرسة القضاء ليطلع في أفق المعارف فغاب في مشرقه.

فاللهم كما قدرت علينا عظيم الرزء فقدّر لنا جميل الصبر، وكما سلبت الأمة عظيماً فعوضها عظيماً، وأحسن إليه كما أحسن إلى أمته.

محضر جلسة

تذاكر جماعة - من ذوي الرأي - في الأدب العربي وحاجته إلى الإصلاح، وفيما له من ثروة قديمة قيمة تحتاج إلى الإحياء، واقترحوا أن يكونوا جمعية للأخذ بناصر الأدب ونشر ذخائره؛ وكان من بينهم من ينتسب إلى الجامعة الأزهرية، ومن ينتسب إلى الجامعة المصرية، ومن ينتسب إلى المجمع اللغوي، ومن هو عضو في لجنة التأليف والترجمة والنشر، ومن يتصل بدار الكتب، وغيرهم؛ وصحت عزيمتهم على ذلك، وعهدوا إلى أحدهم بوضع مشروع قانون للجمعية يحدد غرضها، ويوضح نهجها، واختاروا يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣٦ الساعة الخامسة بعد الظهر لقراءة المشروع.

فلما حان الموعد حضر واحد فقط، وخُيِّل إليه أنه أخطأ اليوم، أو أخطأ الساعة، أو أخطأ المكان، فأعاد قراءة الدعوة فإذا كل شيء من الزمان والمكان صحيح. وبعد ربع ساعة حضر آخر، فتبادلا العجب من عدم حضور الأعضاء في الموعد.

وأخذ من تأخر يلقي محاضرة قيمة في المحافظة على الزمن، وكيف هي عند الإنجليز والفرنسيين والألمان، وما جرى له من أحداث في هذا الباب أيام كان في أوروبا، وحاجة المصريين إلى معرفة قيمة الوقت، وقد استغرقت محاضرته القيمة ربع ساعة كان قد حضر في أثنائه عضوان آخران فاشتركوا جميعاً في الحديث في هذا الموضوع، وكل يروي نادرة فيه طريقة، وقصة ممتعة، وتختتم النادرة أو القصة بضحكات عالية يدوي بها المكان، وتتخلل الضحكات تعليقات على ما يُروى تُسلسل الضحك وتتابع الفكاهة.

ولا أطيل عليك، فقد تم اجتماع أغلب الأعضاء في الساعة السادسة والنصف، وقد اعتذر بعضهم بزيارة صديق له عند خروجه، وآخر بتعطيل الترام له، وثالث بأن من عادته أن ينام بعد الظهر وقد طال نومه على غير عادته، ورابع بأنه نسي الموعد لولا أنه لقي فلانًا مصادفة فذكره به.

أخذوا يتناقشون في هل يختارون رئيسًا للجلسة حتى يتم القانون؟ أنحاز إلى هذا الرأي فريق، لأنه لا بد لكل جلسة من رئيس يدير المناقشة ويأخذ الأصوات؛ وعارض فريق بحجة أننا نريد أن نكون ديمقراطيين لا رئيس ولا مرءوس، وأنه حتى بعد أن يتم القانون لا حاجة لنا إلى رئيس، فكلنا سواسية في الرأي، ويكفي أن يكون للجلسة «ناموس» يدون الآراء ويأخذ الأصوات.

ولا أطيل عليك أيضًا فقد وافت الساعة السابعة والجدل على أشده في هذا الموضوع الخطير! وعند تمام الساعة السابعة والنصف انتصر الفريق الأول فكان لا بد من رئيس.

ولكن عرضت مشكلة أخرى أخطر من الأولى: هل يختار الرئيس بالسن أو بالاقتراع السري؟ قال قوم بها، وقال قوم بذاك. وكاد يحتدم الجدل على نمط المسألة الأولى لولا أن أحد الحاضرين قال: اختار فلانًا ليدبر هذه الجلسة، فخجل الآخرون أن يطعنوا في هذا الاختيار، فسكتوا وكفى الله المؤمنين القتال.

وطُلب من المقرر أن يقرأ المادة الأولى فقرأها، ونصها: «أنشئت بمدينة القاهرة جمعية تسمى جمعية إحياء الأدب العربي».

أ- هل يقال: «أنشئت» أو «نشأ»؟ أظن أن الأصح أن يقال: «نشأ»، لأن الجمعية لم تكون بعد، فكيف يعبر بالماضي فيقال أنشئت؟

- ب: هذا رأي في محله، لأن إنشاء الجمعية مستقبل، والذي وضع للدلالة على المستقبل هو الفعل المضارع والأمر لا الفعل الماضي. فإذا قلنا أنشئت دل على أنها تكونت في الزمن الماضي، وليس ذلك صحيح.

- ح: الفرض في القانون أن يوضع في شكل يدل على أن الجمعية أقرته، فواضع القانون فرض أن الجمعية اجتمعت وأقرت القانون وألبسته ثوبه النهائي، ولذلك يوضع في صيغة الماضي.

- د: وأمثال ذلك كثيرة، فكاتب العقود يقول: «في تاريخه أدناه قد باع فلان لفلان كذا» ثم يمضي البائع والمشتري العقد؛ وقبل الإمضاء كان البيع مستقبلاً، ومع ذلك عبر عنه بالماضي.

- هـ: ومع هذا فلم تذهبون بعيداً؟ والماضي يستعمل في المستقبل كما قال تعالى: {أتى أمر الله فلا تستعجلوه} فأمر الله هو يوم القيامة وهو لم يأت بعد، وإنما عبر عنه بالماضي للإيذان بأنه أمر محقق، أو للتنبيه على قرب مجيئه، فهنا كذلك، لما كان تكوين الجمعية محققاً إن شاء الله أو قريب الوقوع يعبر عنه بالماضي على سبيل المجاز.

- و: الأمر أبسط من هذا كله، فإذا قلنا «أنشئت» أو «تنشأ» لا يترتب على ذلك ضرر، وهو لا يقدم الجمعية ولا يؤخرها؛ إنما ينهض بالجمعية عملها في تحقيق غرضها، فإذا حققت لا يضرها أنشئت أو تنشأ، وإذا لم تحققه لا ينفعها أنشئت أو تنشأ.

- أ (محتداً): ولكننا نجتمع لإحياء الأدب العربي فأقل ما يجب علينا أن تكون عبارتنا صحيحة لفظاً ومعنى، نحواً وبلاغة، وإلا أعطينا مثلاً سيئاً لإحياء الأدب العربي.

- الرئيس: أظن أن الأمر واضح؛ فلنأخذ الآراء على «أنشئت» أو «تنشأ».

ز: لكن بقيت مسألة: أليست «تكونت» خيرًا من «أنشئت»؟ لأن الإنشاء في اللغة هو الخلق، والخلق يكون من العدم، وليس أفراد الجمعية معدومين حتى يقال فيها أنشئت؛ إنما هي موجودة مفرقة، فهي تتجمع وتتكون لا تُنشأ.

أ: ومن قال إن التكوين لا يكون من العدم؟ ففي كتب المتكلمين «إن التكوين إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود» وفي التوراة سفر اسمه سفر التكوين وفيه حكاية خلق العالم، والعالم قد خلقه الله من العدم.

(أراد (ز) أن يرد عليه فقاطعه الرئيس وأخذ منه الكلمة).

- الرئيس (في شيء من الضجر): أرى أن نكتفي بهذه المناقشة في هذا الموضوع ونأخذ الأصوات على ما يأتي: هل نقول أنشئت أو تنشأ، أو تكونت أو تتكون؟

أ: لا، بل نأخذ الرأي -أولاً- على أن تصاغ الكلمة من مادة الإنشاء أو من مادة التكوين، وبعد ذلك نأخذ الرأي: هل نعبر بالماضي أو المضارع.

- الرئيس: وهو كذلك.

(أخذت الآراء -أولاً- فكانت الأغلبية في جانب مادة الإنشاء؛ ثم أخذت -ثانية- فخرجت الأغلبية في جانب أنشئت.

- الرئيس: إذن نتقل إلى المادة الثانية.

أ: لا، بل لا تزال هناك مسألة في المادة الأولى على جانب كبير من الأهمية.

- الرئيس: وما هي؟

أ: التعبير «ياحياء الأدب العربي» فإن هذا تعبير لا أقبله؛ وأحتج عليه بكل قوتي؛ فإنه يدل على أن الأدب العربي ميت ونحن نريد إحياءه، فهل كان الأدب العربي ميتاً؟ إنه حي، وكان حياً في العصور الماضية وسوف يبقى حياً إلى أن يرث الله

الأرض ومن عليها، وكيف نقول إن الأدب العربي قد مات وعلى رأسه القرآن الكريم، وقد قال الله تعالى فيه: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} إن الأدب العربي حي، وكل ما نريد أن نعمله الجمعية أن تنظمه أو تنشر كتبه القديمة؛ فأما لفظ الإحياء فلا؛ وأن أنذرکم أنکم إذا أصررتم على لفظ الإحياء انسحبت من الجمعية.

هنا ساد المجلس صمت رهيب.

- ح تشجع وقال: في الواقع إن المسألة لا تحتاج إلى كل ها، فلفظ الإحياء لا يدل على سبق الموت؛ ألا ترى يا أستاذ «أ» أن الغزالي سمي كتابه الكبير «إحياء علوم الدين» فهل كانت علوم الدين قبله ميتة؟ كلا إنها أصابها نوع من الركود والجمود، فأراد الغزالي أن يزيل عنها ركودها وجهودها، وأن يعرضها عرضاً جديداً يتفق وذوق عصره؛ ولم يقل أحد إن الغزالي صبا أو كفر أو تزندق بتسمية كتابه بهذا الاسم. وموقفنا الآن من الأدب العربي هو موقف الغزالي من علوم الدين؛ نريد أن ننهض الأدب ونعرضه في شكل حديث يتفق وأذواق الناس في هذا العصر.

- د: وأيضا فإن الإحياء ترجمة لكلمة «رينيسانس» Renaissance وقد استعملها الفرنج للدلالة على حركة النهضة العقلية في أوروبا وبعث المدنية من رقتها، والمعنى الحرفي لهذه الكلمة: «الولادة من جديد» فاختار الكتاب المحدثون كلمة الإحياء للدلالة على ذلك.

- الرئيس: نأخذ الأصوات على بقاء كلمة «إحياء الأدب العربي» أو تغييرها.

- أ، هـ، ي (في نفس واحد): لا! المناقشة لم تستوف بعد.

- الرئيس: الساعة الآن التاسعة فلنؤجل المناقشة إلى الجلسة المقبلة.

- الجميع: موافقون.

قال صاحبي: ومتى تنتهي قراءة القانون؟

قلت: في المِشمش..!

(طبق الأصل)

أدبنا لا يمثلنا

في رأيي أن الأدب العربي -بحالته التي هو عليها الآن- لا يصلح أن يكون غذاء كافياً للجيل الحاضر، سواء في ذلك الأدب القديم والأدب الحديث والأدبان معاً.

قد يكون الأدب الإنجليزي قديمه وحديثه صالحاً للإنجليز في الوقت الحاضر، وقد يكون الأدب الفرنسي والألماني كذلك، أما الأدب العربي فليس صالحاً للأمم العربية.

ذلك لأن الأدب إنما يعد صالحاً للأمة إذا كان مظهرًا تاماً شاملاً صادقاً لحياتها الاجتماعية على اختلاف أشكالها، في جدها وهزلها، في صبا أفرادها وكهولتهم وشيوخوتهم، في آلامهم وآمالهم، في حياتهم اليومية، في البيت والمصنع ودور اللهو والتمثيل، في حياتهم السياسية وحياتهم الاقتصادية، فإذا استطاع أدب الأمة أن يملأ كل هذا الفراغ عُد أدباً صالحاً كافياً وإلا لم يكف وحده.

فلننظر في ضوء هذه النظرية إلى الأدب العربي، فماذا نجد؟

نجد أن الأمم العربية -من مصريين وشاميين وعراقيين وغيرهم- بين أدبين: أدب عربي قديم، وأدب عربي حديث.

فأما الأدب العربي القديم فلا يمثل إلا أجياله ولا يمثل جيلنا، وهو صورة للحياة الاجتماعية التي نشأ فيها وليس صورة لحياتنا. إن الشعر الجاهلي صورة صادقة لحياة الجاهلية في لغته وعقليته، وإبله وأطلاله، وامرأته وأرضه، وليس شيء من ذلك يمثلنا. والشعر الأموي والأدب الأموي صورة من صور الحياة الأموية في نزاعها السياسي وعواطفها، وانقسامها إلى حياة بدوية وحياة حضرية، وحياة يؤس

بجانب حياة ترف، وعصاة يهددهم أمثال زياد بن أبيه والحجاج الثقفي، وحياة دينية يعط فيها الحسن البصري وأمثاله، فلا خطب الأولين تمثل حياتنا، ولا مواظب الآخرين أخذت وقائعها من أحداثنا.

وكذلك قلّ في العصر العباسي وأدبه، لقد كان العصر العباسي لا يتخرج من ذكر أفحش الألفاظ وأفحش العبارات، فكان الأدب صورة من ذلك، وهذا لا يتفق وذوقنا، وكان الأدب يستمد حياته من حياة القصور ووقوف الشعراء بأبوابها يمدحوه، وليست حياتنا في شيء من ذلك. وكان الشعراء يتغزلون في الغلمان ونحن نستعجن هذا الضرب، وكانوا يتهاجون بأفحش الهجاء، ونحن لا نستسيغه، وكانوا ينقسمون سياسيا إلى من يؤيد البيت العباسي ومن يؤيد البيت العلوي وقد ذهب ذلك كله.

وعلى هذا النمط يصح أن يقال في العصور التي جاءت بعد العصر العباسي إلى قبيل عصرنا.

هذا النوع من الأدب العربي القديم لا يصلح أن يمثلنا، ولا يسمى أدبا لنا بالمعنى الدقيق للكلمة.

ولست أحب أن يفهم من هذا القول أنني أنكر فائدة الأدب القديم وقيمته، فإن في القول لا يقول به عاقل، ولكني أريد أن أقرر أن فائدته كفائدة كل أدب «كلاسيكي»، هو أدب أرستقراطي يُعنى به الخاصة من أهل الأدب لا العامة، هو أدب لدراسة المتخصصين لا أدب للشعب عامة، يعني به من يدرس تاريخ الأدب كما يعني المؤرخون بدراسة التاريخ.

ولست أشك أن قسما منه صالح لكل زمان ومكان كالحكم والمواظب، وما يمثل العواطف العامة المشتركة بين الناس كلهم كالسرور والحزن والوفاء والغدر،

ولكن حتى هذا القسم إن كان عاما وصالحا للناس كلهم بحسب موضوعه، فأكثره غير صالح لأهل زماننا من حيث أسلوبه وطريقة عرضه ونحو ذلك. ومن أجل هذا يستعين الجيل الجديد على تفهمه وتذوقه بشرحه وتفسيره، وهذا الشرح والتفسير يضعف من قيمته، إذ فرق كبير بين أن تكون مستعدا لتذوق الشيء مباشرة من غير شرح، وأن تذوقه بعد عناء الشرح والاستعانة بلفظ على لفظ وجمل على جملة، وقيل أن يسد الشرح مسد الأصل.

والنتيجة لهذا كله أن الأدب القديم ثقافة الخاصة لا ثقافة العامة، وثقافة العدد القليل لا الجم الغفير. وليس يكفي ذلك وحده في أداء رسالة الأدب العامة، إذ هو لا يؤدي رسالته حتى يجد الناس فيه عامتهم وخاصتهم التعبير الفني عن مشاعرهم، والصور الفنية التي تصور عواطفهم، وميولهم وأمانيتهم، وأحزانهم وأفراحهم، وليس يستطيع الأدب القديم أن يحقق هذا الغرض إلا إذا عرض عرضا فنيا جديدا.

أما الأدب الحديث العربي فهو كذلك لا يكفي لغذاء الجيل الجديد لأنه لم يملأ حياتنا، وإن شئت فاستعرض كل شؤون الحياة تجده لم يحقق رسالته، فإن أحبيت أن تضع في يد أطفالك في سنيهم المختلفة كتبًا في القصص أو في الثقافة العامة لم تجد إلا القليل الذي لا يكفي، على حين تدخل المكتبة الأوربية فيملؤك العجب والإعجاب من وفرة الكتب للأطفال على اختلاف أنواعها، ومما حليت به من الصور الجذابة، والأسلوب المشوق البديع، فالأوربي يحار فيما يختار لأطفاله لوفرتة، ونحن نحار فيما نعطي لندرتة. إن توجهت وجهة الأناشيد والأغاني رأيت فقرنا في هذا أبين من فقرنا في سابقه، وهي بين عامية مبتذلة سخيفة لا تمثل حياتنا ولا تساير نهضتنا، وبين عربية قليلة ضعيفة فاترة، وإن التفت إلى الكتب التي تغذي الشعب والجمهور رجعت بالخيبة، وحتى كتب المتعلمين إنما تكثر إذا كانت مقررة في المدارس ليؤدي الطلبة منها امتحاناتهم، أما ما عدا ذلك فقليل ضعيف.

إنما نبتهج بالأدب الحديث يوم نرى الطفل يجد فيه غذاء صالحًا متنوعا، ورجل الشارع يجد فيها ما يناسبه، وتلميذ المدرسة وخريج المدرسة يجدان الأدب وافرًا حسب استعدادهما، ومن يريد أن ينشد نشيدًا أو يغني أغنية يجد مجال الأدب أمامه فسيحًا، ويجد الأدب في الجدد والأدب في الهزل، ويجده في دور السينما والتمثيل، ويجده في كل شيء وفي كل ظرف وفي كل أسلوب.

وإذن فما أبعدنا عن نيل هذا المثل!

والواقع أن أدب كل أمة يجب أن يساير نهضتها، وأدبنا الآن لا يمثلنا، وهو وراء نهضتنا، ويجب أن يكون أمامها، وهو كالثوب القصير للرجل الطويل أو كالثوب المرقع للرجل الغني، أو كالثوب البدوي للمرأة المتحضرة.

وأهم علاج لهذا النقص عناية العالم العربي بتكوين طائفة من الأدباء تكوينًا عربيًا غريبًا وإمدادهم إلى أقصى حد بالأدبين معًا ليتولوا الإنتاج بعد.

فالأدب العربي فيه الأسلوب وفيه ثروة دفيئة قيمة، ولكنها حبات من اللآلئ وسط أكوام من التبن، وحتى هذه اللآلئ لا يجدها الجمهور ولا يعرف قيمتها إلا إذا جلّيت وعرضت عرضًا جديدًا.

والأدب الغربي مملوء بالجواهر القيمة وبالموضوعات المفيدة، ولكنه نتاج مدنية غير مدنيّتنا، ويمثل أنواعًا من الحياة غير حياتنا، إن شئت فانظر إلى أكثر الروايات المترجمة تجد أسماء لا توافق ذوقنا، وتجد وقائع في البيوت لا يحدث مثلها في بيوتنا، وتجد أنواعًا من الحوار لا يمكن أن تقع بيننا، وهكذا الشأن في كل أنواع الأدب من نثر وشعر، وشأن الأدب الغربي شأن الموسيقى الغربية هي نتيجة أذواق الغربيين وبيئتهم، وليس يستطيع العربي أن يتذوقها إلا بكثير من المران وكثير من تحوير الذوق.

هذه الطائفة التي أدعو إليها تستطيع أن تخدم الأدب العربي لا من ناحية الترجمة، فالترجمة في الأدب وسيلة لا غاية، والترجمة في الأدب أصعب شأنًا وأقل تذوقًا من الترجمة في العلم، لأن العلم يخدم العقل، والعقل قدر مشترك بين الناس جميعًا، أما الأدب فليس قدرًا مشتركًا. وأدب كل أمة غير أدب الأخرى، لأنه يرجع إلى الذوق والعاطفة وهما مختلفان في الأمم، ولأن الأدب ظل الحياة فإذا اختلفت الحياة اختلف ظلها لا محالة.

ومن أجل هذا عني العرب في أيام نهضتهم الأولى بترجمة العلوم، ولم يعنوا بترجمة الأدب، وترجموا بعض الشيء من أدب الفرس لأنه كان قريبًا لذوقهم، ولم يترجموا الأدب اليوناني والروماني لأنه كان بعيدًا عن ذوقهم.

فترجمة الأدب الغربي إلى الأدب العربي يجب أن تعد وسيلة لا غاية، إنما الغاية أن نتج أدبًا لنا، أدبًا يمثلنا، أدبًا يعبر عن عواطفنا.

ودراسة الأدب الغربي تعين أكبر إعانة من ناحيتين: من ناحية أن دارسها يستطيع أن يتعلم منها كيف أدى الأدب الغربي عمله، وكيف استطاع أن يملأ فراغ أمته، وكيف نجح الأديب الغربي في أن يغذي شعبه، وكيف تفرعت أنواع الأدب فروعًا مختلفة أدى كل فرع منها وظيفته، ومن ناحية أخرى هناك نوع من الأدب هو قدر مشترك بين الأمم كلها لا خلاف بينهم إلا في أدائه، كالحكم والأمثال، وكالقصص التي تمثل أخلاق الناس، وكشعر الطبيعة ونحو ذلك. فهذا النوع صالح كل الصلاحية لأن ينقل إلى الأدب العربي ولا يحتاج إلى تذوقه من القارئ العربي إلا إلى تحويل بسيط.

لست أعتقد أن الأدب العربي يرقى إلا بالجد في تكوين هذه الفرقة، وإمدادها بكل الوسائل وتشجيعها بكل أنواع التشجيع.

ولود وعقيم

رَكِبْتُ من أول محطة لترام مصر القديمة، وهي كهلال الشك، جِلْدٌ على عظم، وعلى يديها طفل قد جُلِّلَ بالبياض، وعصبت عيناه، وغطى رأسه ووجهه بشاشة زرقاء.

وركب في المحطة التالية سيدة نَصَفَ، أطيب شطريها الذي ذهب، ممتلئة البدن، سمينة الضواحي، فحَّيت الأولى، وتحادثتا.

والنساء سريعات التعارف، تراهن في طرفة عين يتحدثن إلى من لم يعرفن قبل في أدق الأمور، وأعمق الأسرار؛ حتى كأنهن صديقات العمر، ورفيقات الصَّبِي، فهن يتحدثن بعد دقيقة في السعادة والشقاء، وأوصاف الأزواج، وعيوبهم؛ والحموات ومصائبهن ومضايقتهن، والدخل والخرج؛ وقد ينتقلن إلى ما هو أدق من ذلك وأصعب، مما لا يستطيع الرجال أن يتكلموا في بعضه إلا بعد عمر طويل، وصداقة متينة، ومشاركة في السراء والضراء.

وبعد لحظة صرخ الطفل وأمعن في الصراخ؛ تحاول أن ترضعه ليسكت فلا يسكت، وتُثِيْمُه فلا ينام، وتتبع معه كل الأساليب التي تعلمتها في إسكات الأطفال فلا تنجح، وأخيرا تدعو عليه بالموت فلا يستجاب لها!

الثانية - ما له؟

الأولى - رمدت عيناه من أيام ثلاثة فشربني المر، وفي الليلة الماضية لم أذق طعم النوم، وأنا طول الليل واقفة على رجلي أذرع الحجر من أولها إلى آخرها، ومن آخرها إلى أولها، وكلما هدأ وبدأ النوم ذهبت إلى السرير لأثيمه وأنام، فيصرخ ويكرر

النعمة عينها ويمثل الدور نفسه إلى الصباح، حتى دار رأسي، ومِلْتُ الحياة، وتمنيت الموت، ولم أر للحياة طعاماً مذ رأيت الأولاد، وها أنا ذاهبة إلى طبيب العيون.

أمعك أولاد آخر؟

نعم؛ معي خمسة وهذا سادسهم، وقد حاولت بكل الوسائل أن أمنع الحمل بعد أول ولد ففشلت وفشلت، ومرة حاولت أن أخلص من جنين فكادت أخلص من نفسي وبقي الجنين؛ ومرة أُصِبتَ بتزيف شديد فعرضت نفسي على طبيب، فقال إنه إجهاض، وليس من أمل كبير في بقاء الجنين، ثم أمرني أن ألتزم سريري ولا أتحرك، وأنام على ظهري دائماً، وكتب لي دواء يمنع التزيف؛ فامتنعت من شرب الدواء، وأكثر الحركة، وعملت كل شيء عكس ما نصح الطبيب رغبة في الإجهاض، ثم مع هذا كله انقطع الدم وثبت الجنين، وهذا هو الذي على يدي.

و«اسم الله عليهم» كلهم ذكور؟

لا والله! أربعة ذكور وبتتان، وكلهم في الهم سواء، وكل يوم نوع جديد من أنواع العذاب؛ ففي آخر السنة نضع يدنا على قلبنا عند الامتحان، وتظهر النتيجة، فهذا نجح، وهذا سقط بلا ملحق، وهذا له ملحق؛ ونمضي الإجازة في عناء! وتبتدئ السنة، فمن نجح في الشهادة الابتدائية ظهر متأخر الترتيب، فلا نجد له مدرسة أميرية تقبله، والشهادة في يد، والمصاريف في يد، والمدرسة في رفض! ثم هذا صحيح وهذا مريض، وهذا ذاكر وهذا لم يذكر. ولا تسألني عن وقت ذهابهم إلى المدرسة! هذا يبحث عن جزمته فلا يجدها، وهذا عن طربوشه فلا يجده؛ ونرى فرد جورب في حجرة وفرداً آخر في حجرة أخرى؛ فلا يكادون يذهبون إلا وقد بلغت الروح الحلقوم؛ وعند مجيئهم من المدرسة، هذا يغضب على الأكل وهذا يرضي، وهذا ينازع ذاك؛ ولا يتقذنا من كل هذا إلا نومهم؛ ثم هذا الشهر شهر أقساط

المصاريف، وهذا شهر كسوة الصيف، وهذا شهر كسوة الشتاء؛ وماهية الزوج لا تكفي هذا وذاك، والعيش كله عناء في عناء. وأنت؟ أليس عندك أولاد؟

كان منظرًا غريبًا، فقد طفرت الدمعة فجأة من عين السيدة الثانية، فلما أخرجت منديلها ومسحت دموعها، قالت: أبي الله أن يرزقني في حياتي ولدًا، وطالما دعوته وسألته! وحججت مرة، وكان أكبر همي من حجي أن أقف في أشرف بقعة وأسأل الله أن يهني ابناً أو بنتاً! وليكن الابن ذكياً أو غنياً، ولتكن البنت جميلة أو دميمة؛ فأنا راضية بأي مولود على كل حال، ولكنه - سبحانه وتعالى - لم يفعل - لتميت أن يكون لي أولاد، وأتجمل فيهم أضعاف ما ذكرت من عناء. ثم أراهنك أني أكون سعيدة مغتبطة لا أشكو ولا أتألم - لقد طرقت كل الأبواب لذلك فلم أنجح، ذهبت إلى الأطباء فعملوا لي عملية، واحتملت في سبيلها كل الآلام؛ وذهبت إلى المشايخ فرقوا وعزّموا، وذهبت إلى الشيوخ «فحضّرن» وبخرن و«وصفن»؛ وقالوا تخافين؛ فخفت ونزلت القبر، وركبت وابلور «لونا بارك»؛ وقالوا وقالوا، وفعلت وفعلت، فذهب ذلك كله هباء، ورزقني الله ما لا كثيراً استطعت أن أفعل به كل ما وصفوا حتى السفر إلى أوروبا واستشارة أطبائها، ولكن إذا أبى الله فماذا يفعل العبد؟

لم يبق لي من ذلك كله إلا التلهف على الولد والحسرة الدائمة؛ وكل شيء حولي يذكرني بالأولاد فيثير أشجاني وأحزاني. لقد رأيت في حديقتي أشجار البرتقال والليمون تحمل كل عام أثمارها فقلت يا الله! أنسب نعمك على الأشجار فتحمل كل عام أثمارها وتضنّ عليّ فلا أحمل مرة ثمرة! وعندي قطعة تحمل دائماً وتضع ما لا يعد من الأولاد، وكلما حملت ذكرت حملي، وكلما ولدت بكيت أولادي الذين لم يوجدوا بعد؛ وأرى الفقيرات البائسات العاريات في الشارع كل واحدة منهن تحمل في بطنها ولدًا، وترضع ولدًا، وتجر ولدًا، فيجتمع الحزن في قلبي، وتنفجر منه عيني؛ وأسمع «معارفي» وصواحيبي، هذه ولدت، ثم هذه ولدت، ثم هذه ولدت، فأقول لم يبق

عقياً إلا أنا، ولم يتخصص للشقاء غيري! رزقني الله مالا ولم يرزقني ولدًا، وليته رزقني ولدًا ولم يرزقني مالا؛ ولو كان الولد يشري بكل ما أملك لاشتريته وكنت سعيدة؛ بل لو كان يشري بعيني لاشتريته وكنت رابحة في صفقتي. وما الدنيا وما المال؛ وما الحياة بغير الولد؟

لقد كنت في أول أمري أطلب الولد خشية أن يتزود زوجي غيري، فلما أمنت جانبه، واطمأنت من ناحيته طلبت الولد لأنه طبعتي، ولأنه حياتي بعدي ولأنه موطن انتساخ روحي، ولأنني امرأة قد خلقت للأمومة. لقد أحسست بهذه الأمومة في صغري فعملت العرائس إرهابًا لأموستي، ثم تزوجت تهبؤًا لهذه الأمومة، فلما تقدمت في السن ولم أجد الأمومة رأيتني فقدت طبعتي، ورأيتني في الحياة مقدمة بلا نتيجة، أوقبة بلا شيخ، ألولوزة فارغة، وأنا والعروس من الحلوى والعروس من القطن سواء، كلنا لا يلد. ليس لي أمل في السلوة إلا بالموت. فهو وحده بلسم الهموم، ومقبرة الأحزان! وهنا ختمت حديثها - كما بدأت - بالدموع.

قالت الأولى: والله لو ذقت مرارة الأولاد ما تمنيتهم؛ ولو جريت سهر الليالي ما اشتقتهم؛ ولكن أحب شيء إلى الإنسان ما منع؛ والقصر من بُعد أجمل نظرًا من سكناه؛ والخيال دائمًا ألد من الحقيقة. لقد كان مرة أكبر أولادي يبكي وهو رضيع ولا نعلم سببًا لبكائه؛ ويبكي ويشتد في البكاء حتى بلغ منا الهم مبلغه؛ وإذا بزقة عريس تمر من تحت بيتنا، فأضحكني زوجي أبو الطفل إذ قال للعريس: «غُرَّ غداً تخلف «وترى» - ولو تمنيت الآن شيئًا لتمنيت أني لم أكن تزوجت، وإن تزوجت فلم أكن «خلفت»؛ أبتادليني؟ وضحكت.

قالت الثانية وتأوهت: وكيف يمكن البذل؟ إنما أريد أولادًا مني لا منك، أري كبدي تمشي على الأرض أربيها؛ ولا أريد كبذك أنميها وأغذيها - وأنت أيضًا لا

تعبرين عما في نفسك تعبيرًا صادقًا، فمن تهون عليه أولاده؛ إنما ينفع البذل إن كان قدر لي الله أن أكون ولودًا وأن تكوني عقيًا.

قالت الأولى: أتريدين الحق يا أختي؟ الدنيا كلها تعب فلا ولود في راحة، ولا عقيم في راحة، ولا متزوجة سعيدة، ولا عذبة سعيدة.

ووصل الترام إلى العتبة فنزلنا، هذه إلى طيبب ابنها وتلك لبعض شؤونها.

قال صاحبي: ولكن كيف أمكنك أن تسمع هذا الحوار؟

قلت: هذا سر الصنعة.

مقياس الرقي

سألني أديب سوري:

بم نع أمة أرقى من أمة، وما العوامل التي نحسبها ونقيس بها الرقي؟ وفي الأمة الواحدة- إذا سئلنا أكانت بالأمس خيرا منها اليوم، أم هي اليوم خير منها أمس، فأبي النواحي نرعاها عند النظر؟

والحق أنها أسئلة في منتهى الصعوبة، يحار المجيب عنها أي العوامل يحسب وأياها يترك، وأياها لها قيمة كبيرة الأثر وأياها ضعيف الأثر؟

قد يبيج مجيب إجابة سهلة من طرف اللسان فيقول: «مقياس الرقي فقي الأمم الأخلاق»، فأرقى الأمم أحسنها خلقا؛ ولكن هذه الإجابة لا تقنع، فالأخلاق متغيرة، وكل عصر له أخلاق يتطلبها وواجبات ينشدها، وما علينا الآن من واجبات أضعاف ما كان على أجدادنا منها، أصبح واجبا علينا أن نعلم أولادنا في المدارس، وما كان ذلك واجبا من قبل، إنما كان تبرعا من الأب، وأصبح واجبا علينا ترقية الوطن من جهات متعددة، وما كان ذلك واجبا من قبل، وإن كان واجبا فواجب غامض ليس محدود المعنى ولا معين الاتجاه؛ وكان أبائنا يعدون من أرقى الأخلاق في الأمة حجاب نساها وبناء سور متين بين الرجل والمرأة، فأصبحنا نرى الواجب أن تتعلم المرأة كما يتعلم الرجل، ومن حقها أن تسمع المحاضرات مع الرجل، وأن تتمتع بالحياة البريئة كما يتمتع الرجل، فإذا قلنا مقياس الرقي الأخلاق كانت كلمة عامة تدل على كل شيء ولا تدل على شيء.

وقوم يقيسون الرقي بالدين، وهي كذلك كلمة عامة يختلف مدلولها باختلاف أنظار الناس فيضيق عند بعض الناس حتى لا يسع إلا الصلاة والصوم والزكاة والحج، ويتسع عند بعض الناس حتى يشمل كل شيء.

وفي الحق أن هناك مناحي للحياة مختلفة متعددة يجب أن يُنظر إليها كلها لتقويم الرقي؛ ففي كل أمة مجموعة من المرافق، يعد كل مرفق منها كالحلية في الجسم الحي؛ من حكومة وتعليم ولغة ودين وأسرة ونظام اقتصادي ونحو ذلك؛ كلها تتغير، وكلها ترقى أو تنحط، وكلها في حركة مستمرة دائما إما إلى الأمام وإما إلى الخلف؛ وكلها تتفاعل تفاعلا قويا، يؤثر قويا في ضعيفها، وضعيفها في قويا - وهذا التغير الدائم في كل هذه المرافق هو مقياس الرقي والانحطاط، فإن كان تغيرا إلى سمو فرقي، وإن كان تغيرا إلى تدهور فانحطاط.

وحسبان هذا ليس بالأمر اليسير، فقد تتدهور بعض المرافق لأسباب خاصة، وتسمو بعض المرافق لأسباب كذلك، ثم تتفاعل عوامل الضعف والقوة فينشأ من ذلك عملية حسائية من أصعب المسائل حلا؛ والمثل الأعلى للأمة أن يكون كل مرفق من مرافقها الاجتماعية يؤدي عمله خير أداء، ويتنقل في سمو أبدا، وأن يكون سيره ورقه في حالة ملائمة ومناسبة لسائر المرافق الاجتماعية، لا يطفز عنها ولا يقعد بها. فالأمة التي تختار أحسن النظم في التربية والتعليم ولا تساعد اللغة على المصطلحات الحديثة لا ترقى في التربية والتعليم حتى تحل مشكلتها اللغوية؛ والأمة التي تختار أحسن النظريات الفقهية وخير النظم القضائية ثم لا يعينها بعد ذلك حالة الأسر الأخلاقية، وحالة المعاملات بين الأفراد لا يمكن أن ترقى بنظرياتها الفقهية من الناحية القضائية؛ والأمة التي تسن أرقى أنواع الإصلاحات الاجتماعية، ثم لا تعينها الناحية الاقتصادية تصبح وإصلاحاتها تسر القارئ ولا تسر الناظر وهكذا.

وهناك دلائل قوية تدل الباحث على رقي الأمة وتدهورها وسيرها إلى الأمام أو إلى الخلف، إما بمقارنتها بغيرها من الأمم في نواح معينة، أو بمقارنتها بنفسها في عصرها الحاضر وعصرها السابق؛ والمقارنة الأولى تدلنا على الدرجة التي تقف عليها الأمة في سلم الرقي العام؛ والمقارنة الثانية تدلنا على اتجاه سيرها إلى الأمام أم إلى الخلف.

من أهم هذه الدلائل تعرّف موقف الأمة إزاء ما يحيط بها من ظروف طبيعية واجتماعية؛ هل هذا الجيل أحسن استخدامها لبيئته وما يحيط به؟ هل استطاع أن يوجد منابع لثروته وسعاداته أكثر مما استطاع أسلافه؟ هل استخدم المنابع القديمة خيرا مما استخدمها آباؤه؟ هل كان في حله لما يعرض له من المشاكل الاجتماعية والطبيعية أكثر توفيقا؟ لما عرّضت هذه المصاعب أو أمثالها ولآبائنا كيف حلوها وكيف حللناها؟ وما منهجهم في الحل وما منهجنا؟ ما مقدار تضافر الأفراد يوم ذاك في التغلب عليها؟ وما مقدار تضامننا اليوم؟ لكل أمة مقدار من الثروة، فهل زادت؟ وهل استطاعت اليوم أن تسعد بثروتها أكثر مما كانت تسعد بها من قبل؟ هل استخدمت العلم أحسن مما استخدمه آباؤها فقلّت الوفيات وتحسّنت صحتها، وجمل منظرها، ونظفت عيشتها؟ وأصبح نيل القوت أسهل وأيسر حتى تفرغ كثير من أبنائها وبناتها للعلم والفن والأدب؟ أظن أن هذه الأسئلة متى حددت بهذا الشكل لم تكمن الإجابة عليها عسيرة، وبذلك نستعين على تعيين الاتجاه ومقدار الرقي، إن كان.

ومن ناحية أخرى، ربما عد من أكبر دلائل الرقي في الأمة «تذليل العقبات أمام الكفايات»، فخير الأمم من أفسحت السبيل أمام أفرادها ليرقوا كما يشاءون حسب استعدادهم وجِدّهم، في التعلم، في الوظائف، في النواحي السياسية والاجتماعية - وقد قطعت الأمم المتقدمة في ذلك خطوات واسعة، فأزالت احتكار الأرستقراطية

للمناصب العليا، وسهلت وسائل التعلم لمن شاء، واعتمدت في تقدير الأشخاص على مزاياهم لا على بيئتهم - إلى درجة كبيرة - وحاربت «المحسوبية» والتزعات الأرستقراطية، وقضت على النظام الإقطاعي الذي يميز بين الطبقات، ويضع حداً فاصلاً بينها لا يمكن تخطيه، ووضعت النظم الاقتصادية الحديثة، وفيها يمكن كل فرد بذكائه ومواهبه أن يصل إلى ما يستطيع من رقي - وإن كانوا هم أنفسهم يصرحون بأنهم لم يبلغوا الغاية في ذلك، وأن أمامهم عقبات شاقة ومسافات طويلة يجب أن يقطعوها حتى يسهل على كل فرد تحقيق غايته ويلوغ شأوه.

وربما كان كذلك من أهم دلائل الرقي النظر إلى ثروة الأمة، ومقدار ما يصرف منها على «الصالح العام» من مدارس ومصانع ومساجد ومتزهات وحدائق وماء وإنارة ونحو ذلك، ولست أعني النظر إلى كمية ما يصرف فحسب، ولكنني أعني أيضاً كيفية الصرف، وهل أنفق هذا القدر في أحسن السبل، وهل هناك وجه آخر خير منه؟ كذلك لست أعني ما ينفق في ذلك من ميزانية الحكومة فقط، ولكن أعني أيضاً مقدار شعور الأفراد في هذا الباب، ومقدار ما يتبرعون به من أموالهم لهذا الصالح العام، فليست ثروة الأمة مقصورة على ميزانية الحكومة ولكنها تشمل ثمرة الأفراد؛ فالأمة التي لا يشعر أغنيائها بواجب في أموالهم لفقرائها، أو يشعرون شعوراً ضعيفاً لا يقوي على استخراج المال من جيوبهم، أمة منبحة إذا قيست بغيرها من الأمم التي كثرت فيها المدارس والأندية والمستشفيات والجمعيات الخيرية من مال أغنيائها.

ومما يتصل بهذا الأمر، النظر في ميزانية الأسر في الأمة وكيف تنفق، فأمة خير من أمة إذا عرفت أسرها كيف توازن بين دخلها وخرجها، وكيف تفرق بين الضروري والكمالي، وما ليس بضروري ولا كمالي، ولم تسمح لنفسها أن تصرف في الكمالي حتى تستوفي الكمالي، فذلك - من غير شك - يجعل الأسر أسعد حالاً، واهداً

بالا، وأكثر استعدادا للرقى، وهل الأمة إلا مجموعة من الأسر؟ وهل رقي الأمة إذا حاصل جمع رقي الأسر؟ وكما أن أسرة قد تكون أسعد من أسرة، مع أن دخلها أقل وثروتها أضعف؛ ولكن عقلها أكبر، وتصريفها لمالها أدق، فكذلك الأمم ليس خيرها أغناها، ولكن خيرها من عرفت كيف تستخدم مالها وأحاطت ما تملك بنظم راقية، وكمية كبيرة من الإصلاح تجعل مالها يتضاعف في القيمة وإن لم يتضاعف في العدد - فكم من الأمم لها ثروة كبيرة طبيعية، ولكن لم تعرف كيف تستخدمها ولا جزءا منها، ولو حلت محلها أمة أخرى لصيرت صحراءها بستانا، وجبالها جنانا، ولجعلت ترابها ذهبا، وأرضها عجا.

ومن أجل هذا لم يخطئ كثيرا من حصر مقياس رقي الأمة في مقدار تغلبها على طبيعة بلادها، وتعديل نفسها حسب ما يحيط بها - لأنها لا تصل إلى ذلك إلا بقدر كبير من العلوم الطبيعية يمكنها من الانتفاع بأرضها وجوها، ويقدر وافر من العلوم الاقتصادية يبين لها كيف تستغل منابعها، وبمقدار صالح من النظم السياسية والاجتماعية والأخلاقية يهيئ للأفراد سبل الانتفاع بما حولهم، ويعددهم خير إعداد للنظر في مصالحهم.

فليتساءل الشرقي في ضوء هذا: أين هو في نفسه، وأين هو في أمته، وأين أمته في العالم؟

كتابة المقالات

هناك أنواع من المقالات يصح أن نسميها مقالات علمية بالمعنى الواسع فتشمل المقالات الاجتماعية كما تشمل بحث مسألة أدبية بحثاً علمياً، وهذا النوع سهل على الكاتب متى تيسرت له أدوات البحث من كتب ومراجع ونحوها، وتوفر له حسن الاستعداد من معرفة إيمناهج البحث وأساليبه، فكل وقت صالح لكتابة مثل هذه المقالات وإعدادها ما لم يكن الكاتب في حالة استثنائية من مرض ونحوه.

وهناك نوع من المقالات هي المقالات الأدبية بالمعنى الخاص، وأعني بها الأدبية أدباً إنشائياً صرفاً لا أدب بحث ودرس - وهذه أصعب من الأولى من حيث إنها تتطلب - فوق حسن الاستعداد - «المزاج الملائم»، فليس الكاتب في كل وقت صالحاً لها. بل لا بد أن يكون مزاجه ملائماً للموضوع الذي يريد أن يكتب فيه، فإن كان الموضوع فكهاً مرحاً فلا بد أن يكون مزاج الكاتب كذلك فكهاً مرحاً، وإن كان الموضوع عابساً حزيناً فلا بد أن يكون مزاج الكاتب من هذا القبيل، ولذلك قد يمر على الكاتب الأديب أوقات وخلع ضرسه أهون عليه من كتابة مقال. وإذا هو حاول ذلك فكأنما يمتح من بثر أو ينحت من صخر، ذلك لأن هذه المقالة الأدبية لا بد أن تنبع من عاطفة فياضة، وشعور قوي، فإذا لم يتوفر هذا عند الكاتب خرجت المقالة فاترة باردة لا يشعر منها القارئ بروح، ولا يحس منها حرارة وقوة. ولا يكفي - عند الكاتب - وجود العاطفة القوية، بل لا بد أن تكون هذه العاطفة من جنس الموضوع الذي يريد معالجته. فويل له إن أراد رثاء وقلبه ضاحك مرح، أو أراد فكاهة وقلبه بائس حزين. ومن أجل هذا يحاول الكتاب أن يؤقلموا نفوسهم للموضوع أولاً، فيستلهموا كتاباً أو قصيدة أو منظراً طبعياً أو نحو ذلك من الوسائل الصناعية - إن

عدموا الوسائل الطبيعية - حتى تهيج مشاعرهم من جنس الموضوع، ثم يأخذوا في الكتابة، فتدقق معانيهم، وتغزر أفكارهم ومشاعرهم.

وشأنهم في ذلك شأن كل فنان: من موسيقى ومصوّر ومثال، فهؤلاء لا يحسنون الإخراج إلا في ساعات خاصة هي ساعات هياج مشاعرهم من جنس موضوعهم. أما موضوع «المقالات الأدبية» فكل شيء في الحياة صالح لأن يكون موضوعاً، من الذرة الحقيرة إلى الشمس الكبيرة. ومن الرذيلة إلى الفضيلة، ومن كوخ الفلاح إلى قصر الملك، ومن الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل، ومن أقبح قبيح إلى أجل جميل، ومن الحياة إلى الموت، ومن الزهرة الناضرة إلى الزهرة الذابلة، ومن كل شيء إلى كل شيء.

والكاتب الفني من استطاع أن يجد من كل شيء موضوعاً يجيد فيه ويستخرج إعجاب القارئ، ومن استطاع أن يجد من كل شيء نواة يؤلف حولها ما يصلح لها حتى يخرج موضوعه منسقاً تنسيقاً يبهر السامع والقارئ، وهو في تأليفه قد يضم الشيء إلى إلفه، وقد يضمه إلى نقيضه، وقد يصل به الكلام في الذرة إلى الكلام في الشمس، وقد يصل به الكلام في النملة إلى الكلام في الله، ولكن القارئ لا يشعر بمفارقات ولا يشعر بهوة بين أجزاء الكلام، ويسير مع الكاتب كأنه في حلم لذيد أو قصة محبوكة.

والفرق بين كاتب وكاتب في شيئين: التلقي والإداعة، فالفرق في التلقي هو أن الكاتب قد يكون دقيق الحس، يسمع حفيف الأشجار وديبب النمل، ويرى دقيق الأشياء في الظلماء، ويرى قلوب الناس في أعينهم، ودخائلهم في صفحات وجوههم، وقد يرى بأذنه ويسمع بعينه، وقد يرى ما لا يرى الناس ويسمع ما لا يسمع الناس، وقد يدرك الجمال بتفاصيله، ويدرك القبح بتفاصيله، حتى كأنه قد

منح من الحواس ما لم يمنحه الناس، وكأن حواسه ليست خسا وإنما هي خمسون أو خمسمائة أو ما شئت - على حين أن أخاه الكاتب الآخر لم يمنح هذا القدر من الحس، ولم يبلغ هذا المبلغ من الذوق، قد فاق المألوف من الناس، ولكن إلى حد، وتسامى ولكن بمقدار.

ويفضل الكاتبُ الكاتبَ أيضًا في التلقي من ناحية أن كاتبًا قد تتعدد مناحي إدراكه تعددا متشعبا؛ فالطبيعة توحى إليه بأسرارها، والمجتمع يملي عليه بواطنه، والحياة كلها لا ترضى عليه بخفاياها، والملح والفكاهات تدخر له أحسن ما لديها، والجد لا يرضى عليه بخير ما عنده، فهو مستودع الأسرار، وملتقى البحار والأنهار، ومن يأمنه كلُّ على سره، ويفضي إليه بما يرضى به على غيره - على حين أن أخاه الكاتب قد يصل إلى بعض الأسرار ويدرك بعض الاتجاهات ويعجز عن إدراك البعض، قد يجيد فهم الطبيعة ولا يفهم للمجتمع سرا، وقد يجيد فهم الجد ولا يفهم الدعابة، ذكي في أمر وغبي في آخر، منير في جانب مظلم في جانب.

وأما اختلاف الكتاب في «الإذاعة» فعلى هذا النحو أيضًا، منهم من يجيدها إلى أقصى حد، فصورته صاف جميل يأخذ بالألباب ويستخرج منك العجب والإعجاب، وهو في كل ما يغني معجب مطرب سواء أحزن أو أسر، وأضحك أو أبكى، وسواء غنى على العود أو الكمان أو البيان، وسواء غنى عاليا أو واطئا - ومنهم من يجيد نوعا دون نوع: هو في أحد الأنواع ممدوح الصنيع حميد الأثر، وفي الآخر معيب مستهجن، يحسن العود ولا يحسن المكان، ييني في ناحية ويقوض في أخرى، يواتيه الطبع في باب، فيأتي بالعجب العجيب، ولا يواتيه في آخر فمهما اصطنع وتكلف فلا يأتي إلا بما تستك منه الأسماع.

ومن اختلاف الكتاب في التلقي والإذاعة يختلفون في «القيمة» ومع هذا فقد يختلفون في التلقي والإذاعة معًا ويتحدون في «القيمة» كالمغنين يختلفان في

«الصوت» الذي يغنيانه وفي الآلات التي يوقعان عليها، ولكن لا تستطيع أن تميز أحدهما عن الآخر في درجة الرقي.

فهذا كاتب يجيد في ناحية من النواحي، وذاك يجيد في ناحية أخرى وهما في درجة الإجادة سواء - هذا كاتب يعني كل العناية بشكل المقالة ومظهرها، فتخرج من يده مرتدية بالملاحظة موسومة بالظرف، لها بهاء موقن، ورونق معجب، قد قيست كل جملة منها بالمسطرة حتى تكون وفق قريبتها، إن كان في أحد اذنيها قرط كان في الأذن الأخرى قرط مثله، يوافق في الحجم والشكل والطول، وإن كحلت إحدى عينيها فلا بد أن تكحل الأخرى على نمط الأولى في دقة وضبط، حتى تبرز كأنا دمية عاج، ثم هي بعد خفيفة المعنى، فاترة الروح، تشغل الأفكار بالنظر إلى شكلها عن النظر إلى روحها - وهذا كاتب آخر لا يعني في مقالته بزي ولا شكل، فتخرج نظيفة في غير جمال، لا يقف عليها الطرف، ولا تأخذ بالأبصار، ولكنها عميقة المعنى رائعة الفكر، جميلة الروح، هي كالغانية تستغني بحسن ذاتها عن زينتها، حُسنها كما قال أبو الطيب - حسن غير مجلوب - وجالها غير مصنوع.

ومع الاختلاف بين هذا وذاك فلكلّ جماله ولكلّ قيمته الأدبية، هذا يرضي الخاصة، وذاك يرضي العامة، ولا بد في الحياة الأدبية من النغمتين معاً.

وليس يشترط في إجادة الكاتب أن يطرق موضوعاً جديداً لم يسبق إليه بل كل موضوع صالح لأن يكتب فيه ولو تداولته أقلام الكتّاب من قبل، ومن مبدأ خلق الإنسان وهو يحب، ومن مبدأ خلق الأدب والحب موضوع للأدب، ومع هذا لم تنفد مادته، ولا يزال الشعر والثر والغناء والتصوير تستقي من منابعه، وتكرر أناشيده، ولكن لا يُعَدُّ الكاتب في الموضوع المعاد مجيداً إلا إذا أتى بجديد، غاية الأمر أنه لا يشترط جدة الفكر بل يكفي في ذلك جدة العرض. وأكثر الأدب من هذا القبيل أفكار مألوفة وآراء معروفة، ولكن الأديب يستطيع أن يصوغها صياغة جديدة حتى

يخيل للقارئ من جودة الصياغة أنها جديدة الفكرة؛ بل إن الكاتب إذا كثرت آراؤه الجديدة خرج عن أن يعد أدبيا شعبيا أو أديب أمة، وصار أدبيا للخاصة لا يقوم إلا في أوساط قليلة. فالوردة الجميلة تعجب الناظر ولو سبق للحديقة أن أنبتت من قبل أمثالها، و«الدور» يغنيه المغني الحديث يطرب ولو سبقه أحد بغنائها.

وكل ما يطلب من الفنان أن يجيد العرض، وأن يكون عرضه ملائما لشخصيته. انظر في ذلك إلى الروايات الجديدة تجدد معانيها في أغلب الأحيان معروفة ينطق بها العامة والخاصة، وتجري على ألسنة الجهلاء والعلماء، ومع ذلك استطاع الأديب الفنان أن يجعل منها رواية رائعة أو قصة بديعة أو مقالة شائقة، وليس له في ذلك إلا الصياغة وحسن العرض، قد أخذ الفكرة التي يراها كل الناس، ولكنه عرف كيف يلعب بها ويجيد اللعب، ويقلبها على وجوهها المختلفة ويلبسها لباسا جديدا. قد أسبغ على الفكرة من عواطفه وشعوره ما جعلها جذابة أخاذة، وهذا هو الجديد في الموضوع، فإن لكل أديب نفسه وعواطفه وأسلوبه وشخصيته، فإذا مزج الفكرة بذلك كله كان في الناتج جدّة، وفي الموضوع طراقة، كحروف الهجاء، كل الناس ينطقون بها، ولكن اختلفت مناطقهم وأصواتهم وحناجرهم، فكانت كأن كل إنسان ينطق بها نطقا جديدا، وكأن الحروف لم تخلق بشكلها الخاص إلا له. والقطعة من الذهب إنما يتفاوت الصائغون بالمهارة في صياغتها والذهب هو الذهب في أيديهم جميعا.

وأخيرا خير الكتاب من استطاع أن يفهم نفسه ويعرف استعدادته، في أي النواحي يجيد وفي أيها يضعف، ومتى يرقى ومتى يُسِفّ، قد جرب نفسه أولا في ضروب الأدب المختلفة من قصة وشعر وكتابة اجتماعية وكتابة أدبية ونقد وإنشاء، وقلب نفسه على وجوهها المختلفة، ولاحظ ذلك في دقة وعمق، وعالج مواضع الضعف منها، ثم استقر بعد السباحة الطويلة الشاقة إلى شيء اطمأن إليه، وهو أن

ملكاته واستعداداته يوافقها شيء ولا يوافقها آخر، وتتبع في مواضع وتجمد في أخرى.

. فإن هو أنس من نفسه ذلك اكتفى بما منحه القدر، وغنى فقط نوع الأناشيد التي يحسنها، وطلب السمو في النواحي التي تواتيه فيها ملكاته، وإلا أضاع نفسه من كثرة ما يحاول فيها يعجز عنه ويقصر فيه، فالفلاسفة إلى الآن لم يعثروا على الأكسير الذي يجعل الفضة ذهباً أو الحديد فضة، فخير لنا أن نبذل جهدنا في إظهار الفضة بخير مظاهرها من أن نحاول -مع الفشل الدائم- أن نقلبها ذهباً.

الراحة في التغيير

خلق الإنسان ملولاً، يَمَلُّ النعيم إذا طال، ويمِلُّ الشقاء إذا طال، يملُّ الحر إذا دام، ويمِلُّ البرد إذا دام؛ يملُّ الأكل الشهي اللذيذ إذا استمر عليه، ويمِلُّ الأكل الخسيس إذا استمر عليه، وقديماً ملَّ بنو إسرائيل أكل المنّ والسَّلْوَى، وقالوا: {لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها} ولست أدري لِمَ لامهم موسى عليه السلام على ذلك والملل طبعي في الإنسان. إلا أن تكون صيغة الطلب رذيلة مذمومة: {فادع لنا ربك}، ليست الصيغة المؤدبة التي تصدر من المؤمنين.

من أجل هذا استعان الناس على درء الملل بالتنوع والتنقل ولو من حسن إلى رديء، فاشتبهوا أنفه الطعام بجانب أجوده، واشتهوا عيش رأس البر، وأكواخ أبي قير، فرارا من القصور الشاخصة والبنيان المشيد - وروعي هذا في برامج الدراسة: فخط بعد لغة، ورسم بعد حساب، ولغة إنجليزية بعد لغة عربية، دفعا للملل من الدرس ومن المدرس؛ وروعي كذلك في برنامج الحياة: فلعِب بعد عمل، ومزاح بعد جد؛ وراعت الطبيعة هذا في برنامجها: فليل ونهار، وحر وبرد، وسلطان للقمر بعد سلطان للشمس، وهكذا - ولولا ذلك لعرا الناس ملل ولا يطاق، ولكانت الحياة عبثاً ثقيلاً لا يحتمل؛ ولقر الناس منها إلى الموت طلباً للتغيير والتنوع.

أخطأ الناس فظنوا أن الراحة معناها الانغماس في الكسل، والإضراب عن العمل، والتمدد على سرير مريح، أو الاتكاء على كرسيٍّ مَجْتَنَحٍ أو نحو ذلك؛ وليس هذا بصحيح دأئها، ولو كان كذلك لما ملَّ الناس هذه الراحة، ولما فروا منها إلى العمل، واستروحوا بالجد والتعب، إنما الراحة التغيير من حال إلى حال، من عمل إلى عمل، ومن لا عمل إلا عمل، ولو كان عدم العمل هو الراحة لكان السجن

أروح مكان- ألا ترى الراحة تكون في الأشياء وأضدادها باستمرار؟ فلو ركبت سيارة من مصر إلى الإسكندرية لأحسست التعب من الركوب، وأحسست الراحة من المشي، ولو مشيت طويلا لأحسست التعب من المشي، والراحة في الركوب، وما أحلى النوم بعد التعب، وما أحلى اليقظة بعد النوم- وفي الجلوس راحة إذا طال الوقوف، وفي الوقوف راحة إذا طال الجلوس، وفي العمل راحة بعد طول الفراغ، وفي الفراغ راحة بعد طول العمل، وفي نظر الصحراء لذة بعد طول النظر إلى البحر، وفي البحر لذة بعد طول النظر إلى الصحراء- ومنظر البحر أبعد عن السأم لأنه في تغير مستمر وحركة دائمة: موجة تعلو ثم تهبط، وموجة تتكسر على الصخر أو الرمل ثم تسير إلى الشاطئ وتفني، وتتجدد أخرى، وهكذا؛ ومنظر الأرض ليس حظه كذلك من التغير، فالإنسان به أسرع مللا وأقرب سأمًا- وهكذا كل نظام الحياة: الملل من الدوام، والراحة في التغير.

ما أصعب الحياة الرتيبة وأشقها على النفس! إنها تميم القلب وتبعث على الخمود، ولا بد لعلاجها من التجديد، وليس التجديد إلا نوعا من التغير، يبعث عليه السأم من القديم، فإذا مل الناس الأدب القديم، جدد زعماء الأدب في الأدب، وأتوا للناس بفن جديد يستروحون به، وإذا مل الناس نوعا من النظام الاجتماعي أتى المجددون بشيء جديد ونظام جديد يذهب بالملل ويحدد النشاط، وليس تغير الأزياء -وخاصة عند النساء- إلا ضربا من هذا، هن أسرع خلق الله إلى الملل، وأدعاهم إلى التغير والتجديد؛ فهن يطلعن على الناس كل عام بزي جديد في القبعات والأثواب وكل ما يتصل بهن؛ شعر قعير بعد شعر طويل، وفستان طويل بعد فستان قصير، وهكذا كثر مللهن فكثر تغيرهن فرارا من السأم وطلبا للراحة لهن ولغيرهن.

وأقدر الناس في هذه الحياة من استطاع أن يتغلب على السأم والملل بالتغيير المناسب في نفسه وفي غيره، فالأديب القدير من استطاع أن ينوع نفسه وينوع كتابته، حتى لا يُمل ولا يُمل، وخير المجالات ما استطاعت أن تجدد نفسها من حين إلى حين تجديدا يتفق ومنفعة الناس، ويتفق والرقى؛ فتتغير في أسلوبها، وتتغير في موضوعاتها، وتتغير من حين لآخر في كتابها حتى لا يسأم قراؤها؛ وخير القادة من استطاع أن يجدد في دعوته، فإذا كان له مبدأ واحد يدعو إليه استطاع أن يبرزه كل يوم في شكل جديد يستلفت النظر، ويبعث فيه حياة جديدة تدعو إلى النشاط والحركة.

وكثير من شرور هذا العالم سببه الملل، فكسل التلميذ وانصرفه عن الدرس نوع من الملل، وخول الموظف وقعوده عن الجد في العلم نوع من الملل، والخمود السياسي والفكري والاجتماعي نوع من الملل، والرغبة في الانتحار نوع من الملل، وكثيرا ما يكون الميل إلى الكيوف والإدمان عليها نوعا من الملل، وكثيرا ما يكون الشقاق العائلي وشقاء المنزل والمشادة بين الزوجين أحيانا والأبوين وأولادهما أحيانا نوعا من الملل، إلى كثير من أمثال ذلك، وكلها أمراض صعبة التشخيص صعبة العلاج، تحتاج إلى نوع من الطب النفسي أدق من طب الأجسام، وتحتاج إلى مهارة في علم النفس لا تقل أهمية عن المهارة في علوم الطب.

من أجل هذا أصبحت الحياة فنا يجب أن يدرس، وأصبحت طريقتنا في الحياة طريقة بالية، وكل شيء إذا ارتقى وتعمد أصبح فنا يحتاج إلى الدراسة، وأصبحت الطريقة الساذجة فيه لا تغنى، فأمهاتنا يربين أولادهم حسبما اتفق، ثم أصبحت التربية فنا، ومعلمونا كانوا يعلموننا حيثما اتفق، ثم أصبح التعليم فنا؛ ومغنونا كانوا يغنوننا حسبما اتفق، ثم صار الغناء فنا - كذلك الحياة نفسها نحياها الآن حيثما اتفق، ولكنها تعقدت وأصبح حل عقدها يحتاج إلى دراسة ودراسات - وأصبحت

المرأة في حاجة لأن تتجدد في بيتها حتى لا يمل زوجها، والزوج يتجدد حتى لا تمل زوجته، والمعلم يتجدد حتى لا يمل طلبته، ورئيس الحزب يتجدد حتى لا يمل أتباعه، وأصحاب الملهي يتجددون حتى لا يملوا. والتغلب على الملل ليس من الأمور الهينة، فليس كل تغيير يصلح لإزالة السأم، إنما يصلح التغيير يوم تدرس النفس ويدرس نوع التغيير، كما يدرس المرض ويدرس نوع العلاج، ويكون الدواء طبق الدواء.

في المسجد

ساقني حسن الحظ إلى الحديث مع سيدة إنجليزية فاضلة، وكان ذهني مستغرقا في برنامج «الأخلاق والتربية الوطنية للمدارس الثانوية» والمتحدثون - عادة - يلونون حديثهم - ولو من غير شعور - بما يشغل أذهانهم ويستغرق أفكارهم، ومهما بعد المتحدث عن الموضوع الذي يستولي عليه فسرعان ما يعود إليه، ويتغمس فيه.

لقد بدأنا الحديث في الجو وانتقلنا إلى غيره، وإذا بنا نتكلم في «التربية والتعليم وشؤونهما» وإذا بي أسأل السيدة:

- ما برنامج الأخلاق والتربية الوطنية للمدارس الثانوية في إنجلترا؟

- ليس لهما في المدارس برنامج معين ولا دروس خاصة، ولكن تلقى فيهما محاضرات في مناسبات، وأهم ما يقوم بهذه المهمة «الكنيسة» فهي تنظم دروسا للشبان والشواب في هذا الموضوع، ويقوم بهارجالها، فيكفوننا بذلك مئونة الدروس في المدارس، وإلقاؤها في الكنائس يجعل لها معنى أجمل، واحتراما أوفر وطعما أحلى.

انتقل ذهني في سرعة البرق من الكنيسة عندهم إلى المسجد عندنا، وساءلت نفسي ما الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها المسجد للأمم الإسلامية؟

إنني أفهم أن لمسجد الحي وظيفة اجتماعية هامة بجانب وظيفته الدينية، هي الإشراف على تجلية الروح وتهذيب النفس بتنظيم المحاضرات في الموضوعات التي تمس العصر، والمشاكل التي تعرض في كل زمن، كما أن من وظيفته الإشراف على حال الحي الاجتماعية، وما يصاب بت من بؤس وفقر وانغماس في المخدرات ونحو ذلك؛ ثم تنظيم الإحسان والقيام بالخدمة العامة بين الأغنياء والفقراء؛ وإسداء النصائح للأسر فيما يعرض لهم من متاعب وصعاب.

إني أفهم من مسجد الحي أن يكون كمستشفى الحي، غير أن المستشفى يداوي الأمراض الجسمية، والمسجد يداوي الأمراض الروحية والاجتماعية.

إني أفهم أن يكون إمام المسجد رئيس المستشفى يعرف مرضى الحي، ويعرف علاجهم، ويكون صلة تآلف وتعارف بين أهل الحي، يأخذ من غنيهم لفقرهم، ومن صحيحهم لمریضهم، ويقضي على المنازعات والخصومات ما استطاع، ويثقف الجهلاء، ويتخذ من المثقفين من أهل الحي أعواناً وأنصاراً، يخطبون ويعظون، ويعلمون ويثقفون- وإذ ذاك يشعر أهل الحي بأن المسجد ضرورة من ضرورات الحياة، يقوم لهم بما تقوم به المدرسة، وبما تقوم به المحكمة، وبما تقوم به جمعيات الإحسان، وبما هو فوق هذا وذاك.

بل لم لا يكون المسد معهداً للمرأة كما يجب أن يكون معهداً للرجل، فيخصص مسجد كل حي وقتاً لنساء الحي تعلم فيه المرأة واجباتها الدينية والاجتماعية وتفقه فيه في دينها ودنياها، وترشد فيه إلى طرق إسعاد البيت، وتثار همتها إلى العطف الإحسان وتنظيمهما.

فالمرأة الآن محرومة من غذائها الروحي والديني، لأنها بعيدة عن المسجد، حرمت منه من غير حق، وهو سلوتها في الأزمان، وهو منهل عواطفها وغذاء روحها- لقد حرمت المرأة من المسجد، فحرم أبنائها وبناتها من العاطفة الدينية، لأن الأم -غالباً- هي مصدر هذا الإيحاء، وإذا انحرفت مرة فلم تجد المسجد يهديها ويعزيها، جمحت وغوت؛ فهي الآن بين بيت وملهي، ولا مسجد بينهما يذهب بملل البيت ويكسر من حدة الملاهي.

هذا هو المسجد كما أتصوره، وكما ينبغي أن يكون- قوي الأثر في النواحي الروحية والاجتماعية والتعليمية، في الرجل والمرأة، قلوب الحي معلقة به، يغارون

عليه، ويعملون على ترقيته من حيث نظامه ونظافته وإمامه وخطبائه، ويرون أنه لهم وهم له، وأن منارته ينبعث منها الإصلاح في جميع نواحيه؛ متعلمو الحلي جنوده في نشر الثقافة، وأغنياؤه جنوده في محاربة الفقر، ونساقه دعاة أبنائهم وبناتهم إليه.

هذا هو الوضع الصحيح للمسجد، فأين مسجدنا منا، وأين نحن من المسجد؟ لقد اعتزل الناس واعتزله الناس، ولم يشعر شعورا قويا بوجودهم، ولم يشعروا شعورا قويا بوجوده.

نظرت دار الآثار بنائه فعدته «آثارا» ونظر الناس إلى نظامه فعدوه كذلك «آثارا» فليس يؤمه -مع الأسف- إلا الطبقة الفقيرة البائسة، أو الموظف الذي أحيل إلى المعاش، أو من تقدمت به السن من عامة الناس. أما الشباب المثقفون ومن أنعم الله عليهم بشيء من رغد العيش فلا يفكرون في المسجد ولا تحدثهم بزيارته، وإن دخلوا لا يعرفوا كيف تؤدي شعائره إلا القليل النادر، كأن السينما والمساجد اقتسما الناس، فخص المسجد بالشيوخ والعجائز والفقراء، وخص السينما بالفتيان والفتيات والأغنياء، وهي حال لا تشعر بأمل، ولا تبشر بخير.

ووزارة الأوقاف كذلك عدت المساجد «آثارا» فهي تسير في تعيين أئمتها وخطبائها وفي مراقبتها سير القرون الماضية، فلا تحرك نفسا ولا تحيي همة -كل ما فيها «اتقوا الله» إجمالا من غير تفصيل. أما ما يحدث بيننا من أحداث، وأما ما نشعر به من مصائب وما يتابنا من كوارث، فلا دخل لهم فيه، لأن دواوين القدماء لم تنص عليه.

الحق أن للناس بعض العذر في الانصراف عن المساجد، فلو عرف الخطباء كيف يكلمون الناس وعرف رجال الدين كيف يصلون إلى قلوبهم، وشعر الناس أنهم

يجدون في المسجد متعة روحية وغذاء دينيا واجتماعيا، لتغير الحال وازدحم المسجد بالناس من جميع الطبقات.

وقد كان المسجد في الإسلام يقوم بهذه النواحي التي ذكرنا، فالخلفاء ونوابهم كانوا يخطبون في المشاكل الحاضرة - وكانوا يخطبون كلما حزّ بهم أمر أو عرض لهم مُهم، وكان المسجد مدرسة للعلماء والمتعلمين والشعراء والمتأدّيين، وكان المسجد مكتبة للواردين والمترددّين، وكان المسجد مجمع الناس في الأعياد والمواسم، وكان المسجد مكتب الصغار ومدرسة الكبار، ولو سار في طريقه وتأقلم مع الزمن لكان يؤدي لك الخدم الاجتماعية التي أشرنا إليها من قبل، ولكن {خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا إلا من تاب}.

منطق اللغة

قال صديقي: ألا تنظر إلى هذه الظاهرة الغريبة؟ أنا في مجلس يتجادل أحيانا فيما يُعَرَض عليه باللغة العربية، وأحيانا باللغة الإنجليزية، فإذا تجادل باللغة الإنجليزية فالحجة تُقَرَع بالحجة في إيجاز، وداخلَ حدود معينة، قل أن يكون هناك استطراد؛ وقل أن يكون لعب بالألفاظ، وقل أن يكون خروج عن الموضوع، وقل أن يكرّر المجادل نفسه فيما يقول؛ فإما أن يأتي بحجة جديدة وأفكار جديدة، وإما أن يسكت، وما هي إلا هنيهة حتى يؤخذ الرأي ويفصل في الأمر. وإذا تجادلنا باللغة العربية فهناك يطول الجدل، ويكثر الحديث، وكثيرا ما تقرع الحجة لا بأختها، ولكن بنيت عمها، وكثيرا ما يستطرد من موضوع إلى موضوع لأقل مناسبة أو بدونها، وبعد طويل من الزمان يعودون إلى ما بدءوا فيه، وتثار مسائل كثيرة لا يفصل في واحدة منها، ويقول المجادل الآن ما قال من قبل، فيرد عليه صاحبه بمثل ما رد من قبل، وتتشعب الآراء حتى يصعب حصرها، وحتى ينسى أخيرا ما بدئ به أولا، ثم يؤخذ الرأي وقد ملّ المتجادلون، وسئموا الجدل، وودوا أن يفصل في الأمر على أي شكل، ولذلك قد يكون الرأي يؤخذ أخيرا سرا من الرأي يؤخذ أولا، بل قد يكون الرأي الذي قرر لا علاقة له بالمسألة التي أثيرت من قبل.

نعم يا صديقي، أنا أعتقد أن لكل لغة منطقا يخالف منطق اللغة الأخرى، وأن المسألة لا ترجع إلى عقلية المتجادلين وحدها، فقد يتجادل جماعة -كما ذكرت- باللغة الأجنبية، ثم هم أنفسهم يتجادلون باللغة العربية فيكونون في الأولى أكثر توفيقا، وليس من الصحيح أن ترجع هذا إلى ضعفهم في اللغة الأجنبية وقوتهم في اللغة العربية؛ فهذا القول ينطبق تماما على من أجادوا اللغتين، وحذقوا اللسانين.

وتعليل ذلك قد يبدو غريبا، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن أن اللغة ليست إلا وسيلة للتعبير عن المعاني، وليست إلا مظهرا من مظاهر العقلية، فإذا كان التفكير صحيحا سليما كان التعبير عنه كذلك ما دام صاحبه يجيد التعبير ويتقن اللغة، وإذا كان التفكير فاسدا كان التعبير عنه فاسدا متى وفق صاحبه للتعبير عما يريد ولكن يظهر لي أن المسألة أعمق من ذلك، وأن هناك تفاعلا بين اللغة والتفكير؛ فاللغة المنظمة تعمل في تنظيم الفكر، والفكر المنظم يعمل في تنظيم اللغة - وكذلك العكس - وأن المتكلم إذا تحدث باللغة الإنجليزية أو الفرنسية خضع لمنطقها وطرق تفكيرها كما يخضع لاختيار كلماتها، واختيار أساليبها، وكيفية معالجة الموضوع، فيؤثر ذلك كله في تفكيره وجدله وحججه؛ وعلى الجملة فهو يحاول أن يكون إنجليزيا أو فرنسيا في تفكيره، كما هو إنجليزي أو فرنسي في لغته - يشعر هذا تمام الشعور من أجادوا لغتين أو أكثر، فهم إذا تكلموا بلغة أجنبية راقية شعروا - مثلاً - بأن هناك غرضا محدودا واضحا يرمون إليه في حديثهم وحججهم، وأنهم يضعون لذلك خططا ثابتة معينة تشبه خطط الحرب يضعها قادتها لتسلم كل خطوة إلى التي تليها، أو كالخطط التي يضعها لاعب الشطرنج الماهر، إذا لعب لعبة علم ماذا يريد منها، وما هي الألعاب التي تترتب عليها فتتج الفوز، وهو هو إذا تكلم باللغة العربية لم يتضح القصد له وضوحه باللغة الأجنبية، ولم يرتب حججه ذلك الترتيب الذي يرتبه باللغة الأجنبية - ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن مجيد اللغتين كثيرا ما يفكر باللغة الأجنبية، ويترجم تفكيره إلى اللغة العربية، وقلما يعكس، مع أن اللغة العربية هي لغته الأصلية؛ وهي التي نشأ عليها وتربى في أحضانها، فكان معقولا أن تكون هي لغة تفكيره؛ فإذا عبر بلغة أجنبية نقل تفكيره إليها - وليس من المين تعليل هذه الظاهرة، ولكن يمكن أن يقال إن السبب في ذلك أن اللغات الأجنبية الراقية قد استكملت أدواتها من حيث الألفاظ الموضوعية لكل آلة مخترعة ولكل معنى

مستكشف؛ كما استكملت أدواتها من حيث أساليب التفكير وصياغة المعاني صياغات مختلفة أدخل في الدهن وأقبل للعقل وأجمل في الذوق، وأن اللغة أبطأت في تاريخها الحديث ولم تسرع في السير، برغم ما يقوله الدعاة من أنها أغنى اللغات وأجمل اللغات، ثم ينامون على ذلك من غير أن يعملوا على تكميل نقصها، ومعالجة ضعفها؛ وكيف يعمل على معالجة الضعف من لم يشعر بألم المرض؟ وكيف يعمل على تكميل النقص من لم يشعر بنقص؟ -لهذا كان فكر المفكر إذا أجاد اللغتين يتبع -من غير اختيار- أرحبها صدرا وأغزرها مادة وتعبيرا.

وسبب آخر: وهو أن الأمم الأجنبية الراقية قد مرنت طويلا على المجالس النيابية والمناظرات المدرسية والجامعية، وتكونت لها مع طول الزمن تقاليد معروفة مألوفة غير مكتوبة، وأثرت في جدلهم ومناظراتهم ومجالسهم أثرا كبيرا، كما أثرت في طرق تفكيرهم ولغتهم التي يتبعونها في الجدل والمناظرة.

ثم -مما لاشك فيه- أن هناك ارتباطا قويا بين اللغة والخلق، فلست تجد في لغة أجنبية ألفاظ الملق وعباراته ما تجده في اللغة العربية مما أدخله عليها الفرس والأتراك، ولا تجد من عبارات الحشو التي تدل على الذل والخضوع ما تجد في لغتنا العربية الحديثة -كانت اللغة ديمقراطية شريفة نبيلة يوم كانت اللغة العربية لغة العرب الديمقراطيين الذين لا يفرقون كثيرا بين مخاطبة الأمير مخاطبة بعضهم بعضا، ثم أصبحت لغة العبيد يوم تسرب إلى أهلها الذل والعبودية- لقد جلست أول أمس إلى رجل يحدث (باشا) فكان ما أحصيت في حديثه من (سعادة الباشا) أكثر من كلماته في الموضوع -ومالي أذهب بعيدا- ومدلول الكلمة في اللغة العربية أصبح غير مدلوله في اللغة الأجنبية، فإذا قال الألماني أو الإنجليزي (نعم أفعل) لم تدل على نفس المعنى الذي يقوله المتكلم باللغة العربية (نعم أفعل) (فنعنم أفعل) العربية تدل على أنه قد يفعل وقد لا يفعل

-والسامع إذا سمعها شك في مدلولها (هل يفعل أو لا يفعل) فاحتاج إلى أن يكرر عليه الطلب والرجاء. واحتاج المتكلم أن يعيد (نعم أفعل) وربما أقسم، وربما استعمل كل صيغ التأكيد، وهي بعد هذه الأيمان وهذه التأكيدات كلها لا يزال مدلولها أنه قد يفعل وقد لا يفعل - وهو إذا لم يفعل لم ينجل، لأنه حقق وجها من وجوه الجملة - بل المتكلم الشرقي إذا قال (سأفعل) باللغة الأجنبية كانت أقوى في نظره وأكثر التزاما مما إذا قالها باللغة العربية، والمتكلم هو هو، لم يتغير في الكلمة إلا التعبير عنها بإحدى اللغتين فإذا قالها العربي لأجنبي كان لها أشد احتراماً ولتنفيذها أشد رغبة وأقوى إرادة - أليس في هذا كله دليل على شدة الارتباط بين اللغة والعقل واللغة والخلق، وأن العقل واللغة والخلق كلها تتفاعل، فإذا رقيت اللغة تبعها - نوعاً ما - رقي العقل والخلق، وإذا رقى العقل تبعه - نوعاً ما - رقي اللغة والخلق، وهكذا. ومن هذا تنتج معادلات جبرية معقدة الحل.

إن الغيرة القومية والنهضة الشرقية تتطلبان أن يعني قادتها بهذه المظاهر؛ وأن يضعوا للأمة تعاليم جديدة في اللغة والتفكير، فهم مطالبون بكل الوسائل أن يمتدوا ألفاظ الملتق من اللغة العربية ويحيوا ألفاظ الأدب النبيل، وأن يربطوا أشد الربط بين الألفاظ ومدلولاتها، فلا يسمحوا أن يضيعوا مدلول الألفاظ كما هي ضائعة اليوم - وأن يضربوا الأمثال للناشئين في الجدل والمناظرات فيعلموهم كيف تؤدي المعاني على وجوهها، وكيف تلتزم حدود الجدل فلا تتخطي، وكيف يرسم الغرض الذي يرمي إليه الباحث، وكيف يخطط السبيل إليه، وكيف يوفر الزمن إذا هو التزم ألا يقول إلا جديداً في المعنى، وكيف يصل إليه أقرب طريق:

لو فعلنا ذلك لو فرنا على المجالس زمنها وتفكيرها ولوصلنا في مسائلنا إلى نتائج خير مما نصل إليه الآن، بل عندي أن السرعة مع الخطأ أحياناً خير من الإبطاء الممل والتفكير الراكد مع الصواب دائماً.

ظاهرة وتعليلها

أعرفه غزير العلم واسع المعرفة، ولكنه يأبى أن يجالس أمثاله من العلماء، ولا يلذه إلا أن يجالس لفيفا من صغار الناس في مهنتهم وعقليتهم؛ وليس الشراب هو الذي يجمعهم ويؤلف بينهم كما هو الشأن في كثيرا من الأحيان.

وأعرفها فتاة على جانب من الجمال، ولكنها لا تؤمن بجمالها، لأن أهلها أدخلوا في روعها من صغرها أن الجمال في البياض والحمرة والشعر الأصفر، وهي سمراء شديدة السمرة وليس في وجهها حمرة، ولا في شعرها صفرة، فهي في اعتقادها ليس لديها من الجمال شيء، وأراها تصاحب فتاتين ليس فيهما من الجمال شيء، وتأتي أن تصاحب جميلة، وخاصة إذا كان جمالها في لونها الأبيض المشرب بالحمرة.

وأعرفه فنانا كبيرا، ولكنه يأبى أن يجالس الفنانين الكبار أمثاله، ويفضل أن يجلس إلى مبتدئي الفن يعلمهم ويصلح من أخطائهم، وهم من جانبهم يتملقونه، ويفيضون عليه من ألقاب الثناء ما يملؤه غبطة وسرورا.

وأعرف عشرات من هذه الأمثلة أشاهدها كل يوم، وأسمع بها كل حين وأقرأها في وصف كثير من الرجال والنساء، فما سرها؟

سرنا عندي أن من طبيعة الإنسان أنه يكره (الضعة) ويكره كل ما يشعره بالضعة ويحب العظمة ويحب كل ما يشعره بالعظمة.

من أجل هذا تراه -في العادة- يكره أن يجالس من هو خير منه في علمه وفنه وأدبه، لأن ذلك كله يشعره بصغر نفسه؛ وهو أقل كراهية لمجالسة من هو مثله، لأنه لا يحط من شأن نفسه؛ وهو أشد حبا لمجالسة من دونه لأن ذلك يجعله أكثر شعورا بعظمة نفسه.

ويمكن تطبيق ذلك على كثير من الأحداث اليومية والمشاهدات المألوفة.

ألمست ترى أن (حلبة الكميت) أو جمعية الشراب تكره كل الكراهية أن يكون بينهم وقت شرايهم من لا يشرب، ويستقلونه مهما ظرف، ويستسمجونه مهما لطف، لأنه يذكرهم بالفضيلة حين ارتكابهم الرذيلة، ويشعرهم بأنهم الوضعاء وهو الرفيع، وأنه العين الناقدة وأنه الرقيب عليهم، وأنه العاد لسقطاتهم وأنه المحفوظ بقوة إرادته عند ضعف إرادتهم؟ كل هذا يشعرهم بالضعة فيكرهونه ويبدءون بالإلحاح عليه أن يشرب لاحبا فيه ولكن حبا لأنفسهم، وإيعادا لشغوهم بضعتهم، ولا يزالون يستحلفونه حتى إذا نجحوا أمنوا الشعور بالضعة، وإذا فشلوا مقتوه ومقتوا جلوسهم بينهم، لأنه يغص عليهم بهجتهم - ومن أجل هذا أيضا أحبوا أن يسمعوا أدب الخمر، وأحبوا أن يسمعوا من يقلسف لهم الحياة وإنها ليست إلا متعة الساعة وشهوة الوقت. فإن تجاوز المحدث ذلك إلى أنه لا يعبا بحرام ولا حلال، وأن يقول كما قال أبو نواس:

فإن قالوا حرام قل حرام فإن لذاعة العيش الحرام

فذلك عندهم أظرف وأفكه لأنه اجتث الشعور بالضعة من جذوره.

هذا هو سبب العداء دائما بين الفضيلة والرذيلة أو بين الفاضل والرذل، وهذا هو السبب في أن الرذل يكره الفاضل أكثر مما يكره الفاضل الرذل. لأن الرذل هو الذي يشعر بالضعة من رؤية الفاضل.

وهو السبب في أن الفقير يكره الغني أكثر من كره الغني للفقير. لأن الفقير هو الذي يشعر بالضعة إذا قاس نفسه بالغني.

وكثيرا ما يكون سببا في فساد الحياة الزوجية، أن تكون في أحد الزوجين صفات راقية ليست في الآخر، فيشعر هذا الآخر بالضعة عند قياس نفسه بنفس قريته فتسوء الحياة ويجهل السبب.

بل أرى أن في هذا القانون تفسيراً لكثير من الرجال والنساء الذين يحبون العزلة وينفرون من الناس.

فتفسير هذا أنهم يشعرون بنقص فيهم من ناحية من النواحي الخلقية أو العلمية أو الاجتماعية.

كأن يشعروا أنهم لا يحسنون حديث المجالس، أو أن في جسمهم عاهة من العاهات، أو أنهم إذا جودلوا أفحموا، أو إذا نيل منهم لا يستطيعوا أن يأخذوا بحقهم. فتراهم يفضلون العزلة ويتغنون بمدحها، ويصبون جام غضبهم وسخطهم على الناس ويطنبون في ذم الأخلاق وسوء المجتمعات - وهو نقص في محب العزلة جعله يشعر بضعة نفسه في المجتمعات، وهو يكره الضعة ويكره كل ما يسببها، وهو لا يحب أن يلوم نفسه وهي السبب، لأن في هذا ضعة أيضاً، فيلوم الناس ويلوم المجتمعات، ويكون مثله مثل من عجز عن أن يتنقم من عدوه، فانتقم من صديقه.

أتدري السبب في أن الشباب لا يودون كثيراً أن يجالسوا آباءهم ولا إخوتهم ولا أقرباءهم ويفضلون - غالباً - أن يجالسوا الغرباء؟

هو أيضاً - هذا القانون، فإن آباءهم وإخوتهم وأقرباءهم يعلمون نشاطهم، وكل شيء فيهم، وكل شيء حولهم، وفي ذلك عيوب عرفوها، وزلات وقعت تحت أعين الآباء ومن إليهم، فالشباب يشعر بهذا التاريخ كله إذا جلس إليهم، وهذا يشعره بالضعة. فهو يفضل عليهم صداقة الغرباء، لأنهم يجهلون تاريخه، ويجهلون زلاته فهو عندهم لا يشعر بنقص، ولا يشعر بضعة فكان إليهم أميل، وبهم آنس؛ والمثل

العربي يقول (برق لمن لا يعرفك)، ومعناه تبجح وهدد من لا يعرفك، لأن من عرفك لا يعبا بك.

لقد كان لي أستاذ في سن الخمسين، وكان جلساؤه أقلهم في سن الستين، فسألت في ذلك فقال: إني اخترتهم لأنني أشعر وأنا معهم أي شاب.

بل هذا هو السر في أن الرذيلة في كثير من الأحيان توثق الصداقة بين أصحابها، فالمقامر أقرب إلي صداقة المقامر، ومدمن الخمر إلى مدمنها، والغزل إلى الغزل، واللص إلى اللص، وقل أن ترى ذلك في الفضيلة، فالصدق قل أن يؤلف بين اثنين لصدقهما، والعدل قل أن يؤلف بين اثنين لعدلهما.

والسبب في هذا أن ذوي الرذيلة يشعرون بالضعة من رذيلتهم فيهربون إلى الأرذل مثلهم حتى يتجددوا من هذا الشعور؛ أما الشعور بالعدل أو الصدق فليس فيه هذا الألم فلا يحتاج صاحبه إلى البحث عن مهرب - وهو السبب في احتياج أصحاب الرذيلة إلى مخبأ، فحجرة المقامرة مستورة، ومجلس الشراب في مخبأ، والغزلون يتسترون، ومجال الحشيش والكوكايين في حرز الخ، وليس السبب في ذلك فقط أن رجال الأمن يطاردونهم، بل أكاد أوقن أن هذه الأمور لو أبيحت من رجال الأمن لتستروا أيضًا لأنهم يريدون أن يهربوا بأنفسهم من الشعور بالضعة أمام من لم ينغمسوا في الرذيلة انغمسهم.

أست ترى معي أن الرجل الملتزم للأخلاق المتشدد فيها أقل الناس أصدقاء وأشد الناس وحشة، وكلما اشتد في تزمته اشتد الناس في كراهيته، وأن الرجل كلما سما عقله بعد عن الناس وبعدها عنه، وأنهم قد يجلونه ولكن لا يحبونه، لأن سموه إعلان لضعفهم، وعلوه رمز لضعفهم؟

ولعل كثيرا من صفحات التاريخ المملوءة باضطهاد العظماء، وقتل النبغاء، واغتيال الأبطال، تستر وراءها هذا السر الكامن الخطير، وهو أن الاضطهاد والقتل والاغتيال كان سببه الخفي شعور المدبرين بضعتهم أمام هؤلاء العظماء فتخلصوا من الشعور بالضعفة بالقضاء على من كانوا سببه - فلما انمحو من الوجود كان لا بأس عند من قتلوهم أن يمجدوهم، وأن تمجدهم القرون بعدهم، لأن الحقيقة الواقعة أشد إشعارا بالضعفة من الذكري الماضية.

وبعد فلا يستطيع الناس أن يتغلبوا على هذه الرذيلة، وأن يجلس عالمهم إلى من هو أعلم منه، وفنانهم إلى من هو أفن منه، وفاضلهم إلى من هو أفضل منه يستفيد منه ويأخذ عنه في غير حقد ولا ضغن، إلا بكثير من مجاهدة النفس، وهيئات ثم هيئات.

أمس وغدا

كان لسري مصانع ومتاجر. كأفخم ما يكون من مصانع ومتاجر، أصابتها النار فأتت عليها، وقدرت الخسائر بالألوف.

وكان هذا السري في السنين الأخيرة من عمره، ليس له قوة الشباب، ولا أمل الشباب؛ وكانت ثروته الضائعة ثروة العمر، ومجهود العمر.

جاءه من يسأله عن هذه الكارثة وأسببها ومقدارها، فأجابه: (لست أفكر في شيء من ذلك، وإنما يملك على كل فكري الآن: ماذا أنا صانع غدا).

يعجبني هذا الاتجاه العملي في التفكير، فإنه دليل الحياة، وعنوان القوة، ومبعث النشاط؛ فما دمت حيا ففكر دائما في وسائل الحياة، ووسائل السعادة في الحياة؛ وتلك كلها أمامك لا خلفك، وفي الغد لا في أمس.

لقد دل هذا السري بإجابته على أنه يقتني عقلية أقوم مما رعته النار، ونفسية خالدة لا تفتنى بفناء المال.

إن الحياة الناجحة تفكر في الغد، والحياة الفاشلة تبحث في أمس، وقديما قالوا: (إذا أفلس التاجر فتش في دفاتره القديمة). وقال الشاعر وقد رأى بني تغلب لا يعملون عملا جديدا مجيدا، ويكتفون برواية قصيدة قالها عمرو بن كلثوم التغلبي في مدحهم:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة	قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفخرون بها مذكأن أولهم	بالرجال لشعر غير مسنوم

ولأمر ما خلق الله الوجه في الأمام ولم يخلقه في الخلف، وجعل العين تنظر إلى الأمام ولا تنظر إلى الخلف، وأراد أن يجعل لنا عقلا ينظر إلى الأمام وإلى الخلف معا، وأن يكون نظره إلى الخلف وسيلة لحسن النظر إلى الأمام؛ فعكس قوة الفطرة الإنسانية ونظروا بعقولهم إلى الخلف وحده، وقلبوا الوضع فجعلوا النظر إلى الخلف غاية لا وسيلة.

من هؤلاء الذين نكسوا في الخلق من إذا حدثتهم فيما هم صانعون غدا، حدثوك عما صنعه آبائهم الأولون، وكيف حاربوا، وكيف انتصروا، وكيف سادوا العالم، وكيف وكيف؛ وهذا حق لو اتخذ وسيلة لعمل مستقبل؛ أما أن يكون غرضا في نفسه، فحديث العجزة، ومن أصيبوا بالفقر العقلي وضعف الإرادة.

ومن نكسوا في الخلق هؤلاء الذين يثيرون العداوات القديمة والأحقاد القديمة بين رجال الأمة وقادتها، فإذا طالبتهم أن ينظروا إلى الأمام، ويتكيفوا بما يتطلبه المستقبل، أبو إلا أن يذكروا لك تاريخ الأمس، وحزازات الأمس، وسخائم الأمس، وما دروا أنهم بهذا يعطلون مصلحة المستقبل وخير المستقبل، أو دروا ولكنهم الخادعون. فليس يصح أن ينظر في الأمس إلا لتجنب أغلاط الأمس في المستقبل، والانتفاع بصواب الأمس وخطئه في المستقبل.

ومن نكسوا في الخلق هؤلاء الذين جمدت عقولهم فاعتقدوا أن كل شيء كان خيره في الأمس وشره في الغد؛ فخير النحو ما وضعه سيبويه، وخير البلاغة ما قاله الجاحظ، وخير الفلسفة ما قاله ابن سينا وابن رشد والفارابي، وخير عصور الدين ما سبق من العصور، خير الأخلاق أخلاق آبائنا، وأنه لم يبق في هذا الزمن إلا الحثالة من كل علم وأدب ودين وخلق، وأن العالم في ذلك كله سائر إلي التدهور دائما، فأمس خير من اليوم، واليوم خير من الغد، فهذه العقلية لا تنفع للحياة وإنما تنفع للصوامع؛ ولا تنفع للجهاد وإنما تنفع للفناء؛ ولا تنفع لمن أرادوا أن يتبوءوا مكانا في

الحياة، وإنما تنفع من أرادوا أن يتبوءوا مكانا في القبور. إن النحو الذي نشده هو في المستقبل لا في الماضي؛ والأدب الذي يمثل نزعاتنا حق تمثيل هو في المستقبل لا في الماضي؛ والأخلاق التي تلائم الموقف الاجتماعي الذي نقفه اليوم هي في المستقبل لا في الماضي؛ وليس لنا من الماضي إلا ما يصلح للمستقبل بعد غربلته وإبعاد ما تعفن منه. إن موقفنا بين الماضي والمستقبل يجب أن يكون كموقف وجهنا فينا؛ وضعه الطبيعي في الأمام، ولكن الإنسان قد يلوي عنقه وينظر إلى الوراء إذا دعت الضرورة، ثم يعود سيرته الأولى من النظر إلى الأمام ويسير لوجهه ويمضي قدما لشأنه؛ ولن ترى إنسانا طبيعيا لوي عنقه دائما، ونظر إلى الخلف دائما.

ومن نكسوا في الخلق هؤلاء الذين وقفوا ينتظرون القدر؛ أولئك لم ينظروا للمستقبل، ولكن ينظرون إلى ما يفعل بهم المستقبل؛ أولئك أحجار يفعلون ولا يفعلون، ويتأثرون ولا يؤثرون، وإنما مستقبلك في يدك ولك دخل كبير في صياغته، فإن شئت تكن فقيرا، وإن شئت تكن غنيا - إلى حد كبير - وإن شئت تكن سعيدا، وإن شئت تكن شقيا؛ وليس يستسلم للقدر إلا من فقد إرادته وأضاع إنسانيته.

لقد أتى على الناس زمان كان الاستسلام للقدر عنوان (الولاية) ورمز القداسة، وكلما أمعن الإنسان في التجرد عن الدنيا أمعن الناس في تعظيمه وتبركوا به ولثموا يده؛ ولكن هذا تقدير الماضي؛ أما تقدير اليوم والمستقبل فالولاية والقداسة في العمل، والولي أو القديس هو المصلح، وهو الذي يبني المجد بعمله لأمتة وللإنسانية؛ وهو الذي يواجه العمل في شجاعة وإقدام، لا الذي يفر من الميدان؛ وهو الذي يرسم خطة العمل وينفذها، لا الذي يعزي عن الكوارث ويعود المرضى ويلطف وقع البؤس؛ وهو الذي يشق الطريق لمحو الفقر عن الفقراء والبؤس عن البؤساء، لا الذي يذرف الدمع ويوصي بالصبر على احتمال الفقر من غير حث على

العمل، والتفكير في طرق الخلاص من البؤس؛ وليس الولي والقديس من يحلم بل من يعمل.

ومضي الزمن الذي كنا نرصد فيه النجوم لنطلب السعادة من سلطانها، ونجتنب الشقاء في أوقات نحسها، وأصبحنا نشعر بأن النحس نحس الخلق وموت الإرادة؛ والسعادة حياة النفس وتفتح الأمل، والمشي في مناكب الأرض، وإعمال اليد والعقل في جلب الرزق، وجلب الخير، ودفع الشر، ودفع البؤس والفقر.

خير لك إن كنت في ظلمة أن تأمل طلوع الشمس غدا من أن تذكر طلوعها أمس؛ فلكل من الظاهرتين أثر نفسي معاكس للآخر، ففي ترقبك طلوع الشمس غدا الأمل والطموح إلى ما هو آت، وفي هذا معني الحياة؛ وفي تذكرك طلوعها أمس حسرة على ما فات، وألم من خير كنت فيه إلى شر صرت فيه، وفي ذلك معني الفناء.

وفرق كبير بين من يلطم اللطمة فلا يكون له وسيلة إلا البكاء، وتذكر اللطمة ثم البكاء، ثم تذكر اللطمة ثم البكاء، وبين من يلطم اللطمة فيستجمع قواه للمكافحة. والحياة كلها لطمات، وأعجز الناس من خارت قواه أمام أول لطمة فهرب، ولو أنصف الناس لقوموا الناس بمقدار كفاحهم لا بمقدار فشلهم ونجاحهم.

شر ما ألاحظ في الشرق حنينه الشديد إلى الماضي، لا أمله القوي في المستقبل، واعتقاده أن خير أيامه ما سلفت لا ما أقبلت، وإعجابه الشديد بإعمال الماضين وإهمال المعاصرين، له منظران: منظر مكبر يلبسه إذا نظر إلى الماضي، ومنظر مصغر أسود يضعه إذا نظر إلى الحاضر والمستقبل. يلذه أن يطيل البكاء على الميت، ولا يلذه أن يتدبر فيما يجب أن يفعله الأحياء؛ يستسهل النفقات مهما عظمت على الميت، ويستكثر نفقات الطبيب وأثمان الدواء للمريض. يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال

تدل على عظم الماضي، ولا يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال تبعث الأمل في المستقبل؛ ففي أعماق نفوسهم أن قول القائل: (ما ترك الأول للآخر) خير من القول (كم ترك الأول للآخر)، وبلوكون دائما (لا جديد تحت الشمس) ولا يعجبهم أن تقول إن كل ما تحت الشمس في جدة مستمرة، والمستقبل مملوء بالجديد. وإذا رأوا كلمة في كتاب قديم تدل -ولو دلالة كاذبة- على نظرية جديدة طاروا بها فرحا، لأن ذلك يلائم ما في نفوسهم من تعظيم الماضي وتحقير الحاضر والمستقبل. هم يعيشون في أحلام، ولا يريدون أن يعيشوا في حياة واقعة، وحول هذه المعيشة الحاملة ينسجون دائما ما يوافقها ويمازجها ويسايرها؛ يكتفون بالأمل أن ينعموا بالآخرة؛ وماذا عليهم لو عملوا لينعموا بالدنيا والآخرة.

ما نعلم وما لا نعلم

ظاهرة واضحة، وهي أن أجهل الناس أكثرهم ادعاء للعلم، وأعلمهم أكثرهم اعترافاً بالجهل.

كل شيء سهل واضح قابل للفهم، قابل للتفسير عند الجهلاء وأنصاف العلماء. ما الذي نعلمه عن هذا الكون؟ لا نعلم إلا ظاهره، ولا نعلم إلا سطحه؛ أما حقيقته، وأما أعماقه فلا نعلم منها إلا قليلاً، ونحن حائرون في أمرها، ولا يدري إلا الله متى تنتهي هذه الحيرة.

يحدّ العلم ويحدّ، ويظفر كل يوم بقوانين يخرج بها بعض الأشياء من دائرة المجهول إلى المعلوم، ولكنها قوانين تتصل بالظواهر أكثر مما تتصل بالأعماق؛ أما حقيقة هذا العالم وكنهه فلا يتقدم العلم فيها تقدماً يذكر.

يزعم المناطقة أنهم يستطيعون «تعريف الأشياء»، ويضعون قواعد وتفصيل للتعريف، ولكنهم في الواقع جدّ جاهلين، ولا يمكن تعريف أي شيء.

قالوا: إن الإنسان حيوان ناطق، والفرس حيوان صاهل، وظنوا لغباوتهم أنهم بذلك عرفوا الإنسان والفرس، واستاموا لهذا، وظل الإنسان مجهولاً بعد تعريفهم كما كان مجهولاً قبله، وظل الفرس مجهولاً بعد التعريف كما كان قبله - واجتهد علماء كل علم أن يعرفوا أشياء علمهم، فاختلقوا كلهم في تعريف الأشياء وخواصها، ولم يلمسوا حقيقتها مطلقاً. ولذلك كان من الحق أن يعدلوا عن كلمة تعريف إلى كلمة أخرى ليس فيها هذا الغرور؛ أو أن يغيروا تعريف «التعريف»، فلا يدعوا أنه بيان حقيقة الشيء، وإنما بيان أهم صفاته.

هل استطاع أحد أن يعرف ماهية الكهرباء؟ كلا، ولا أعلم الناس بها، ولا أكبر عالم بشؤونها، إنما يعرف كيف يستخدمها ويعرف بعض قوانينها، ويعرف كيف ينتفع بهذه القوانين في الحياة اليومية من إنارة وتدفئة وتبريد، ومن تليفون وتلغراف وراديو، وما إلى ذلك. أما ما هي الكهرباء، فسؤال لم يستطع أن يجيب عليه عالم يحترم علمه.

والعالم مملوء بعناصر كثيرة، وقوى كثيرة، ولنا نعرف حقيقة لأي عنصر منها، ولا أية قوة من قواها، إنما نعرف بعض خصائصها ومميزاتها، ما حقيقة الذرة، وما الجزيء، وما الخلية؟ أسئلة نجيب عنها بذكر الصفات لا بذكر الحقائق، لأننا نجهل حقائقها جهلاً تاماً.

حتى أقرب الأشياء إلينا وأكثرها مساساً بنا نشعر به ولا نعرفه، وهل أقرب إلينا من حياتنا، ولكن ما هي الحياة؟ لا نعلم. ليقول العلماء فيها ما يقولون، فلن يستطيعوا معرفتها إلا إذا خلقوها {إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب}.

فإذا انتقلنا إلى المعاني فالأمر فيها أصعب، فكلنا يعشق، وكلنا لذّة الوصل وآله الهجر، وكلنا أضناه العشق، ولكن ما هو العشق؟ لا ندري؛ بل ما الحرية؟ ما الجمال؟ ما الأمل؟ ما العدل؟ ما الشجاعة؟ ما الخير؟ ما الشر؟ أشياء نتحسس معانيها ولا نعرف كنهها.

ولم يتقدم العالم كثيراً من ناحية استكشاف الحقائق، وإنما كان أكثر تقدمه من ناحية استكشاف الخصائص، وبعبارة أخرى لم يتقدم من ناحيته العلمية البحتة، وإنما تقدم من ناحيته الفنية، فقد عرفنا فن استخدام البخار، وإن لم نعرف حقيقته، وعرفنا فن الحياة، وإن لم نعرف الحياة نفسها، وعرفنا فن العشق، وإن لم نعلم ماهية

الشيء، وتفننا في نُظْم الحرية واستخدمناها في حياتنا السياسية والاجتماعية، وإن لم نعلم كُنْه الحرية؟ وهكذا في كل شؤون الحياة، نجح الفن وفشل العلم، وأمل الفنان ويئس العالم أو كاد؛ وبعبارة أدق إن الإنسان تقدم تقدما كبيرا في الإجابة عن «كيف»، ولكنه لم يتقدم تقدما كبيرا في الإجابة عن «ما».

وهنا يحق لنا ان نتساءل: لِمَ وُضِع الإنسان في هذا العالم هذا الوضع؟ وأحيط بالغاز عجز عن حلها؟ فهو يعرف ظاهر المادة فإن تعمق قليلا ليعرف كنهها أدركته الحيرة، وفيما وراء المادة من إلهيات ونحوها هو أشد حيرة، حتى لقد زعم بعضهم أن «الله» في اللغة العربية من: أله يأله، إذا تحير (لأن العقول تأله في عظمتها).

الحق أن هذا الغموض في العالم مصدر كبير من مصادر اللذة للعقول الكبيرة وأن حياة العلماء كانت تكون تافهة، لولا هذا الغموض والإلغاز - وموقف العالم من ألغاز العالم موقف الماهر في الشطرنج، ألد ألعابه أصعبها حلا، وكالرياضي الحاذق لا يستلذ المسائل السهلة والنظريات البسيطة إنما يستلذ أصعب التمارين حلا وأشدّها تعقدا. وهو في هذا ينسى نفسه، وينسى كل شيء حوله ولا يعدل بلذته في حل الصعاب أية لذة أخرى.

العالم مجموعات من الغوامض تتطلب الحل، وإن شئت فقل إنه رواية على شريط السينما ليست ناطقة ولا هي مفهومة الصور كل الفهم، ومنذ خلق الإنسان والعالم يتوارد عليه شخصيات كبيرة مختلفة الألوان من أنبياء يعلمون ما أوحى إليهم، وشعراء يتغنون بجمال الطبيعة، وعلماء يدرسون ويحللون ويستنتجون، وفلاسفة يتعمقون ويقلبون البحث على كل وجوهه الممكنة وغير الممكنة، ومتصوفة أدركوا فشل المنطق والعلم في معرفة حقائق الكون فذهبوا ينشدون المعرفة من طريق الذوق والإلهام. وكل هؤلاء هؤلاء قدموا للناس معارف صحيحة وقضايا أصبحت لا تحتل الشك، ولكن حقائق الكون كلها بقيت مجهولة لدينا تتطلب

الحل، وقد فسرت بعض صور الرواية، ولكن جوهر الرواية ومغزاها وسرها ظل غامضا لدينا.

ومع هذا الغموض وهذه الحيرة يجب أن نتساءل: هل هذا العالم بني على أساس منطقي في تكوينه وفي تصرفاته، أو هو خابط خبط عشواء، يسير لا إلى غاية ويتجه في الأمر يمينا أحيانا ويسارا أحيانا من غير قانون؟ وهل الصورة التي يعرضها على شريط السينما تدل حوادثها على أن لها مغزى ترمي إليه، ويدل ما فهم منها إلى الآن على أنها منطقية في ترتيبها وإن لم تفهم كلها، أو هي مجموعة مفارقات لا تربط أجزاءها رابطة، وينقض آخرها ما أبرم أولها؟ وهل العالم مدرسة تتعلم فيها الحكمة، أو حجرة لألعاب الأطفال، أو مسرح تمثل فيه ألعاب نيرنجية وشعوذة وحركات بهلوانية؟ وهل العالم مسألة هندسية معقدة، ولكنها بنيت على نظريات صحيحة يصعب علينا حلها، ولكن ظاهرها يدل على أنها معقولة ممكنة الحل، أو هو مسألة هندسية لم تبني على أساس صحيح ولا على منطق مرتب، وإنما هي مسألة اخترعت من هنا ومن هناك وقصد واضعها حيرة من حاول حلها ثم لا حل لها؟

الحق أنه يتوقف على الإجابة عن هذه الأسئلة سيرنا العلمي واتجاهنا العقلي فإن كانت مظاهر الحياة كلها مفارقات وأحداثا مفاجئة غير خاضعة لقانون كان البحث العلمي ضربا من العبث، وكان كل قصاره أن يسجل ما حدث. أما إذا كانت مظاهر الحياة عبارة عن قوانين حكيمة تسلم مقدماتها إلى نتائجها كان البحث العلمي ممكنا ومعقولا ومدرسة للحكمة.

وقد دلتنا الدلائل كلها على أن العالم خاضع للمنطق، وأن له غرضا يسير إليه وليس يسير حسبما اتفق، وأنه محكوم بقوانين ثابتة لا تتغير، وأن كل مظهره خاضعة لقانون العلة والمعلول، والسبب والنتيجة، فلمس النار يحرق دائما، والحرارة تمدد الأجسام دائما، والحب يستتبع سعادة دائما، والكره يستلزم شقاء دائما.

ولكن بعض هذه القوانين واضحة ظاهرة لا تحتاج في فهمها إلا إلى التفاتة بسيطة ساذجة وبعضها معقد كل التعقيد غامض كل الغموض حتى ليظهر لنا من شدة غموضه وكثرة تعقده أنه لا يمكن حله، وبين هذا وذاك درجات في الغموض لا عداد لها. ومع هذا كله لو قارنا بين الإنسان الأول ومعارفه عن العالم، والإنسان الآن ومعارفه عن العالم، وجدنا الفرق واضحاً جلياً، ووجدناه قد وصل في بحثه إلى نتيجة هي اقوم مما حصله من العلم، وهو أن العالم وإن كان أكثره مجهولاً إلا أنه يخضع لقوانين ثابتة بعضها قد علم وبعضها لم يعلم، وما لم يعلم تدلنا إشارات وإيماؤه على أنه قد يُعَلَّم يوماً ما. وهب أنه لا يمكن أن يعلم إلا بعضه وأن هناك دائرة من العلم لا يستطيع الإنسان اجتيازها، وأن عقل الإنسان بتركيبه الحالي لم يسلح التسليح الكافي ليغزو هذه الدائرة وإنما منح أسلحة يستطيع أن يستعملها في بعض الدوائر دون بعض. فحياة الكفاح العلمي التي يحياها العلماء هي ألد حياة عرفت، بل لا أظن أن حياة العلماء تكون سعيدة لو أن كل شيء انكشف لهم من غير بحث ومن غير عناء، فالقليل ينال بعد التعب خير من كثير ينال من غير نصب. وما ألد منظر العالم أو الفيلسوف يحار ثم يحار، ويدور حول الشيء ويدور، ويتجه يمينا فلا يفلح، ثم يتجه يسارا فلا يفلح حتى يُعَمَى عليه الأمر، ثم يبدأ في البحث مرة أخرى لا يكل ولا يمل وأخيراً يدرك منه الشيء القليل فيغتنب به الاغتراب العظيم، ويرى أن الدنيا بحذافيرها ولذاتها وسعادتها لا تساوي شيئاً بجانب ما ناله من المعرفة ولو بالشيء القليل بعد الجهد. ولو خُيِّر بين مُتَع الحياة كلها وبين عنائه في بحثه ومشقته في درسه ما فضل على بحثه ودرسه شيئاً.

قد يقول قوم إن هذا النظام نظام أُخْرَق، فقد خلق العالم لغزاً، وخلق عقل الإنسان بحيث لا يستطيع حل اللغز، وقد كان المعقول أحد أمرين: إما أن يخلق العالم أبسط من هذا أو يخلق العقل أكبر من هذا. أما أن يغمض العالم كل هذا

الغموض ويقصر العقل كل هذا القصور فليس من المعقول! ولكني لا أرى هذا الرأي، فقد كان يكون هذا القول معقولا لو أن طبيعة العالم وطبيعة العقل لا تلتقيان، أما وقد التقتا وأمكن للعقل أن يمس العالم ويحل بعض الغازه ويوسع كل يوم دائرة المعلوم ويقلل من دائرة المجهول فلا محل لهذا القول. وإذا وضع مهندس مسألة صعبة الحل ولكنها منطقية وحاد الطلبة في حلها فلا يلام المهندس إلا إذا أخذ الطلبة إن قصرُوا، أما إن وضعها لمجرد اختبارهم ولم يؤاخذهم على تقصيرهم إن تبين له عجز في كفايتهم فلا لوم عليه - على أن هذا الاعتراض قد يكون فيه شيء من الوجاهة إن قلنا إن العالم خلق ليحله عقل الإنسان، فكان العالم مقعدا أكثر مما يلزم، والعقل قاصرا أكثر مما يلزم؛ أما إذا كان العالم قد خلق لشيء آخر غير أن الإنسان يحله، بل العالم ومنه عقل الإنسان خلق لحكمة وراء ذلك، أصبح الاعتراض في ذاته سخيفا.

وبعد فإن كان الإنسان يرى لذته في هذا الغموض ومحاولة الحل والنجاح أحيانا والفشل أحيانا، فخير له أن يتمتع بهذه اللذة القوية الواضحة في هذا الجو الغامض.

في رأس البر

يعجبني في رأس البر بساطة العيش والقرب من الديمقراطية؛ يعيش الناس - كما كان يعيش آباؤهم الأولون - في أكواخ من الخُصْر، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم، وغنيهم وفقيرهم، ويلبسون لباسًا ساذجًا، قريب الشبه بما كان يلبس آباؤهم، ويسبحون في البحر عراة، ويمشون في البر حُفَّة، ملأوا المدنية وزخارفها، والحضارة وبهرجها، وهربوا من المدن وضوضائها، والأرستقراطية وأوضاعها وتقاليدها وتعقيداتها، وارتعوا في أحضان الطبيعة، فأفسحت لهم صدرها، ينزلون إلى البحر فينفضون عنهم هموم الحياة، وينبطحون على الرمل، ويذكرون قوله تعالى: {منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى}.

ليس فيها قصور شاذجة بجانب أكواخ وضيعة، وليس فيها ثريات كهربائية بجانب أضواء زيتية أو غازية، ولا ملابس أنيقة بجانب أثواب مهلهلة؛ يصعب عليك التمييز فيها بين الغني والفقير، والعالم والجاهل، إلا في الآنسات والسيدات، فهن يأبين إلا الظهور، والتمسك بالفروق؛ وإلا في أمثالهن عن حليتهم لباسهم، وقيمتهم مظهرهم.

خلف فيها الناس وراءهم المخترعات الحديثة بجلبتها ورذائلها؛ فلا سيارات تصم الآذان بأبواقها، وتأنف الأنوف من روائحها، وتربك السائرين لسرعتها وكثرتها واضطراب حركاتها؛ ولا «تليفون» يرن في الهجير وفي منتصف الليل، فيوقظك من نومك الهادئ، ويحملك رجاء تنوء حمله، أو يصلك بثقل ينغص عليك الحياة بحديثه؛ ولا «راديو» يسمعك اللطيف والسخيف، ويأبى عليك النوم أحوج ما تكون إليه، واشد ما تكون رغبة فيه، لأن جيرانك يابون إلا أن يتفجروا به كاملا من بدء يمين - شمال، إلى سلام الملك؟

حياة حرة طليقة، وجو مفتوح، وهو جديد دائماً، لم تفسده الحضارة بدخانها وغازاتها، ولم تحبسه الأبنية الشاغخة، ولم تحجزه الحيطان الأربعة؛ تتجدد النفس بتجده، وتمتلى نشاطاً من نشاطه؛ يغذي كل خلية غذاء حلو طيباً، ويخلع على الجسم لوناً نجاشياً ظريفاً، وينعش العواطف والروح، فهي قوية حادة، شديدة التنبه، شديدة الإحساس؛ حتى عاطفة الدين، فهي أقوى ما تكون، وأطهر ما تكون، وأصفى ما تكون، حينما تتجلى الطبيعة في ثوبها الفطري الجميل، في السماء والماء والمزارع والحقول؛ فليس الإلحاد والزندقة، والتعصب الدميم، وضيق النظر إلا وليد الحضارة المعقدة، والجو الخائق، والفكر الراكد، ودوران الفكر حول نفسه لا حول الطبيعة.

في جو المدن لا يشعر الإنسان بالسماء إلا عند المطر، ولا بجمال الشمس، ولا جمال القمر؛ ولا يلمس الطبيعة إلا إذا ساءت من شدة الحر أو شدة البرد! كل ما حوله من جمال جمال صناعي؛ قد استغنى بجمال طاقات الزهور عن الزهور في منابتها، واستغنى بثريا الكهرباء عن ثريا السماء، وبالحسن المجلوب عن جمال الفطرة، وجمال الطبيعة، وجمال الخلقة؛ وهيئات أن يتساوى متحل وغير متحل، فليس التكحل في العينين كالكمحل!

إنما يشعر الإنسان بجمال الطبيعة يوم يخرج من المدينة إلى الريف ويقر من الحضر إلى البدو، فينكشف له الخلق بجماله القشيب، وتأخذ بلبه السماء في لا نهائيتها، والبحار في أبديتها؛ ويشعر شعوراً قوياً بأنه ذرة من ذرات العالم، وجزء صغير من أجزائه، ضعيف بنفسه، قوي بكله، وأنه لا شيء يوم يتفصل عنه، وأنه نعمة من نعماته يوم يتصل به.

لوددت أني خلعت نفسي من المدينة يوم فارقتها، فقد سئمت نفسي وسئمتني، ومللتها وملتني، وتمنيت أن تكون النفس كالثوب تخلعه حيناً، وتلبسه حيناً، ويبل

فتجدده، وتكرهه فتغيره - إذن لاستبدلت بنفسى - ولو إلى حين - نفساً مرحة، تستغرق في الضحك من الشيء التافه، ومن لا شيء؛ ولا تبكي على ما فات، ولا تحمل همًّا لما هو آت.

بل لتمنيت أن أكون كدودة القز تكون دودة حيناً، ثم تكون فراشة حيناً، أرشف من هذه الزهرة رشفة، ومن هذه رشفة، وأنشر جناحي في الشمس، أعيش في جمال وأغيب في جمال، كما تغيب الشمس الجميلة في الشفق الجميل. أو كما تفنى النغمة الحلوة في رنات الآلات، أو كما تنداح الابتسامة العذبة في الوجه الصبوح، أو كما تندمج الموجة العظيمة في البحر العظيم! ولكن أنى لي هذا؟ ولو كان لشكوت وبكيت، فأنا كما خلق المتنبى:

خُلِقْتُ أَوْفَا لَوْ رَجَعْتُ إِلَى النَّصِيِّ لفارقت شيبى موجه القلب باكياً

وخرجت مبكراً والناس نيام، أمشي على الشاطئ، وأرقب الشمس في طلوعها؛ والشمس على الساحل أجمل من الشمس على غيره، فليس لها تلك القوة العاتية، ولا الحزارة القاسية، ولا الأضواء المعشية؛ فيها شيء من الوداعة واللفظ والحنان!

ها هي ذي قد طلعت، فأخذت الحياة تدب في النفوس، تلقى أشعتها على البحر فينعقد منه سحاب فمطر فأنهار، فجميع ما لذلك من أعمال باهرة، وقوى ساحرة، وأفعال عجيبة؟ أنظر يميناً فأرى النيل، وأنظر يساراً فأرى البحر، وقد عاد النيل إلى البحر بعد أن أتم دورته، وأدى مهمته؛ قد خرج هذا العذب الفرات، من هذا الملح الأجاج، كما يخرج اللبن من بين القُرث والذم، قد سلسلوا النيل فعدا عليه البحر فاغتصب مجراه، وأملح مائه، ثم فكوا قيوده فاسترد حقوقه، وأراد أن ينتقم من أبيه، فحاول أن يحتل شاطئه، ويحلي مائه، ولكن يعكر صفاءه، ثم ندم على العقوق فتاب وأناب وإذا هما مؤتلفان، بينهما برزخ لا يبغيان.

ثم تسطع الشمس، ووددت أن تكون مذكرة في اللغة العربية، كما هي مذكرة فيما أعرف في اللغة الأوربية، لأنها تتزوج الأرض فتولدها ما شئت من أشكال وألوان وذكور وإناث، وكأن أشعة الشمس خمر معتقة تشربها الأرض فتتشي وتبتهج، وتمتلئ قوة ونشاطاً وحركة.

وتقع أشعتها على الطير فيسرح ويمرح ويتغنى، وتحل في قلب الإنسان فيهدأ روعه، ويذهب فزعه، ويطمئن إلى حياته، وتحرك إرادته، وتتعش آماله.

دعني أتعرّ، فالعراء على الساحل مباح، فأملأ جسمي بأشعتها، وأملأ شعوري ودمي بقوتها، وأملأ نفسي بعظمتها وسحرها.

ومشيت إلى قلعة في رأس البر كنت آنس بها قديماً، وكان في كل حجر من أحجارها صفحة من العزة القومية، والحمية الوطنية؛ أقامتها الأمة يوم كانت تشعر بنفسها، وتدافع نفسها عن كيائها، وتحس بتبعاتها، وتدبر شؤونها، وتدبر أمورها كما يترأى لها- فرأيتها وقد عدا عليها الزمان، وعلاها البلى ونقض أحجارها، وليس من يعتز بها فيقيم أنقاضها، ورأيت بها «مدفعا» قد هزأ به الرمل فغطاه، وسخر به الصدا فعلاه، دفن كما يدفن عزيز أرواه الزمان بسهامه وذل كما يذل السيد الكريم توالي عليه الدهر بأحداثه؛ ورأيتهم أقاموا في وبسطها صهريجا يخزن الماء لرأس البر؛ فقلت: سبحان ربي، جعلت من مستودع النار ماء، كما جعلت من الشجر ناراً! لقد كان مكانك رمز القوة فأصبح رمز الرقة، وكان بك جن يقذفون بالنار فبدلت بهم ملائكة يوزعون الرحمة، وكان بك دم يغلي، فأحاله الزمان القاهر زلالاً بارداً، وما أدري ماذا جاش بنفسي فدمعت عيني.

وقالوا قد جُنت فقلتُ كلا	وربي ما جنتُ وما انتشيت
ولكنني ظلمتُ فكدت أبكي	من الظلم المبين أو بكيتُ
فإن الماء ماء أبي وجدي	ويشري ذو حفرث وذو طويثُ

ثم صحت فقلت: أتندب كل طلل مررت به، وتبكي كل شيء رأيته، وتخزن في معاهد الفرح، وتنقبض في مغاني المرح؟ من أجل هذا تمنيت - قبل - أن أخلع نفسي، ووالله لو أمكنتني الفرصة ثانية ما ترددت، ولسمحت وما حرصت، فقد برمت بها وعجزت عن حلها.

هيا إلى البحر! فهناك الفرح والمرح، وهناك يضحك الناس له ويضحك لهم، ويداعبون أمواجه وتداعبهم، وأحيانًا ينسون جلاله فيصفعهم! فيه الحياة، وفيه القوة، وفيه العظمة، وفيه أكبر مظهر لطاحون العالم، تطحن دائمًا، وتطحن ناعمًا!

بين الصحف والكتب

هنالك حرب عوان بين الصحف والمجلات من ناحية، والكتب من ناحية أخرى. وهذه الحرب لا نراها ولا نشعر بها؛ لأنه ليس لها صليل السيوف ولا دوي القنابل، ولكنها مع صمتها شديدة قوية، يراها المفكر ويرتاع لمنظرها، ويعجب من هجومها ودفاعها، هي أشبه ما تكون بالحروب الاقتصادية، كالحرب بين السلع اليابانية والسلع الأوربية، وكالحرب بين الثقافة الإنجليزية والثقافة الفرنسية، تغيب عنك في كثير من الأحيان وسائلها، ولكن تبدو -في وضوح تام- نتائجها.

والحرب بين الصحف والكتب تدور على القراء، فهم ميادين القتال، وهم المستعمرات التي تحاول كل ناحية أن تشملها بنفوذها، وتبسط عليها سلطانها، وتأخذ صكا عليها بالاحتلال أو كما يعبرون عنه باللغة الحديثة «الانتداب» وحددت كل طائفة مطالبها واطمأنت إليها.

هناك طائفتان خرجتا من دائرة النزاع، وهما الطائفة المثقفة ثقافة دنيا، والطائفة المثقفة ثقافة عليا؛ فأما الأولى فقد احتلتها الصحف والمجلات وكسبتها كسبا نهائيا، وهم بهذا الاحتلال راضون مطمئنون لا يضجون بشكوى ولا يرفعون احتجاجا، ولا ينادون باستقلال، وقد يثست منهم الكتب وأخرجتهم من منطقة نفوذها، واعترفت بهزيمتها أمامهم هزيمة منكرة، هؤلاء هم طبقة العمال ومن في درجتهم، وتلاميذ المدارس الذين لم يتموا دراستهم، والطبقة الغالبة من الأنسات والسيدات المثقفات إلى حد ما. وأما الطائفة الأخرى وأعني بها المثقفين ثقافة عليا، فلا غنى لهم عن الكتب لأنهم يرونها غذاءهم الدسم وعمادهم في حياتهم الفكرية، وهي التي تحقق مطالبهم، وتحاول أن تحل لهم ما يعرض لهم من مشاكل عقلية وهؤلاء أمثال رجال الجامعات والقضاة والفلاسفة والأدباء والعلماء ومن يتصل بهم ومن ينهج

منهجهم، ويعد نفسه للوصول إلى درجتهم - وهم يقرءون الصحف لأخبارها والمجلات لطرافتها، واعتمادهم الحقيقي في علمهم وأدبهم على الكتب غالباً.

وبين هاتين الطبقتين طبقات لا عداد لها هي محل الحرب بين الصحف والكتب وهي موطن النزاع، وهي الغرض الذي يرمي إليه كل للاستيلاء عليه، والحرب على هذه الطوائف سجال، يوماً تنتصر المجلات والصحف فتشعر الكتب بالفشل ولكن سرعان ما تتخذ التدابير للهجوم، ويوماً تنتصر فيه الكتب فتشعر الصحف بلذعة الهزيمة ثم تستعد للوثبة، وهكذا دواليك.

ولكل جبهة من هذين المعسكرين وسائل للقتال وآلات للحرب، تقوم لها مقام الطيارات والغواصات والدبابات والغازات الخائقة في الحروب البدنية، وأنا أسوق لك طرّفاً قليلاً من هذه الرسائل:

فالصحف أخذت من جانبها تُعد صفحات فيها لأنواع الثقافة المختلفة، فصحيفة للأدب وصحيفة للعلم، وثالثة للاقتصاد، ورابعة للقانون، وخامسة للفن وهكذا، تريد بذلك أن تغني القراء عن الكتب، وتعلأ شهوتهم للمطالعة والقراءة، ثم هي تجذب إليها أعلام الكتاب والأدباء والعلماء وتطلب إليهم أن يوافقوا بفصول من علمهم وأدبهم حتى يقبل القراء في صحفهم، ويرووا لذائذهم من قادتهم فلا يحتاجوا بعدها إلى الكتب، ثم هم يثيرون النزاع بين الكتاب في مسائل هامة؛ ويوقدون النيران ليزيدوا الحرب اشتعالاً، وهي كلما اشتدت نيرانها كثر قراؤها، وانقسموا قسمين أو أقساماً، وتشيعوا شيعاً. فهذا مؤيد وهذا مفند، والخسران في كل ذلك على الكتب.

والمجلات من جانبها تحارب الكتب بشتى الوسائل فأحياناً تستغل شهوة الجمهور بالكتابة في النواحي الحساسة فيهم، فتقدم لهم ما يشتهون وتعلمهم منها ما

يجهلون، وأحيانا تسلك سبيلا أشرف من هذا فترفع مستواها وتصل إلى حد الكتب في بحثها أو خير منها، وتقدم لقرائها صورًا جذابة. وخرائط مبينة فتستهوي القراء، وتجذبهم إلى مطالعتها، ويجدون فيها من التنوع والتعرض لشتى الموضوعات ما لا يجدونه في كتاب، وأحيانا ترقى إلى أكثر من ذلك كالذي نجده في الغرب من مجلات دورية للجغرافيا والتاريخ والطبيعة والكيمياء والأخلاق والاجتماع وهكذا، يعكف على الكتابة فيها خاصة الخاصة، ويفخر العالم بأن المجلة قبلت مقالته فنشرتها، ويجد فيها القارئ أرقى ما وصل إليه العلم من نظريات ومكتشفات، فهي من هذه الناحية سمت على أكتاف الكتب وحلقت فوقها.

هذا قليل من كثير من حرب الصحف والمجلات للكتب، وأما حرب الكتب لها فأكبر مظهر لذلك ما نراه سائدًا في عصرنا من محاولة المؤلفين الوضوح والإبانة ليصلوا بمعلوماتهم إلى أكثر الأوساط واقلها ثقافة، واحتياهم في أساليب الكتابة حتى يتعرضوا إلى أعقد المسائل وأعوص المشاكل فيعرضوها في شكل لذيذ جذاب فتشعر كأنك تقرأ قصة أو تستمتع برواية، ثم هم يُشوّقون القارئ بشتى الأشكال فيسمون الكتاب «قصة الفلسفة» أو يسمون كتب التاريخ «قصة الأمم» ونحو ذلك؛ ثم يودعون الكتب من الصور الملونة للمناظر العامة والأشخاص وعظماء الناس ما يسهل عليك دفع الثمن واقتناء الكتاب، وهم من حين لآخر يهاجمون المجلات بإخراج الكتب على شكل مجلات دورية فيخرجون «دائرة معارف الأبطال» عددًا في كل خمسة عشر يومًا ويستمرون في ذلك سنوات، حتى إذا فرغوا من ذلك عجبت أن أصبح لديك كتاب ضخيم في عشرة مجلدات أخذته بشكل مجلة، فإذا انتهوا من ذلك عمّدوا إلى كتاب آخر عنوانه «خلاصة العقائد الحديثة» ومن هذا القليل كثير.

وبعد، فأبي ذلك خير للأمم؟ أن تنتصر في هذه الحرب الصحف والمجلات أم أن تنتصر الكتب؟ وماذا أفادت هذه الحرب..

الحق أننا استفدنا كثيرًا من هذا النزاع، وتحققت به الرغبات المختلفة، فإن صعبت قراءة الكتب في أوقات الرياضة وحين الانتقال من مكان إلى مكان في الترام أو القطار أو البواخر فالمجلات والصحف أوفى بتحقيق هذا الغرض، يسيرًا ثمنها، سهل حملها، خفيفة موضوعاتها.

وإن صدعتنا الكتب أحيانًا بما فيها من ثروة ومن صفحات لا قيمة لها ليست إلا تمهيدًا سقيمًا لفكرة قد تكون سقيمة، فقد نجد في المجلات المحترمة عصارة مركزة لأفكار قيمة هي خلاصة شيء كثير ركزت في قول وجيز.

وإن أفرطت الكتب في الالتفات إلى الوراء بالبحث عما قبل التاريخ وما بعد التاريخ وثورات الأمم وحروب الأعداء، وسيرة الملوك والخلفاء والأمراء فالصحف كفيلة أن تلفتنا كثيرًا إلى الحاضر وتضع يدينا على الواقع وتقينا على العالم الذي نعيش فيه، وتعرض علينا مشاكلنا الحاضرة، وعقول المفكرين الأحياء في حلها.

وإن غلت الكتب في أكثر الأحيان في عرض النظريات العلمية والأدبية في شكل جاف وأسلوب بغيض فالصحف والمجلات تأخذ على عاتقها أن تصوغ ذلك كله صياغة أدبية فيها كثيرًا من الخيال الشعري، وفيها كثير من لباقة الأدب وطرافته.

ولئن كانت الكتب أرستقراطية في جميع نواحيها، أرستقراطية في ثمنها، أرستقراطية في معلوماتها وموضوعاتها، أرستقراطية في قرائنها، فالصحف والمجلات ديمقراطية في كل ذلك. ومن أجل هذا انتشرت الصحف والمجلات، وانتصرت في عهد الديموقراطية، وكانت الكتب في أوجها وعزها في عصر الأرستقراطية.

ولكن من الحق أن نحفظ بأرستقراطية الكتب وأرستقراطية العقول التي تتطلبها. فهؤلاء الديمقراطيون الذين يقرءون، وهذه الصحف والمجلات

الديمقراطية تعيش وتنتشر وتتغذى بهؤلاء الأرستقراطيين الذين عاشوا على الكتب وأنتجتهم الكتب.

في الصحف والمجلات عيوب لا تصلحها إلا الكتب، ذلك أن الصحف والمجلات بحكم ديمقراطيتها وملاستها للجمهور ومراعاتها أكبر عدد ممكن من المثقفين تضطر إلى تخفيف ما يتقطر من المعلومات إلى الشعب، فهي إن صلحت غذاء للعقول البسيطة والعقول المثقفة ثقافة واسعة غير عميقة فلا تكفي وحدها للعقول القوية والعقول الشرهة والعقول التي تحترف هضم الأفكار وتتطلب دائمًا أفكارًا جديدة وأفكارًا عميقة وتتطلب أن تلم بالشئ من جميع نواحيه، وبالنظريات في أطوارها المختلفة وهي لا تجد ذلك إلا في الكتب.

خير للأمم أن تظل هذه الحرب قائمة أبدًا وأن يكون النصر سجالًا أبدًا وألا ينتصر أحدهما انتصارًا يبيد الآخر فذلك أدعى أن يدخل أرباب الصحف والمجلات التحسينات على صحفهم ومجلاتهم دائمًا، وأن يتملق مؤلفو الكتب العقول بوضع مؤلفاتهم في شكل سائع وأسلوب مقبول.

إلى أخي الزيات^(١١)

سعيت أمس لعزائك، في «رجائي» و«رجائك»، فرأيتك واجماً ساهماً والهاً
مُدْهَماً، فانتعقد لساني، وتخلف ذهني، وفاض دمعي.

وكيف أستطيع عزاءك وما استطعت أن أعزي نفسي؟ أو كيف أستطيع أن
أخفف ما بك وما استطعت أن أخفف حزني؟

رأيت بك كمداً باطناً، وحزناً مكتمناً، فعلمت أنك تتجرع غصص الهم،
وتختزن بُرحاء الكرب، فتمنيت أن تخفف عنك بصرخة، وتنفس ع نفسك بدمعة،
ولكن عز الصبر وعز الدمع، فما هي إلا زفرات تذيب لفائف القلوب وتنفطر لها
المرائر.

وارحمته لك! لقد كان «رجاء» قبلة رجائك، ومعقد آمالك، وحديث أحلامك،
وملء سمعك وبصرك، تشوّفته حياتك، وترقبته مطلع شبابك، حتى جاد به الزمان
الخيّل، فربطت أسبابك بأسبابه، وتعلقت بأهدابه، فلما شمت مخايله، ورقبت منه
النُّجج، عدا عليه الدهر الذي لا يرعى ميثاقاً، ولا يثبت على عهد، فأخلف ظنك،
ونقض املك، فإذا الدنيا أضغاث أحلام، ووساوس أطماع.

ولكن يا أخي - ما الجزع مما لا بد منه، وما الهلع مما قدر، ومثلك من يعرف
مقدار الحياة وهوانها، أفليست إلا مرسحاً تمثل عليه أدوار مختلفة، مرة مهزلة، ومرة
مأساة، ونحن في حينٍ ممثلون، وفي حينٍ ناظرون. وليس لنا أن نبالغ في الألم، ونغلو

(١١) احتسب الأستاذ الزيات صاحب «الرسالة» ابنه «رجاء» في مستهل عامه الخامس فكتبت

هذه المقالة في عزائه.

في الجزع، فقد كان يكون لذلك وجه من الحق لو ذهب من ذهب أبدًا، وعشنا بعده أبدًا، وإنما الأمر دور يعقب دورًا، ولاحق منا إثر سابق، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأية سعادة نجدها في هذه الحياة حتى نحزن على الراحل، ونبكي على الميت ونود أن لو بقي ليستمتع بها، وتذوق طياتها، إنما هي سلسلة عناء، وضروب شقاء، وتنوع ألوانها، واتحدت حقيقتها، ولو أنصفنا لغبطنا من مات، وأشفقنا على من بقي، ومن مات في صباه فقد اختصر الحياة واختصر همومها وأحزانها، ووفر على نفسه عبثًا ثقيلاً ينتهي مختصره بما ينتهي به مطوله، وخير للزهرة أن تذهب وهي ناضرة تعجب الناس، من أن تذهب وهي ذابلة يعافها الناس.

فخذ الحياة كما هي، ليل ينقضي في إثر ليل، وقوم في إثر قوم، وحادث يستدرف الدمع يعقبه حادث يخفف الهم، وقل كما قالت الخنساء:

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن أعزّي النفس عنه بالتأسي

وليس الوفاء للميت بالإفراط في الحزن، والإمعان في البكاء، إنما الوفاء بمقابلة دواعي الحزن بدواعي الصبر، وليست الحكمة في إضعاف الحي من أجل الميت، إنما هي في إحياء الحي من أجل الحي والميت.

وقد أخطأ الناس فغلوا في استفظاع الموت والاحتفاء به، وهولوا في الاستكثار من مظاهره، ولو عقلوا لقابلوه كما يقابل كل قانون طبيعي في هذا العالم، زهرة تنضر وتذبل، وشمس تطلع وتغرب، ونجم يتألق ويأفل، وساء تصحو وتغيم - ولو عقلوا أيضًا لرددوا هذا المعنى في نفوسهم، واطمأنت له عقولهم، فإذا كان فهو ما تخيلوه، وإذا حدث فهو ما توقعوه، وإذن لخلف الألم وانقطع الجزع.

أي أخي - ليكن ما أراد الله، ولنلّون حياتنا بلون من ألوان التصوف، رضاء بالقدر، واستخفاف بالعالم وما فيه، وطمأنينة إلى قوانينه، وإيمان بعظمة الله وسلطانه، والتجاء إليه أن يتولاك برحمته ويظلك بإحسانه.

أي أخي - لقد أصبحت مُسْرِق القوة، ضعيف البنية، مُرْهَف الحس، رقيق الصحة - ولئن كان الانتحار جريمة لا تغفر، ويأسًا لا يرضاه الله، فليس هو - فحسب - في إطلاق عيار ناري، أو إلقاء النفس في اليم، أو ما عهده من ضروب إزهاق الروح، ولكن من ضروبه أيضًا الاستسلام للحزن والتسمم بالغم، والاسترسال في أسباب الكرب، فهو انتحار بطيء ولكنه شر من الانتحار العاجل أعينك بالله منه، وأربأ بنفسك عنه.

فهوّن على نفسك، وإن خاب رجاؤك في «رجاء» فحقق الله أملك في «علاء» وعش له ولنفسك وللناس.

أحسن الله عزاءك، وأجل صبرك، وأجزل أجرك.

إنسان ناجح

صخري الوجه، صُلب الجبين، لم يعرف يوماً حمرة الخجل، ولا بُزُق الحياء، لا يتوقى شيئاً، ولا يبالي ما يقول.

إن كان لكل الناس وجه ولون ولسان، فلهذا المخلوق أوجه وألسنة وألوان.

هو صديقك وعدوك حسب الظروف الخارجية، لا حسب ما يصدر منك، وهو مادحك وذامك حسب ما يدور في المجلس، لا حسب رأيه، وهو عابس لك يوماً باسم يوماً حسب ما يقدر هو أنه في مصلحته، لا حسب ما تستحق أنت منه.

له حاسة زائدة عن حواس الناس الخمس هي سر نجاحه، وهذه الحاسة خصائص: فهو يدرك بها أي نوع من الوزارات ستولى الحكم ليحول نفسه على وفقها، وليتجهم لأعدائها، ويتقرب من أحبابها؛ ويشم بها مواطن المال في كل ظرف، ويرى بها من يجلب له النفع. ويؤقلم وفق ذلك نفسه، فيتشكل بأشكال في منتهى الظرف والطلاوة، فإذا عدوه اللدود بالأمس صديقه الحميم اليوم.

ويعرف بها - في مهارة عجيبة - موضع الضعف من كل إنسان يهيمه، فإن كان يعبد النساء حدثه أعذب الحديث في النساء والجمال وحسن الشكل، وبذع المحاسن، وجمال الملامح، واستعرض نساء البلد ونساء الفرنج، وأية حوراء العينين، كحلاء الجفون، ساجية الطرف، فاترة اللحظ، وأية أسيلة الخد، ممشوقة القد، وأية بيضاء اللون، شقراء الشعر، زرقاء العين، وأية سوداء العين، سمراء اللون سوداء الشعر. وأية ممتلئة البدن؛ ضخمة الخلق، شَبَعَى الوشاح، وأية دقيقة الشبح نحيلة الظل مرهفة الجسم، وتفتن في ذلك ما شاء أن يتفنن حتى يملك له، ويستعبد عقله، فإذا هو طوع بنانه ومستودع أسرار.

وإن كان سكيرًا حدثه الحديث الممتع في الشرب والشراب، والكؤوس والأكواب وآداب النديم، وروى له أحسن الشعر في الخمر وحدثه عما يمزج وما لا يمزج، وخير الخمر ومواردها وتواريجها وما يلذ صبوها وما يلذ غبوقا- وتعرف ما يستحسنه صاحبه فأفرط في مدحه وادعى الإعجاب به، وأنه لا يفضل عليه غيره، وأن ذوقه من ذوقه وشرابه من شرابه ومزاجه من مزاجه، وأسكره من حديثه كما أسكره من كأسه، فإذا هما صديقان وثقت بينهما الكاس والطاس.

وإن كان شرها في المال حدثه عن الضياع ومحاسن الأراضي وكيفية استغلالها، والعمارات وجباياتها، ووازن بين أنواع العقار وكم في المائة يمكن أن تُغل، وأعانه في مشاكله وبذل له كل أنواع معونته، فوجد فيه صديقه النافع وخليله الموافق.

وهدته حاسته هذه أن يعتمد إلى عدد من الرؤوس الكبار ذوي النفوذ فينصب لهم حبالته، ويوقعهم في شبكته، بما يبذر من حب ذي أشكال وألوان، فإذا تم له ذلك خضع له الصغار من تلقاء أنفسهم وطوع إرادتهم، وضرب لهم مثلا بقضاء حوائج لبعضهم ما كانت تقضى من غيره، فهو مقصد جميعهم ومحط آمالهم وموضع الرجاء منهم، يعملون كلهم في خدمته على أمل أن ينالوا شيئا من جاهه، فإذا هو سيد على الصغار والكبار، وإذا هو عظيم حيث كان، يقابل بالإجلال والإعظام، ويتملّق من أتباعه وإخوانه، ويحسب حسابه في دائرته وأوسع من دائرته.

إلى جانب هذه الحقائق القليلة قدر كبير من التهويش، فهو يزعم أنه في كل ليلة جليس الكبراء والوزراء، كم يتغزلون فيه ويطلبون القرب منه وهو يتأبى عليهم، ويتبعد عنهم، وهو لمو شاء لكفت إشارة منه لأن يرفع من شاء في أعلى عليين، ويخفض من شاء إلى أسفل سافلين- الوزارات في يده، ومصالح الحكومة في إصبعه- والإنجليز يخشون بأسه، والفرنسيون يقضون مصالحهم على يده- وبريده كل يوم من خارج القطر ينوء السعاة بحمله، ثم لا أدري كيف اتصل بالجرائد فهي

تشيد دائما بذكره، فإذا تحرك حركة أعلنتها على الناس كما تذاق حركات الملوك، فهو مسافر إلى الإسكندرية، وقادم من الإسكندرية، ومبحر إلى أوربا، ومتنقل في عواصم البلدان، وعائد إلى مصر بعد أن رفع شأنها، وأعلى مكانها، حتى لم يبق إلا أن تجربنا ماذا أفطر؛ وكيف أفطر، وفي أي ساعة تناول غداءه، وماذا كانت أصنافه، وهل غفا قليلا بعد الغداء أو تحدث قليلا إلى زوجته وأولاده.

وهو يستغل هذا كله في قضاء مصالحه، فطلباته ناجزة نافذة، والمستحيل لغيره جائز له، والأموال تكال له كيلا، والهدايا تنهال عليه انهيالا، وهو مع كل ذلك لا يشبع، كلما نال مطلبًا تفتحت له مطالب، فهو في طلب دام، ومن ييدهم الأمور في إجابة دائمة، حتى ليوشك - إذ لم يتعود الرفض - أن يطلب النجوم تزين غرفته، والسحاب يمطر في الصيف حديقته، والحر والبرد يتأديبان في حضرتة، والشمس تُكسِف لطلعتة.

ومن غير أمر الناس فيه أنهم يكرهونه من أعماق نفوسهم، ويمقتونه من صميم قلوبهم، ويرون فيه السخافة مركزة، واللؤم مجمعا، فإذا لقوه فترحيب وتهليل، وإعظام وملق، يبسطون ألسنتهم فيه بالسوء غائبًا، ويطنبون في مدحه حاضرا، فهو معذور إذ يشعر أن الناس مجمعة على حبه، حتى ليخشى عليهم أن يموتوا به غراما أو يُجَنُّوا به هياما، شهدته مرة وقد أتى عملا شنيعا حتى كان مضغة الأفواه ومعرة القوم، وظننت أن الناس إن رأوه ازدروه - على الأقل - بعيونهم، وكلموه ببعض شفاههم، واستهانوا بمقدمه، وأقل ما يفعلونه ألا يحفلوا به، ولا يأبهوا بمقدمه، فما كان أشد عجبي أن رأيتهم - إذ حضر - قد انتفضوا من أماكنهم، وأفسحوا له مجالسهم، وأجلُّوا شأنه، وأعظموا قدره ورفعوا منزلته فوق من يقدرُون فضله ويجلون خلقه.

فهو - حتى في هذا - ينتفع بإعظامهم وإجلالهم، ولا يضره كرههم الذي لا يعدو قلوبهم - فكرهم لأنفسهم، وإعظامهم له، وماذا يضره كرة محتقن وخير منه حب مصطنع؟ وماذا يضره سب صادق في إسرار، وخير منه مدح كاذب في إعلان؟ لا شك أنه في كل ذلك ناجح حتى في الكره والذم.

قال صاحبي: وهل تعد ذلك نجاحًا؟ لو كان النجاح بقضاء المصالح والأغراض والحصول على المال فحسب، لعددنا السارق يجيد السرقة ويفلت من العقوبة ناجحًا، ولعددنا الذي يتاجر بشرقه وعرضه ناجحًا، ولكان أنجح الناس من حصل على المال من أقرب الوجوه ولو كان من أخسها - إن هذا الذي ذكرت قد كسب المال وخسر الشرف، حَبِيتْ مطامعه ومات ضميره، وخدم من يظنهم كبراء أو عظماء بضعة نفسه وموت حسه، بأي مقياس أخلاقي قسته لم تجده شيئًا، إن قسته بمقياس الفضيلة الباتة الحاسمة لم تجده فاضلاً، وإن قسته بمقياس السعادة لم تجده سعيدًا؛ إنه يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام، فإن كان الحمار أو الخنزير سعيدًا فهذا سعيد، وأين منه لذة ذي الضمير الحي ينعم بمواقف الشرف والنبل، ويلذها لذة لا تعدلها ما ذكرت من مال وجاه؛ إن الرجل الفاضل سعيد حتى في آلامه لأنها آلام لذينة خصبة هي كالنار تنضج النفس ولا تحرقها، أما لذة صاحبك فسم في دسم، ونار تحرق ولا تنضج - وبعد قليل من حياته يفقد حتى لذة المال والجاه، وتصبح لذتها كلذة من يتناول الحلوى صباح مساء تهوِّع نفسه وتتقبض شهيته - فإن اللذة الباقية الدائمة هي لذة الروح لا الجسم، ومن عجيب أمر الروح أن لذتها لذة صافية وأملها ألم مشوب بلذة، ثم لذة هذا المخلوق لذة مشروطة بشروط، فهو يعتقد أن لذته مرتبطة ببقاء صاحبه في الوزارة، وصديقه في الوكالة، وحميمه في منصبه، لأن قيمته مستمدة من ذلك كله، وليست مستمدة من نفسه، إذ ليست له قيمة ذاتية، ونجاح مثل هذا في أمة عنوان فشلها وسوء تقديرها، وضعف الرأي العام فيها -

وهو مثل سيء يشجع البذور السيئة على النماء والبذور الصالحة على الخفاء - قد يكون هذا المثال في كل أمة؛ ولكنه في الأمة الصالحة نادر؛ ويحتاج في نجاحه إلى كثير من الطلاء حتى يخدع الناس ويوهمهم بصلاحيته. أما أن يجرؤ ويظهر بمظهره الحقيقي ثم ينجح فذلك فساد الأمة وسبب الدهر.

قلت: ربما كان ما تقول صحيحاً فدعني أفكر.

امتيازات من نوع آخر

هل لاحظت أنك إذا استعرضت مقاهي مصر وفنادقها، رأيت أن أعظمها بناءً، وأحسنها نظاماً، وأغناها رُوداداً، وأجلها موقعا، وأشدّها إتقاناً للخدمة، وأكثرها تفتنا في إدخال الراحة والسرور على زوارها، وأمهرها في استدارا مال الجمهور عن رضا واختيار، إنها هي لساتنا الأجانب؟

وأن أحقرها مكاناً - وأفقرها سكاناً، وشرها موقعا، وأسوأها خدمة، وأرخصها سعرا، وأكثرها تفتناً في إقلاق راحة زوارها، لا يغشاها إلا من هزل جيبه، أو فسد ذوقه، أو اضطرتة حاجة ملحة، أو ضحى براحتة ولذته وسعاداته لفكرته الوطنية، ونزعتة القومية؛ إنها هي لإخواننا المصريين؟

ثم هل لاحظت أن المقاهي والفنادق الأرستقراطية، وما يشبهها وما يقرب منها، صاحبها الأجنبي، ومديرها الأجنبي، والمشرّف على ماليتها أجنبي، والذي يقدم إليك الخدمات الرفيعة أجنبي، ومن يقبض ثمن ما قدم، ويأخذ منك «البقشيش» أجنبي؛ ثم من يمسح الأرض مصري، ومن يتولى أحقر الأعمال مصري، ومن يمسح لك حذاءك في المقهى أو الفندق مصري، ومن يجمع أعقاب السجائر مصري؛ وأن الأجنبي له الخيار في الأعمال، فما استنظفه عمله بنفسه، وما استقذره كلف به مصرياً، ثم أنت لا تجد العكس أبداً في المقاهي المصرية والفنادق المصرية، فلا تجد رئيساً مصرياً ومرءوساً أجنبياً، ولا تجد الأعمال الرفيعة لمصري، والأعمال الوطنية لأجنبي؛ وإذا كان لكل قاعدة استثناء كما يقولون، فقد ظفّرنا في هذه الحال بقاعدة لا استثناء فيها.

هل تتبعت الصناعات في مصر، فرأيت أن كل صناعة رأسها أجنبي وقدمها مصريتان؟ فخير ميكانيكي في مصر أجنبي، والختالة مصريون، وقل مثل ذلك في أعمال الكهرباء والنجارة والحدادة والخياطة، وما شئت من صناعة؛ حتى لقد زاحونا في مصنوعاتنا الوطنية؛ ونشأت فرقة من الأجانب تجيد عمل «الطعمية» و«القول المدمس» وبزت فيهما المصريين، وأصبحت الطبقة المصرية الأرستقراطية تشتهيها من يد الأجنبي أيضًا، وتفضل ما يصنعه على منتجات «أبي ظريفة» و«الحلوجي» ومن إليهما؟

فالصناعات في مصر -على العموم- تتخذ شكل هرم، قاعدته التي تلامس الأرض للمصريين، وقمته التي تناطح السحاب للأجانب.

وهل بلغك أن في بورسعيد -المدينة المصرية- حين، يسمى أحدهما «حي الفرنج» ويسمى الآخر «حي العرب»؟ فأما البناء الجميل، والنظافة والأناقة والعناية بالوسائل الصحية، ومظهر الغني والنعمة، ومظهر المدنية والحضارة، فلحي الفرنج؛ وأما مظهر الفوضى والإهمال والبؤس والفقر وسوء الحالة الصحية ومأوى الفقراء ومسكن التواضع والرضا بما قسم الله فلحي العرب؟

وهل سمعت أيضًا أن «مصر الجديدة» -وهي ضاحية من ضواحي القاهرة- يسكنها كثير من الأجانب فينعمون بشوارعها الفسيحة، وبيوتها الضخمة الأنيقة؛ ثم في ركن متواضع من أركانها ناحية تسميها الشركة «عزبة المسلمين» فيها كل ما لا يخطر على البال من تكديس السكان في حجرة واحدة ومن إهمال ومن أمراض ومن فقر وبؤس، يفر منها من يسكنون بجوارها هربًا بأنفسهم وبصحتهم، وهربًا بعيونهم عن مناظر القبح، وبآذانهم عن ألفاظ الهجر، ويأنوفهم عن كريه الريح؟

أوليس مما يثير عجبك، ويبعث دهشك، أن كلمة «الأحياء الوطنية» في مصر تحمل من المعانى كل أنواع السوء والفوضى والإهمال وكان يجب أن تحمل كل معاني العناية والنظافة والنظام؟

ثم هل رأيت الأجنبي في وسط الفلاحين في العزبة، هو وحده النظيف في ملبسه ومسكنه ومأكله، وهو الذي له عقل يدبر ماله ويعرف كيف يستغله، وهم المغفلون الذين لا يعرفون كيف يحسبون دخلهم وخرجهم، ولا يعرفون حساب أموالهم، ولا يعرفون كيف يديرون شؤون حياتهم، فخضع هذا وهؤلاء لقانون الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلى؟

ثم هل علمت أن امتيازات أخرى بجانب هذه الامتيازات المادية، هي امتيازات عقلية أو نفسية؟

فإن غلبة الأجنبي في الصراع بينه وبين المصري في مرافق الحياة المادية أوجدت حالة نفسية شراً من الحالة المادية، مظهرها قلة وثوق المصري بنفسه وقوة وثوقه بالأجنبي. فإذا تعسرت حالة مرضية أتجه أهل المريض إلى الطبيب الأجنبي، وإذا أراد رب مال أن ينجح في إدارته قصد إلى مدير أجنبي، وإذا تعقدت مسألة حكومية أو أهلية اختير لها خبير أجنبي، وإذا اختلف الباحثون في مسألة علمية كان الحكم الفصل قول المؤلف الأجنبي، وهكذا في كل شأن من شؤون حياتنا؟

واستتبع هذا تقويمنا للأجنبي قيمة عالية، ودخل في التقويم أجنيته أكثر ما دخل في التقويم فنه أو علمه.

ألم يبلغك الحادث الطريف الذي حدث بالأمس من مدرس ثانوي للغة الفرنسية يتقاضى أمثاله في وزارة المعارف فوق الثلاثين جنيهًا، فكان من سوء حظ هذا المدرس أن تجنس بالجنسية المصرية قبل أن يبيت في مرتبه، فلما طبقت عليه

القوانين المصرية واللوائح المصرية، كانت نتيجة ذلك أنه لم يمنح إلا اثني عشر جنيهاً؟ أو لم يبلغك المصري الذي اخترع بالأمس نوعاً من الآجر فعرضه على الجهات المصرية فخاب أمله، ثم عرضه في إنجلترا فأقرت قيمة اختراعه ثم تأسست شركة إنجليزية برأس مال إنجليزي لاستغلال هذا المخترع المصري.

والأمثلة على ذلك كثيرة تحدث كل يوم، فيكاد يكون مغروساً في أعماق نفوسنا أن القبة لا توضع على رأس سخي، وأن الطربوش لا يمكن أن يلف رأس نابغ.

إن كان في مصر دائن ومدين، فالدائن الأجنبي والمدين المصري.

وإن كان في مصر غنى وفقير، فالغنى للأجنبي والفقر للمصري.

وإن كان في مصر ذكاء وغباء، فالذكاء للأجنبي والغباء للمصري.

وإن كان في مصر نعيم ويؤس، فالنعيم للأجنبي والبؤس للمصري.

هذه الامتيازات في المادة والعقل والنفس شر مما اصطَلَحنا على تسميته بالامتيازات الأجنبية.

ومن الأسف أنها لا تحل بمؤتمر مثل مؤتمر مونترو، ولا باشتراك الدول ومفاوضتها، ولا بمعاهدة، ولا بقانون.

إن حلها أصعب من ذلك كله.

إنها تحتاج إلى عقول جبارة، وإرادات من نار، وحمية لا حد لها، ووطنية قوية وثابة.

إنها تحتاج إلى مؤتمرات لا من جنس مؤتمر مونترو، إلى مؤتمر يتكون من فطاحل في التربية يعرفون كيف فشا فينا مرض العبودية حتى حجب إلينا العمل الدنيء وبغض إلينا العمل الرفيع، فرضينا من المقهى والفندق بسمح البلاط ولم أعقاب

السجاير. ورضينا دائما بفتات الموائد، ولم نستطع أن نكوّن العمل الرفيع ونجلس في صدر المائدة. ويعرفون كيف يقضون على أخلاق العبيد من ذل ومكر وخنوع واحتيال ودسائس، ويحلون محلها أخلاق السادة من عظمة، وصراحة وحب للعمل، وطلب للمجد، وعشق للصدارة، ويعرفون طبيعة المصري وتاريخه وبيئته، وأنواع الأسلحة العلمية والعقلية والخلقية التي يحتاج إليها ليستطيع الكفاح في الحياة والسير مع الأجنبي على قدم المساواة.

فهذا خير ألف مرة من لجان تؤلف وتؤلف لزيادة حصة في الحساب ونقص حصة في الجغرافيا.

ونحتاج لمؤتمر من القادة تكون مهمته العظمى إبادة روح المذلة الفاشية، وبذر روح الغيرة النادرة، وتعهدا بالتقاليد الجديدة التي ترعاها وتضمن نموها.

نحتاج إلى مؤتمرات عديدة من هذا القبيل تغير وجه الحياة المصرية. وتخلق قلب المصري خلقا جديداً، فلا يخاف مرءوس رئيساً، ولا يخاف مصري أجنبياً ولا يخاف محكوم حاكماً.

نحتاج إلى مؤتمرات تبيد الخوف إلا الخوف من الذل والعار، وتبيد السيطرة إلا احتراماً لخلق أو قانون.

ما أصعب هذه المؤتمرات، وما أشقها، وما أحوجنا إليها! إنها تتكون من رجال من أمة واحدة، ولكنها أصعب من مؤتمر مثلت فيه كل الدول، لأنها مؤتمرات لا تلغى قانوناً موضوعاً، ولكنها تلغى أخلاقاً موروثية، وتقاليد سُمّرها الزمان، وتحطم أوتاداً سَهر عليها الحاكم الظالم المستبد حتى صلبت الأرض عليها.

لست أومن بنظرية العمال العاطلين حتى يصعب على الأجنبي والمصري الحصول على العيش الرغد على السواء. فأما وقد سهل تحصيل العيش على الأجنبي

وصعب على المصري فليست النظرية -إذن- نظرية عمال عاطلين، ولكنها نظرية فقر في الأخلاق. وجهل بفن الحياة.

فهل لنا وقد نجحنا في مؤتمر الامتيازات الأجنبية أن نوجه هممنا لمعالجة أختها الامتيازات التي هي من نوع آخر علنا ننجح أيضًا؟

على بك فوزي

لم يتجَل لي وفاء المصري وإخلاصه كما رأيته أول أمس في جنازة أستاذه وصديقي علي بك فوزي. فقد استقبل النعش في محطة مصر عدد كبير من أصدقائه وساروا في مشهده يعزي بعضهم بعضاً إذ أبى الفقيد أن يكون له ولد أو مال أو جاه؛ فكان أول مشهد عظيم رأيته لله وحده، وكان أنبل ما رأيته منظر أحد باشا شفيق وقد تقدمت به السن وصعب عليه السير يتحامل على صديق ويسير من المحطة إلى جامع الكخيا، ثم أسلم عليه وأسأله هل تعرف الفقيد فيقول: لا لم أره في حياته؛ ولكنني سمعت نبيل أخلاقه فرأيت وفاء للفضيلة أن أسير في جنازته.

رحمة الله عليه، فقد كان أمة وحده، ولم أر له نظيراً في كل من عاشت. ولئن كان أكثر الناس نسخاً متشابهة من كتاب تافه مطبوع، فقد كان نسخة خطية من كتاب قيم نادر. متمدن على آخر طراز من طراز المدنية في ملبسه وأناقته وآدابه ولباقته، متصوف إلى آخر حدود التصوف في زهادته واحتقاره للمال والجاه والمناصب، وفق ذلك كله في روحانيته السامية.

لم يفخر في حياته بنسب؛ على أنه كان جديراً أن يفخر به لو وجد الفخار مدجلاً إلى نفسه، فقد كان جد أبيه المملوك الشارد الذي قفز بفرسه من القلعة؛ وناهيك بعظمة المماليك أيام سطوتهم.

ولم يفخر بعلمه وهو الواسع العلم العميق التفكير؛ يجيد العربية إجادة قل أن يكون له فيها نظير؛ ويتكلم الإنجليزية كأحد أبنائها؛ ويحذق الفرنسية والألمانية والتركية. ثم لا ينظر إلى اللغات على أنها مقاصد بل على أنها وسائل للثقافة، فاتخذ هذه اللغات كلها أداة يتعرف بها الثقافات المختلفة ويقف على أحسن ما ألف فيها؛

هذا إلى صحة في النقد وقوة في الملاحظة وشخصية بارزة لا تخضع لأي مؤلف مهما عظم. ومع هذا كله تجلس إليه إن لم تكن تعرفه فكأنه أُمِّي غبي جاهل بكل شيء، فهو ذهبٌ خالص غطى بقشرة من طين لا تعرفه حتى تحكه وتصل إلى باطن نفسه؛ ولا يكون ذلك إلا لتلاميذه وخلصائه، وحتى مع هؤلاء يقدم إليك نتيجة معارفه الواسعة وتفكيره العميق وهو مختلف وراء ذلك يحاول ألا يشعرك بنفسه، وإنما يشعرك بالفكرة نفسها، فكأن كلمة «أنا» لمن تكن في معجمه.

عرفته أول أمره أستاذًا لي بمدرسة القضاء يدرس لنا التاريخ الإسلامي؛ وتطايير إلينا قبل قدومه أخبار مثورة عن تاريخ حياته. أنه تخرج في مدرسة المعلمين، ثم سافر في بعثة إلى إنجلترا، ثم عاد منها بعد أن نال إجازة من جامعتها وهي أوصاف لم نتحمس لها كثيرًا، فكنا قد شاهدنا بعض من سافروا إلى أوربا ورجعوا بشهاداتهم الضخمة وألقابهم العديدة وكانوا كالبنفقة الفارغة. منظر ولا مخبر، ورؤاء في العين، ولا شيء في اليدين؛ قلنا لعله أحد أولئك الذين لم يكسبوا من أوربا إلا اعوجاجًا في اللسان ورطانة في الألفاظ وإنكارًا لعظمة أي شيء مصري، وعصية لكل تافه أجنبي.

وحبنا أنفسنا عند قدومه نستطلع طلعتة.

دخل علينا رجل قصير القامة. يحاول أن يخفي قصره بطول طربوشه وارتفاع حذائه، أسمر اللون في وسامة، واسع العينين في خجل، كبير الرأس في عظمة.

يتأبط كتبًا كثيرة العدد لا يتناسب حجمها مع حجمه بين عربية وإنجليزية ويأبى أن يحملها الفراش عنه كما اعتدنا أن نرى من غيره.

وأكبر ما راعنا منه أنه بدأ درسه بعبارة عربية فصيحة التزمها في كل درسه، وكل دروسه بعد، وفي كل أحاديثه معنا في الدرس، لا أعرفه شذ عنها مرة واحدة، في

طلاقة وعذوبة واستشهاد بالأدب العربي والشعر العربي، مما لم أعرفه لأزهري ولا لمدرس من دار العلوم. يجيد فهم عبارة الطبري على صعوبتها، وابن خلدون على عمقها، والكتب الإنجليزية العميقة، ويوضح ذلك كله بصياغة شهيّة لذيذة، ويطبّعها كلها بالطابع العربي فلا تسمع لفظة إنجليزية، ولا تستعصى عليه عبارة يريد أن يترجمها من لغة أجنبية.

ومما زادنا إعظامًا له أنه لم يكتف بالدرس بل اتصل أيضًا بنفوسنا، فكان يخرج من الدرس أحيانًا إلى شرح حالة نفسية أو ظاهرة اجتماعية يصل بها إلى أعماق نفوسنا. وأخذنا بالنظام الشديد وكان يقده كل التقديس، فيشتمز من الكلمة النائية ومن اللفظة تكتب منحرفة قليلًا عن موضعها، ومن النكتة إن كان فيها قليل من الشذوذ.

ولا تسل عنه في ورق الامتحان، فقد كان يصحح أوراقنا في دقة غريبة، ويأتي بالأوراق مدونة فيها ملاحظاته في اللفظ والمعنى والأسلوب والخطأ الإملائي والخطأ التاريخي، وينتقدنا انتقادًا لا ذعًا لكن ظريفًا.

من أجل هذا كان الأستاذ المحبوب والأستاذ الجليل والأستاذ الطريف والأستاذ العالم.

لم تطل دراسته في مدرسة القضاء، وانتقل إلى وظيفة إدارية. ولم يطلب الانتقال لرغبة في مال فهو يحترق المال، ولا في جاه فهو يحترق الجاه، ولا لرغبة عن التعليم فهو يحب التعليم، ويصارحني أن أكبر غلطة ارتكبها أنه تحول من التعليم إلى الإدارة، ولكنه كان شديدًا، وكان عاطف بك ناظر المدرسة شديدًا، وكان لكل شخصيته القوية، ولكل آراؤه في سياسة الطلبة، فتصادما تصادما نفسيًا من غير أن ينبس أحدهما بكلمة؛ وكان أن خرج «علي فوزي» من المدرسة، آسفين عليه كل الأسف،

شاعرين أنه لا يمكن أن يعوّض، وكان «عاطف» أول من حزن على خروجه بعد أن حاول كل محاولة في استبقائه.

كان حساسًا إلى درجة لا تتصور. تجرحه الكلمة الخفيفة لا يشعر بها أحد، والإشارة القليلة تصدر من رئيسه فيظنها بالغة منتهى الشدة، والإيحاء المعتادة فتحز في نفسه وتصل إلى أعماق قلبه.

فكيف يستطيع بعد أن يكون موظفًا؟ لقد تداول عليه وزراء عديدون لا أسميهم، كل منهم جرح نفسه جرحا بل جروحا. وأي الرؤساء يتحاشى حتى الهنات الهيئات مع مرءوسيه؟ وأي الرؤساء يدرك مقدار السهام المسمومة التي يوجهها إلى نفس كتفس «علي فوزي» وهو لا يرى أنها سهام أصلا بل قد يظنها نوعا من الملاطفة؟ - لقد رآه وزير يكتب خطابًا بالإنجليزية فأعجبته بلاغته فقال له: لعلك تحسن أن تكتب مثل ها بالعربية! فما كان أشدها وقعًا في نفسه.

ثم هو يعشق العدل المطلق الدقيق، ويؤلمهم أشد الألم الظلم الخفيف. وكان كل يوم يرى تصرفات في الوزارات لا تتفق والعدالة التي ينشدها: هذا يحايي المتملقين، وهذا ينصر الأجانب على المصريين، وهذا يمنح ترقية وعلاوات لغير المستحقين.

ثم ما هذا النظام السخيف للدرجات؟ فهذا موظف في الدرجة الأولى وآخر في الدرجة الثانية! إنه يفهم أن يبدأ الموظف بمرتب صغير يزيد على القدم والكفاية، ولكنه لا يفهم تقسيم الموظفين إلى طبقات يعلو بعضها بعضا ويُبدل بها بعضهم على بعض.

لا. لا. ثارت نفسه على كل ذلك، ففي هدوء وسكون، ومن غير أن يشعر أحد من أصدقائه دبر أمره وأعد عدته للخروج من الوظائف الحكومية، وألح في طلب

إحالة إلى المعاش، فكان له ذلك. وفضل نحو خمسة وعشرين جنيها في الشهر على ثمانين وما كان يتبعها من علاوات وترقيات وحسبان معاشات.

بل ليست الوظيفة وحدها هي التي يجب الفرار منها، فيجب الفرار أيضًا من مصر، فما مصر هذه التي يحكمها الأجنبي وتستسلم له؟ وما مصر التي يستمتع فيها صعاليك الأجانب بما لم يستمتع به سادة أهلها؟ وما مصر التي تجلس في مقهى من مقاهيها فتشعر أن الرومي الذي يقدم لك القهوة خير منك وأعز منك، ويستطيع أن يحتقرك وأن ينكل بك ولا تستطيع أن تفعل به ما يفعل بك؟ وما مصر التي تستطيع أن تكون غنية في أطبائها وعلمائها وتجارها وصناعها ولم تزل عالة في كل ذلك على غيرها؟ لا بد إذن من الهرب من الوظيفة ومن مصر معا.

وخرج من مصر ساخطًا غاضبًا أسفا حزينًا، خرج هائمًا على وجهه يمثل دور جده. لقد كان جده المملوك الشارد، فكان هو الحر الشارد.

خرج إلى أوروبا هائمًا في ممالكها، ولكنه كان فيها مستوحشا، نعم إنه يتكلم لغاتها، ويفهم مدنياتها؛ ولكن ليس قومها قومه، ولا دينها دينه، ولا روحانياتها روحانيته. ثم ألقى عصاه في الأسنانة عقب الحرب واطمأن إليها، فهي هي البلدة المستقلة بين ممالك البلاد الإسلامية، وهي هي التي لا تذللها الامتيازات الأجنبية، وهي التي يجد فيها غذاء روحه وعواطفه بمساجدها العظيمة ومآذنها التي تشق السحاب. من أجل هذا اختار السكن فيها، وفي الأحياء الوطنية لا الأجنبية، واتخذ مجلسه في مقهى تركي بلدي تحت شجرة زيزفون بجوار حائط مسجد «بايزيد».

ثم حاول أصدقاءه جهدهم أن يحولون عن رأيه ويعدلوا به عن غربته، فذهبت محاولتهم عبثًا. عرضوا عليه وظائف مختلفة الألوان كان آخرها مدير دار الكتب فكان جوابه: متى عرفت سبب خروجي من الوظيفة وسبب خروجي من مصر لم

تعرضوا هذا العرض؛ فالأصل قبل الفرع، والحرية مع الفقر خير من الذل مع الغنى.

قد رُزق عينا يرى بها غير ما يرى جمهور الناس؛ فكثيراً ما كان يحتقر من يجله الناس، ويجل من يحتقره الناس؛ لأن له مقاييس تقدير تختلف عن مقاييسهم. ليس في مقاييسه اعتبار لثروة ولا جاه، ولا منظر، ولا حسب، ولا نسب.

حتى مكانه العام الذي كان يختاره لمقابلة أصدقائه لا يختاره لوجهته، وإنما يختاره لنظافته، ولأن صاحبه مسلم، ولأنه يتنفس فيه جواً شرقياً لا غربياً، ولأنه ليس فيه امتيازات أجنبية، وهكذا من اعتبارات متعددة لم أستطع أن أعرف منه إلا بعضها.

ويفضل أن يزور حلاقاً كان زميلاً له في المدرسة على أن يزور باشاً من الباشوات أو من يعده الناس كبيراً من الكبراء.

ليس للمال عنده إلا وظيفتان: قليلة يتبَّع به ويسد حاجاته الضرورية، وكثيره للمروعة. وأعرف له في ذلك فصولاً غاية في السمو، فلقد كان حيناً يسكن مع أسرة أوربية عميدها فرنسي، وربة الدار ألمانية، ولهما ابن وبنت، حتى إذا نشبت الحرب العظمى جُنِّدَ عميد الأسرة، فأحلت الأسرة فقيدنا محلّه على رأس المائدة. وكان كثيراً ما يدور الجدال على المائدة في نظريات الحرب وخصوصاً بين الفتى والفتاة، فكان الفتى يذهب مذهبه أبيه ويتعصب لفرنسا وحلفائها، ثم كان من الفتى أن طعن تركيا في سمعتها وقيمتها، ولم يكن يعرف عصية الفقيد لتركيا، فلم يعد علي فوزي يطبق البقاء بعد في البيت، ولكن ماذا يصنع ووفاءه يقضي بمراعاة هذه الأسرة بعد غياب عميدها، وعصيته التركية تأبى أن يسكن في البيت بعد ما كان من الفتى؟ لا يحل هذا الإشكال إلا احتقار المال، فقد تظاهر بأنه يأخذ درساً على السيدة الألمانية

ودفع ما كان يدفعه أيام سكناه لم ينقص منه شيئا وإن قلل ذهابه بعد ذلك لأخذ
الدرس.

وكان منظره في استانبول غريبا: يجلس في مقهى عرفه البؤساء والمحتاجون فهو
يمنحهم ما أمكنه، وهو الفقير الذي لا دخل له إلا معاشه الخمسة والعشرون جنيها،
ينفق منها ثلثها على نفسه، وثلثيها على مروهته، وطويل أن نعد مآثره في هذا الباب.

أحب العزلة وأكثر التفكير؛ فهو في بيته وحده، إذ لا زوجة له ولا ولد، وفي
تروضه وحده غالبا؛ هو وحده في أكثر أوقاته، صديقه الكتاب؛ ثم ضعفت أعصابه
ففقد صداقة الكتاب أيضًا إلا نادرا، وكان تفكيره في العالم حيناً وفي نفسه كثيرا.

وهذه حالة تستبج الوحشة، وتستبج التشاؤم، وتستبج الحزن والانقباض،
وكذلك كان شأنه.

غلب عليه الخجل في غلو، والخجل - كما يقول بعض علماء النفس - سببه كثرة
تفكير الإنسان في نفسه، فهو إذا مشى ظن أن الناس كلهم ينظرون إليه وينقدون
مشيته، وإذا تكلم ظن أن الناس كلهم ينصتون إليه وينقدون كلامه؛ وإذا تحرك أو
سكن أو تنفس فالتاس يعدون حركاته وسكناته وأنفاسه؛ فكان هذا الخلق فيه أكبر
شقاؤه؛ وبلغت به الحالة أن كان في آخر أيامه إذا جلس في مقهى اختار مكانه وراء
عمود، وإذا سكن في «بنسيون» صحا قبل أن يصحو الناس، وعاد بعد أن ينام
الناس، حتى لا يراه الناس؛ وإذا عزم على الرياضة فليلا حتى تستره ظلمة الليل،
وإذا مشى في الشارع ليلا اختار من الشوارع أخلاها من الناس.

تملكه خلق الرحمة فظهر منه في كل شيء. رحم الناس فخرج لهم عن ماله،
ورحم المرأة فأبى أن يتزوج، ورحم الحيوان فعاش نباتيا، وأخيرا رحم نفسه؛ وويل
للإنسان إذا رحم نفسه وأشفق عليها، إنه ليعذب في ذلك عذابا لا يعدب به أحد؛ نعمة

كبرى أن يرحم الإنسان غيره، وشقوة كبرى أن يرحم الإنسان نفسه؛ فالرحمة
استضعاف للمرحوم، فإذا استضعف نفسه فهناك الألم والحسرة، وهناك فقدان الثقة
بالنفس، وهناك انسحاب من الجهاد في الحياة، وهل الحياة إلا جهاد؟

رحم الله «علي فوزي»، فقد عاش غريبا، ومات غريبا، وأخشى أن يُبعث غريبا.

الشمس

أي شيء أحب إلى النفس، من المتعة هذه الأيام بالشمس، والحديث عن الشمس؟

فقد أقرسنا البرد حتى اصطككت منه أسناننا، وانكمش جلدنا، وبست أطرافنا، وحتى ودنا -إذا رأينا النار- أن نحضنها، وإذا رأينا الجمرة أن نلتهمها؛ ولوددت في هذه الأيام أن أكون فرانا، أو طباخا، أو سائق قطار، حتى لا أفارق النار.

كل شيء في الطبيعة جميل، وأجمل ما فيها شمسها.

وهي في شتائنا أجمل منها في صيفنا، ولها في كلِّ جمال.

فلها -صيفا- جمال القوة، وجمال القهر، وجمال السفور الدائم، نُعْظِمُها ونجلها؛ ونهرب منها ولكن نحبها، تقسو أحيانا ولكننا نرى الخير في قسوتها، فهي كالمرىي الحكيم، تقسو وترحم، وتشد وتلين؛ تلفحنا بنارها، ولكنها نار كنار الحب يكتوي بها قلب العاشق، ثم هو يرجو بقاءها ويخشى زوالها، ترسل علينا شواظا من نار، فتسفع جلودنا، وتكوي جباهنا؛ حتى إذا غلا جوفنا، ووغر صدرنا، غابت عنا، وأرسلت رسولها اللطيف الوديع (القمر) لخفف من حدتنا، ولطف من سورتنا، وأصلح ما أفسدت، وضمّد ما جرحت؛ فإذا خشيت أن نطمئن إليه، أدركتها الغيرة منه فغيبته، وطلعت علينا ببهائها وجمالها وجلالها، وهكذا دواليك.

وهي -شتاء- تطلع علينا بوجه آخر، ترينا فيه جمال الحنو، وجمال الدعة، وجمال الرحمة والعطف، وجمال الغادة اللعوب؛ تشاغلك فتظهر وتختفي، وتسفر وتتجب، وتخرج من قناعها ثم تتقنع.

وتتقم من رسولها الذي غارت منه صيفا، فتطلعه علينا في جو بارد لا نطقه،
حتى لا نفكر إلا في دفتها ونعمتها، ولا نشاق لشيء شوقنا لرؤيتها.

فما أجملها قاسية وراحة! وما أجملها واصلة وهاجرة!

تلون بشتى الألوان فتسحر العقول، وتبهر العيون؛ فهي تارة بيضاء، وتارة
صفراء، وتارة حمراء؛ ثم لا تستطيع أن تحكم هي في أيها أبيض وأجمل، فهي تزين ثيابها
بأكثر مما تزينها ثيابها.

فتحتُ النافذة قبل أن أكتب مقالي، فتدفقت في حجرتي أشعتها الفضية
اللامعة، وملأتها روحا وحياة، وملأتني دفئا، وملأتني معاني، وكانت حياتي في
حجرتي قبل زيارتها حياة مظلمة باردة جامدة لا معنى فيها ولا روح.

خلعت من جمالك على الزهر، فكان فتنة للناظرين؛ فجعله من جمالك، ولونه
قبس من ألوانك، وحياته مدد من حياتك، فأبيضه وأحمره، وأصفره وأزرقه، ليس
إلا نعمة من نعمك، وأثرا من فيضك.

فالوردة الحمراء ليست إلا نقطة من دمك، والياسمين الأبيض ليس إلا لمحة من
نورك، والنرجس الأصفر ليس إلا تبرا ذائبا من شعاعك.

لقد أبيت على الناس أن يديموا النظر إلى جمالك، فألهتهم بالنظر إلى بعض
آثارك، ولونت الأزهار بألوانك، وأريتهم قدرة إبداعك، فشغل الجاهلون به عنك،
وشغف به العارفون على أنه قبس منك؛ يطالعون جمالك فيه، ويقرءون معانيك في
معانيه.

ثم شألك في البحر عجب أي عجب! تضربينه بشعاعك، وتلفحينه بنارك
فيتحول ماؤه بخارا، يصعد إليك ليستجير منك، ويمثل بين يديك لتمنحيه عفوك،
وتنيليه عطفك، حتى إذا شعر برضاك، وأمن من غضبك، دمع دمعة السرور،

ففارقته ملوحته، وعاد إليه صفاؤه وعذوبته، واكتسب منك الحياة كان ماء جاريا، بعد أن كان ماء راكدا، فجرى جداول وأنهار، فأرسلته إلى خدمك في الأرض من أزهار وأشجار يحي ذابلها، ويستخرج دفينها، وينضج ثمارها.

ثم تحركت فملأت الحياة حولك حركة؛ فكم من نجوم لا يعلمها إلا الله تسير حولك وتحذو حذوك، ثم تلعب بالهواء من سخونة وبرودة فيتحرك، ويتعلم منك اللعب فيلعب بالبحار والأنهار والأشجار، وبكل شيء يمر به، فإذا الدنيا كلها لعبة في يده.

ثم أنت أنت حرقت الأشجار والنبات، وطمرتها تحت صفحة الأرض آفا من السنين بعد آلاف، حتى إذا تنبه الناس آخر الزمان فطنوا إلى أنه مستودع من مستودعاتك، فاستغلوه في كل ما نرى الآن من حركة، فهو سر حركة المصانع والبواخر، وسر حركة القطارات والآلات، فلو قلنا إن كل حركة في الأرض أنت مصدرها لم نبعد.

تلعب بالناس فتتيمينهم وتوظفينهم، ترسلين أشعتك الجميلة على العالم فيتنبه، وتغييب عنه فينام؛ ثم تتداولين العالم فتنبهين قوما وتتيمن قوما، ويراك قوم شروقا وقوم غروبا، وقوم ليلا وقوم نهارا، وقوم صيفا وقوم شتاء. وأنت أنت في عليائك، لا تملين الحركة، ولا تشعرين بنوم أو يقظة، ولا بليل أو نهار.

بل بك يجري الدم في عروقنا، قدمنا من غذائنا، وغذاؤنا من حرارتك، وتسليطينا على الأرض فتخرجين منها {حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا}؛ بل ما أفكارنا إلا منك، أليست أفكارنا من دمائنا، أليست دماؤنا منك؟

بل لقد كنت حيناً من الأحيان إله الناس ومعبودهم، فكنت مصدر وحيهم،
ومصدر إلهامهم، ووجهة عبادتهم، وأوك مصدر الحياة فعبدوك، وأوك مصدر
النعم فمجدوك، وأوك يحيط بك كثير من الغموض على جلائك ووضوحك
فأهوك، وأوك أكبر النجوم قريوك.

ثم أتى الأنبياء، فأوك تأفلين فسلبوك ألوهيتك، وأوك تتغيرين فحولوا
عبادتهم عنك.

ولكن إن سلبوك ألوهيتك فلم يسلبوك عظمتك وجمالك وجلالك، وكفاك
ذلك فخرا.

لست أدري أأصاب العرب إذا أنثوها، أم أصاب الإنجليز إذا ذكروها؛ لعل
الإنجليز رأوا القمر وادعاهم هادئاً رقيقاً فأنثوه، ورأوا الشمس قوية قاهرة قاسية
فذكروها؛ ولكن لعل واضعي اللغة من الإنجليز لو عاشوا في عصرنا، ورأوا ما نرى
من قوة المرأة وضعف الرجل، وجبروت المرأة واستكانة الرجل، لرجعوا إلى رأي
العرب، وآمنوا ببعدهم نظرهم، وقلبوا الذكر مؤنثاً، والمؤنث مذكراً.

ولعل العرب أيضاً رأوا الشمس أم الأرض وأم القمر وأم الزرع فأنثوها، إذ لا
يلد إلا امرأة؛ ورأوا القمر طفلاً يدور حول أمه فذكروه، واحتاط العرب أن يدرك
الشمس شيء مما يخلق الأنوثة، فقال شاعرهم: «وما التأنيث لاسم الشمس عيب».

أما الشمس نفسها، فلم تعباً بتأنيث ولا تذكير، كما لم تعباً بمن أنثها وبمن
ذكرها.

فهي في سمائها تؤدي رسالتها، وتسير سيرتها، وتبهرننا بجمالها، وتوحي إلينا
بأسرارها.

فما أعظمك! وأعظم منك من خلقتك!

الرجولة في الإسلام

لعل من أهم الفروق التي تميز المسلمين في أول أمرهم وفجر حياتهم عن المسلمين اليوم «خلق الرجولة» فقد غنى العصر الأول بمن كانوا هامة الشرف، وغرة المجد، وعنوان الرجولة.

تتجلى هذه الرجولة في «محمد» إذ يقول: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته». كما تتجلى في أعماله في أدوار حياته، فحياته كلها سلسلة من مظاهر الرجولة الحقة، والبطولة الفذة، إيمان لا تزعزعه الشدائد، وصبر على المكاره، وعمل دائم في نصرة الحق، وهيام بمعالي الأمور، وترفع عن سفاسفها؛ حتى إذا قبضه الله إليه لم يترك ثروة كما يفعل ذوو السلطان، ولم يخلف أعراضا زائلة كما يخلف الملوك والأمراء. إنما خلف مبادئ خالدة على الدهر، كما خلف رجالا يرفعونها وينشرونها، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجلها.

وتاريخ الصحابة ومن بعدهم مملوء بأمثلة الرجولة، فأقوى ميزات «عمر» أنه كان «رجلا» لا يراعي الحق كبيرا، ولا يهالي عظيما أو أميرا. يقول في إحدى خطبه: «أيها الناس، إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه».

وينطق بالجميل في وصف الرجولة فتجري مجرى الأمثال، كأن يقول: «يعجبني الرجل إذا سيم خطة ضيم أن يقول: «لا» بملء فيه» - ويضع البرامج لتعليم الرجولة فيقول:

«علموا أولادكم العوم والرماية، ومروهم فليشبو على الخيل وثبا، ورووهم ما يجمل من الشعر». ويضع الخطط لتمرين الولاة على الرجولة، فيكتب إليهم: «اجعلوا الناس في الحق سواء، قرييهم كبعيدهم، وبعيدهم كقرييهم، إياكم والرشا والحكم بالهوى، وأن تأخذوا الناس عند الغضب»، ويعلمهم كيف يسوسون الناس ويربونهم على الرجولة، فيقول: «ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم، ولا تجمروهم فتفتنّوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم».

من أجل هذا كله كان هذا العصر مظهرا للرجولة في جميع نواحي الحياة، تقرأ تاريخ المسلمين في صدر حياتهم فيملؤك روعة، وتعجب كيف كان هؤلاء البدو وهم لم يتخرجوا في مدارس علمية، ولم يتلقوا نظريات سياسية، حكاما وقادة لخريجي العلم ووليدي السياسة - إنها هي الرجولة التي بثها بهم دينهم وعظماؤهم، هي التي سمت بهم وجعلتهم يفتحون أرقى الأمم مدنية وأعظمها حضارة، ثم هم لا يفتحون فتحاً حربياً يعتمد على القوة البدنية وكفى، إنها يفتحون فتحاً مدنياً إدارياً منظماً، يُعلّمون به دارسي العدل كيف يكون العدل، ويعلمون علماء الإدارة كيف تكون الإدارة، ويلقون بعملهم درساً على العلام أن قوة الخلق فوق مظاهر العلم، وقوة الاعتقاد في الحق فوق النظريات الفلسفية والمذاهب العلمية، وأن الأمم لا تقاس بفلاسفتها بمقدار ما تقاس برجولتها.

هل سمعت عطفاً على الرعية، وأخذ الولاة بالحزم كالذي روي أن معاوية قدم من الشام على عمر، فضرب عمر بيده على عضده فتكشف له عن عضد بض ناعم، فقال له عمر: «هَذَا وَاللَّهِ لِيُشَاغِلَكَ بِالْحِمَامَاتِ، وَذَوُو الْحَاجَاتِ تُقَطِّعُ أَنْفُسَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَى بَابِكَ!».

أو هل سمعت قولاً في العدل يحققه العمل كالذي يقوله عمر: «إِذَا كُنْتُ فِي مَنْزِلَةٍ تَسْعُنِي وَتُعْجِزُ النَّاسَ، فَوَاللَّهِ مَا تِلْكَ لِي بِمَنْزِلَةٍ حَتَّى أَكُونَ أَسْوَأَ لِلنَّاسِ؟» أو

هل رأيت حزما في الإدارة كالذي فعله في مسح سواد العراق وترتيب الخراج،
وتدوين الدواوين، وفرض العطاء؟

حقاً لقد كان عمر في كل ذلك رجلاً، ولئن كان هناك رجال قد امتصوا رجولة
غيرهم، ولم يشاءوا أن يجعلوا رجالاً بجانبهم، فلم يكن عمر من هذا الضرب، إنما
كان رجلاً يخلق بجانبه رجالاً، فأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص والمثنى بن
حارثة، وكثير غيرهم كانوا رجالاً نفخ فيهم عمر من روحه كما نفخ فيهم الإسلام
من روحه، وأفسح لهم في رجولتهم، كما أفسح لنفسه في رجولته.

وكان أدبهم في ذلك العصر صورة صحيحة لرجولتهم يتغنون فيه بأفعال
البطولة ومظاهر الرجولة ويقولون:

وخير الشعر أشرفه رجالاً وشر الشعر ما قال العبيدُ

يعتد الشاعر بنفسه ويسمو بها عن النعماء والبأساء فيقول:

قد عشتُ في الناس أطواراً على طريق شتى وقاسيتُ فيها اللين والفظعاً
كُلاً بلوتُ فلا النعماء تُبطرنى ولا تخشعتُ من لأوائها جزعاً
لا يملأ الهول صدري قبل موقعه ولا أضيقُ به ذرعاً إذا وقعاً

ويعتز بشرفه وقوته وإيائه الضيم فيقول:

وكنيت إذا قوم رموني رميتهم فهل أنا في ذايال همدان ظالمٌ
متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنقأ حياءاً تجتنبك المظالمُ

ويمدح رجل قومًا فيقول: «إنهم كالحجر الأخضر إن صادمته آذاك وإن تركته
تركك».

ويقول أميرهم: «والله ما يسرني أني كُفيتُ أمر الدنيا كله، قيل ولم أيها الأمير؟
قال: لأنني أكره عادة العجز» إلى كثير من أمثال ذلك.

وعلى الجملة فأدبهم تام الرجولة، قد شعت فيه الحياة، وامتلاً بالقوة، حتى
اللاهي الماجن كأبي محجن الثقفي: كان يغازل، وكان يشرب، ولكن إذا جد الجدُّ
وعزم الأمرُ كان رجلاً يبيع نفسه لدينه، ويبيع كل شيء لشرفه وشرف قومه.

ونستعرض الغزل في الجاهلية وصدر الإسلام، فإذا هو غزل قوي لا مُيوعة
فيه، ولا تخنث، لا يذوب صباة، ولا يلتاع هيأماً، ولا يفقد الرجل فيه رجولته لحبه.

وَقَلْتُ لِقَلْبِي حِينَ لَجَّ بِیَ الْهَوَى	وَكَلَفْنِي مَا لَا أَطِيقُ مِنَ الْحُبِّ
أَلَا أَيُّهَا الْقَلْبُ الَّذِي قَادَهُ الْهَوَى	أَفَقُ لَا أَقَرَّ عَيْنِكَ مِنْ قَلْبٍ
وَمَا أَنَا بِالنَّكْسِ الدَّنِيِّ وَلَا الَّذِي	إِذَا صَدَّ عَنِّي ذُو الْمَوَدَّةِ أَخْرَبُ
وَلَكِنِّي إِنْ دَامَ دُمْتُ وَإِنْ يَكُنْ	لَهُ مَذْهَبٌ عَنِّي فِي عَنْهُ مَذْهَبُ

ولم يَضِنَّ التاريخ على المسلمين من حين لآخر برجال لفتوا وجه الدهر، وغيروا
مجرى الحوادث، ودفعوا عن قومهم الخطوب، وأنزلوهم منزل العز والمنعة تضيق
عن وصف أعمالهم الرسائل والكتب.

ثم توالى الأحداث، وتتابع النوب، تفل من شوكتهم، وتفت في رجولتهم
حتى رأيناهم بذلوا الشرف للمال، وقد كان آباؤهم يذلون المال للشرف، ولم ينظروا
إلا إلى أنفسهم وذويهم، وكان آباؤهم ينظرون إلى دينهم وأمتهم، وتفرقوا شيعاً
وأحزاباً يُذيق بعضهم بأس بعض، فكانوا حرباً على أنفسهم بعد أن كانوا جميعاً حرباً
على عدوهم - ورضوا في الفخر أن يقولوا: «كان آباؤنا» مع أن شاعرهم يقول:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَحْمِ الْقَدِيمَ بِحَادِثٍ مِنْ الْمَجْدِ لَمْ يَنْفَعَكَ مَا كَانَ مِنْ قَبْلِ

ونأثرهم يقول: «لم يدرك الأول الشرف إلا بالفعل، ولا يدركه الآخر إلا بما
أدرك به الأول».

ورأينا خير ما في الأمم حاضرها وخير ما فينا ماضيها.

أريد بالرجولة صفة جامعة لكل صفات الشرف من اعتداد بالنفس واحترام لها، وشعور عميق بأداء الواجب، مهما كلفه من مصاعب، وحماية لما في ذمته من أسرة وأمة ودين، وبذل الجهد في ترقيةها، والدفاع عنها، والاعتزاز بها، وإباء الضيم لنفسه ولها.

وهي صفة يمكن تحقيقها مهما اختلفت وظيفة الإنسان في الحياة، فالوزير الرجل من عد كرسية تكليفاً لا تشريفاً، ورآه وسيلة للخدمة لا وسيلة للجاه، أول ما يفكر فيه قومه، وآخر ما يفكر فيه نفسه، يظل في كرسية ما ظل محافظاً على حقوق أمته، وأسهل شيء طلاقه يوم يشعر بتقصير في واجبه، أو يوم يرى أن غيره أقوى منه في حمل العبء، وأداء الواجب، يجيد فهم مركزه من أمته ومركز أمته من العالم، فيضع الأمور مواضعها ويرفض في إباء أن يكون يوماً ما عوناً للأجنبي عليها، فإذا أريد على ذلك قال: «لا» بملء فيه، فكانت «لا» منه خيراً من ألف «نعم» وكانت «لا» منه وساماً تدل على رجولته، وكانت «لا» منه خير درس للناشئين يتعلمون منه الرجولة - يقتل المسائل بحثاً ودرسا، ويعرف فيها موضع الصواب والخطأ، ومقدار النفع والضرر، ثم يقدم في حزم على عمل ما رأى واعتقد لا يعبأ بتصفيق المصفيقين، ولا بزم القادحين، إنما يعبأ بشيء واحد هو صوت ضميره، ونداء شعوره.

والعالم الرجل من أدى رسالته لقومه من طريق علمه، يحتقر العناء يناله في سبيل حقيقة يكتشفها أو نظرية يبتكرها، ثم هو أمين على الحق لا يفرح بالجديد لجدته، ولا يكره القديم لقدمه، له صبر على الشك، وإغرام بالتفكير وبطء في الجزم، وصبر على الشدائد، وازدراء بالإعلان عن النفس، وتقديس للحقيقة، صادفت هوى الناس أو أثارت سخطهم، جلبت مالا أو أوقعت في فقر، يفضل قول الحق وإن أهين على قول الباطل وإن كرم.

والصانع الرجل من بذل جهده في صناعته، فلم يشأ إلا أن يصل بصناعته إلى أرقى ما وصلت إليه في العالم، عشقها وهام بها حتى بلغ ذروتها، يشعر بأنه وطني في صناعته كوطنية السياسة في سياسته، وأن أمته تخدم من طريق الصناعة كما تخدم من طريق السياسة، وأن الصناعة لا تقل في بناء المجد القومي عن غيرها من شؤون الدولة، فهو لهذا يحسن فنه، وهو لهذا يحسن سلوكه، وهو لهذا يرفض ربحاً كثيراً من الخداع، ويقنع بربح معتدل مع الصدق، وهو لهذا كله كان رجلاً.

وفي الرجولة متسع للجميع، فالزارع في حقله قد يكون رجلاً، والتلميذ في مدرسته قد يكون رجلاً، وكل ذي صناعة في صناعته قد يكون رجلاً، وليس يتطلب ذلك إلا الاعتزاز بالشرف وإباء المذلة.

من لنا ببرنامج دقيق للرجولة كالبرنامج الذي يوضع للتعليم، يبدأ يرمى الطفل في بيته فيعلمه كيف يحافظ على الكلمة تصدر منه كما يحافظ على الصك يوقع عليه، ويعلمه كيف يكون رجلاً في ألعابه، فيعدل بين أقرانه في اللعب كما يجب أن يعدلوا معه، ويلعبهم بروح الرجولة من حب ومساواة ومرح في صدق وإخلاص.

ويسير مع التلميذ في مدرسته، فيعلمه كيف يحترم نفسه، وكيف لا يفعل الخطأ وإن غفلت عنه أعين الرقباء، ولا يغش في الامتحان ولو تركه المعلم وحده مع كتبه؛ وكيف يعطف على الضعفاء ويبدل لهم ما استطاع من معونة.

و يتمشى مع الطالب في جامعته فيعوده الاعتزاز بنفسه والاعتزاز بجامعته والاعتزاز بأتمته. وبيعه على أن يفكر في غرض شريف له في الحياة يسعى لتحقيقه - حتى إذا ما أتم دراسته كان قاضياً رجلاً أو معلماً رجلاً، أو سياسياً رجلاً، وعلى الجملة إنساناً رجلاً.

ويتابع الأمة فيضع لها الأدب الذي يبعث القوة، والأناشيد والأغاني التي تملأ
النفس أملاً. ويراقب في شدة وحزم دور السينما والتمثيل والملاهي، فلا يسمح بها
يضعف النفس ويثلم الشرف، ولا يسمح بها يحيج الشهوة ويميت العزيمة، ويأخذ
على أيدي الساسة والحكام ورجال الشرطة، حتى لا يقسوا على الناس فيميتوهم،
ولا يرهبوهم فيذلّوهم.

من يبادلني فيأخذ كل برامج التعليم، وكل ميزانية الدولة ويسلمني برنامجاً
للرجولة وميزانية لتنفيذه ليس غير.

ولي كِبْدٌ مقروحة، من ييعني بها كِبْدًا ليست بذات قُروح

قيمة الثقافة

للثقافة قيمة مالية مقررة، فالليسانس والدكتوراه والدبلوم، وما إلى ذلك من الأسماء، هي عنوان للثقافة، أو بعبارة أخرى تتويج لمجهود سنين قضيت في تحصيل العلم، وتأتي «المالية» بعد فتقدر هذه الدرجات بالجنية، وتجعل لكل منها قيمة مالية خاصة؛ ولها العذر في أن تخالف بين الدرجات، وتسوي بين حاملي الدرجة الواحدة وإن اختلفوا في مقدار الثقافة، لأنه لم يخترع إلى الآن مقياس دقيق يوزن به الفكر ومقدار استعداده وزناً صحيحاً، ولو اخترع هذا الميزان لألغيت الدرجات، واكتفى بوزن الكفايات؛ ولكن من لنا بذلك وقد عجزت المدنية القديمة والحديثة عجزاً تاماً عن اختراع هذا الميزان؟

وللثقافة كذلك قيمة اجتماعية، فالثقافة ترفع من كان من طبقة وضيعة، إلى أن يكون أحياناً مساوياً لمن كان من طبقة رفيعة، فحامل الشهادة العليا يرى نفسه - وقد يرى الناس معه - أنه صالح لأن يتزوج من طبقة راقية، مهما كان منشؤه ومرباه؛ وقديماً قال الفقهاء في «باب الزواج»: إن شرف العلم فوق شرف النسب، والمثقف الراقى له الحق أن يكون عضواً في الأندية الراقية من غير أن يسأل عن نسبه وحسبه، بل له أن يُدَلَّ على أبناء الطبقة الأرستقراطية إذا نال درجة لم ينالوها، وعرف من أنواع الثقافة ما لم يعرفوا، وله من حرمة الناس في المجتمعات والأندية ما لا يناله غير المثقفين، وإن كانوا من بيت خير من بيته، وفي نسب خير من نسبه.

ولكن لا أريد أن أتحدث في شيء من هذا ولا ذاك، فليست تعينني الآن الناحية المالية للثقافة؛ ولا الناحية الاجتماعية؛ وإنما أريد أن أتساءل: ما القيمة الذاتية للثقافة؟ إن المال واحترام الناس عرض خارجي، فما القيمة الثابتة التي تتصل بنفس المثقف ولا تفارقها في فقر أو غنى، وفي جاه وغير جاه؟

أهم قيمة - في نظري - لثقافة المثقف هي كيفية نظره إلى هذا العالم، ذلك بأن عيون الناس في نظرها إلى الأشياء وحكمها عليها ليست سواء؛ فعيونهم الحسية وإن اتفقت في الحكم على الألوان بالسواد والبياض والحمرة والصفرة، وإن اتفقت في الحكم على الأبعاد قريبا وبُعدا، وإن اتفقت في الحكم على الأحجام كبرا وصغرا، فإن العيون النفسية لا تتفق في نظرها ولا حكمها، فالشيء في نظر الأبله غيره في نظر الفيلسوف، وبين هذين درجات لا حد لها، وليس للشيء الواحد معنى واحد بل معان متعددة تتسلسل في الرقي، والناس يدركون من معانيه بحسب استعدادهم وثقافتهم وأذواقهم.

وقد حكوا أن عيسى عليه السلام مر هو وأصحابه بجيفة، فقالوا: ما أخبت رائحتها! وقال هو: ما أحسن بياض أسنانها! ونظر الرجل العادي إلى حديقة مزهرة غير نظر الأديب الفنان، هذا ينظر إليها فيقرأ فيها من المعاني والجمال ما يمتزج بنفسه، ثم يسيل على قلمه كأنه قطع الرياض - وذاك ينظر إليها نظرة مبهمة، لا تُسفر عن معنى، ولا تُعرّف لها وجهة؛ نظرة بليدة جامدة، لا يسعفها ذوق، ولا تخدمها قريحة.

ومثل هذا في كل شيء يعرض على العين، فكل شيء في السماء وفي الأرض لا يحمل معنى واحدا، بل معاني متعددة، وقيمة الثقافة أن تنقل العين من أنظار سخيفة ومعان وضیعة إلى أنظار بعيدة ومعان سامية؛ فالأديب إذا لم ينظر في المرأة إلا إلى حسن جسمها وتناسب أعضائها، لم يكن أديبا مثقفا، وقلنا له كما قال المتنبي:

وما الخيلُ إلا كالصديق قليلةٌ وإن كثرت في عين من لا يُجرب
إذا لم تشاهد غير حسن شياها وأعضائها فالحسن عنك مغيب

ففرق كبير بين أن تنظر إلى المرأة كشیطان وأن تنظر إليها كإنسان وأن تنظر إليها كملك، وفرق كبير في كل شيء في الوجود يعرض على أنظار الناس.

وكل إنسان له نظراته في العالم من أسفل شيء إلى أرقى شيء، من مادة تحيط به ومال يُعرض عليه وأعمال تتعاقب أمام نظره وإله يعبد، هو في كل ذلك قد يكون سخيلاً في نظراته، وضيعاً في رأيه، وضيعاً في حكمه. وقد يبلغنا في ذلك كله من السمو منزلة قل أن تنال. وعمل الثقافة أن تتشله من تلك النظرات الوضيعة إلى هذه النظرات السامية.

وليست نظرات الإنسان إلى الحياة قوالب من الآجر، كل قالب مستقل بنفسه، محدود بحدوده، إنما هي كسائل لطيف إذا لوّنت نقطة منه بلون، شع اللون في سائر المسائل، وإذا سخنت جزءاً منه وزرع حرارته على السائل كله حتى يتعادل، بل الرأي والنظرات ألطف من ذلك وأدق وأرق، فإذا رقى النظر إلى شيء أثر ذلك رقى في سائر النظرات. فكل نظرات الحياة متأثرة بنظرك إلى نفسك والعكس، بل نظرك إلى الله تعالى متأثر بنظرك إلى عالم المحيط بك، وهذا ما يجعل الثقافة في أية ناحية من النواحي الأدبية والعلمية تؤثر أثراً كبيراً في النواحي الأخرى حتى ما نظن أن ليس له صلة بت. وقد أصاب من قال: «إن رقي الأمة في الموسيقى وتذوقها الصوت الجميل والغناء الجميل يجعلها تتعشق الحرية وتأنف الضيم وتأبى المذلة»، فمحيط المخ والعقل والشعور محدود وشديد الحساسية، كل ذرة فيه تتأثر بأقل شيء، وتؤثر بما تأثرت- والفكرة الجديدة قد تدخل في الفكر فتقلبه رأساً على عقب، وتجعل من صاحبه مخلوقاً جديداً يقل وجه الشبه بينه وبين ما كان من قبل، فتجعله في أعلى عليين، أو أسفل سافلين.

إن كان هذا صحيحاً، وكانت قيمة الثقافة الذاتية في مقدار ما أفادت المثقف في وجهة النظر إلى الأشياء وتقويمها قيمياً جديدة أقرب إلى الصحة أسلمنا ذلك إلى نتائج خطيرة؛ فدين خير من دين بمقدار ما تحاول تعاليمه من رفع مستوى النظر إلى الله تعالى وإلى الحياة؛ وعلم خير من علم باعتبار ما يؤدي إليه من نظر راق صحيح؛

وثقافة الإنسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب، وما تعلم من العلوم والآداب، ولكن بمقدار ما أفاده العلم، وبمقدار علو المستوى الذي يشرف منه على العالم، وبمقدار ما أوحى إليه الفنون من سمو في الشعور وتذوق للجمال.

الرجل والمرأة

لعل الطبيعة شاءت ألا تجعل من الرجل إنساناً كاملاً، ولا من المرأة إنساناً كاملاً بل جعلت منهما معاً إنساناً كاملاً.

نقصت في الرجل ما أكملته في المرأة، ونقصت في المرأة ما أكملته في الرجل وقوت في الرجل ما أضعفته في المرأة، وقوت في المرأة ما أضعفته في الرجل.

فحيثما وجدت نقصاً في المرأة فاطلب كماله في الرجل؛ وحيثما وجدت نقصاً في الرجل فاطلب كماله في المرأة.

فالمرأة والرجل كليهما الثوب تزيد في أحدهما ما تنقصه في الآخر، وتنحرف في أحدهما انحرافاً يبيى مكاناً للآخر، أو ككل شيء فيه «عاشق ومعشوق» يُعد كل منهما إعداداً يجعله صالحاً للآخر، أو كطاقة الزهرة لا تجمل إلا حيث تتعدد الألوان وتتناسق، أو كفرقة الموسيقى يكمل الطبل ما نقصه المزمار، ويكمل المزمار ما نقصه الطبل ولا تجمل الموسيقى إلا بهما معاً.

فإذا رأيت في الرجل حبا في التعميم رأيت في المرأة حبا في التخصيص. هي تحب في العلم المثال الجزئي. وهو يحب القاعدة الكلية. هي إذا تكلمت عن المنزل تكلمت عن منزلها وقارنته بمنازل صديقاتها، وأما هو فسرعان ما يطفر إلى ذكر قاعدة عامة، وهي إذا تكلمت في الحب تكلمت في حباها أو حب مثيلاتها، وهو إذا تكلم في ذلك انتقل سريعاً إلى وضع قوانين للحب، فنظرتها -على العموم- نظرة جزئية نفاذة، ونظرته -على العموم- نظرة شاملة وقد لا تكون دقيقة. وإذا تكلم هو عن الجمال كفكرة مجردة تكلمت هي عن فلانة الجميلة أو فلان الجميل. وإذا قال هو ما أحسن الساء! قالت هي ما أجمل القمر؟

ومن أجل هذا كانت المرأة في العمليات خيراً من الرجل. وكان الرجل في النظريات خيراً من المرأة.

فلست ترى فلاسفة من النساء في الطبقة الأولى لأن الفلسفة أساسها التعميم وهي لا تحسنه، وأساسها النظريات وهي لا تجيدها. وأهم أبوابها ما وراء المادة، والنظر الجزئي يتطلب المادة. قد تجد طالبات فلسفة، وقد تجد حائزات لشهادات فلسفية، ولكن قل أن تجد فيلسوفة خالقة لنظريات فلسفية فذلك ليس من طبعها عادة.

هي تحسن تدبير المال أكثر مما يحسن الرجل، فلو أعطى مال للمتعلمات وأعطى نظيره للمتعلمين لكان الأغلب الأرجح أن تحسن المرأة استعماله أكثر من الرجل، ولا تنفقه في مشروعات خيالية كما يفعل الرجل، ولا تقامر به لأن المقامرة نوع من المشروعات الخيالية، ولا تفنيه إفتاء سريعاً اعتماداً على ما يأتي به المستقبل كما يفعل الرجل، لأنه أكثر نظريات، وأوسع خيالاً، وهي أحسن تقديرًا للواقع وأقرب آمالاً.

والأمر في الخيال كالأمر في النظريات، فالنظريات تحتاج إلى فرض يخلقه الخيال، ولذلك كان الرجل أوسع خيالاً وأبعد مرمى وأكثر تحليقاً في السماء. ومصدق ذلك نظرة إلى الشعراء، والشعر ميدان الخيال وقريب الصلة بالفلسفة. والمرأة لا تحسن الشعر كما لا تحسن الفلسفة، فإن فتشت في الأدب العربي فقل أن تجد امرأة كالخنساء، ومع هذا فما الخنساء وما شعرها؟ إن هي إلا ندابة مؤدبة لم تحسن القول إلا في رثاء أخويها. وأكثر ما روي عن النساء في الشعر إنما هو من قبيل الرثاء القريب الخيال. وهو ليس إلا بكاء على فقيد جزئي محسوس صيغ في قالب شعري محدود، فأما ما عدا هذا الضرب من الأدب فلم تنل منه حظاً كما نال الرجل. وهذا في الأدب العربي كما هو في الأدب العربي وجدت فيه شاعرات ولكنهن قليلات، ولسن مع ذلك من أرقى صنف.

وليس هذا مما يمس مكانة المرأة في شيء. فكلتا التغميتين من الميل إلى الواقع والخيال لا بد منه في هذا العالم، فإن سبق الرجل بنظرياته وخباله فهو في حاجة إلى امرأة تذكره بالواقع. وتحد من إمعانه في الوهم وإسرافه في الخيال، فهو بيني وهي تحافظ على ما بنى، وهو سفينة وهي صبارتها، وهو من الخيالة وهي من الرجالة، وهو يطير وهي تمشي في تودة. وكل لا بد منه في جيش الحرب، وكل لا بد منه في جيش العالم. هو يتقدم الجيش فيصاب في الصف، وهي تعني به ممرضة في المستشفى. هو يتقدم في الحياة ويخاطر ويجمع المال وهي تدبر وجوه إنفاقه. فهو له السلطان الأكبر خارج البيت لأن ذلك مجال المخاطرة والنظريات والخيال، وهي لها السلطان الأكبر في البيت لأنه مجال التجربة العملية والنظرات الجزئية والخيال المحدود.

هن محافظات غالبا، وهم أحرار غالبا، فالثورات الاجتماعية والدينية والسياسية من الرجال أولا - لا من النساء - حتى طلب تحرير المرأة كان من قاسم أمين -أولا- قبل أن يكون من السيدة هدى شعراوي، ولعل ذلك في غير مصر كما هو في مصر. الأنبياء رجال لأن النبوة دعوة والدعوة ثورة. والعالم مدين في المحافظة على الدين للنساء أكثر مما هو مدين للرجال لأن المحافظة من طبعهن. والإلحاد في الرجال أكثر منه في النساء لأن الإلحاد ثورة أيضًا. والثورات السياسية وليدة الرجال لأنها وليدة الخيال، وهن يكرهن الثورة ويكرهن الخيال. قد تحسن المرأة الثورة على الأزياء فكل يوم نمط في الأزياء جديد: شعر طويل بعد شعر قصير، وثوب طويل بعد ثوب قصير، وقبعات أشكال وألوان، ومبلايس وأوضاع أنماط وأنماط، ولكن تسمية هذه ثورة من قبيل قولهم: سهام العين وفتك اللحظ وقتل المحب ونار الجوى وحرقة الفراق.

ولكن ما بال المرأة وقد حافظت على التقاليد في السياسة والدين والاجتماع وكرهت الثورة عليها، تراها وهي في الأزياء وما إليها أسرع الناس تغييرًا وأجهم تجديدًا وأكرهم للمحافظة؟ لعل الأمر أنها لم تخرج عن المحافظة قط ولكنها كانت بين محافظتين: محافظة على أسر الرجل ومحافظة على أنماط الأزياء، فقارنت بين المحافظتين واختارت أهون الضررين.

لعل سعة خيال الرجل وضيق خيال المرأة، وجريه وراء النظريات وميلها إلى تحديد الحياة بالواقع، هو الذي جعلها تسيطر على حياة الحب. فييدها المفاتيح لا بيده، هو يسبح وراء خياله، فإن كان شاعرًا ملأ الدنيا غزلا وتفنن في ضروب القول وأبدع، فأحيانا يرتفع إلى السماء فيتغزل الغزل الروحي، ويخلق ممن يحب صورة ملك كريم؛ وأحيانا يهبط إلى الأرض فيدق في وصف ملامحها ونظراتها وقوامها وكل شيء فيها، ويخترع في ذلك التشبيهات الرائعة، والتعبيرات الخيالية. وإن كان مصورًا تفنن في صورة من يحب وخلع عليها من تخيلاته وتصورات ما يجعلها فوق مخلوقات هذا العالم، وإن كان موسيقيا ألهمه الحب فأخرج قطعاً فنية بديعة أحيانا تبعث على اليأس وتستدرف الدمع، وأحيانا تستخرج البشر والسرور وتثير الأمل؛ أما هي فأملك لنفسها غالباً، وخير منه في تقدير الواقع والاعتراف بالحقائق. ولعلنا إذا أحصينا المتحرين لفشل الحب وجدنا أكثرهم رجالاً؛ ولعل أكثر من اندفع في سبيل الخيال من النساء كان يإغراء الرجل وبفضل ما أجاد من سحر القول وإتقان الغزل والبلاغة في الفن. فهو إن طار في الخيال فطبع، وهي إن جرت وراءه فتطبع. وربما كان هذا من الأسباب التي جعلت الناس رجالاً ونساء يحملون المرأة من التبعة في الحب وتوابعه أكثر مما يحملون الرجل.

قد تبدو المرأة أحد عاطفة من الرجل فهي سريعة الرضا سريعة الغضب سريعة الحب سريعة الكره. ترضيها الكلمة وتغضبها الإشارة، قريبة الدمعة قريبة

الابتسامة، ترق فتدوب حنانا، وتقسو فما تأخذها رأفة، تحب فتصفي الود، وتعادي فويلاه من عداوتها.

ولكن حتى في عواطفها وعواطفه هي عملية وهو نظري. ترحم فتحول رحمتها وحنانها إلى تمريض للجرحى وإعداد ملابس للمساكين. وتحب فترسم خطط الزواج، وتبغض فتطلب الفراق، وتُسِر فكل شيء يدل على سرورها، هي ضاحكة وهي مغنية وهي مرحة، وتحزن فكل شيء يدل على بكائها، فهي عابسة، وهي مكتبة، وهي توقع نغيمات محزنة. ثم هي تحب مشاركة الناس لها في سرورها وحزنها أكثر ما يجب الرجل. فليس للرجال مناحة كالتي للنساء ولا حفلات مرحة كل المرح كالتي للنساء. أما هو فيغضب على النظام فيثور وهي لا تعرف الثورة، ثم يجب وكثيرا بما يخلو ذهنه من زواج، ويكره فلا يطلب الفراق. ويسر ويكتم سروره، ويحزن ويكتم حزنه، ويقترن حبه وكرهه وسروره وحزنه بمشروعات خيالية لا تجيدها المرأة!

هذه ناحية واحدة من نواحي الرجل والمرأة وما أكثر نواحيهما.

ولكن إنصافا للحق يجب أن نذكر أن المرأة في عصور التاريخ لم تتح لها كل الفرص التي أتيحت للرجل. فلا منحت من الحرية ما منح؛ ولا مهدت لها وسال التعلم كما مهدت له؛ ولا تحملت من المسؤوليات ما تحمل. ولم تبدأ تتمتع بحريتها وتتاح لها سبل التعلم إلا من عهد قريب. على حين أن الرجل ظل قرونا طويلة حرا طليقا يتعلم ما يشاء ويزاول الأعمال ويتحمل تبعاتها.

فهل إذا ظلت المرأة في سيرها تتعلم وتكافح في الحياة وتطالب بما نقص من حقوقها تبقى هذه الفروق العقلية والخلقية كما أبتأها قبل؟ أو تضمحل الفروق تبعا لسير المرأة في سبيل المساواة؟ وبعبارة أخرى: هل هذه الخصائص العقلية التي

شرحناها في كل من الرجل والمرأة هي خصائص طبيعية كالخصائص الجسمية، أو هي فروق كانت نتيجة ما مر على الرجل من أطوار اجتماعية؟ ذلك ما سيكشف عنه الزمن.

فن الحكم

يعاني الشرق الآن محنة من أشد أنواع المحن، سببها أنه بدأ يحمل عبء نفسه، وقد كان يحمله عنه المحتل.

كان المحتل يصرف أمور الأمة كما يرى، فيحرّم ما يشاء ويحلّ ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء؛ فإذا استعان ببعض أفراد الأمة فبأيديهم لا بعقولهم؛ وقد يستعين بعقولهم أيضًا ولكن على شرط أن تكون في خدمة عقله، وفي الاتجاه الذي يرسمه قلمهم، فمن حدثته نفسه أن يفكر تفكيرًا حرًا طليقًا فالويل له. أمسك بيده المال وهو عصب الأمة، ينفق منه كما يشاء في الوجوه التي تخدم سلطانه، ويبخل كما يشاء فيما يعارض منهاجه؛ فهو شحيح كل الشح على التعليم العالي، وعلى الجيش وما إليه؛ وهو سخّي فيما يصلح الأرض ويدر الثروة. وعلى كل حال لم يقف من الأمة بموقف المعلم التزيه يؤهل تلميذه ليكون رجلًا يومًا ما، ويمرنه على أن يستقل بنفسه شيئًا فشيئًا، إنما وقف منه موقف السيد من عبده يسخره وله الغلة، ويطعمه ما يسد رمقه ليقوي على العمل له.

ثم كان أن جاهد الشرق جهادا شاقا طويلا جعل حكم الأجنبي له شاقا عسيرا، وساعدت الأحداث الخارجية وما فيها من قلق واضطراب على أن يغير المحتل سياسته، ويحمل الأمة أكبر عبئها، ويطلق لها اليد في التصرف في أكثر شؤونها. فأصبحت الأيدي التي كانت تعمل بعقول غيرها غير كافية، واشتدت الحاجة إلى العقول المفكرة، وأساليب الحكم العادلة الحازمة، فإذا بالشرق أمام مدرسي يلقي الأول مرة درسه، أو قاض يجلس على منصة القضاء أول عهده، حتى الذين تولوا الحكم في عهد الاحتلال والحكم بعد الاحتلال يشعرون بالفرق بين

الحكمين، واختلاف الصعوبة في العهدين، فقد كانوا في عهد الاحتلال أيديا مسخرة، وهم في عهد الاستقلال عقول مدبرة.

أول درس يجب أن يتعلمه الشرق تضحية الحاكم؛ وأعني بذلك أن يضحى بشهوته في سبيل التحقيق العدل الدقيق، فلا تستهويه شهوة المال، ولا شهوة الجاه، ولا شهوة المنصب فتصرفه عن إحقاق الحق وإبطال الباطل. وطبيعي أن الشعب لا يرضيه من الحاكم في عهد الاستقلال ما كان يرضيه منه في عهد الاحتلال؛ فقد كان في عهد الاحتلال يصبر على الظلم كارها بحكم القوة، فلما رأى أن حكومته منه، وأنها تستمد قوتها من قوته، لم يرض عن ظلم، بل هو يشتط في طلبه فلا يرضى عن عدل مشوب بظلم، إنما يريد عدلا خالصا، ويتطلب منها المثل الأعلى في العدالة وإلا لا يمتنعها رضاه.

ثم هو لا يرضى بتحقيق العدل السلبي وحده، مثل عدم الترقية لصلة أو قرابة، وعدم الظلم في توزيع مياه الري ونحو ذلك، إنما يطالب بتحقيق العدل الإيجابي أيضًا، مثل إصلاح نظم التعليم ونظم المال ونظم الصحة ونظم الشؤون الاجتماعية؛ فإذا قصر الحاكم في ذلك ملّ المحكوم وسئم وشكا من أن العهد الجديد لم يفرق عن العهد القديم إذ لم تتحقق آماله ولم يظفر بها كان يرجو من سعادة.

على أن من الإنصاف أن نقول إن تبعة صلاحية الحكم وعدمه لا تعود إلى الحاكم وحده، بل إن جزءًا كبيرًا يحمله الشعب المحكوم نفسه، فالحكم فعل وانفعال مستمران بين الحاكم والمحكوم، والنتيجة التي نراها من تقدم الأمة أو تأخرها هي نتيجةها معًا لا نتيجة الحاكم وحده.

والأثر الذي يقول «كما تكونون يؤولي عليكم» ليس قانونا للقدر بل هو قانون طبيعي؛ فحالة المحكوم تشكّل الحاكم - لا محالة - بالشكل الذي يتفق وحالته، وقد

علّمنا التاريخ أن عسف الحاكم لا يتم ولا ينجح إلا إذا سبقه استئام المحكوم وضعف إحساسه؛ وصلاحيه الحاكم مسبقة دائماً بتنبه المحكوم وحسن تقديره للعدالة والظلم.

بل إن أساليب الحكم ونظريات الحكومات لم تتقدم على مر الزمان تقدم الشعوب في تقدير العدل والظلم، فنظم الحكم التي وضعها اليونان والرومان وعلى رأسهم أفلاطون في جمهوريته وأرسطو في كتابه السياسة لم تتقدم كثيراً في عهدنا الحاضر، ولكن شعوب اليوم في فيهم الحكم ومدى سلطة الحاكم وإبائهم أن يتجاوز وحده أرقى بكثير في ذلك من شعوب الأمس الدابر. لقد كان الحكم يستطيع أن يحكم - في سهولة ويسر وإلى عهد طويل - شعبه على رغم أنفه بسلطانه وجبروته، ثم هو يتحمل أعباء الحكم على كتفه وحده؛ أما اليوم فلا يستطيع حاكم مهما أوتي من العقل والقوة أن يحكم إلا برضا شعبه وبمعونته وبمشاركته إياه في حمل العبء؛ وإن وجدت حالات تخالف ذلك فحالات شاذة لا يسمح النظام الاجتماعي ببقائها طويلاً.

بل تبين فساد رأي أفلاطون وأرسطو وأمثالهما في أن هناك طبقة خاصة يجب أن تحكم، وأنها وحدها الصالحة للحكم، وأن من عداها غير صالح إلا لأن يُحكم؛ وتبين أن الحاكم الحق للشعب هو الشعب نفسه، وإنما يركز آراءه في الحكم في أشخاص لأن الناس اعتادوا تجسيد المعاني والرمز إليها بمحسوسات تقريباً لعقولهم وتبسيطا لأفكارهم، ولا ينجح حاكم ولا مصلح إلا إذا مثل رأي الناس أو على الأقل رأي طائفة صالحة منهم، فلو أتى مصلح بما لا يتهيأ له فريق من الناس لعد مجنوناً، بل إن الشعب أو الطائفة منه هي التي تخلق حاكمها وتخلق مصلحها إذ هو ليس إلا مبلوراً لأفكارهم ومركّزاً لأرائهم. وليس الحاكم أو المصلح جذر الشجرة ولكن زهرتها، إنما الجذر والساق والأوراق هي الشعب بنفسه.

يميل الشرق إلى أن يحكم حكما ديمقراطيا، وله الحق في ذلك، لأنه جرب أنواعا من الحكم الاستبدادي على أنواعه المختلفة فكانت ممتة لمشاعره، عاتقة لتقدمه، وكان الحكام المستبدون ينعمون بكل صنوف الترف والنعيم على حساب بؤس الشعب وفقره.

ويميل إلى الديمقراطية، لأنها على ما بها من عيوب لا تزال أرقى أنواع الحكم وأبقاه، وحكم الاستبداد إن رضيته بعض الأمم حيناً، أو فرض عليها فرضاً حيناً، أو ارتكن على بعض الظروف حيناً، فليس هو الحكم الصالح للبقاء أبداً.

لقد انهار الاستبداد في مظاهره المختلفة وحلت محله الديمقراطية بأشكالها المختلفة. انهار استبداد رجال الدين بعد أن سيطروا على الشعوب أزماناً طويلة لقي فيها الناس من عنتهم ما كره إليهم الحياة.

وانهار استبداد الأب بأسرته، فلم يعد ذلك الأب الذي لا إرادة في البيت بجانب إرادته، ولا الأب الذي كلمته حكم، وطاعته غُثم، وحل محله أب هين لين يأمر حيناً فيطاع، ويؤمر حيناً فيطيع.

وتغيرت الغايات للسلطات فأصبحت الغاية من الحكومة لا أن تظهر بمظهر الأمر النهائي، ولكن أن تحقق العدالة والحرية للناس حتى للضعفاء؛ وأصبحت الغاية من الأب لا أن ينعم بسلطانه، وإنما الغرض منه ومن الأسرة كلها إيجاد جو صالح لنمو الطفل وتربيته ورفقيه. وليس الغرض من المعلم أن ينفذ إرادته بالعصا وإنما الغرض منه ومن الناظر والمدرسة كلها أن يمسكوا بدل العصا مصباحاً يضيء للتلاميذ حقائق الحياة وسبل الحياة.

ولكن هذا الحكم الديمقراطي ليس يصلح إلا بتنظيم دقيق، بل هو إلى النظام أحوج من الحكم الاستبدادي، لأن الحكم الاستبدادي يحمل عبئه فرد واحد

وأعوانه أياديه، وهو الرأس المدير، فطبيعي أن يكون ظلمه وعدله منظماً، أما الحكم الديمقراطي فيحمل عبئه عدد كبير، فإذا لم يؤد كلُّ واجبه اختل البناء، ومثله مثل الآلة ذات الأجزاء المختلفة أو كالساعة ذات القطع المتعددة المتباينة، ولا ينتظم سير الآلة ولا سير الساعة حتى يقوم كل جزء بعمله.

وسبب آخر لحاجة الحكم الديمقراطي للنظام دون الحكم الاستبدادي، وهو أن الحكم الاستبدادي يرمي إلى تحقيق مصلحة فرد واحد أو طائفة محصورة وذلك سهل يسير. أما الحكم الديمقراطي فيرمي إلى مصلحة الشعب جميعه وخاصة الضعفاء، كالفقراء والمرضى والفلاحين والعمال، وهؤلاء عددهم في كل أمة كبير، ولا يمكن تحقي الخير لهم إلا بجهد كبير ونظام دقيق.

فإذا لم يتحقق هذا النظام فشل الحكم الديمقراطي، وظن قصار النظر أن العيب يرجع إلى طبيعة الحكم، وهو في الواقع لم يرجع إلا إلى سوء تطبيقه واستعماله. ثم إذا اختل كان نذيراً بعودة الاستبداد، وارتكن المستبدون وذوو السلطان إلى ما يبدو تحت أعين الأمة من سوء الحكم الديمقراطي وفساده، واتخذوا ذلك ذريعة إلى استرجاع سلطانهم واستعادة استبدادهم، وأعادوا الأمة إلى سيرتها الأولى يسخرونها لمنفعتهم ويستغلونها لصالحهم.

فأكسير الحياة للشرق الآن تحري العدالة في الحاكم، وتضحية شهواته، وتنظيم حكمه وحمل كل عبئه، وتنفيذ واجبه في دقة، وإلا كان تحت خطر الفوضى التي تقدم للأسد الرابض حجته وصياحه من جديد بأن الشرق أعطي حريته فلم يحسن استعمالها.

مقياس الشباب

أما الأطباء وعلماء الإحصاء فيقدرون الشباب بالسن، فمن بلغت سنه العشرين أو قبل ذلك قليلا أو بعد ذلك بسنين فشاب وإلا فلا؛ فتحديد السن هو مقياس الشباب، كما هو مقياس الطفولة والهرم، فإن شئت أن تعرف المخلوق أطفل هو أم شاب أم شيخ فأغمض عينك وعد السنين، ولا تنظر إلى قوة أو ضعف، ولا إلى صحة أو مرض.

وسار على هذا النمط علماء اللغة، فقالوا: ما دام الإنسان في الرحم فهو جنين فإذا ولد فهو وليد، ثم ما دام يرضع فهو رضيع، ثم إذا قطع عن اللبن فهو فطيم، فإذا كاد يجاوز العشر سنين أو جاوزها فهو ناشئ، فإذا كاد يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع ومراهق، ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب، ثم هو كهل إلى الستين. ولكن هناك شاعرا أراد أن يخرج على هذه التقاليد، وأراد أن يقيس الشباب والفتوة وبالمعنى لا بالمبنى، وبالقوة لا بالسن، فقال:

يا عزُّ هل لك في شيخ فتى أبدا وقد يكون شبابٌ غير فتيان؟

فهو لا يريد أن يعترف بأقوال الإحصائيين، ولا أقوال اللغويين، فقد يسمى الشيخ شابا متى حاز صفات الشباب، وقد يسمى الشاب شيخا إذا حاز صفات الشيخوخة، فالعبرة عنده في التسمية الصفة لا السن، وهي من غير شك نظرة جريئة ومذهب جديد ينظر فيه إلى الكيف لا إلى الكم، وإلى النتائج لا إلى المقدمات، وإلى الغاية لا إلى الوسيلة؛ فإذا عرضت عليه رجلا قد ناهز الستين أو جاوزها، قد لبس في حياته العمامة الثلاث: السوداء ثم الشمطاء ثم البيضاء؛ وعرضت بجانبه من يسمونه شابا، لم يلبس في حياته إلا العمامة الأولى. ثم سألت صاحب هذا المذهب:

ما قولك دام فضلك في هذين؟ هذا أرزى على الستين، وهذا في سن العشرين. فأيهما الشاب، وأيهما الشيخ؟ لم يستسخرف سؤالك، ولم يعده بديهية من البديهيات، بل عده مجالاً للنظر الطويل والتفكير العميق، وقال ليس الأمر بالسن أيها السائل، فمن رأيتَه منهما متهدماً قد نضب ماؤه، وذهب رُؤاؤه، وذوي عوده، وخَوَى عموده، ورق جلده، وانخرع متنه، وحطمت اللذات، وأنهكت قوته الشهوات، حتى صار لا يحمل بعضه بعضاً، فهو الشيخ وإن كان ابن العشري؛ ومن امتلاً قوة، وبلغ كمال البنية، واستوت قامته، واعتدل غصنه، وحفظت جدته، وأحكمت مِرّته، وتجلت رجولته، واكتمل نشاطه، فهو الشاب ولو جاوز الستين. إنها يلجأ إلى السن في تحديد الشباب والشيخوخة من قصر نظره، وضعفت قوة حكمه، وأراد أن يعالج الأمر من أسهل طرقه، وأقرب مسالكه، وذلك شأن الغر الأبله، لا الفيلسوف الحكيم، ولم كنا إذا قسنا العلم وقسنا الكفاية، وقسنا الخلق والصلاحية للأعمال لم نرجع في شيء من ذلك إلى السن، وإذا قسنا الشباب والشيخوخة رجعنا إلى السن؟ ليست السن مقياس الشباب، وإنما أحسن أحوالها أن تكون علامة الشباب، وقد تتخلف العلامة كحكمنا على الرجل بالعلم لأن لديه شهادة اللسان في الآداب أو اللسان في الحقوق، وقد يكون معه اللسان أو الدكتوراه وليس بعالم، كما يكون في سن العشرين وليس بشاب. إن الشباب أو الشيخوخة معنى لا مادة، وقد علمتنا قوانين الحياة أن المادة تقاس بمادة، والمعنى يقاس بمعنى. فنحن نقيس الحجرة المادية بالتر المادي، ونكيل القمح المادي بكيلة مادية، ونزن التفاح المادي برطل مادي، ولكن من السخف بمكان أن نقيس الفضيلة أو الجمال أو القبح بمر أو رطل أو قدح، فلم نقيس الشباب وهو معنى بالسن وهي مادة؟

بل لو تعمقنا أكثر من ذلك لوجدنا أن حسن الرواء وجمال المنظر ومرح النشاط ليست هي المقياس الصحيح للشباب، إنما الشباب مزاج، هو محصل لمجموع قوى

نفسية، هو حاصل جمع لصفات خلقية، إن شئت فقل هو الإرادة قوية تعزم العزم لا رجوع فيه، وتزعم الأمر لا محيد عنه، وترمي إلى الغرض لا سبيل إلا إليه، تعترض الصعاب فلا تأبه لها، وتخر السماء على الأرض فلا تتحول عنه؛ قد تعترف بأن هناك عقبة، ولكن لا تعترف بعقبة كئود؛ وقد تقر بصعوبة الأمر، ولكن لا تقر باستحالته. والشباب هو العاطفة القوية المتحمسة الصحيحة، ومظاهر صحتها أنها ثابتة فليست «قشاً» تشتعل سريعاً وتخمّد سريعاً، وليست مضطربة تذهب مرة يميناً ومرة يساراً من غير غرض يحدد اتجاهها، وليست مائعة تحب فتدوب في الحبل، وتغضب فتُجن في الغضب إما أجمعها بعض الإلجام العقل والمصلحة والغرض. والشباب هو الخيال الخصب الواسع الأفق المترامي الأطراف الذي يرسم الأمل ويبعث على الطموح، ويحمل المرء على أن يتطلب لنفسه ولأمتة حياة خيراً من حياتها الواقعية - هذا المزاج الذي يتجمع من إرادة قوية وعاطفة حية وخيال خصب هو الشباب، وبمقدار قوتها وتلاؤمها تكون قوة الشباب، وبمقدار نقصها تكون الشيخوخة، فالشباب موجب والشيخوخة سالبة، والشباب إقدام والشيخوخة إحجام، والشباب نُصرة والشيخوخة هزيمة.

وإذا كان الناس قد اعتادوا أن يصطلحوا على علامات للشيب والشباب حسب تفسيرهم الباطل فإن لنا علامات أخرى على تفسيرنا الصحيح.

لقد جعلوا الرأس موضع أهم الأمارات، فسواد الشباب وبياض المشيب أكثر ما دار عليه القول في الشيخوخة والشباب، وهو مركز القول في ذلك عند الأدباء والشعراء، حتى ألفوا في ذلك الكتب الخاصة من أشهرها كتاب «الشهاب في الشيب والشباب». وقد التفت مؤلف هذا الكتاب في مقدمته إلى فكرة جليلة، ولكنه لم يحسن تحليلها، قال: «إن الإغراق في وصف الشيب والإكثار في معانيه، واستيفاء القول فيه، لا يكاد يوجد في الشعر القديم وربما ورد لهم فيه الفقرة بعد الفقرة،

فكانت مما لا نظير له، وإنما أطنب في أوصافه واستخراج دقائمه والولوج إلى شعابه الشعراء المحدثون».

وجلة ذلك في نظري أن الحياة في الجاهلية وصدر الإسلام لم تكن غالية، كانت تتطلب المجد وتسترخص الموت، غير أن المجد في الجاهلية كان مجد الذُّكر وحسن الأحداث، والخوف من العار واتباع التقاليد، وكان في الإسلام ذلك، وعند بعضهم الاستشهاد في سبيل الدعوة وبيع النفوس لله برضاه وجنته، فليست الحياة تستحق البكاء الطويل عليها. أما في العصر العباسي فكانت أشبه بحياة الرومانيين؛ من أهم أغراضها اللهو واللعب، ومن أهم أغراضها القرب إلى النساء والتجيب إليهن، وذلك يستدعي حب الحياة؛ فنذير الموت وهو الشيب بغيض إلى النفس، والنساء يكرهن الشيب فيجب أن يكره، ويعيرون به فيجب أن يبكي، ويمدحن الشباب ويحبنه فيجب أن يرثى. لهذا كثر القول في الشيب في العصر العباسي وما بعده، وقل فيما قبله.

أما علامات الشباب والشيخوخة في نظريتنا فليس موضعها الرأس، لأن موضعها القلب فالياس شيخ لأن اليأس ضعف في الإرادة وضيق في الخيال وبرودة في العاطفة، والشيب شيب القلب لا شيب الرأس، فمن لم ينفع لمواضع الانفعال، ولم يعجب من مواضع الإعجاب، ولم يستكره في مواضع الاستكراه، ولم ينازل في مواضع الكفاح، ولم يطرب للموسيقى الجميلة والمنظر الجميل، ولم يهتج للأحداث، ولم يأمل ولم يطمح، فهو شيخ أي شيخ، شاب قلبه وإن كان أسود الرأس حالكة.

إن أردت أن تعرف أشيخ أنت أم شاب، فسائل قلبك لا رأسك، هل ينبض بالحب: حب الجمال، وحب الطبيعة، وحب الفضيلة، وحب الإنسانية، وهل ينفع لذلك انفعالا قويا فيهمم ويغار ويدافع ويضحى؟ هل يتصل قلبه بالعالم فيتلقى أمواجه الأثرية من الناس، ومن الأرض، ومن البحر، ومن الجبل، ومن السماء، ثم

يلقي بأشعته - كما تَلَقَّى - على كل من حوله، فينفعل ويفعل، ويتأثر ويؤثر، فهو كالقمر يتلقى من الشمس ضياءً وهاجا ويعكسه على الأرض نورًا وضياءً؟ هل يبادل من حوله حبا بحب، وعاطفة بعاطفة، وخيرًا بخير، وأحيانًا شرًا بشرًا؟ وهل يترك العالم خيرًا مما تسلمه؟ أو أن قلبه بارد كالثلج، جامد كالصخر، لا طعم له كالماء، ميت كالجماد، مغلف كالخرشوف؟

إن كان الثاني فشيخ؛ وإن كان الأول فشاب.

قالت كبرت وشئت قلت لها هذا غبار وقائع الدهر

نظرة في النجوم .

مما أُرثي له أن أرى الشرقيين وخاصة سكان المدن، لا يتتبعون بسطوح منازلهم الانتفاع الواجب؛ فهم قلما يصعدون إليها إلا عند تركيب قوائم الراديو، أو حبال الغسيل، أو تخزين ما يستغنى عنه في حُجَر السطح، وهم يحبون أن يلتصقوا بالأرض، ولا يخلقوا في السماء، وينزلون بحضيض المنازل ولا يسموا إلى أوجها.

وفاتهم أن من خير متع الحياة «سطوح المنازل» لا سيما في جو بديع كجونا، تصفو فيه السماء في أكثر أشهر السنة، ويهبُ فيه النسيم العليل ليلا، ويمتد فيه البصر، وتشرح فيه النفس؛ ولياليه بين ليال مقمرة بديعة لا تمل العين جمالها، وليال غاب فيها القمر فقامت النجوم مقامه، تناغيك وتحديثك، وتملأ قلبك روعة ونفسك حياة.

تَبًّا للأعين التي تنظر دائِماً إلى الأسفل، ولا تنظر إلى الأعلى، ويلد لها أن تنظر إلى المسافات القريبة وإلى ما تلمس، ولا تنظر إلى البعد السحيق والمنظر البعيد. إن العين إذا اعتادت ذلك قلقتها النفس، فلم تنظر إلى الأمل البعيد، ولم تلتذ بالطموح، ولم تسعد بالأمل، وقنعت بما هي فيه، ورضيت بالدون، وتشاغلت به، وصدها ذلك عن أن تنشد الكمال، للارتباط الشديد بين عالم الحس وعالم العقل وعالم الروح.

ولقد كان آباؤنا الأولون أكثر منا عناية بالسماء، حتى العرب في بداوتهم أطالوا النظر في النجوم وانتفعوا بجوهم المفتوح، وسماهم الصافية، فعرفوا كثيرا منها، ووضعوا لها أسماءها، وكان لهم فيها ملاحظات دقيقة، وإشعار رقيقة؛ أما نحن فقل أن نعرف من أسماء النجوم إلا الشمس والقمر، وجهلنا بأسماء مشاهيرها جهل فاضح لا يتفق وسماها البديعة. وأما شعراؤنا -سأعهم الله- فأكثرهم لا يشعر في

السماء والنجوم إلا تقليدا يبرِّح به ألم الهجر في غرفته المسقوفة، وقد أغلقت شبابيكها، وأسدت ستائرهما، ومع ذلك يشكو النجوم وثباتها وهو لا يرى سماء ولا نجوما.

لو كان في أوروبا جو مكشوف دافئ كجونا، لعرفوا كيف ينتفعون بالسماء كما انتفعوا بالأرض، ولا اتخذوا من سطوح منازلهم مقاما للسمر الحلو والتأمل اللذيذ ولا اتخذوا منها متديات ومقاه ومسارح للسينما والتمثيل. وأماكن للمحاضرات فانتفعوا بجمال الجو وجمال منظر السماء وجمال منظر السينما والتمثيل وجمال الحديث معاً؛ ولو فعلنا لارتحنا من عناء المتسولين والمتجولين وماسحي الأحذية إلا أن يصعدوا إلينا في السماء.

نعمت هذا الشهر بسطح منزلنا، وأكثرت من التحدث إلى النجوم، والإصغاء إلى حديثها، وملت إلى قراءة شيء من أخبارها، فملأت قلبي حياة، وعقلي هدوءاً وأعصابي راحة.

وكنت كلما شكوت من شيء بثت شكواي إلى النجوم فتبخرت. وكلما تدنست في جو الأرض تطهرت في جو السماء، فإن آلمتني السياسة بالأعباء وخذاعها، والأولاد بمضايقاتهم ومتاعبهم، والخدم برذائلهم، والبيئة بمشاكلها وصغائرها، علوت إلى السطح وانسطحت على سجادة، ووصلت أسباب ما بني وبين النجوم فزال كل ألم، واحتقرت كل ما ضايقني، وعشت في عالم جديد لذيد مريح، ورأيت أني غسلت نفسي كما يغسل الثوب في البحر الواسع.

عظيمة هذه النجوم وجميلة وجليلة! فإن رأيت نجوم المجرة وعلمت أنها تبلغ عدتها الملايين، وأنها تسير بسرعة هائلة لا يتصورها الخيال، وأن بعضها بلغ من البعد عنا ما لا يصل إلينا ضوءه إلا في آلاف السنين، أيقنت بهذه العظمة، وشعرت

في أعماق نفسك بحقارتك وحقارة مشاغلك وحقارة أرضك كلها- وإن علمت أن
في السماء آلافاً من الشمس تكوّن كل شمس منها مجموعة من النجوم كمجموعتنا
الشمسية، سبحت في عالم من العظمة لا حد له، وتساءلت في كثير من الحيرة
والإعجاب إلى أي طريق هي مسوقة، وإلى أي طريق نحن مسوقون معها؟ وقلت
كما قال أبو الشبل البغدادي:

بربك أيتها الفلك المدار	أقصدُ ذا المسير أم اضطرار
مدارك قل لنا في أي شيء	ففي أفهامنا منك انبهار
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء	سوى هذا الفضاء به تدار؟

ثم رددت الطرف خاسئاً وهو سحير؛ ولكنها حسرة لذينة لا ترضي بها بديلاً.

أيتها النجوم! كم من الناس نظروا إليك فأعجبوا بعظمتك وجمالك وجلالك،
وكم من الشعراء تغنوا بك، وتفننوا في الإشادة بذكرك، وعابوا عليك سرعتك أيام
الوصال، ويطئك أو وقوفك أيام الهجران.

وكم حارت فيك العقول فظنوك إلهة وعبدوك من دون الله، وأقاموا لك الهياكل
والتمائيل، ثم تقدموا قليلاً فأنزلوك من مقام الألوهية قليلاً، وجعلوا لك أثراً كبيراً
في أحداث الأرض، فلك أثر في الرياح والأمطار والسعادة والشقاء، وربطوا مواليد
الناس بك، وجعلوا سعادتهم وشقاءهم من أجلك؛ وحتى الفلاسفة العظام أمثال
أرسطو أعمتهم عظمتك عن أن يدركوا حقيقتك فأسندوا إليك عقولاً كباراً
وجعلوا منزلتك في الفكر والعقل فوق منزلة الإنسان، وسبحوا في الخيال فأسسوا
نظاماً وهمياً للأفلاك وتدرجها في الأثر حتى تصل إلى عالمنا، وخدع الناس بك
فبنيت لك المراصد لمراقبة حركاتك، وأقنع المنجمون الناس بتأثيرك فسمعوا لقولهم،
واتخذ الملوك المنجمين يعتمدون عليهم في تدبير مملكتهم، كما يتخذون الأطباء لتدبير

أجسامهم، فلا يضعون بناء إلا بعد رصدهم لك وإشارتهم بأنك ستمنحهم السعادة لبنائهم، ولا يحاربون إلا برأي رجالك وتخير أوقات رضائك.

وكم شغل الناس بطوالعك، وتخيروا أوقات زواجهم محسوبة بحسابك، وتنبؤوا -بمعونتك- بموت فلان وحياة فلان وأنت أنت فوق ذلك كله لا تعبئين به ولا تلتفتين إليه. كأن أمرهم لا يعينك، وشؤونهم لا تهلك، وتتابع الأجيال ومرت السنون، وفيت أقوام وجدت أقوام وكلهم يمنحونك إعجابهم وأنت في أعلاك وسيرك وسرعتك دائبة أبداً.

وأنتي العلم الحديث فغير فيك الأفكار، وساواك بالأحجار، وجعل قمرك الجميل كأرضنا غير الجميلة، وسلب عنك العقل والفكر وأخضعك لنواميس الطبيعة وأبان خرافات الأقدمين فيك - ومع ذلك أقر بجلالك وأخذ بدقة نظامك، وأقر بجهله أن يحيط بك، وأن يتعرف كل قوانينك؛ فأنت أنت أيام الجهل وأيام العلم، وأيامنا وأيام آبائنا.

وبينا أنا في ذلك كله، وفق ذلك كله، إذ دعاني الخادم إلى التليفون فنزلت من السماء إلى الأرض.

- أكو!

- فلان! لعلك تذكرني؟

- أهلا وسهلا!

- أريد أن أقابلك!

- هل من شيء؟

- لقد تخرجت من كلية الآداب واشتغلت في عمل لا يناسبني، وماهية لا تليق بي، وإخواني كلهم خير مني، فلي سنوات لم آخذ علاوة، ولم أرق إلى درجة.

- نعم!

- والآن هناك حركة ترقية وأريد مساعدتك.

ثم حوار طويل، ورجاء مستمر، وشكوى بؤس، وعائلة يعولها، وماهية لا تكفيها، ودنيا ضاقت به وبها.

في أي تفكير كنت؟ وإلى أين صرت، هذه المساء، وهذه الأرض، أين هذا العالم العظيم السعيد الذي كنت أحلم به من هذا العالم الحقير التافه الذي نقلني إليه التليفون، والذي يمضي فيه أكثر الناس أكثر أعمارهم، لقد غطسني بحديثه في ماء مثلج، فلاصعد ثانية إلى السماء، ولأعاود ما كنت فيه... لا؛ لم تعد للفكر لذته، ولا لحديث النجم متعته.

لقد قلب علم الفلك عقلية الإنسان رأساً على عقب، فقد كان يظن أنه سيد العالم، وأن أرضه هذه هي مركز العالم، وأن الشمس والقمر والنجوم تدور حولها، فأبان له العلم أن أرضه ليست إلا هنة تسبح في الفضاء، وأنها شيء تافه في المجموعة الشمسية التي تدور حول الشمس، وأن كل العالم من أرض ونجوم خاضعة لقوانين واحدة كقوانين الجذب وما إليها، وأنه إن كانت أرضه هنة فكيف به هو - كل هذا غير عقلية الإنسان وأنزله من شامخه وسلبه غروره فاخذ يفكر تفكيراً جديداً وينظر لنفسه وللعلم نظراً جديداً ويربط نفسه بالعالم، ويرى أنه هو والعالم وحدة، وأن هذه الوحدة تخضع لقوانين ثابتة استكشفت أقلها وغاب عنه أكثرها، ما استكشفت منها يدل على عظمة باقيها وعمومها وسيطرتها. ولكن شيئاً واحداً لم يتغير في الإنسان،

وهو ارتباط عواطفه بالنجوم، وأنها تجد السبيل دائما لقلبه، وتوحى إليه بعظمة ربها وربه.

صفحة سوداء

رووا أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب في وصف مصر أن: «نيلها عجب، وأرضها ذهب، وهي لمن غلب».

وروا أن عتبة بن أبي سفيان كان عاملاً لأخيه معاوية في مصر، فبلغه أمور عن أهلها، فصعد عتبة المنبر مغضباً وقال: «أيا حاملين الأم أنوف ركبت بين أعين، إنما قلمت أظفاري عنكم ليلين مسي إياكم، وسألتكم صلاحكم لكم، إذ كان فسادكم راجعاً إليكم، فأما إذا أبيتم إلا الطعن في الولاية والتنقص للسلف فوالله لأقطعن على ظهوركم بطون السياط، فإن حسمت داءكم وإلا فالسيف من ورائكم».

وقبل هذا وذاك، جاء فرعون {فحشر فتادى فقال أنا ربكم الأعلى}.

وجاء أبو نواس مصر بعد ذلك فقال:

محضتكم يا أهل مصر نصيحتي	ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية	أكول لحيات البلاد شرّوب
فإن يك باقي إفك فرعون فيكمو	فإن عصا موسى بكف خصيب

واشتهز المصريون عند المؤرخين بالانهاك في الشهوات وعدم النظر في العواقب، ولما رآهم ابن خلدون على هذه الحال قال فيهم: «كأننا فرغوا من الحساب» يريد أنهم لا يحاسبون أنفسهم على ما يصدر منهم، ولا يخافون من عاقبة أعمالهم، كأننا فرغوا من الحساب.

وظل مؤرخو العرب يرمون المصريين بالذل، وقبول الضيم في كل ما كتبوا- وكان من أشدهم المقرئزي في أول خطه فقد عقد فصلاً في أخلاق المصريين قال فيه: «وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات، والانهاك في اللذات،

والاشتغال بالترهات، والتصديق بالمحالات، وضعف المرائر والعزمات، ولهم خبرة بالكيد والمكر، وفيهم بالفطرة قوة عليه، وتلطف فيه، وهداية إليه. ثم رماهم بالذل، وأخذ يحصي الأقوال في ذلك: فروى عن كعب الأحبار أن «الخضب قال: أنا لاحق بمصر؛ قال الذل: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا لاحق بالبادية. فقالت والصحة وأنا معك»، وروي أن ابن القريّة وصف أهل مصر فقال: «عبيد لمن غلب، أكيس الناس صغارًا، وأجهلهم كبارًا».

وجاء بعده السيوطي فلم ينجل من أن يضع في كتابه «حسن المحاضرة» فصلا عنوانه «السبب في كون أهل مصر أذلاء يحملون الضيم» وقد جاء فيه «أن الشيخ تاج الدين كان يقول: إن الحكماء وأهل التجارب ذكروا أن من أقام ببغداد سنة وجد في علمه زيادة، ومن أقام بالموصل سنة وجد في عقله زيادة، ومن أقام بدمشق سنة وجد في طباعه غلظة، ومن أقام بمصر سنة وجد في أخلاقه رقة وحسنا» والرقه والذل قريب بعضهما من بعض. وقال القاضي الفاضل: «أهل مصر على كثرة عددهم، وما ينسب من وفور المال إلى بلدهم، مساكين يعملون في البحر، ومجاهيد يدأبون في البر».

ويذكرون الذل على أنه حقيقة ثابتة، ثم يختلفون في السبب في ذلك، فمن قائل إن المصريين غاظوا يوما سعد بن أبي وقاص، فدعا عليهم أن يضرهم الله بالذل؛ وسعد عرف بإجابة الدعوة.

إن كان ذلك فالخطب هين، فمن الممكن أن يجتمع صلحاء مصر ورؤاها فيقرءوا الفواتح والدعوات وما تيسر من القرآن الكريم، ويهبوها لروح سعد ويطلبوا إليه أن يعدل عن دعوته، ويطلب إلى الله تعالى أن يرميهم بالعزة بعد الذل. وما أظن سعدًا يصبر على دعوته، وقد عرف في حياته بالسناحة والسؤدد.

ومن قائل: إن فرعون لما غرق كان معه أشراف القوم وأعزتهم؛ فلما غرق غرقوا معه، فلم يبق إلا الحثالة، فأتى من نسلهم الجبناء الأذلاء. وهل ينتج الذليل إلا الذليل؟ وهذا القول أيضًا سهل رده، فالمصريون قد نزل بين أظهرهم كثير من سادة اليونان والرومان، وسادة العرب وسادة الأتراك، وذابوا في مصر واختلطوا بأهلها؛ فلم يغلب الذل والعزة وعهدنا دائما غلبة الأعزاء؟

أخطر الأسباب ما يلح إليه الماكر «المقريري» فهو يريد أن يبعث فقي النفوس اعتقادا بأن هذا سبب طبيعي يرجع إلى الإقليم وإلى الجو؛ وإلى طبيعة الأرض، هو يريد أن يقول إن ذلك خلقة فيهم؛ بل هو في كل شيء حولهم فيقول «إن هواء مصر يعمل في المعجونات؛ وسائر الأدوية ضعفاً في قوتها، فأعمار الأدوية - المفردة والمركبة، المعجون منها غير المعجون - بمصر أقصر منها في غير مصر» وأشد من ذلك وأصرح قوله: «إن قوى النفس تابعة لمزاج البدن، وأبدانهم سخيفة سريعة التغير؛ قليلة الصبر والجلد، وكذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شيء إلى شيء، والدعة والجبن... ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة في النفس لم تسكنها الأسد، وإذا دخلت ذلت ولم تتناسل، وكلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان؛ وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره في البلدان الأخر. ما خلا ما كان منها في طبعه ملائمة لهذه الحال كالحمار والأزنب».

قول قاس أيها المؤرخ! ولو صح ما قلت لكان حكماً أبدياً صارماً؛ فإن لنا طاقة بتغيير كل شيء إلا الجو والإقليم فماذا نصنع فيهما؛ لو كان صحيحاً قولك لاستوجب اليأس في الإصلاح فما تفلح أمة ضرب عليها الذل والخضوع؛ بل لوجب الرحيل من بلد يسمم جوها دائماً أخلاق أهلها.

وقديها قال الشاعر:

وإذا نزلت بدار ذل فارحل

أخشى أن تكون متأثراً بآراء شيخك ابن خلدون وقد كان في طباعه حدة وعنف، وفي المصريين دعة، فنظر إليها بطبعه الحاد نظرة فيها إفراط وفيها مبالغة. لو كانت نظريتك صحيحة لما تعاقبت الذلة والعزة على الأمة الواحدة فتعز بعد ذلة، أو تذل بعد عزة، والجو واحد والإقليم واحد. وإن في تاريخ مصر نفسها صفحات بيضاء تتجلى فيها العزة بأجلى مظاهرها. الحق - يا سيدي - أن الإقليم عامل، ولكن ليس كل عامل، فإذا كان الجو سماً فالتربية والتعليم ترياق، ألا ترى إلى مثلك نفسه، فقد ذكرت أن الأدوية والمركبات والمعاجين يسرع إليها الفساد في مصر لسوء الجو - لو عشت إلى عصرنا لعلمت كيف تغلب العلم على الإقليم، وصار من المستطاع في سر وسهولة أن يحفظ الدواء - بأبسط المعالجات - في مصر كما يحفظ في أوروبا، وأن التربية كذلك تفعل في النفس الأعاجيب، وكل ما نستطيع أن نستفيد منه أنك نبهتنا أنت وأمثالك من المؤرخين على أن في مصر جنباً وفي مصر ملقاً، إلى هنا نقبله منك ولكننا لا نستسلم له، ولا نقر أنه طبيعي فينا، ولكن لنريك الأمثال على خطأ تعليلك ولنتهيك على نظرية ثبتت حديثاً وهي: أن الأمم المتبدية الساذجة هي أكثر استسلاماً للطبيعة وشؤونها، والأمم المتحضرة الطبيعة لأمرها، فنحن نستطيع أن نستفيد من وداعة الطبيعة فنكون وديعين إلى حد، فإذا أردت أن تتجاوزته إلى نفاق وملق وجبن قالت التربية «لا» بملء فيها، وحق للتربية إذا قالت «لا» أن يكون «لا».

وعبت كلاب المصريين بالضعف، ويظهر أنك لم تر كلاب «أرمنت» وما هي عليه من بسطة في القوة والجسم، ولو قدر عليك أن ينبحك واحد منها ما سلمت بجلدك، ولغيرت حكمك.

لقد أحسست بأن تعميم نظريتك خطأ بين، فاستدركت وقلت: «ومن المصريين من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور» أليس هذا -يا سيدي- نقضاً لقولك وتسليماً لقولنا، فأنت تعلم أن «ما بالطبيعة لا يتخلف» ولو كان الذل ينفته الإقليم وحده، لما رأيت شاذاً من الشواذ، ألا ترى أن فعل الطبيعة في الأدوية - بإسراع الفساد إليها - مطرد، ومطرد دائماً، فإذا اختلف الناس في الجبن والعزة والملق والصراحة، فهناك عامل آخر أقوى وهو عامل التربية نستطيع به أن نتغلب حتى على قوانين الطبيعة.

أرجو ألا يسمح الجيل الجديد والأجيال القادمة لمؤرخيهم أن يؤرخوهم كما أرخهم المقريري والسيوطي.

هُمَا

«هما» إنسانان متباينان، لا يجمعهما إلا أني عرفتهما.

أما «هو» الأول، فنظيف الثوب في غير أناقة، لا يعنيه من ثيابه إلا أنه لا يتأذى بقذارتها، ولا يتأذى من أنهار زاهية تستلفت الأنظار؛ قد طبع على ما يود، فلا هو جميل يقيد النظر، ويغترق البصر، ولا هو قبيح الشكل سمج المنظر، تتفاداة العيون، ويلفظه الطرف، لو عهد إليه أن يخلق نفسه ما اختار غير صورته وشكله، لأنه يأبى تكاليف الجمال وتكاليف القبح.

كثير التكفير في نفسه، كأن الله لم يخلق في العالم إلا هي، وإن كان قد خلق أشياء فنفسه مركزها، دائم المحاسبة لنفسه على ما صدر منها للناس، ودائم المحاسبة للناس على ما صدر منهم لنفسه، ففي نفسه محكمة منعقدة باستمرار، تطول فيها المرافعة، ويشتد فيها الخصوم، وتكثر منها الأحكام، والنقض والإبرام. حدثني أنه إذا جلس في مجلس استعرض بعد الفراغ منه كل ما دار فيه على الترتيب، كأن ذهنه «شريط ماركوني» ثم وقف عند كل كلمة صدرت منه يفحصها، هل مست شعور أحد، هل ظلمت أحدا، هل جرحت كرامة أحد، ألم يكن غيرها خيرا منها، أما كان يحسن أن يقال في مثل هذا الموقف غير هذا الكلام؟ ووقف عند كل كلمة قالها غيره يحللها، ماذا يريد منها، لقد جرح إحساسي بها، لقد كان يلتفت إلي عند قولها، وما سبب ذلك والعلاقة بيني وبينه على خير ما يكون صديق لصديقه، لا بد أن يكون قد تأثر من كذا وغضب من كذا، ولكن إن كان هذا فلا حق له لأنه لم يفهم قصدي ولم تبين غرضي. فإذا أتم ذلك وأوى إلى فراشه بدأ يعيد الشريط من جديد، ويعلق على الحوادث تعليقات جديدة، ويفسرهما تفسيرًا جديدًا، حتى يدركه النوم، وقلّ ألا يحلم بما حدث، وقلّ ألا تأتيه الرؤيا بتفسيرات جديدة وتعليقات جديدة.

من أجل هذا يفر من الناس، ويفر من المجتمعات، حتى لا تكثر الأشرطة فيكثر عرضها، والتعليق عليها، فقل أن أجاب دعوة مع كثرة ما وجه إليه من دعوات، لأنه مع هذا ليس ثقل الظل ولا جامد النسيم، فإذا اضطر إلى دعوة ذهب إليها كارهاً، وحسب حساب كل كلمة يتكلمها، وكل حركة يتحركها بل أن يقدم عليها، تفضيلاً للحساب العاجل على الحساب الآجل، فقل أن يأخذ الناس عليه غلطة مع كثرة ما يتوهمه هو من غلطات.

أداه التفكير الكثير في نفسه إلى أن يكون عميق التفكير في كل ما يعرض عليه، فإذا عرض أمر قلبه على جميع وجوهه، وغاص في نواحيه، واستخرج منها أدق الأفكار وأصعبها وأعقدها، وشغف بالعلم فكان دائب الدرس، كثير الاطلاع، تنقف بالثقافة الإنجليزية فهو يتكلمها ويقرأها كأحد أبنائها، وسمع بعمق التفكير الألماني فعكف على اللغة الألمانية حتى حذقها، وحدثه الأدباء بالأدب الفرنسي وما فيه من دقة في تحليل العواطف وإجادة الوصف، فدرس اللغة الفرنسية حتى أجادها، وتصلع من آداب اللغات الثلاث، وعرف أشهر ما كتب فيها، فإذا حدثك في أية ناحية منها أبان لك عن علم واسع ومعرفة دقيقة، وهذا إلى لغته العربية ومعرفته بها كأنه متخصص فيها؛ ثم هو بعد لا يرضي عن نفسه، فهو دائم الدرس، دائب العمل، كلما قطع شوطاً طمح إلى ما هو أرقى منه؛ فكأنه ومطامحه كالفرس وظله يجري دائماً ليسبقه؛ وهيئات أن يلحقه.

وهو مع كل عومه وكل لغاته وكل عمقه خامل مجهول، لا يعرف حقيقته إلا خلصاؤه، إن جلس مع غيرهم فعي جهول لا يشاركهم في جدل، ولا يفضي إليهم بحديث، يعرف مواضع السخف من قولهم، ومواضع النقص في تفكيرهم، ويتظاهر بأنه لا يعي ما يقولون، ولا يرقى إلى ما يفكرون ويجادلون، يتغابي وهو الذكي، ويتعابي وهو الفصيح.

لا يعبأ بالمال إلا بمقدار ما يعيشه عيشة نظيفة في غير ما ترف ولا سرف.

ثم هو - غالبًا - لا يحب رؤساءه ولا يحبه رؤساؤه، فهو لا يحبهم لأنه يتطلب فيهم كمالًا لا تسمح به الدنيا إلا نادرًا، ويقيس الكمال بمقياس محدود معين، ومع أن للكمال مناحي مختلفة، وقد يتسامح في نقص يستره كمال، ويغتفر ضعف تسنده قوة، ولكنه في تقديره يجسم النقص، ويكبر الضعف ويريد في رئيسه الكمال صرفًا، والقوة خالصة، فكأنه يريد نبيًا أو إلهًا، وأنى له بذلك؟ فهو في نقد لرؤسائه مستمر، وتجريح دائم؛ وأما هم فيكرهونه لأنه حنبلي في تصرفه، متزمت في خلقه، صريح لا يلفظ صراحته بلباقة، شديد لا يمزج شدته برقة؛ التصرف عنده كالخط إما أن يكون مستقيمًا أو أعوج ولا وسط بينهما، لا يأتمر بأمر رئيسه ولا ينتهي بنهيه متى خالف قانونًا؛ والقانون عنده هو القانون الحرفي الذي لا يحتمل تفسيرًا ولا تأويلًا. من أجل ذلك تعاقب عليه رؤساء مختلفون وتنقل من مصلحة إلى مصلحة والنتيجة واحدة دائمًا في نظرهم إليه ونظره إليهم؛ حتى لقد كان رئيسه يومًا ما أقرب الناس إليه وأعرفهم به، ورجوت السعادة له أيام رياسته، فما لبثت أن رأيت الصداقة استحالت إلى فتور فكراهية، ثم كان أعدى له ممن لم يكن يعرفه.

أما «هو» الآخر فجميل الصورة، ظريف الهيئة، حسن الحلية، ممتلئ البدن، ريان الجسم، واسع البطن، أتيق الملبس إلى آخر حد الأناقة، دقيق الذوق في تناسب الألوان، وتناسق الأشكال، حتى يعد حجة فيما يلبس وما لا يلبس، وما يتناسب وما لا يتناسب، لأنه خبير بأحدث الأزياء بل هو فيها مخترع فنان، يحدثك حديثًا مستفيضًا عن خير الخياطين ومزاياهم وعيوبهم ومواضع الإجادة والعيب فيهم.

وشيء آخر يجيد ذوقه، ويجيد التحدث فيه، ويجيد وصفه ويجيد نقده، وهو الطعام والشراب، فإن أردت أن تعرف لونا من الطعام لا يناسب لونا أو أردت حديثًا شهيا عن طعام شهى أو عن المائدة وكيف تنظم، وعن بيوت مصر وما يجيده

كل بيت من الأصناف فهو في ذلك الذي لا يباري، وله فوق ذلك العلم الدقيق الواسع في صنوف الشراب، فأياها قبل الأكل، وأياها على الأكل وأياها بعد الأكل، وأي ألوان الشراب يصح أن تجتمع وأياها لا يصح، وأي أنواع الشراب تجيده فرنسا، وأياها تجيده ألمانيا وأياها أسبانيا- بل كل هذه معلومات أولية بالنسبة إليه فعنده ما هو أدق في ذلك وأعمق.

هذه هي الدنيا وهذه هي الحياة، وهل أنت آخذ من دنياك إلا ما طعمت وما شربت وما لبست.

وله كذلك حديث طريف عن النساء وأوصافهن، فهو يجيد الحديث عن سحر العيون ورشاقة القد، ولطافة التكوين، وبراعة الشكل، وهيف القوام إلى آخر ما هنالك، ثم يتبع هذا بالكلام على مغامرته وما شاهده في حياته، كأنه كان له في كل خطوة حادثة نسائية، وفي كل سفر عشق، وفي كل مجتمع غرام- والعشق العفيف، والهوى العذري والحب الأفلاطوني ألفاظ جوفاء لا تدل على شيء إلا على جنون قائلها أو ريائه، ينظر للمرأة نظر الأفعى للعصفور وله من وسائل الإغراء ونصب الشباك، ورسم الخطط وما يعجز عنه القائد الماهر والصائد الحاذق، فما هو إلا أن يضع عينه على فريسته حتى يخلق من الحركات والأفاعيل والأحاديث مال يستلفت النظر؛ وإذا هو في حديث جذاب مع من أحب.

وإلى هنا ينتهي علمه الواسع وقدرته الفائقة.

ثم ما الخلق وما الفضيلة وما الحق؟ ليست إلا كلمات اخترعها الأقوياء ليستغلوا بها الضعفاء. ولا بأس من استعمالها أحياناً متى جلبت خيراً أو دفعت ضيراً، ولم يخلق الله أسخف ممن يزعمون أنهم يتمسكون بمبدأ؛ فليس في الدنيا مبدأ صحيح إلا المبدأ القائل «الغاية تبرر الوسيلة» على أن تفسر الغاية بغايتي لا غاية

غيري فكن «وفديا» في دولة الوفد، و«شعبيا» في دولة حزب الشعب، و«حرا» دستوريا في دولة الأحرار الدستوريين، والعن في كل دولة أعداءها، وتغنّ بمناقبها متى كان هذا ينيلك «درجة» أو على الأقل «علاوة» واجعل مبدأك مشايعة الزمان، تقبل على من أقبل عليه، وتدبر عمن أدبر عنه؛ ولا تأخذ شيئا «جدا» فما الحياة إلا لهو ولعب، فإن استطعت أن تجعلها كلها «مزحة» أو «نكتة» فافعل فهكذا خلقها الله.

صادفته يوما في فندق فلما نزل إلى البهو استلفت نظر الناس بشكله وأناقته ولباسه وأمره للخدم ونهيه، وتحدث بصوت عال قليلا، فإذا ضحك يتصاعد من هنا ومن هنا، وإذا الصوت يرتفع شيئا فشيئا والتفات الناس يزيد شيئا فشيئا وإذا الحديث جذاب، وإذا هو محور من في المجلس وقد أبصارهم وآذانهم.

وشأنه في «المصلحة» التي يعمل فيها شأنه في الفندق، كعبة القصاد ونجعة الرواد يقضي الحاجات لتقضى حاجاته، وينفذ أغراض من هو أكبر منه لينفذ أغراضه من هو أصغر منه، وهكذا اتخذ «وظيفته» تجارة، يحسب فيها في دقة ما يشتري وما يبيع، وما يدخل وما يخرج، ومقدار الرصيد وبكم هو دائن وبكم هو مدين.

لعل الذي جعل من الإنسان ذكرا وأنثى، وجعل منه من يميل إلى الشعر والخيال، ومن يميل إلى الحقيقة والواقع جعل الناس كذلك أحد هذين الرجلين، وكل ما في الأمر أنه قد يكون «هو» الأول صرفا أو «هو» الثاني صرفا، وقد يكون خليطا منهما، مزيجا بينهما. هما رجل الآخرة ورجل الدنيا، ورجل الفلسفة ورجل المادة، ورجل الأخلاق والمبادئ، والرجل المصالح والمنافع.

الصدق في الأدب

شاع في الأدب العربي القول المأثور: «أعذب الشعر أكذبه» ويقول ابن رشيق القيرواني في العمدة: «من فضائل الشعر أن الكذب الذي اجتمع الناس على قبحه حسن فيه» وهكذا نجد في كتب الأدب كثيرًا من هذه الأقوال.

ويمكن تفسيرها بأحد أمرين أو هما معًا:

١ - أن الشاعر في كثير من مواقفه يعتمد على المبالغة والغلو فيها كقول أبي نواس:

وأخفّت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطفُ التي لم تخلق
وقول أبي تمام:

فقد بَتَّ عبد الله خوفَ انتقامه على الليل حتى ما تَدِبُّ عقاربُه
وقول الخبز أرزى:

ذبت من الشوق فلو زَجَّ بي في مقلّة النائم لم يتبّه
وكان لي فيما مضى خاتم فالآن لو شئت غنطقت به
ونحو ذلك كثير:

والذي أرى أن المبالغة ليست كلها كذبا ولا كلها صدقا، فلو كان الممدوح شجاعا فجعل الشاعر له جرأة كجرأة الأسد لم يكن كاذبا، ولو كان العاشق هزليا فبالغ الشاعر في وصفه حتى جعله لا يرى إلا من صورته لم يكن كاذبا، وقد عبر الله تعبيرات من هذا القبيل فقال في وصف الرعب والخوف: {ويلغت القلوب الحناجر} فأما إن كان الممدوح بخيلا فجعله الشاعر سحابا فياضا، أو عاشقا سمينًا

فجعله كعود الخلال، أو جباناً رعيداً فجعله أسداً مقداماً، فكل هذا كذب صريح يثير السخرية بالمدح لا الإعجاب.

٢- والمعنى الثاني أن الشعراء يوصفون بالكذب لأنهم ينسبون إلى أنفسهم أعمالاً جليلاً لم يأتوا بها، ويزعمون مزاعم لا تستند إلى حقيقة، ثم يهجون فيصفون المهجو بكل رذيلة، ويمزقون الأعراض. ويقدحون في الأنساب، ويتعرضون للحُرْم، وهؤلاء هم الذين عناهم القرآن بقوله: {والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون}.

لكن ليس هذا ولا ذاك من الشعر الراقي في شيء، فلا الغلو في المبالغة ولا نسبة شيء إلى غير فاعله مما يزين الشعر وإنما نشأ قولهم: «إن أعذب الشعر أكذبه» من تصور ناقص لمعنى الشعر، لقد كان الشعر عندهم يحول أكثر ما يحول في المدح والهجاء، ورأوا أن هذا المدح وهذا الهجاء لا يجوزان بذكر الحقيقة المجردة، إنما يجوز المدح إذا جعل الشاعر من الحبة قبة، ويجوز الهجاء إذا قال الشاعر فأفحش، وسب فأقذع. ولكن عفا الزمان على هذه النظرية، وأصبح هذا النوع من أحط أنواع الشعر، وأقلها استحقاقاً لاسمه، فالشعر كما يقول (ورْدَسُورْث): «هو الحق ينقله الشعور حياً إلى القلب» وكما يقول (رَسْكن): «الشعر إبراز العواطف النبيلة عن طريق الخيال».

وليس هذا قاصراً على الشعر، فكل الأدب من هذا القبيل، وتعريف وردسورث ورسكن هما تعريفان للأدب جميعه لا للشعر وحده.

فالذي أرى أن رسالة الأديب هي من جنس رسالة الفيلسوف، كلاهما يرمي أو يجب أن يرمي إلى إبراز الحقيقة ونقلها إلى السامع أو القارئ. وغاية ما بين الفيلسوف والأديب من فرق أن الفيلسوف ينقلها إلى عقل السامع أو القارئ، والأديب ينقلها

إلى قلبه. ومن أجل هذا يستعين الفيلسوف بالمنطق وما يتبعه من مقدمات محكمة ونتائج مستلزمة، فهي بالعقل أليق، والأديب يؤدي الحقيقة من طريق الخيال الجميل والأسلوب الجميل، لأنها بالقلب أليق.

والصدق بمعناه الواسع وبكل ما تحتمله الكلمة من معنى مجال للأدب وبشرط من شروط قوته، فلو عبر امرؤ القيس عن شعوره نحو المرأة أو عبر أبو نواس عن شعوره نحو الخمر، فهو أدب صادق قوي، وإن كانت الأخلاق الاجتماعية لا ترضى عن النحو الذي سلكاه في التعبير، ولكنه من الناحية الأدبية أدب صادق قوي. وإن شعرَ شاعر في الورع والزهد ولكنه في نفسه ينطوي على دعاة وفجور، لم يكن شعره صادقاً ولا قوياً وإن رضيت عنه الأخلاق الاجتماعية. نعم إن الأدب الذي ينبعث عن عاطفة إنسانية نبيلة أرقى وأسمى، ولكن ما دمنا نتكلم في دائرة الصدق. فكل ما يصف عواطف الإنسان أدب صادق.

والصدق يمنح الأدب قوة، لأن الأديب إذا عبر عما تكنه نفسه ويختلج به قوله أقوى تأثيراً، وأشد حياة. والأديب الحق هو من تأثرت نفسه بالحياة ومظاهرها تأثراً خاصاً يتفق ونفسيته ومزاجه، ثم هو يحاول بأدبه أن ينقل هذا التأثير إلى الناس، ويجعلهم يشعرون بما يشعر وينفعلون بما ينفعل، فإن هو لم يتأثر وحاول أن يؤثر كان أدبياً مزيفاً، وكان الفرق بينه وبينه الأديب الحق كالفرق بين النائحة الثكلي والنائحة المستأجرة.

وهذا الصدق في التعبير هو الذي يسبغ على الأدب مسحة الخلود، فالشعر الذي قيل في المديح والهجاء أقل قيمة وخلوداً مما قاله الشعراء في وصف عواطفهم فرثاء ابن الرومي لولديه أبقى من هجائه لخالد بن قحطبة، واعتداد المتنبي بنفسه في شعره أقوى من مدحه لغيره.

بل ما لنا نذهب بعيداً ونحن نرى من الكتاب المحدثين من توزع أدبهم بين أدب سياسي وأدب قومي أو عالمي، فأما كتابتهم السياسية فقيمتها وقتية لا تقدر كثيراً إلا في ظرفها وبيئتها وزمانها، وأما أدبهم القومي أو العالمي فكثير منه يستحق الخلود والبقاء، صالح لأن يقرأ ويردد على اختلاف الزمان والمكان.

كتب كاتب أمريكي فقال: «يسألني كثير من الشبان أن أضع لهم مبادئ تساعدكم في الكتابة، فلهم أقرر هذا المبدأ وهو: «اكتب في الموضوع الذي تحيد معرفته والشعور به. ثم اكتب ولا تنظر أي نظر لما تحدثه كتابتك من نتيجة وأثر، وكل ما يجب أن تعنى به أن تعتقد أن ما تكتبه حق، ولتكن نتيجته ما تكون، وليكن مرشدك في كتابتك الحية، ولا تخش من نقد يوجه إليك إلا من ناحية أنه حق أو ليس حق».

وهذا القول صحيح كل الصحة من حيث نصحه للكاتب ألا يكتب إلا ما يعتقد الحق، ولكنه غير صحيح من حيث ألا ينظر إلى ما يترتب على عمله من نتائج. فإن أراد أن الكاتب لا يهتم بنقد ناقد له من جهة الأسلوب ومن جهة العيب عليه والازدراء به ونحو ذلك، فهذا صحيح إلى حد كبير، فمتى أَرْضَى الكاتب ضميره وعني بالموضوع بحثاً ودرساً وإخراجاً فلا ضير عليه من نقد الناقدين، وعليه ألا يخشى بأسهم، وأن ينتفع بما يوجه إليه من نقد صحيح. أما إن أراد هذا الناصح أن الكاتب يجب ألا يهتم إلا بقول الحق من غير نظر إلى الموضوع الذي يكتبه وما يترتب على كتابته فيه من نتائج فغير صحيح، إذ ليس كل حق يقال، وليس يقال الحق للناس جميعاً في أدوار حياتهم المختلفة، فالكاتب الحق أو الفنان الحق يجب أن يسائل نفسه عن مقدار العواطف التي تثيرها كتابته أو فنه، فهناك قوم مرضي بأعصابهم. ومرضى بشهواتهم، ومرضى بحيلتهم العقلية والاجتماعية، ومن الخطر أن يغذي هؤلاء بأنواع من الأدب تزيد في هياج أعصابهم وشهواتهم، وإن كان ما

يقال حقاً وصدقاً. فنحن إذا طالبنا الأديب ألا يقول إلا الصدق فنحن نطالبه أيضاً - لا من الناحية الأدبية بل من الناحية الاجتماعية - ألا يقول إلا الصدق الذي يتفق والصالح العام.

وربما خفي هذا الرأي على بعض الكتّاب، فتعرضوا لشرح مخاز اجتماعية في رواياتهم أو مقالاتهم واحتموا بأنهم يقولون صدقاً، ويصفون واقعاً، أو كما يفعل بعض كتاب السياسة لا يتخرجون من أن يقولوا كل ما يعلمون عن خصومهم واكتفى أشرافهم بالوقوف عند الصدق، واعتقدوا أنهم ما لم يختلفوا فقد أَرْضُوا ضمائرهم وبرّوا بأنفسهم.

وهذا وذاك خطأ بَيِّن، فكم من الحقائق لا يصح ذكرها ولا عرضها عرضاً أدبياً، وإذا قيلت أو عرضت فلا تقال لكل إنسان وفي كل زمان، وخير الكتاب من لم يعرض من مظاهر الحياة إلا لما يصح عرضه، واتجه في حياته الأدبية إلى أن يصور المثل الأعلى للحياة في صورة واقعية، وسخر قلمه ولسانه وعواطفه لخدمة القومية والإنسانية.

لحظات التجلي

لكثير من الناس - وخاصة العقليين والروحانيين - لحظات تضيء فيها نفوسهم، حتى كأنها المرأة الصافية، أو الشعلة الملهبة، كل جانب فيها مضيء، وكل العالم منعكس عليها، يراه فيها كما يرى السماء في الماء.

يحس بهذا الأديب، فتراه حيناً وقد غزرت معانيه، وتدفقت عليه من كل جانب، حتى ليحار في الاختيار، ماذا يأخذ وماذا يذر، ويم يفضل بعضها على بعض، وحتى كأنه يغترف من بحر، أو يملي عن حفظ، ويصدر عنه إذ ذاك القول السلس والمعاني الغزيرة، والشعر المتدفق، هذه اللحظات هي «لحظات التجلي»، وتأتي عليه أوقات وقد جمدت قريحته، وأجذب فكره، يعاني في البحث ما يعاني، ثم لا يأتي إلا بحمأة وقليل ماء، ويصعب عليه القول كأنه يمتح من بئر، أو يستنبط من صخر.

ويحس بهذا الفيلسوف، فيشعر بلحظات تنكشف فيها جوانب من حقيقة هذا العالم، فيراها ويستلذها، ويود أن تدوم، بل يود أن تعاوده الفينة بعد الفينة، ويتمنى أن يشتري عودتها بكل ما ملك، وينفق في ساعة منها كل متع الحياة الدنيا، يشعر في هذه اللحظات بذكاء في الفهم، وصفاء في النفس، ولطافة في الحس، تكفيه في فهم هذا العالم الإشارة، وتجزئه الإيلاء، يستشف العالم من وراء مظهره، ويلمحه من رموزه، ويشعر إذ ذاك بسمو في العقل، ورقى في الروح، لا يعدل لذتها شيء في الحياة.

ثم تذهب عنه لحظات التجلي على الرغم منه، فإذا به في بعض أوقاته مظلم الحس، متخلف الذهن، بليد البصيرة، لا يتنبه للحن، ولا يفتن لمغزى، تستعجم عليه المدارك الظاهرة، وتخفى عليه الأشباح الماثلة.

وتختلف لحظات التجلي عند الفلاسفة والصوفية كثرة وقلة، كما يختلف مدى التجلي بعدًا وقربا، حتى ليحكى عن «أفلوطين» الفيلسوف الروحاني المشهور أنه حظا بهذه اللحظات بضع مرات في حياته، وحظا بها تلميذه «فورفوريوس» مرة واحدة.

وتعرض للفنان فيلهم معنى يصوره بريشته أو يوقع به على قيثارته، فثم الإبداع والجمال الرائع، والحسن البارع، ذاك يملأ العين حسنا بصورته، وهذا يملأ السمع والقلب عذوبة بنغمته، ثم تأتي على هذا وذاك أوقات ينضب فيها معينهما، ويفتر عنهما وحيهما.

وترى العلماء من رياضي وطبيعي وكيمياوي، يرزق أحدهم الخطوة بلحظة من هذه اللحظات، يلهم فيها فكرة يكون من ورائها مخترعٌ عجيب، أو استكشاف خطير، عرض له أثناء بحثه، وقد لا تكون هناك علاقة ما بين ما يبحث فيه وبين ما ألهم، بل قد لا تكون هناك مقدمات منطقية مطلقا لما ألهم، ويقف العلم حائرا لا يستطيع أن يعلل كيف نشأت في ذهن هذا العالم تلك الفكرة، وكيف فطن لها، بل يحار المستكشف نفسه كيف عرضت له وكيف ألهم بها.

وبعد فهل يمكن أن نضع قوانين لهذه اللحظات، وهل هناك عوامل معروفة إذا استوفيت أمكننا اقتناؤها والخطوة بها؟ وهل يمكن أن نجمع هذه الشروط في زر كهربائي أو زر روحاني نفتحه فنفتح علينا لحظات التجلي إن شئنا؟

لو استطعنا هذا لتضاعف الإنتاج الأدبي والعلمي في هذا العالم أضعافاً مضاعفة؛ ولسهل على الأديب أن يستوفي الشروط فما هو إلا أن يمسك بقلمه فيغزر ماؤه، ويسيل آتيه، وتنثال عليه الألفاظ والمعاني انثيالاً.

لقد حاولوا من قديم أن يستكشفوا قوانين «التجلي» فقالوا إن مما يعين عليه جودة الغذاء، وفراغ البال من هموم الحياة، وصحة البدن، وطمأنينة النفس واستعانوا على نيل لحظات التجلي بمختلف الألوان، فقد قيل لكثير عزة يا أبا صخر، كيف تصنع إذا عسر عليك قول الشعر؟ قال أطوف في الرباع المخلية، والرياض المعشبة، فيسهل علي أرضه، ويسرع إلي أحسنه، وقال الأحوص:

وأشرفْتُ في نَشْرِ من الأرض يافع وقد تشغف الأيفاع من كان مُقَصِّداً^(١٢)

ولجأ الأدباء من قديم إلى الأزهار والرياض، والمياه الجارية والمناظر الجميلة، فحسبوا لجأ بعضهم إلى الخمر يستلهمها ويستوحىها، وتكاد تكون لكل أديب عادة يرى أنها علة غزارته، ومفتاح إنتاجه، وأنه يستنزل بها العُصم من الأفكار، ويستسمح بها الأبى من المعاني، ولكن هل نجحت كل هذه المحاولات في استكشاف قوانين التجلي؟ أظن أن نظرة بسيطة تكفي للقول بأنها لم تنجح، فقد تستوفي كل الشروط التي قالوها فالصحة في أجود حالاتها، والغذاء خير غذاء، والكاتب أو الشاعر مطمئن النفس، هادئ البال، بين الرياض المزهرة والمياه الجارية والوجوه الناضرة، وهو مع هذا أجذب ما يكون قريحة، وأنضب ما يكون معيناً، ثم هو يكون على العكس من ذلك كله فيوآتيه شيطانه، وتزاحم في صدره المعاني، وتبأري على قلمه الآراء والأفكار والألفاظ.

(١٢) اليافع: المرتفع، وشغفته الأيفاع حركت نفسه وهاجت عواطفه؛ والمقصد من يعمل القصائد.

ثم هذا أديب أو شاعر يجود قوله وتتجلى نفسه، في الأماكن الخالية والسكون العميق، وذلك لا يتأتى له هذا الموقف إلا في الأوساط الصاخبة والحركة الماثجة. وأديب لا يتج إلا إذا امتلأ جيبه واطمأنت نفسه لحاجات الحياة، على حين أن الآخر لا يجيد إلا إذا فرغ وطابه، وعضه الفقر بنانه، وتكاثرت عليه الهموم.

فأين قوانين التجلي إذا كان يحدث في البيئة وضدها والظروف وعكسها؟ قد تكون كل المظاهر وكل ما يحيط بالنفس يؤذن بحال انقباض وجود، وإذا النفس مع ذلك فياضة جياشة متجلية، وقد تكون المظاهر كلها تدل على نفس متفتحة للعمل، مليئة بالفكر فإذا هي مجدبة متقبضة، وترى الآراء القيمة والمعاني السامية قد تنبع من بيئة قاتمة، ونفس مظلمة، كما تخرج الزهرة من طين، أو كما يخرج الذهب من الرغام، والحرير من الدود.

أخشى أن يكون الذين قد وضعوا هذه القوانين وأمثالها للحظات التجلي قد تسرعوا في وضعها، فالإنسان معقد كل التعقيد، ولئن كان جسمه معقداً مرة فنفسه وروحانيته وعقله معقدة ألف مرة بل آلاف، وإن العوامل التي تؤثر في نفسه وروحانيته ليست الحالة البدنية، ولا الغذاء الصالح، ولا المناظر الجميلة، ولا الغني والفقر، وحدها، بل هناك عوامل أدق وأعمق وأغمض، إن الإنسان لا يعيش في بدنه وحده، ولا في محيطه فقط، بل إنه يعيش في أصدقائه الأقربين والأبعدين، وإنه يعيش في آبائه الذين كانوا وماتوا، وإنه يعيش في ذريته الذين كانوا وسيكونون؛ وإنه يعيش في أحلامه وآلامه وآماله، ويعيش في شبكات من تموجات نفسية دونها بمراحل شبكات التلغرافات والتليفونات، وتتسلط عليه أنواع من الأشعة لا عداد لها.

لعلنا لا نستطيع أن نستكشف قوانين التجلي إلا إذا عرفنا نوع النفس التي تتلقى هذه الأشعة، وعلمنا كل هذه المؤثرات، وهيئات!!

أدب اللفظ وأدب المعنى

من قديم اختلف علماء البلاغة، أهي في اللفظ أم في المعنى، وقد عقد عبد القادر الجرجاني فصلاً ممتعاً في آخر كتابه «دلائل الإعجاز» ذكر فيه حجج الفريقين؛ فقد كان فريق يرى أن المعاني مطروحة أمام الناس، والبليغ من استطاع أن يصوغها صوغاً جميلاً، وإنما يفاضل الأدباء بجودة السبك وحسن الصياغة؛ ويرى الفريق الآخر أن المعاني هي قياس التفاضل، وأن الأديب يفضل الأديب بغزارة معانيه، وجدة أفكاره؛ وأظن أن الزمان فصل في هذه القضية، إذ أصبح واضحاً أن حسن الصياغة، وجودة المعاني، عنصران أساسيان لا بد منهما للأديب، وأن من تجرد من أحدهما لا يسمى أديباً بحال، وأن المثل الأعلى للأديب معان غزيرة سامية، وصياغة جيدة محكمة.

غير أن هناك -ولا شك- مواضع تراعي فيها المعاني أكثر مما يراعي اللفظ وصياغته، كفصول النقد الأدبي، والمقالات العلمية الأدبية، والمقالات التاريخية الأدبية، وتراجم الأشخاص ونحوها؛ فالغاية من هذه الموضوعات ليست اللذة الفنية، وإنما الغرض الأول هو المعاني والحقائق، فيجب أن تكون غزيرة فياضة، وكل ما تتطلبه فيها من اللفظ أن يعبر عن هذه المعاني في دقة ووضوح، أما القصد إلى محسنات البديع ومجملات الصناعة فلا داعي له، وربما كان إفراط الكاتب في هذه المحسنات حجباً للمعاني عن الأنظار، ومضلة للعقول عن الوصول إلى حقيقة المعاني، وهي أقوم ما في هذه الموضوعات.

وهناك ضرب آخر من الأدب كالشعر والقصص فيها مراعاة اللفظ وحسن السبك في المنزلة الأولى، ولست أعني أن الحقائق والمعاني فيها مجردة من القيمة بل هي كذلك من مقدماتها، والشاعر الذي يجيد السبك ولا يجيد المعنى ليس من شعراء

الطبقة الأولى، وخير الشعراء من صح حكمه، واتسعت تجاربه في الحياة. وكان له علم عميق بكثير من الأشياء التي حوله ثم صاغ ذلك كله صياغة جميلة، وهكذا الأدب الصرف كالشعر والقصة والقطع الفنية الأدبية. ليس الغرض الأول منه نقل المعاني كما في الصنف الأول، وإنما الغرض منه إنارة عواطف القارئ والسامع.

والألفاظ كما -يظهر لي- لم توضع لنقل العواطف، وإنما وضعت لنقل المعاني، والألفاظ أعجز ما تكون عن نقل عاطفة الأديب إلى القارئ؛ فكيف أنقل إعجابي بالطبيعة أو أنقل حبا ملأ جوانحي، أو غضبا استفزني، أو رحمة ملكت مشاعري؟ لم توضع الألفاظ لشيء من ذلك، إنما وضعت لنقل مقدمات ونتائج منطقية، ولكن ما حيلتنا وقد خلقنا عاجزين، لم نمنح لغة العواطف، ولا بد لنا من التعبير عنها ونقلها إلى قارئنا وسامعنا؛ لذلك استخدمنا لغة العقل مرغمين وأدركنا أن نكمل هذا العجز بضروب من الفن، كموسيقى الشعر من وزن وقافية وكالسجع، وكل ضروب البديع، وليس القصد منها إلا أن تكمل نقص الألفاظ في أداء العواطف.

في هذا النوع من الأدب ليس من الضروري أن تكون معانيه جديدة، وربما يستطيع الأديب أن يجعل من المعنى المطروق قصيدة رائعة، أو قصة ممتعة وكل ما فيها من جديد صياغتها الجديدة، وخيالها المبتكر، وليست وظيفة الأديب فيها أن يعلم الحقائق، إنما وظيفته أن يثير مشاعر الناس بها، ويعبر عما لا يحسنون التعبير عنه، وإن كانت المعاني في نفوسهم، وبين سمعهم وبصرهم.

كل إنسان يشعر بجمال الوردية، ولكن الأديب يملأ مشاعرك بجمالها، ويوحى إليك بمعان ترتبط بها، مثل اقتران تفتحها بتفتح الشباب، ونشوة الأمل، أو ما تبعث من شجن. وجودة الأسلوب وحسن النظم قد يرقيان بالمعاني المألوفة فيخرجانها في كل جذاب ولكن لا يمكن الأديب على كل حال أن يتبوأ مكاناً عالياً إذا اعتمد على الأسلوب وحده وكان مصاباً بالفقر العقلي.

في أدب كل أمة نرى أدب اللفظ وأدب المعنى، وفي الأدب العربي أمثلة واضحة لذلك؛ فمقامات الحريري والبديع أدب لفظ لا معنى، قل أن تعثر فيهما على معنى جديد، أو خيال رائع، وهما من الناحية القصصية في أدنى درجات الفن، ولكنها تؤديان غرضًا جليلاً من الناحية اللفظية، ففيهما ثروة من الألفاظ والتعبيرات لا تقدر، ويظهر أن مؤلفيهما قصدا إلى تعليم اللغة وإمداد المتعلم بثروة كبيرة من الألفاظ والأمثال والتعبير، وتحايلا على ذلك بهذا الوضع الجذاب، فإن كانا قد قصدا إلى ذلك فقد نجحا نجاحًا تامًا وإن كان قصدهما غير ذلك فلا. وشعراء القرون المظلمة بعد سقوط بغداد وكتابتها أدباء ألفاظ: رُواء في العين، ولا شيء في اليدين، بل إن أدب كثير منهم لا هو أدب لفظ ولا هو أدب معنى يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا؛ والمعري في لزومياته أديب معنى لا أديب لفظ، غزرت معانيه وقصرت ألفاظه، حاول أن يدخل المحسنات البديعية في شدة ففشل، قد التزم ما لا يلزم فأضاع ما يلزم؛ والمتنبي -على الجملة- أديب لفظ ومعنى قد وقع من معاني الحياة على ما لم يقع من قبله، ثم صاغه صياغة قوية حبيته إلى النفس.

وبعد فيظهر لي أن الزمن سائر إلى تقويم المعاني أكثر من تقويم الألفاظ، وشأن الناس في تقويم الأدب شأنهم في تقويم الجمال في سائر الفنون، فمن لم يصلوا إلى درجة راقية من المدنية يعجبهم من الألوان اللون الزاهي كالأحمر القاني والأصفر الفاقع، ويعجبهم من الأجسام السمين القوي في ملامحه، ومن الأصوات الطبل والمزمار، فإذا بلغوا مبلغًا كبيرًا في الحضارة أعجبهم الألوان المتناسقة والألوان الخفيفة، كما تعجبهم وحدة الفكرة التي تنسق الألوان المختلفة والمظاهر المتعددة، وأعجبهم من جمال الإنسان الرشاقة وخفة الروح، وأعجبوا بجمال الحركة، وقوموا جمال المعاني أكثر مما يقومون جمال الملامح، ونظروا إلى جمال الروح أكثر مما ينظرون إلى جمال الجسم، حتى في جمال الجسم يقومون وحدة التناسق والنسبة بين الأعضاء

أكثر مما يقومون جمال الوجه وحده، وفي الموسيقى تعجبهم النغمات الهادئة، والنغمات المتناسقة، والنغمات التي تمثل المعاني. كذلك شأنهم في الأدب يكرهون السجع الدائم، والكتابة التي اختفت معانيها أو ضاعت وراء الزينة المفرطة والزخرف الكثير، والقافية الطويلة على وتيرة واحدة، وتعجبهم البساطة في القول والزينة بقدر، والألفاظ كوسيلة لا غاية؛ يكرهون النكت كلها لعب بالألفاظ، والنكت تلذع لذعاً صريحاً، وتعجبهم النكتة أسست على معنى، والنكتة تلذع في إيحاء ورقة.

إن الأديب إذا رزق حظوة في السبك، وأصيب بفقر في المعنى كانت شهرته وقتية وقيمتة محدودة الزمن، ولا يلبث الناس أن يدركوا ضعفه وفقره فينبذوه، والأديب الخالد من زاد في معارفنا ومشاعرنا بما في قوله من معنى وقوة.

أديب اللفظ فارغ الرأس قليل العلم بما حوله، قريب الغور، قد ستر كل هذا بزخرف القول كما تستر الشوواء عيها بالأصباغ، رخصت بضاعته فبالغ في التجمل في عرضها، ولقت الأنظار إليها، وشعر أنها مزيفة فغضب لنقدها والتلويح بامتحانها. والأمة في طفولتها وشيخوختها يعجبها هذا النوع من الأدب، لأن خفة رأسها من خفة رأس أدبائها. ولأن العقول السخيفة يعجبها السحر والشعوذة وألعاب البهلوان، والأدب اللفظي المحض نوع من هذا اللعب. فإذا نضج عقلها تغير ميزانها ونفذ نظرها إلى أعماق الشيء، لتعرف ما وراء الظواهر. وإذا ذاك تقدر المعاني أكثر مما تقدر الألفاظ، وترى الألفاظ جسماً والمعنى روحه. وترى المعنى غاية واللفظ وسيلة. وتستحسن اللفظ لا لذاته، ولكن لأنه لفق المعنى.

تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائحات المعاني

ما أحوج أدبنا العربي الحديث إلى المعنى القوي الغزير في اللفظ الجميل البسيط.

ندرة البطولة

قالوا- إنا نتلفت يَمْنَةً وَيَسْرَةً فلا نجد في عصرنا بطولة من جنس بطولة العصور الماضية، ولا نجد نبوغاً رائعاً قويا كنبوغ من نبغ في الأجيال السابقة. فتش -إذا شئت- في كل لون من ألوان البطولة، وفي كل ناحية من نواحي النبوغ تجد هذه الحقيقة واضحة.

فهل تجد في الشعر العربي أمثال بشار، وأبي نواس، وابن الرومي، وابن المعتز، وأبي العلاء؟

وهل تجد في النثر أمثال ابن المقفع، والجاحظ، وسهل بن هارون، وعمرو بن مسعدة؟

وهل تجد في قيادة الحروب أمثال خالد بن الوليد، وأبي عبيدة؟

وهل تجد في سياسة الأمم أمثال عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز؟

وهل تجد في الغناء أمثال إسحق الموصلي، وإبراهيم بن المهدي؟

وهل تجد مؤلفاً في الأغاني كأبي الفرج الأصفهاني؟

وما لنا نذهب بعيداً ويوم فقدنا السيد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده

لم نجد عوضاً عنهما في العلم بالدين والأخلاق والسياسة؟

ويوم فقدنا البارودي، وحافظاً، وشوقي، لم نجد لهم خلفاً في شعرائنا؟

ويوم فقدنا عبده الحمولي، ومحمد عثمان، نتبَّغ من الغناء بالقليل.

ويوم فقدنا الشيخ علي يوسف لم نر من يسد مسده في الصحافة.

ومن الغريب أنهم يشكون في أوروبا شكائنا، ويلاحظون عندهم ملاحظتنا، فيقولون أن ليس عندهم في حاضرهم أمثال فجر وبيتهوفن، ولا أمثال شكسبير وجوته، ولا أمثال رفائيل، ولا أمثال دارون. وسبنسر، ولا أمثال نابليون وبسمارك.

فهل هذه ظاهرة صحيحة؟ وإن كانت فما سببها؟

قد كانت كل الظواهر تدل على أن الجيل الحاضر أحسن استعدادا، وأكثر ملاءمة لكثرة النبوغ وازدياد البطولة، فقد كثر العلم وسهل التعلم، ومهدت كل الوسائل للتربية والتثقيف، وكثر عدد المتعلمين في كل أمة، وفتح المجال أمام النساء كما فتح أمام الرجال، فأصبحت وسائل النبوغ ممهدة للجنسين على السواء؛ وتقطر العلم إلى العامة، فأصبحوا يشاطرون العلماء بعض معلوماتهم، وانتشرت الصحف والمجلات تغذي جمهور الناس بالعلم والأدب، واتصل العالم بعضه ببعض اتصالا وثيقا في المواصلات والعلم والسياسة والاقتصاد وما إلى ذلك.

كل هذا كان يجب أن يكون إرهادا لكثرة النبوغ والتفنن في البطولة لا لقلة النبوغ وندرة البطولة؛ فلم أصيبت الأمم كلها بهذا العقم؛ وكان مقتضى الظاهر أن كثرة المواليد تزيد في كثرة النابغين، وكان مقتضى الظاهر أيضًا أن عصر النور يلد من الأشخاص الممتازين أكثر مما يلد عصر الظلام.

يظهر لي مع الأسف - أن الظاهرة صحيحة، وأن الجيل الحاضر في الأمم المختلفة لا يلد كثيرا من النوابع، ولا يتج كثير من الأبطال، وأن طابع هذه العصور هو «طابع المألوف والمعتاد»، لا «طابع النابغة والبطل».

بقي علينا معرفة السبب في ذلك:

من الأسباب القوية على ما يظهر، أن الناس علا مثلهم الأعلى في النابغة والبطل، فلا يسمون بطلا أو نابغة إلا من حاز صفات كثيرة ممتازة قل أن تتحقق، وهذا طبيعي، فكلما رقي الناس مثلهم الأعلى.

قد كنا إلى عهد قريب نعد من يقرأ ويكتب، وبعبارة أخرى «من يفك الخط» رجلا ممتازا لأنه نادر وقليل، فكان ينظر إليه نظرة تحلي واحترام؛ فلما كثر التعليم بعض الشيء كان من أخذ الشهادة الابتدائية شابا ممتازا؛ فلما كثرت انتقل الامتياز إلى البكالوريا، ثم إلى الشهادة العليا، ثم إلى شهادات جامعات أوروبا، ثم أصبحت هذه أيضًا ليست محل امتياز، وارتفعت درجة النبوغ إلى شيء وراء هذا كله.

والناس -على الجملة- استتارت أذهانهم إلى حد بعيد، واكتشفوا سر العظمة، فأصبحت العظمة المعتادة لا تروعهم، إنما يروعهم الخارق للعادة، وأين هو تحت هذه الأنوار الكشافة؟

ثم شعر الناس بعظمتهم هم أيضًا وبشخصيتهم؛ والبطولة تأتي -في الغالب- عندما يسلس الناس زمام نفوسهم للبطل، فهم بطاعتهم له واستسلامهم لأمره وإشارته يزدون في عظمتهم، ويغدون بطولته -فإن كانوا هم أيضًا يشعرون بعظمة أنفسهم قلّت طاعتهم وقل تبجيلهم وخضوعهم لكائن من كان، وبذلك لا يفسحون للبطل بطولته فلا يكون. فلو وجد اليوم شخص في أخلاق نابليون وصفاته ومميزاته ما حققوه في عصرنا، ولا كان إلا رجلا عاديا أو ممتازا بعض الامتياز؛ فأما أن تعطيه الخلائق هذه الطاعة العمياء، وتبيع نفوسها رخيصة في سبيل مجده، وتسفك دماءها أنهارا لتحقيق عظمتهم، فذلك ما لا يكون اليوم كما كان بالأمس.

قد تضرب لي اليوم مثلاً بموسوليني ومصطفى كمال وهتلر، ولكن الفرق عظيم جداً، فهؤلاء يؤثرون في شعوبهم من ناحية أنهم خدام للشعب لا سادة لهم، وأن الشعب إذا عظمهم فلائهم يخدمونه، ويوم يثبت لها أنهم لا يعملون لخيرها، يتفضون يدهم عنه؛ فأين هذا من الطاعة العمياء التي كانت لنا بليون؟

ولهذا نرى كلا من هؤلاء يتملق شعبه ويحاول أن يقيم البرهان كل يوم على أنه عامل لخيرها سابع في سعادته لشعوره التام بأنه إنما يحكم الشعب بإرادة الشعب لا بإرادته هو، فإذا هو لم يتمتع بهذه الثقة سقط من عرشه، وهذا - من غير شك - يقلل شأن البطولة.

وهذه الأسباب التي ذكرت أنها كانت تؤذن بكثرة النوايا هي بعينا التي قللت النوايا؛ وتعليل ذلك معقول، فكثرة العلم واستنارة الشعب، جعلت النبوغ عسيرا لا سهلا يسيرا.

ومصادق ذلك أن الأمم فيما مضى كانت تمنح المشعوذين والمخرفين ألقاب البطولة، وتنظر إليهم نظر تفوق ونبوغ؛ ومن أمثال من كانوا يسمونهم «الأولياء» فيكفي أن يتظاهروا بالجذب ويتصنعوا الصلاح ويدعوا معرفة الغيب ليهرع إليهم الناس ويقبلوا أيديهم ويلتمسوا منهم البركة ويرفعوهم فوق النوايا والأبطال؛ وأحيانا يلقبهم «بالأقطاب» فلما فتح الناس عيونهم، وعقلوا بعد غفلتهم، واكتشفوا حيلهم ومكرهم لم تعد لهم هذه المكانة، وحل بعض محلهم المصلحون الاجتماعيون الذين يخدمون أمتهم بعملهم. ومعنى ذلك أن الشعوذة والمخرقة حل محلها مقياس المنفعة وسار الناس في طريق التقدير الصحيح وهو الاحترام والتبجيل على قدر ما يصدر من الشخص من خير عام حقيقي.

ومن أجل هذا أيضًا رأينا التيار في هذه الأيام يتجه إلى تقليل شأن البطولة في العصر الماضي، فلم يعد البطل القديم في الأدب والسياسة والفن والعلم يقدر التقدير الكبير الذي كان يقدر به من قبل، لأن الناس أخذوا يحللون كل بطل، ويبنون سر بطولته، «ومتى ظهر السبب بطل العجب» ولم يقنعهم ما كان يحبط به من غموض فألقوا أضواء كثيرة على من كانوا يسمون الأبطال؛ فأحيانًا يؤدهم البحث إلى إنكار بطولة بعض الأشخاص بتاتا، وأحيانًا يقللون من قيمة البطل، بل وأحيانًا يرون بطلا من أنكر الناس قديمًا بطولته.

ذلك لأن مقاييس البطولة تغيرت وأصبحت عند المحدثين خيرًا منها عند الأقدمين، ولأن المحدثين رأوا أن القدم نسج لكثير من الناس أثوابًا من البطولة لم تكن موجودة أيام حياتهم، وكلما تقدم الزمن منحهم الناس شارة بطولة جديدة؛ فلما عرض هذا كله للنقد وأزاح أهل العلم الحديث ستائر القدم تبين البطل في صورته الحقيقية أو قريبًا من صورته الحقيقية، فأحيانًا يرتفع الستار عن لا بطل، وأحيانًا يرتفع عن بطل ولكن دون ما كان يقدره القدماء؛ ونادرًا ما يبقى البطل بطلا كبيرا حتى بعد ما ترتفع حجب القدم.

ولهذا نجد كثيرًا من المعاصرين هم في الحقيقة نوابغ، وهم يفوقون بمراحل بعض نوابغ الأقدمين، ولو كانوا في العصور الماضية لارتفعت منزلتهم فوق ما ارتفعت اليوم، ولكن لم نمحهم نحن لقب البطولة للأسباب التي اشرنا إليها قبل من أننا رفعنا إلى حد بعيد المثل الأعلى للنبوغ، ولأننا نحلل النابغ ونكتشف سره، وذلك يقلل من تقديره، ولأنه معاصر والمعاصرة أعدى أعداء الاعتراف بالنبوغ.

وقد يتصل بهذا أن كثرة النبوغ تضع الاعتراف بالنبوغ، فكل أمة راقية الآن لديها عدد كبير من المتفوقين في كل فرع من فروع العلم والفن: في القانون - في الأدب - في الطبيعة - في الكيمياء - في الرسم - في التصوير. فلما كثر هؤلاء في كل أمة

أصبح من العسير أن تميز أكبر متفوق منهم لتمنحه صفة النبوغ؛ ومن العسير أيضًا أن تسميهم كلهم نوابغ، لأن النبوغ بحكم اسمه ومعناه يتطلب الندرة، فلما كثر النابغون أضاعوا اسم النبوغ. وعلى العكس من ذلك الأمم المحنطة، لما لم يوجد فيها إلا قانوني واحد أو أديب واحد أو موسيقي واحد كان من السهل أن يمنح لقب النبوغ.

ثم إن الديمقراطية التي سادت الناس في العصور الأخيرة وزادت بالمساواة وألحت في الطلب أوجدت في الشعوب حالة نفسية كان لها أثرها في موضوعنا إذ أصبح الناس لا يؤمنون بتفوق كبير، لا في المال فيهم يريدون الاشتراكية، ولا في السياسة فقد يتبوء الحكم حزب العمال فيدير الأمور كما يديرها الأرستقراطيون في السياسة بل أحسن منهم. فدعتهم هذه الحالة النفسية إلى أن يكفروا بالتفوق، أو بعبارة أخرى يكروا بالنبوغ، ويعيد أن يُعترف بنبوغ في جو يكفر به. لقد كان الناس قبل أكثر إيمانًا بالفروق في المال والكفاية والعلم فكان هذا الإيمان وسيلة صالحة لظهور النبوغ، فلما جحدوا كل شي كان النبوغ مما جحدوا.

وأخيرا كان من أثر هذه الديمقراطية تعميم التعليم، والبحث في خير الوسائل لنشر العلم، فقامت النظريات المختلفة في التربية والتعليم واصحب العلم شعبيًا بعد أن كان أرستقراطيا. واستخدمت الوسائل المختلفة لتبسيط العلم وتحجيبه إلى النفوس، وغيّرت نظم المدارس، فأنشئت رياض الأطفال مكان الكتاتيب، والمدارس الناعمة بدل المدارس الخشنة، واخترت البيداجوجيا وسائل لتسهيل الدرس وإيصاله إلى الذهن من أقرب طريق.

كان من نتيجة ذلك كثرة المتعلمين وقلة النابغين، واتساع البحر وقلة عمقه، وذلك لأن من كان يتفوق في الماضي كان يصادف عقبات لا حد لعددتها ولا حد لصعوبتها، فكان من الطبيعي ألا يجتازها إلا الأقلون، ولكن من يجتازها تكون لديه

الحصانة الطبيعية ويكون قد تعود اجتياز العقبات واحتمل مشقة السير، فكان ذلك سبب النبوغ من ناحيتين: من ناحية قلة من يجتاز العقبات ومن ناحية من يجتازها.

أما وقد أصبح التعليم معبداً ميسراً فقد زاد عدد المتعلمين وقل النابغون وأصبح الفرق بين العهدين كبذرة تربي في حديقة بستان ويذرة تنبت في الجبال حيث الرياح العاصفة والشمس المحرقة والمطر الذي لا نظام له. فأين نبت البستان من نبت الجبال، وأين الحيوان المستأنس من الحيوان المستوحش؟

السكون في الظلام

ما ألدّه، وما أهناّه، وما أحلاه!

يذهب بالأوصاب، ويرد العافية إلى الأعصاب.

فترة سكون في ظلام يجب أن يقضيها كل إنسان في كل يوم.

وإذا كان كل الناس يحتاجونها فرجال الفكر إليها أحوج، هي راحة من عناء مجهودهم، واسترداد لما فقدوا من رءوسهم، واسترجاع لما قطروا من عصارة عقولهم.

وهي فوق ذلك أدعى لصفاء الذهن، وصحة التفكير، وجودة الإنتاج؛ فالبذرة لا تنبت في جلبة وضوضاء وضياء، إنما تنبت في جوف الأرض، حيث لا تراها عين، ولا تؤذيها حركة، وحيث تستمتع بكل ما في السكون والظلام من قوة، حتى إذا نضجها خرجت إلى النور والهواء والحركة بساقها وفروعها، لا بنفسها.

ولا تفتن وردة بجمالها ومنظرها وعبيرها قبل أن تدفن بذرتها، يجب أن تمر بها أيام وأيام، تشعر بنفسها ولا يشعر الناس بها، وحتى إذا أعجبت الناس ونفحتهم بنعيمها يجب أن يبقى أصلها منعماً بظلامه وسكونه، فإذا أفلقت مضجعها وسلبتها هدوءها سلبتك محاسنها.

وكذلك كل حي لا بد أن يموت ليحيا، وهل النوم إلا ضرب من الموت، ونوع من الفناء؟ دع الحي يحيا أياما من غير نوم تره وقد تهدلت أعصابه، وتهدمت قواه، وقرب من الفناء الأبدى.

وليس يكفى النوم للمفكر، فهناك ضرب خير من النوم هو أوقات يمضيها في هدوء وسكون وظلام، يكون فيها متبها نائما، شاعرا حالما، يلذ فيها لذة النوم، كما يلذ لذة الصحو، يتعرض فيها لنفحات الله، ويلمع في روحه قبس أشبه ما يكون بالإلهام، وتأتيه الفكرة الناضجة، أو الخطرة الكاشفة، أو اللمحة الدالة فتكون خيرا من ساعات وساعات يقضيها في العمل، وبين المحبرة والقلم، والصحف والكتب.

قرأت مرة أن متعلما كان يقبض على معلمه أنه يصبح مبكرا فيقضي ساعات في استذكار دروسه، وساعات في تعلم لغات أجنبية، وساعات في أخذ دروس جديدة في علوم مختلفة حتى يمضي جزء كبير من الليل فيذهب إلى فراشه وقد أنهكه التعب، وأخذ منه كل مأخذ؛ فقال له أستاذه: ومتى تفكر؟ وأين تجد نفسك؟

وهو سؤال له دلالاته ومغزاه. فأكثر الناس لا يفكرون، وإن ظنوا أنهم فيما يقرءون ويكتبون يفكرون، وأكثر الناس يفقدون أنفسهم في ثنايا صحفهم وكتبهم.

ولأمر ما كان النبي صلى الله عليه وسلم (يخلو بغار حراء، ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد يتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء).

في غار حراء حيث السكون والظلام، بعيدا عن الخلق قريبا إلى الحق؛ قد انقطع عن العالم وضوضائه، والدنيا وألعايبها، قد صفت نفسه من صفاء محيطه، ووجد نفسه فوجد ربه، وتعرض للإلهام فجاءه الإلهام، وتبأ للوحي فنزل عليه الوحي.

لکم تمنيت أن يكون للمسلمين تكايا أو خانقاها في أمكنة نزهة منقطعة ليست من هذا النوع الذي يأوى إليه العاجزون والعاطلون، والذين يأكلون ولا يعملون، ولكنها من طراز حديث يهز إليها من أراد أن يستجم نفسه ويريح قلبه، ويسترد هدوءه، بعد أن أتلفتها ضوضاء المدنية، وجلبة الحياة العصرية - تكون

مستشفى للنفوس بجانب مستشفيات الأبدان، ويترهب فيها من أضناه العمل، وأعياء الجهد، رهبانية مؤقتة يجدد فيها نفسه، ويغذي بهدوئها وسكونها عقله وحسه، ويبعث إلى العالم خلقا جديدا كما يبعث النوم الحياة- إذن لقلت أخطاء الناس ومظالمهم، فأكثرها مبعثه فساد الأعصاب؛ وإذن لقل إلحادهم فأكثره منشؤه الانغماس في المادة وشؤونها، فإذا تجرد المرء منها زمنا وخلا بنفسه وأتيحت له فرصة التفكير في هدوء وسكون وظلام تحرك قلبه للعبادة، ونزع إلى الإيمان، فاستجاب لفطرته، واستمع لطبيعته؛ وإذن لقلت مطامع الناس، وتكالبهم على الحياة، فحياة الهدوء والسكينة توحى بأن الحياة ظل زائل، ومرحلة مسافر.

لقد اعتاد الناس أن يفروا من متاعبهم إلى المقاهي والفنادق في الهواء الطلق، وعلى شواطئ الأنهار والبحيرات والبحار، ولكنها كلها تفيد الجسم ولا تفيد - كثيرا- الروح والنفس، هي من نوع المستشفيات البدنية لا المستشفيات الروحية والنفسية، فيها -عادة- كل مظاهر المدنية وتعقيدات وأخيلتها وتكاليفها، فهي لا تغني غناء صحيحا في العلاج النفسي والروحي، إنما يغني هذا الغناء أنواع المعاهد والمؤسسات قد بنى على أساس نفسي روحي لا يعبأ بزخارف المدنية وزينة الحضارة، يريح النفس من عناء التكاليف والتقاليد، ويسمو بها فوق المواضعات والمصطلحات، فتجد النفس راحتها الطليقة، وتعود إلى طبيعتها الحرة، وتسبح في تأملاتها، وبذلك تسترد حيويتها ونشاطها.

في سكون الظلماء يرى الإنسان بعينه ما لا يراه في الضياء، ويسمع بأذنه ما لا يسمع في الضوضاء، على أنه هو لا يرى بعينه فحسب، ولا يسمع بأذنه فحسب، بل كل شيء فيه يسمع ويرى، يفهم منطق الطير، ويتذوق موسيقاه، ويدرك معاني المياه في خريرها، والرياح في هبوبها، والأشجار في حفيفها؛ فكأنه منح من الحواس أضعاف حواسه، ومملك من الملكات ما لا يعد بجانب ملكاته؛ وكأن عالم الصخب

والجلب يغشى عينه، ويثقل سمعه، يبلى عقله، ويثلم ذوقه؛ فلو كان الصوت في عالم الحس له حدود، فإذا قلت تموجاته عن حدوده أو زادت انعدم السمع، فليس في عالم الروح حدود للصوت؛ ولو كانت العين في عالم الحس لا تدرك من الألوان إلا أقلها، وتعجز عن إدراك أكثرها، فعين الفكر لا يجدها حد ولا يعجزها لون؛ ولو كانت عيننا الباصرة لا تبصر إلا في ضياء، وأذننا لا تسمع إلا من قرع هواء، فعيوننا وآذاننا الروحية تستعين بالسكون والظلماء، أكثر مما تستعين بالضوء والهواء.

إني لأرثي لهؤلاء الذين يضيعون كل حياتهم في هزل، بل أرثي كذلك لهؤلاء الذين يقضون نهارهم في وظائفهم وأعمالهم، ثم ينصرفون إلى ههنا حتى يناموا، بل أرثي أيضًا لهؤلاء الذين يقضون أوقاتهم بين بحث علمي، وقراءة وتأليف وتعليم، ثم لهو قليل ونوم. وأعتقد أن هناك عنصرا في الحياة ينقصهم وهو عنصر التأمل، ولست أعني بالتأمل ذلك الضرب من الأسلوب المنطقي العلمي في البحث والتفكير، إنما أعني ذلك الضرب الذي عناه القرآن بمثل قوله: {قل انظروا ماذا في السموات والأرض} هو نوع من العقل قد مزج بنوع من الشعور، وقد امتاز به الشرق من الغرب قديما، ومن ثم كان مبعث الأديان مصدر الإلهام.

في هذا الضرب من التأمل يجد الإنسان نفسه حيث لا يجدها في هزل ولا جد، وفيه يعرف نفسه على حين أنه يعرف غيره أكثر مما يعرف نفسه، وفيه يجلس إلى نفسه ويصادقها ويصارحها على أن أكثر الناس يجالسون الناس ولا يجالسون أنفسهم، ويصارحون الناس ولا يصارحون أنفسهم، ويصادقون الناس وهم أعداء لأنفسهم.

وأظن أن في الاستطاعة أن يوضع برنامج متسلسل للتأمل كبرنامج القراءة والكتابة وتعلم اللغات وتعلم العلوم، يبدأ فيه بألف باء التأمل، وينتهي بيائه إن كان لها ياء، وتخصص له حصص يومية كحصول المواد العلمية، وإن كانت حصصه تمتاز

بأنها في ميسور كل إنسان، ليست تحتاج إلى مدرسة يتردد عليها، ولا إلى معلم يؤجر، ولا أدوات وكتب يتداولها، إنها هي من قبيل تربية النفس بالنفس وليست تحتاج إلا إلى مران واعتياد وعرفان بكيفية السلوك.

أول دروسها أن تخلو بنفسك، ولا يكون ذلك إلا في هدوء وسكون، وخير أن يكون في ظلام، ثم تجرد في هذه الحصّة من شواغل الدنيا وهمومها، واستعرض نفسك من حيث بدنك كيف تؤذيه ببعض عاداتك؟ وهل تدبره تدبير عاقل حكيم، أو مستبد جاهل، وما خير الوسائل لإصلاح ما تقع فيه من أغلاط؟

وتدرج من هذا التأمل في ناجية أخرى نحو علاقتك بعقلك، وعلاقتك بالناس واستعراض ما يكون منك ومنهم.

وارق إلى خطوة ثالثة تسائل فيها نفسك، ما غايتك وما مبادئك في الحياة وهل وضعت لها خططا؟ وما مقدار تقدمك إليها أو تأخرك عنها؟

سيسلمك ذلك - من غير شك - إلى خطوات أوسع، وتأمل أعمق حسب جهدك واستعدادك؛ وستكون لك في النهاية فلسفة لا من جنس فلسفة أفلاطون وأرسطو، ولكنها فلسفة شخصية قد بنيت على تأملك وشعورك لا على حفظك وقراءتك. وستصل من هذا الطريق بأفق أوسع وملكوت أعلى.

في الحديث: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا» ولعل هذا الضرب من التأمل ينبههم في حياتهم، من غير أن ينتظروا أن يتنبهوا بموتهم.

ربما كان هذا ضربا من التصوف يتفق وروح العصر، وإن شئت فقل إنه نوع من التصوف على أحدث طراز وأبدع نمط، يبعث على الحياة لا الموت، ويدعو إلى النشاط والعمل لا إلى الخمول والسأم، ولعل الإنسان يجد في الركون إليه بعض أوقاته راحة مما رمتنا به المدنية الحاضرة من عناء، وما أرهقتنا من عنت، ولعلنا

نستروح من هذا البرنامج نسيم الراحة فیراجعنا بنشاطنا، وتثوب إلینا نفوسنا.

مختار
مختار
مختار

ملق القادة

لست أعني بهذا العنوان أن يتملق الجمهور قاداتهم فيظهرون لهم الود والإعظام بحق وبغير حق، فذلك شيء قليل الخطر، فاطر الأثر، وإنما أعني أن يتملق القادة الرأي العام فيسيرون على هواه ويمجرون مجراه، ويأتون ما يجب، ويذرون ما يكره، فهذا هو الداء الدوي والعلة الفادحة.

ومن أسوأ ما أرى في الشرق في هذه الأيام هذه الظاهرة: ظاهرة أن يحسب القادة حساب الرأي العام أكثر مما يحسب الرأي العام حساب القادة.

هذه الظاهرة جليلة واضحة في قادة العلم، فهناك أوساط تقدر الغرب كل التقديس، وتعتقد أنهم في حكمهم عدلوا كل العدل، ولم يظلموا أي ظلم، فقاداتهم يتملقونهم ويستخدمون معارفهم للوصول إلى هذه النتائج التي ترضيهم، سواء رضي العلم أم لم يرض، وسواء أوصل البحث إلى هذه النتائج أو إلى عكسها؛ وهناك أوساط تعبد كل غربي من عادات وتقاليد وآداب، فقاداتهم يختارون اللفظ الرشيق، والأسلوب الأنيق لتأييد هذه الآراء، ولا عليهم في ذلك أن كانوا يحقون الحق أم يؤيدون الباطل.

وهي ظاهرة في قادة الأدب، فإن أحب الجمهور روايات الحب والغرام ألفوا فيها وأكثروا منها، وإن أدركوا أن تصنيف الجمهور يكون أشد، كلما كان الحب أحد، تسابق الأدباء إلى أقصى ما يستطيعون من حدة وعنف، ومهروا في أن يستترفوا دموع المحبين، ويهيجوا عواطفهم، ويصلوا إلى أعماق قلوبهم؛ وإن كره الناس أدب القوة فويل لأدب الأدباء! هو سمج، وهو جاف، وهو لا قلب له، وإن كان الجمهور لا يقبل إلا على الأدب الرخيص فكل المجلات أدب رخيص، لأنه كلما أسرف في

الرخص غلا في الثمن، وإن بدأ الجمهور يتذوق الجذ تحولوا إلى الجذ وداروا معه حيث دار.

وهي ظاهرة في دعاة الإصلاح، فهم يرون -مثلا- أن الشباب قوة فوق كل قوة، وهم عصب الأمة وإكسير الحياة، وفي استطاعتهم أن يرفعوا من شاءوا إلى القمة ويسقطوا من شاءوا إلى الحضيض، فهم ينظمون لهم الدر في مديحهم وإعلاء شأنهم، وملئهم ثقة بأنفسهم، فهم رجال المستقبل وعماد الحياة، وهم خير من آبائهم، وستكون الأمة في منتهى الرقي يوم يكونون رجالها؛ وقد يكون هذا حقا، ولكن للشباب أغلاطه الجسيمة التي تتناسب وهمته، وله غروره واندفاعه، وله تهوره وإفراطه في الاعتداد بنفسه؛ فكان على المصلحين أن يكثروا القول في المعنيين على السواء، فيشجعوا وينقدوا، ويبشروا وينذروا، ويرغبوا ويرهبوا حتى تتعادل قوى النفس، وحتى يشعروا بمحاسنهم ومساوئهم معا ولكن هؤلاء القادة -مع الأسف- وقعوا فقط على النعمة التي تعجب الشباب وتحمسهم ولم يجرؤوا أن يجهروا بعيوبهم، ولا أن يقولوا -ولو تلميحا- في مواضع النقص من نفوسهم؛ فكان لنا من ذلك شباب استرسلوا في الإيمان بقول الدعاة إلى أقصى حد، واعتقدوا أنهم كل شيء في الحياة وأنهم فوق أن يسمعو نصيحة ناصح أو ناقد؛ وكان هذا نتيجة لازمة بعد أن وقف القادة منهم هذا الموقف، وقد يكون هذا رد فعل للماضي أيضًا، فقد كان طالب العلم في الجيل السابق يقدس قول أستاذه، وهو وأستاذه يقدسان ما في الكتاب الذي يتلى، وكان الشاب يحل الشيخ في قوله وفعله، لا يري أن له صوتا بجانب صوته، ولا رأيا بجانب رأيه، فكان سلوك هذا الجيل انتقاما من الجيل السابق، وذهابا في الإفراط يعادل إفراط آبائه، ولكن أظن أننا وصلنا إلى حد يجعلنا نفكر جديا في تثبيت هذه الذبذبة ووقفها الموقف الحق.

إن وقوف القيادة من الجمهور موقف الملوك قلب للوضع، فالعالم إذا قال برأي الناس لم يكن لعلمه قيمة، والمصلح إذا دعا إلى ما عليه الناس لم يكن مصلحا.

إني أفهم هذا الوضع في التاجر يسترضي الجمهور لأن نجاحه في تجارته يتوقف على رضاهم، وأفهم هذا في المغني يقول ما يعجب الناس لأنه نصب نفسه لإرضائهم، واستخراج إعجابهم، ولكني لا أفهم هذا في قائد الجيش، فإن له مهما آخر، وهو أن يظفر بخصمه، فلو كان همه أن يسترضي جنده لا أن يتصر على عدوه لما استحق لقب القيادة لحظة، وكان الوضع الحقيقي أن الجند هم القادة والقادة هم الجند.

وكذلك الشأن في قائد العلم وقائد الأدب، والمصلح الاجتماعي؛ فلكل منهم غرض يرمي إليه في علمه وأدبه وإصلاحه، وله خطة يريد أن يحمل الناس عليها رضوا أم كرهوا.

بل لا يعد المصلح مصلحا حتى ينه الناس من غفلتهم، ويحملهم على أن يتركوا ما ألفوا من ضار، أو يعتنقوا ما كرهوا من صالح، وهو في أغلب أمره مغضوب عليه ممقوت. واصطلاح الجمهور والمصلحين ليس علامة تبشر بخير، بل هي في الغالب تدل على تراجع من المصلح وانتصار للعامة. وقد كان المصلحون في الشرق إلى عهد قريب أشد الناس تعباً في الحياة، وأكثر تبرماً بالجمهور، وأقربهم إلى عهدنا جمال الدين ومحمد عبده وقاسم أمين، لقوا في دعوتهم من العذاب ألواناً، ولم يوفوا حقهم إلا بعد أن وافاهم الموت، أما اليوم فلست أرى حركة عنيفة بين القادة والرأي العام، ولا بين المصلح ومن يراود إصلاحه، وربما كان سبب ذلك أن القائد ينظر إلى نفسه أولاً وقبل كل شيء وآخر كل شيء، قصد إلى أن يصفق له أكثر مما قصد لخدمة الحق، وقد وصل إلى درجة من إعجاب الجمهور يريد أن يزيدها أو يحتفظ بها، قد خلع ثياب القائد، وارتدي لباس التاجر، يبحث عما يعجبهم ليقول فيه شعره أو يكتب

فيه مقالته، أو يطنب في وصفه؛ ويبحث عما يسوءهم ليحمل عليه حملة شعواء بقلمه أو لسانه، كما يبحث تاجر الأزياء عن آخر طراز في الزي يقبل الناس على شرائه.

تلك أشد حالات الانحطاط في القيادة، فأول درس يتلقاه القائد أن يكون قليل الاهتمام بشخصه، كثير الاهتمام بالغرض الذي يرمي إليه في الإصلاح، سواء كان إصلاحاً لغوياً أو أدبياً، أو اجتماعياً أو دينياً، وأن ينظر إلى كل ما يجري حوله في هدوء، لا يسره إلا أن يري الناس اقتربوا من غرضه ولو بسبه، ويضحى بالشهرة فتتبعه الشهرة، ويضحى بالخط فيخدمه الخط، بل سواء عليه عرف أم لم يعرف، وسواء عليه احتقر أم كرم، ما دام سائراً على المنهج الذي رسم، لا يشعر بأزيجية إلا أن يصل إلى غرضه، أو يقرب منه؛ يجب المنتصرين لرأيه ويرحم الناقمين عليه، يرفض أن يلبس تاج الفخر إلا أن يكون من نسيج ما سعى إلى تحقيقه؛ إن كان هذا أول درس يتعلمه القائد فهو آخر درس أيضاً.

أخشى أن يكون قادة الرأي فينا قد ملوا المقاومة فاستسلموا، وأن يكونوا قد استصعبوا الغاية فاستنموا، وأن يكونوا قد وقفوا مترددين قليلاً بين عذاب الضمير وعذاب المعارضة فاحتملوا الأول، وأن يكونوا الطول ما لقوا قد رغبوا عن النظر إلى الإمام والتفتوا وراءهم إلى الرأي العام فساروا أمامه في الطريق الذي يحبه هو لا الذي يحبونه هم، إن كان هذا فيا لها من هزيمة.

أني لنا بقيادة في الرأي لا يتملقون إلا الحق؟

اللون الأصفر

لفت نظري -وأنا أدرس الحياة الاجتماعية في العصر العباسي- ما رأيت من كثرة ما كتب عن اللون الأصفر في هذا العصر، وحلوله محلا كبيرا غطي على كل الألوان الأخرى، وكثرة ما قيل فيه من أدب، فرأيت أن أعرض على القراء شيئا منه وأترك لعلماء الجمال ما يدل عليه انتشار اللون الأصفر في الشعوب من تحديد درجة الذوق في الرقي، وعلاقته بانتشار الخلاعة، ودلالته على مقدار ما وصلت إليه الأمة من حضارة.

رأيت العراقيين هاموا باللون الأصفر وتغزلوا بالوجه الصفري، وصبغوا ثيابهم بالصفرة، وافتتوا بالزهور الصفري، وأكثروا من اتخاذ الطعوم الصفري، ومدحوا الجواهر الصفري، وهكذا.

روي الجاحظ أن من الأمثلة المشهورة قولهم: (أهلك النساء الأصفران: الذهب والزعفران)، وهذا يدل على غرام النساء باللون الأصفر، وظهور هذا الغرام بحبهن للذهب والزعفران؛ أما حبهن للذهب فللونه ولأنه خير أنواع المال.

وأما الزعفران فقد كان له سلطان في بغداد أي سلطان حتى لو سميت بغداد في ذلك العصر مدينة الزعفران لم تبعده؛ وقد جعلوا له قوة سحرية فقالوا: (إنه إذا كان في بيت لا يدخله سام أبرص) وإذا حسن في عينهم شيء أصفر شبهوه بلون الزعفران كما قال آدم بن عبد العزيز:

شربت على تذكر عيش كسرى شرباً لونه كالزعفران

وأكثرُوا من تلوين الطعام به؛ قال بديع الزمان في إحدي مقاماته: (ومعنا على الطعام رجل تسافر يده على الخوان، وتأخذ وجوه الزعفران).

وكان البغداديون يلونون الطعام ويكرهون أن يقدموه بلا تلوين، ويسمون الطعوم غير الملونة (الطعوم المعتدة) تشبيها لها بالمرأة في العدة، لأنهم يكرهون منها أن تلبس الثياب الملونة، فكانوا يلونون الطعام بالزعفران وبالعصفر وهو أصفر أيضًا:

وصبغوا بالزعفران ملابسهم؛ حكى الأغاني أن الرشيد دخل على أخته عليّة بنت المهدي في يوم قانظ فوجدها قد صبغت ثيابا بزعفران وصندل وجعلتها على الحبال لتجف، فجعلت الرياح تمر على الثياب فتحمل منها ريحا بليلة عطرة فوجد لذلك راحة من الحر.

وكتبت جارية على قباء معصفر:

وما البدر المنير إذا تجلّى هدوا حين ينزل بالعراق
بأحسن من بثينة يوم قامت تهادى في معصفرة رقاق

وقد كثرت أسماء الثياب الصفرة فسموا:

التخمة: الثياب المخططة بالصفرة.

والرادة: القميص لمع بالزعفران والطيب.

والسبينة: نسبة إلى سبن قرية بنواحي بغداد وهي ثياب من حرير، فيها أمثال الأترج (الأصفر).

والثياب المحرّضة: وهي المصبوغة بالإحريض وهو العصفر.

والثوب المصر: قيل هو المصبوغ بصفرة خفيفة.

والثوب المورس: المصبوغ بالورس وهو نبت أصفر يصبغ به.

وأكثر ما كانت العصائب التي تتزين بها النساء عصائب مصبوغة بالزعفران، وشيت بخيوط من حرير وطرزت بسلوك من ذهب.

وقالوا: أجمل شيء غلالة معصفرة على جارية.

وحكي التنوخي في نشوار المحاضرة (أن الخليفة المتوكل اشتهى أن يجعل كل ما تقع عليه عينه في يوم من أيام شربه أصفر، فنصبت له قبة صندل مذهبة مجللة بدياج أصفر، مفروشة بدياج أصفر، وجعل بين يديه الدستنبو^(١٣) والأتراج الأصفر وشراب أصفر في صواني ذهب ولم يحضر من جواريه إلا الصفر، عليهم ثياب قصب صفر، وكانت القبة منصوبة على بركة مرصعة يجري فيها الماء، فأمر أن يجعل في مجاري الماء إليها الزعفران على قدر ليصفر الماء، ويجري من البركة أصفر، ففعل ذلك وطال شربه، فنقد ما كان عندهم من الزعفران، فاستعملوا العصفر، ولم يقدروا أنه ينقد قبل سكره فنقد، فلما لم يبق إلا قليل عرفوه وخافوا أن يغضب إن انقطع... فلما أخبروه أنكروا أنهم لم يشتروا قدر عظيمًا، وقال إن انقطع هذا تنخص يومي، فخذوا الثياب المعصفرة بالقصب فانقعوها في مجري الماء ليصبغ لونه بها فيها من الصبغ... فحسب ما لزم ذلك من الزعفران والعصفر ومن الثياب التي هلكت فكان خمسين ألف دينار^(١٤).

ونسبوا إلى أفلاطون أنه قال إن رائحة الزعفران تسكن الغضب، وإذا قرن اللون الأحمر بالأصفر تحركت القوة العشقية.

ولإعجابهم باللباس المعصفر أو المزعفر شبهوا بالخمر، فقال ابن وكيع:

(١٣) هكذا بالأصل، ولعله الدستنبويه، وهو بطيخ أصفر صغير مستطيل.

(١٤) نشوار المحاضرة ١/ ١٤٧.

فاشربْ مُعْضَفَةَ القميصِ سُلافةً من صنعة البردان أو قُطْرَبُلٍ

وقال ابن المعتز:

لبست صفرةً فكم فتنت من أعينٍ قد رأيتها وعقول
مثل شمس الغروب تسحب ذيلاً صبغته بزعفران الأصيل

وقال ابن الرومي في وصف شواء:

وسبمطة صفراء دينارية ثمننا ولنأزقها لك جُودر

وأكثروا من مدح المرأة الصفراء واستحسنوها، ففي الأغاني أن متيم الهاشمية،
ومحبوب المتوكلية، ودنانير البرمكية، كن صفروات مولدات، وسميت دنانير بذلك
لصفرتها.

ومدحوا الزهور الصفرة والثمار الصفرة.

فمدحوا الآذريون وهو زهر أصفر في وسطه خمل أسود، قال فيه ابن المعتز:

كأن آذريوناً والششمس فيه كاليه
مداهنٌ من ذهب فيه بقايا غاليه

كما مدحوا (الخيري) وهو المنثور الأصفر.

وكان عندهم نوع من الياسمين أصفر قال فيه الشاعر:

كانما الياسمين حين بدا يشرق من جوانب الكتب
عساكر السروم نازلت بلداً وكل صُلبانها من الذهب

ومدحوا التفاح الأصفر والخوخ الأصفر:

وتغزلوا بصفرة الخمر فقال أبو نواس:

صفراء لا تنزل الأحزانُ ساحتها لو مسحها حجرٌ مسته سواء
ويقول آدم بن عبد العزيز:

اسقني واشق خليلي في مدى الليل الطويل
لوئها أصفر صافي وهي كالسك الفتيـل
وبالغوا في حب الصفرة حتى كانت القينة أحيانا تلبس الثياب المعصفرة أو
المزعفرة وتطلي ما ظهر من يديها ومن عنقها بالورس.

روي بعضهم قال: (رأيت جارية ببغداد وقد طلّت يديها بالورس وفي عنقها
طبل وهي تنشد:

عاسنها سهام للمنايا مرئشة بأنواع الخطوب
وكثيرا ما قرنوا هذا اللون بالدلالة على الميل إلى الشهوات والفجور، ورمزوا
للخليع بقولهم إنه (يلبس المورس).

هذه ظاهرة غريبة تستحق الدرس، وأحق الناس بالفتوي فيها علماء الجمال
الاجتماعي.

الليل

في ليلة حالكة السواد، بعدت عن ضوضاء المدينة إلى مكان قصي على شاطئ البحر أهرب بنفسي من جرائيم المدينة ووباء الحضارة؛ وأغسلها من أدران التقاليد والمواضعات، وأطهرها بالانغماس في عالم اللانهاية: في السماء والماء والجو الفسيح الذي لا يحده حد ولا ينتهي إلى غاية.

غاب فيها القمر فلعبت النجوم، ولو طلع لكسفها وهي أكبر منه حجماً، وأعظم قدراً، وألمع ضوءاً؛ ولكن دنيانا هذه يسود فيها التهويش حتى في القمر والنجوم.

كان سواد هذه الليلة أحب إلى نفسي من ضوء الشمس ونور القمر، فللنفس حالات تنبسط فيها، فيعجبها البحر الهائج، والوسط المائج، واللون الأبيض والأحمر، والنكتة اللاذعة، وتنقبض فتأنس إلى الليل الساكن، والوحدة المريحة، والسكون العميق، واللون القاتم.

لك الله أيها الليل! فما زلت بالفن حتى ملكته واحتويته، فجعل يشيد بذكرك، ويرفع من شأنك، حتى لم تجعل لأخيك النهار نصيباً يقاس بنصيبك، فاقسمتما الزمان قسمة عادلة، واقسمتما الفن قسمة جائزة!

فالمغني يقصر مناداته عليك، ولا يلتفت في هتافه إلا إليك؛ فإذا غني بالليل نادي الليل، وإذا غني بالنهار لم يخجل فنادي الليل أيضاً، والآلات كلها تتبعه فتردد على أوتارها ما رده المغني بكلماته؛ ثم كان اسمك على قلته وضئولته أداة طيعة في صوت المغني يوقع عليه ما شاء من نغمات: مرحة وحزينة، ومديدة وقصيرة، وعالية وهادئة، وباعثة للقوة واليأس والأمل، وداعية إلى الضعف والخمول والكسل.

وحتى المصور! لماذا شغف برسم غروب الشمس أكثر مما شغف بطلوعها؟ وما ذلك إلا لأن غروبها إيدان بقدمك وارتقاب لزورتك

أما الأدب فله فيه الباع الطويل والقول الذي لا ينتهي. تداولت عليه الأدباء، فنقموا عليه حيناً، وتذللوا له حيناً، من عهد الأستاذ امرئ القيس إذ يقول:

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مُغار القتل شُدَّت يذُبِّل
إلى عهد الأستاذ محمد عبد الوهاب إذ يقول:

(بالله يا ليل نجينا، وتسبل ستايرك علينا).

شكوا طوله وتغنوا في ذلك ما شاءوا، فتخيلوا أن نجومه شدت بالحبال، وربطت في الجبال، أو أن النهار ضل طريقه فظل الليل لا يبرح ولا يتزحزح.

أو أن النجوم حارت لا تدري أتتيا من أن تتياسر فوقفت فوقف الليل بجانبها. وشكوا قصره فأبدعوا في ذلك أيما إبداع، فشبهوه بعارض البرق. وأنكروا من قصره وجوده.

كانوا هؤلاء الذين يشكون طوله ويشكون قصره يتحدثون بعواطفهم، ويرجون عن مشاعرهم؛ فجاء قوم على أثرهم يتحدثون بعقولهم، فيقول الفرزدق:

يقولون طال الليل والليل لم يَطُلْ ولكن من يكي من الشوق يسهر
ويقول ابن بسام:

لا أظلمُ الليلَ ولا أدعى أن نجوم الليل ليست تغور
ليلى كما شاءت فإن لم تجد طال وإن جادت فلي قصير

أيها الليل! كم لففت ثوبك على متناقضات: حزن على ميت، سرور لميلاد،
ومحب مهجور يشكو طولك، ومحب واصل يشكو قصره، وعابد متعبد يناجي
ربه، وداعر فاجر يبغي حظه، ودمعة حرة تسلبها أم ولهي بجانب سرير مريض،
وضحكة صارخة تخرج من فم سكير عرييد، ومجلس أنس تتجاوب فيه الأقداح
والأوتار، ويلبس فيه الليل ثوب النهار، بين بدور، وكاسات تدور، كأنه مسرح
صغير تمثل فيه اللجنة بصنوف نعيمها، أو معرض تعرض فيه الملاهي بشتى ألوانها؛
ومجلس يؤس تتجاوب فيه الزفرات والحشرات، وتتساقط فيه النفوس، قد شرقوا
فيه بدموعهم، تلظى لهم في ضلوعهم، فهم بين كاسف بال، وساهم ظرف،
ومنقبض صدر، ولهيف قلب.

يتربك السارق ليحتمي بسوادك في سرقة، والعاشق ليفر في سكونك بعشيقته،
والناسك ليتهل إلى الله في صلواته، ويتحد معه في مناجاته، والشاعر لينظم شجونه
في قصيدته، والملاحن ليقع لحنه على قيثارته، والسياسي ليدبر مؤامراته؛ والعالم
ليفكر في نظرياته.

ولكن لماذا استأثرت بكل هذا والنهار قسيمك في الخدمات وعدليك في الحياة؟
بل هو أشد منك حياة وأكثر قوة، فسلطانه الشمس وسلطانك القمر وسلاحه
الضوء وسلاحك الظلام، وشعاره البياض وشعارك السواد؛ وهو مبصر وأنت
أعمى، وطبيعته الحركة وطبيعتك السكون؛ وهو يدعو إلى النشاط والعمل وأنت
تدعو إلى الخمول والكسل؛ ولكن شاء الله أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض
ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين؛ فجعل من قوة النهار ضعفا، ومن ضعفك قوة.

انتهزت فرصة السكون الذي منحك الله؛ فجعلت منه حركة دونها حركة
النهار، فحركته حركة جسم وآلات، وحركتك حركة عواطف وانفعالات، وشتان
ما بينهما! لقد أطاق الناس مصائبه ولم يطبقوا مصائبك؛ فقال الشاعر:

وَحُمِّلْتُ زَفَرَاتِ الضَّحَى فَاطَّقْتُهَا وَمَالِي بِزَفَرَاتِ الْعَشِيِّ يَدَانِ

واستعنت بسُلطان الحب فجعلته من أعوانك، وأسرت العواطف فاتخذتها من خدامك، فلما اجتمع لك الحب والعواطف نازلت بها الزمان، وغلبت بها كل سلطان؛ فالوصل لا يلد إلا في ظلك، والهجر لا يلدع إلا في كنفك، والسرور لا يشع إلا في حضرتك، والألم لا يضني إلا في هدهدتك.

من تعب النهار وجد فيك راحته، ومن أتعبته الحركة نعم فيك بسكونك، ولكن من تعب فيك لم يجد في النهار عوضاً عنك، ولم يرض به بديلاً منك.

جالت هذه المعاني في فكري، وامتلات بعظم الليل نفسي، فمن على بنومة لذيدة هادئة عميقة، فقابل جميل ثنائي بجميل صنعه، وأدي فريضة شكري بجزيل فضله.

فقدان الثقة

لعل أسوأ ما تمنى به أمة أن يفقد أفرادها الثقة بعضهم ببعض؛ ففقدان الثقة يجعل الأمة فرداء، والثقة تجعل الفرد أمة؛ الثقة تجعل الأجزاء كتلة، وفقدانها يجعل الكتلة أجزاء غير صالحة للالتئام، بل يجعل أجزائها متنافرة متعادية توجه كل قوتها للوقاية والنكاية.

كم من الزمن ومن المال ومن النظم ومن الخطط تنفق إذا فقدت الثقة؟ ثم هي لا تبغني شيئاً ولا تعيد ثقة.

تصور أسرة فقد الزوج فيها ثقته بزوجته، والزوجة بزوجها، ثم تصور كيف تكون حياتها: نزاع دائم، وسوء ظن متبادل، وانتظار للزمن ليتم الخراب.

وهكذا الشأن في كل مجتمع: في المدرسة، في الجيش، في الحزب، في القرية، في الأمة.

بل مالنا نذهب بعيدا والإنسان نفسه إذا فقد الثقة بنفسه فقد نفسه، فلا يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً مجيداً ولا الشاعر أن يكون شاعراً متفوقاً ولا أي عالم وصانع يجيد علمه وصناعته إلا إذا وثق بنفسه لدرجة ما؛ وكم من الكفايات ضاعت هباء لأن ذويها فقدوا ثقتهم بأنفسهم، واعتقدوا أنهم لا يحسنون صنعا ولا يجيدون عملاً.

وكل ما ترى من أعراض الفشل في أمة سببه فقدان الثقة؛ فالحزب ينهار يوم يفقد الأعضاء ثقتهم بعضهم ببعض، والشركة تنهار يوم يتعامل أفرادها على أساس فقدان الثقة، والمدرسة تفشل يوم لا يثق الطلبة بأساتذتهم والأساتذة بطلبتهم، وكل جماعة تفنى يوم يتم فيها فقدان الثقة.

كل نظمنا -على ما يظهر- مبنية على فقدان الثقة، فوظائف (المفتشين) في جميع مصالح الحكومة والشركات أصبحت مؤسسة على فقدان الثقة، فالمفتش في الترام والسيارات العامة مبناه ضعف الثقة (بالكمساري) ومفتش المالية يراقب حركات مرءوسيه حتى لا يختلسوا أو يزوروا، ومفتشوا الوزارات يرون إلى أي حد يطبق الموظفون تعاليم الوزارة.

قد كان الظن بالمفتشين أن يؤدوا عملاً آخر غير هذا، وهو أن يشرفوا على عمل المرءوسين ليوجهوهم وجهة صالحة، ويتعاونوا معهم على رسم الخطة القويمة، ويصححوا الخطأ، ويكملوا النقص، ولكنهم -في الأغلب- وقفوا فقط موقف الضابط يضبط الجريمة، والصائد يرقب الفريسة، لا موقف الهادي المرشد والناصح الأمين.

فإن أردت (بندا) واحداً من (بنود) ما يتفق من الأموال في سبيل عدم الثقة فاجمع مرتبات المفتشين في جميع مصالح الحكومة.

وليس الأمر مقصوراً على هؤلاء، فالمراجعون ومراجعو المراجعين؛ والأوراق تمر من يد إلى يد، ومن قلم إلى قلم، ومن مصلحة إلى مصلحة، ومن وزارة إلى وزارة. كل ذلك له أسباب، أهمها (فقدان الثقة)

وإن شئت حصر ما يستهلك من الأموال لفقدان الثقة فلا تكف بمرتبات المفتشين، بل أضف إليها مرتبات كل هؤلاء الذين ذكرنا، فلو قلنا إن نصف مرتبات الموظفين يتفق في سبيل فقدان الثقة لم نبعد.

وليست المصيبة كلها في الأموال، فلو كنا نقدر للزمان قيمة كغيرنا من الأمم لاستفظعنا ما يستوجب فقدان الثقة من أيام وشهور وسنين تضيع في إجراءات وتدقيقات ومراجعات ومناقضات وتعليقات مبناه كلها (فقدان الثقة).

ثم هناك عقول للتابعين وكبار أولي الأمر في الأمة تفكر ثم تفكر، وتقدر ثم تقدر، وتضع الخطط تلو الخطط، والقوانين واللوائح والمنشورات تلو القوانين واللوائح والمنشورات، ويخيل إليها أنها بما فعلت تأمن الخيانة والسرقة والتزوير، وتظن بذلك أنها تعالج ما فسد وتصلح ما اختل، وهي إنما تزيد بذلك في (فقدان الثقة).

أضف إلى هذا ما تسبغه هذه المظاهر كلها على نفسية الموظف، فهو يري كل هذه النظم واللوائح والقوانين والمراجعات والمناقضات فيشعر أنها إنما شرعت له ومن أجله ويسبب فقدان الثقة به، وأنها كلها تنظر إليه ك لص وكمجرم وكمزور؛ فيفقد الثقة بنفسه، ويعمل في حدود ما رسم له، ويشعر بالسلطان عليه فلا يجزؤ على التفكير بعقله، ولا يجزؤ على تحمل تبعه، ويفر من البت في الأمور ما وسعه من الفرار، حتى يكون بمأمن دائم من الأسئلة والمناقضات - وهذا هو سر ما نراه من بطء في العمل، وركود في الحركة، وضياع لمصالح الناس إذ لا شيء يبعث الثقة في المرءوس مثل أن يثق به الرئيس، ولا شيء يبعث الحيرة والارتباك والاضطراب إلا ما يشعر به من (فقدان الثقة).

أنا كفيل بأننا لو قلبنا كل هذه النظم رأساً على عقب وهدمناها من أسسها وأزلنا أنقاضها، ثم بنيناها على أسس جديدة من الثقة البخته، ما خسرنا من الأموال وما خسرنا من الأزمان والأنفس ما نخسر الآن ولو كثرت اللصوص وكثر الخائنون والمزورون.

هب أنا فتحنا مكتبة وأسسنا نظامها على الثقة بالموظفين والمترددين من المطالعين فاستغنينا عن مراقب واستغنينا عن مراجع واستغنينا عن مفتش وهكذا، واكتفينا بمعير للمكتب و (فتى) يضع الكتب كل يوم في أماكنها،

فماذا يكون الشأن وماذا يكون حسابنا في المكسب والخسارة؟ لاشك أننا سنفقد كتبنا يسرقها بعض المترددين، وهذا هو كل الخسارة، ولكننا بجانب ذلك نوفر مرتبات كاتب ومراقب ومفتش، ونوفر أزمانا طويلة تصرف في عمليات الجرد والحصر، وننشر الثقة بين المطالعين، ونشعرهم بأن المكتبة في حمايتهم هم وتحت إشرافهم، فنمى فيهم الشعور بالتبعة؛ فإذا كان هذا مكسبنا وهذه كل خسارتنا، فإلى النار هذه الكتب المفقودة، وخسئت عين كل من ينظر في عمليات الحساب إليها وحدها، ولا ينظر إلى كل هذه الأرباح التي ربحتناها.

وهذا المثل الصغير يمكن تطبيقه تمام التطبيق على الأعمال الكبيرة في المصالح المختلفة، بل إنني أشتري نشر الثقة بين الناس وتسهيل الأعمال، وشعور الناس بالطمأنينة بأي ثمن، بل لو أن التجارب دلت على أن ما نفقد من الأموال أكثر مما نربح إذا أسسنا النظم على أساس الثقة لاستمررت في تجربتي ونظريتي، وآمنت بوجود الانتظار على هذا الأساس الجديد حتى يذهب هذا الجيل الذي فسده النظام القديم، وقضي على نفسه وعلى شعوره، ولا تنتظر جيلا جديدا نشأ في أحضان (الثقة) والشعور بالواجب وبالتبعة وبالحرية في العمل في دائرة ضيقة من القوانين المعقولة.

وهكذا الشأن في جميع الأمور السياسية والاجتماعية، فثقة أفراد الحزب بعضهم ببعض -ولو مراعاة للمصلحة- أضمن للنجاح، وأقرب لتحقيق الغرض؛ وثقة الجمعية برئيسها، والرئيس بأعضائها -ولو تصنعا- أقرب لأن يتقلب التصنع خلقا. وقد رأينا -دائما- أن العدوى في المعاني كالعدوى في المحسسات، فكما أن الثاؤب يبعث الثاؤب، والضحك يبعث الضحك، فكذلك الثقة تبعث الثقة وعدمها يبعث عدمها. وبعد، فلا تزال ترن في أذني كلمة سمعتها من أستاذ إنجليزي كان في

الجامعة: (إذا كنتم لا تريدون أن تولوا أموركم الأجنبي، ولا تمنحون ثقتكم المصري، فكيف تعيشون؟).

كيمياء الأفكار والعواطف

كان القدماء يفهمون من (الكيمياء) الأكسير المنشود الذي إذا عثر عليه وأضيف إلى الزئبق أو الفضة بكمية محدودة، تحت حرارة معينة، انقلب الزئبق أو الفضة ذهباً إبريزاً.

وليس يعني هنا أن نيين ما أنفق الناس من جهد في الوصول إليه ثم لم يصلوا، ولا ما أنفقوا من مال وزمان في سبيل العثور عليه ثم لم يعثروا، ولا ما ملئت به كتب الفلسفة الإسلامية من جدل في إمكان ذلك أو استحالة.

إنما يعني هنا أن نقول إن العلماء والأدباء نقلوا استعمال هذه الكلمة إلى المعاني بعد أن كانت قاصرة على المادة، فسمي (الغزالي) كتاباً من كتبه (كيمياء السعادة) يعني بذلك الأكسير الروحي الذي إذا عثر عليه الإنسان حظي بالسعادة.

وقد استعملها ابن الرومي استعمالاً ظريفاً في معنى قريب من هذا، فقال يهجو أبا الصقر:

عجب الناس من أبي الصَّـ	فَرِّذْ وَلِيَّ - بعد الإجازة - الديوانا
إِن لِلْجَدِّ كَيْمِيَاءَ إِذَا مَا	مَسَّ كَلْبًا أَحَالَهُ إِنْسَانَا
يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ كَمَا مَا	ءَ مَتَى شَاءَ كَائِنًا مَا كَانَا

ثم سار الزمن الذي يغير كل شيء فغير - فيما غيره - مدلول كلمة (الكيمياء) وجعله قسيماً للطبيعة، فكما أن الطبيعة اختصت بدراسة الظواهر التي تغير صفات الأشياء ولا تغير جوهرها، اختصت الكيمياء بدراسة الظواهر التي تغير جوهر الأشياء، فأتسع مدلولها، وصار آخر ما تفكر فيه تحويل المعادن إلى ذهب إن كانت تفكر فيه.

والحق أن هناك كيمياء في الأفكار والعواطف تشبه تلك التي في المادة، إلا أنها أعقد منها، وأصعب حلاً، وأغمض اكتشافاً - وإلى الآن لم توضع كتب - على ما أعلم - في كيمياء المعاني على كثرة ما وضع في كيمياء المادة - وإن كانت كتب علم النفس أحياناً تمس هذا الموضوع مسارقيًا.

فلكيمياء الأفكار والعواطف فصول وأبواب لا عداد لها، قد ينطبق عليها في كثير من الأحيان فصول الكيمياء المادية وأبوابها، ففي كيمياء المعاني ترشيح وتبخير وذوبان كالتي في كيمياء المادة، وفيها تبلور وتقطير، وفيها عناصر ومركبات ومخاليط، وفيها أحماض وأملاح وقواعد، وفيها جزيئات وذرات لها أوزان وكثافات - ولها رموز وقوانين أدق من رموز الكيمياء المادية وقوانينها، ولها معادلات أصعب حلاً وأبعد منالاً.

هل علمت - مثلاً - أن الماء يتكون من غازي الأوكسجين والهيدروجين بنسبة واحد من الأول واثنين من الثاني باعتبار الحجم - فكذلك الشأن في الأفكار والعواطف، فقد يكون لديك فكرة من نوع ما، أو عاطفة من نوع ما، ثم تسمع فكرة من محدث؛ أو تقرأ فكرة في كتاب، وتكون فكرتك من وزن خاص، والفكرة التي سمعتها أو قرأتها من وزن آخر، فتتحد هاتان الفكرتان، وتتولد منها فكرة جديدة لا هي من النوع الأول وحده، بل هي نوع خاص، علاقته بالفكرتين كعلاقة الماء بالأوكسجين والهيدروجين.

وهل علمت أنك إذا ملأت قارورة ثلثها بالأوكسجين وثلثها بالهيدروجين ثم قربت فوهتها من لهب تسمع لذلك دويًا هائلًا؟ كذلك الشأن في العواطف، فقد يكون لديك عاطفة من نوع خاص، ثم تسمع خطبة من نوع يناسبها فتنفجر نفسك لهذا الاتحاد انفجارًا هائلًا، وتحس نارًا تملأ نفسك. وتذكي حسك؛ أو ليس الغضب - يحمر وجه صاحبه وتنفدح عيناه، ويجعله يقذف بالكلمات الحادة العنيفة، ولا تهدأ

ثأثرته حتى ينتقم - ضربا من ضروب هذا التفاعل الذي يشبه تفاعل الغازين؟ أو ليست الحماسة تدفع الجندي ليرمي بنفسه في خط النار، ولا يقيم للحياة وزنا، أثرا من آثار ما يسمع من كلمات القائد وما يشعر من جو وبيئة؛ أو ليس الحب - يذيب النفس، ويرهف الحس، ويملاً القلب أسي حيناً، وفرحاً وغبطة حيناً - إلا نوعاً من هذا التفاعل دونه التفاعل المادي والاتحاد الكيماوي؟

وكل ما ندرك من فرق بين التفاعل المادي والتفاعل الروحي أنا استطعنا أن نخضع المادة لبساطتها فنحلل أجزائها بالكهرباء أو ما أشبهها ونقيس مقدار العنصرين أو العناصر المتحدة ونعرف مقدار كل منها، ونرصد أثر التفاعل.

أما في الأفكار والعواطف فليس الأمر بهذه السهولة، فلكل إنسان آراؤه وعواطفه وهي تختلف فيما بينها كل الاختلاف، في جوهرها، وفي قابليتها لأفكار الآخرين وعواطفهم، فقد نلقي الكلمة على عدد محدود من الناس فنشعر بأن أثرها عند كل إنسان يخالف أثرها عند الآخرين، كضوء النهار يفتح أعيننا ويغمض عين الخفاش، وقد يقرأ شخص كتاباً فيزعم أنه غير مجرى حياته، وقلب تفكيره رأساً على عقب، وأهمه من المعاني ما استحال بها إنساناً آخر، وأحدث في نفسه ثورة فكرية لم يحدثها أي كتاب غيره، ويقرؤه إنسان آخر فلا يشعر هذا الشعور ولا قريباً منه ولا يحس له ميزة ولا يجد له طعماً. وهذا بعينه ما يحدث في الأجسام، تقرب عود ثقاب مشتعل من ورق فيشتعل، وتقربه من ثلج فيذوب، وتقربه من رخام فلا يشتعل ولا يذوب. وأؤكد لك أن الرواية تعرض في السينما أو تؤلف في المسرح على عدد كبير من الناس تؤثر في كل ناظر بمقدار لا يتفق تماماً وأثر الباقيين، وإن كانت واحدة ومثلوها متحدين فإن هناك عاملاً آخر من عوامل الوزن مختلفاً كل الاختلاف، وهو عواطف الناظر وآراؤه، وأن نتيجة التفاعل تختلف دائماً باختلاف أحد الممزيجين المتفاعلين.

إن أردت التوسع في تطبيق هذه النظرية وجدت القول ذا سعة، فالبائع الناجح في المتجر ليس هو الذي يكثر الكلام أو يقل الكلام، وليس هو الخفيف الحركة ولا هو المهنّدم والثياب، وإنما هو الذي يعرف شيئاً واحداً ويتقنه وهو (قانون التفاعل) ينظر إلى المشتري نظرة نافذة فيعلم نفسه، ويعلم نواحيها، ويعرف المواضع الحساسة منها، ويعرف في مهارة نقط التأثير عنده. ومقدار الأثر، ثم يستعمل في العرض وفي الكلام ما يتفق وما درسه من نفس المشتري، فإذا بما يصدر البائع مناسب لنفس المشتري ومنفعل معها على نحو خاص، وإذا الصفقة قد تمت في سهولة ويسر على حين أن زميله ومن بجواره لا يبيع مثل يبعه لأنه يخطئ في فهم نفسية المشتري فيتفاعل تصرفه تفاعلاً عكسياً مع نفسية المشتري، فينتج من ذلك نوع من الغضب أو نوع من الغضاضة ينتهي عادة بالإعراض عن الشراء فإن سألت كيف جهل هذا وعلم ذاك وأين درس أحدهما ولم يدرس الآخر فنجح الآخر الدارس وفشل الجاهل؟ قلت إن هذا الدرس لا يتعلم في المدرسة وإنما يتعلم في السوق، ويتعلمه من حسن استعداده الفطري وقرينته الطبيعية، بل إن شئت طبقت هذه النظرية على كل ناجح وفاشل في الحياة، فالمدرس الناجح من استطاع أن يتعرف نواحي تلاميذه ويعرف ما يلقي وما لا يلقي، وما يقال وما لا يقال، ويصدر منه ما يتفاعل وهذه النفوس، فيصدر من ذلك التفاعل عطف وحنان وحب، ورغبة في المعلم، ورغبة في علمه، ورغبة فيما يقول، وتأثر بما يشير إليه.

وما الأسرة السعيدة؟ وما الأسرة الشقية؟ أليست السعيدة من عرفت فيها الزوجة نفسية زوجها والزوج نفسية زوجته وعمل كل منهما على أن يصدر منه ما يتفاعل ونفس الآخر حتى ينتج هذا التفاعل تألفاً، فإذا انحرف أحدهما عن هذا الوجه عن جهل أو عن علم ساء البيت ونشأ تفاعل من جنس آخر نتج عنه البغض والكراهية والشقاق.

الحق أن هذه كلها معادلات في الكيمياء النفسية تشبه تمام الشبه المعادلات الكيميائية التي تجرب في المعمل، ومع الأسف لم يصل الناس إلى حد بعيد في دراسة الكيمياء النفسية ولم ينشئوا لها المعامل الناجحة نجاح المعامل للكيمياء المادية. والخطأ في النفس كثير الوقوع لصعوبة تعرف الذرات النفسية وتكوين المعادلات الدقيقة.

وإذا أدرك الإنسان هذا التفاعل واختلافه ودقته أدرك خطورته، وخاصة فيمن يتصل مركزه بنفوس كثيرين كالصحفي والأديب، والمعلم والخطيب، والزعيم، فقد يصدر عنه ما ينفعل ونفوس الناس فيكون سماً ناقعاً، وقد ينتج عنه ما يكون دواء ناجعاً.

في الحر

اشتد الحر وشغل الناس بالتفكير فيه، وبطرق التغلب عليه، وبالتأفف منه، فهذا يدبر المال للإقامة في مصيف فيوفق ويرحل، وهذا لا يواتيه المال فيقيم على مضض، وهذا نزاع عائلي بين ميزة الاصطياف في أوروبا والاصطياف في الإسكندرية، وهذا غني أفلس يأتي عليه الحر فيذكره بأيام هنيئة قضاها في أجود المصايف وأنزه الأماكن، فتجتمع عليه لذعة الحر ولذعة الذكرى - وهذا بائع المرطبات والمبردات يسأل الله أن يزيد في الحر حتى يكثر بيعه، ويزيد ربحه، وهذا يرقب درجة الحرارة من حين لآخر ليعلم أحسن الجوام ساء، وهو يتبع المقياس في رضاه وسخطه، وهذا يقرأ نشرات مصلحة الطبيعيات ليقارن بين القاهرة والإسكندرية، والقاهرة وبورسعيد، فإن كان في الإسكندرية رثى لمن في القاهرة، وإن كان في القاهرة حسد من كان في الإسكندرية، وإن كان في أسبوط عزى نفسه بقلعة الرطوبة وجفاف الهواء، ومن كان في مصر كلها حمد الله على أنه ليس في أمريكا حيث يختنق الناس - وهذه شغلها التفكير في المقارنة بين حما ستانلي وسيدي بشر: أيهما أكثر ناسًا، وأنظف مرتادًا، وأحسن للعرض وأمتع للنفس. وهذا يرتقب غروب الشمس التي تكويه بنارها ليخرج إلى الجزر والأنهار والمقاهي المفتوحة والملاهي في الجو الطلق، فيستقم في ليله من نهاره - وهذا وهذا وهذه وتلك، مما لا يعد ولا يستقصى؛ ولكن لا بد من «هذه» أخرى أنسيته، فهذا كاتب وشاعر شغله الحر من ناحية أخرى فهو يريد تشبيهها جميلًا للحر أو تعبيرًا بليغًا، فيقول: هذا الجو أحر من الرمضاء وأحر من دمع الصب، وأحر من قلب العاشق، ومن فؤاد الثاقل؛ ثم لا تعجبه هذه كلها فيريد تشبيهها مخترعًا، أو عبارة مبتكرة، أو استعارة بدعية، فيسبح في الخيال، وينسى الحر، وهي حيلة لطيفة للتخلص منه!!

أما أنا فقد ضايقني الحر بين مصر والإسكندرية، تؤلني الأولى بحرهما القاسي، وتؤلني الثانية برطوبتها الثقيلة، ووددت أن لو كان لي من المال ما يمكنني من أن أطير صباحاً فأقضي النهار في الإسكندرية، وأطير مساءً فأقضي الليل في القاهرة.

وأخيراً رأيت أن أهرب من الحر حيناً بالتفكير في الكتابة فيه، وقلت إنها فرصة جميلة أن أكتب في الحر، فإن خرج المقال قيمياً ممتلئاً حرارة وقوة ربحت ربح المحسن في عمله - وليس لي كبير أمل في ذلك - وإن خرج المقال بارداً أكون قد أحسنت إلى الناس فرفهت عليهم، وانتقمت من الحر. وأعتهم عليه؛ وآية فرصة للكاتب خير من هذه؟ يحسن إذا أحسن، ويحسن إذا أساء؛ وللاإنصاف لا بد أن أعلن أني لست مبتكراً لهذا المعنى، إنما أخذته من نادرة لها اتصال بالحر، فقد أشد بعضهم بيتاً من الشعر فقال سامعه: إن هذا البيت لو طوح في نار المتنبى لأطفأها، ويريد بيت المتنبى قوله:

ففي فواد المحب نارٌ جوى أحرُّ نار الجحيم أبرُّها

فكذلك أردت أن أثار لنفسي وللناس من حر هذا العام بكتابة مقالة تطفئه، وأخشى ما أخشاه أن تخرج فاترة، لا بالحارة فتعجب، ولا بالمبادرة فتطفئ.

أول ما خطر لي في الحر أني الآن لا بس ثوباً خفيفاً أبيض، واسعاً فضفاضاً مكشوف الرأس عاري القدمين، جالس في حديقة، أشجار عن يميني وأشجار عن يساري، وحوض زهر أمامي، وقد رشّت الأرض من حولي، ويجانبني إناء ما يحفظ فيه الماء مثلوجاً، لا أدري ما اسمه بالعربية؛ وكل شيء حولي يرطب الجو ويلطفه ويعدله، وأنا مع هذا كله برم بالحر، ضيق الصدر، مغيط محنق، أتلمس أقل سبب، لأعلن الغضب - وعلى البعد مني أصوات ترتفع بالنداء، وهذه تحمل قفصاً مملوءاً بالفراخ، وهذا يجر عربة ملئت بأصناف الخضر، وهذا ثالث يحمل على رأسه سقفاً

كبيراً قد ملئ بالتين أو العنب، وهو سائر طول نهاره في هذا القيظ ينادي، لا يعباً بشمس ولا حر، ولا يضجر كما أضجر، ولا يأل كما آلم، ولا يفكر في الحر كما أفكر - أليس في الأرض عدل؟ أليس الشقاء قد أكسبه مناعة وقوة؟ أليست الرفاهية والمدنية والنعيم قد حرمتني الجلد والاحتمال؟ إنه ليسعد بما أشقى به، أنه ليسعد بشربة ماء من كوز من حنفية، ويسعد بالارتواء فيظل بيت في الشارع بعد أن أعياه التعب وأضناه السير، ويسعد بقرش يكسبه ليشترى به خبزاً جافاً يأكله فينعم به. إن كانت السعادة في اللذة والطمأنينة وهدوء البال فما لا شك فيه أن هناك جمالا للتفكير العميق «أينا أسعد» وتباً للعيش الناعم، والمدنية المعقدة، والرفاهية المترفة، التي أرهفت حواسنا وإحساساتنا، وأفقدتنا الصبر واحتمال المكاره، وجعلتنا نفر من نعيم إلى نعيم أدق منه نظن فيه السعادة، وما السعادة إلا في العيش البسيط والمران على الجلد، واحتمال ألوان الحياة وصنوف التعب، وأقلها الحر والبرد، إن تحتمل الحر فلا حر، وإن تحتمل البرد فلا برد، وإن تعتد بساطة العيش تكره نفاق المدنية، وإن السعادة لخير ما يحقق مذهب «إينشتين» في النسبية، فكل شيء في الحياة من لذة وآلم نسبي، وليست اللذة والآلم يعتمدان على الشيء الخارجي فحسب، بل هما نتيجة تفاعل بين الشيء الخارجي والنفس، ويختلف هذا التفاعل اختلافاً كبيراً باختلاف النفوس، فليس الآلم من الحر والبرد يعتمد على درجة الحرارة وحده؟ بل إن صلح الترمومتر أن يكون مقياساً لحرارة الجو، فلا يصلح أن يكون مقياساً لآلم النفس من الحر، وليس لهذه الحال ترمومتر مشترك يتساوى فيه الناس، إنما لكل إنسان في الآلم من الحر والبرد ترمومتره الخاص، ولذلك ترى من يموت من الحر، ومن يموت من الضحك على الحر. ومن الغريب أن يتوجه كل الناس بكل مجهودهم للتخلص من الحر بالاصطياف وسكنى الشواطئ والمراوح والمرطبات، ولا يبذلون أي جهد في

الناحية الأخرى وهي الناحية النفسية بترويضها وتمرينها على الاحتمال، وتعويدها الصلابة؛ وهذا في نظري ليس أقل شأنًا ولا أصغر قيمة من العلاج الأول.

وخطر لي أن علماء الجريمة يذكرون أن هناك أنواعًا من الإجرام تكثر في الصيف كالإجرام الجنسي، وأنواعًا تكثر في الشتاء كإجرام السلب والنهب، فقلت لعل ذلك أيضًا في الأدب، فالأدباء يهيج بعضهم على بعض صيفا أكثر مما يهيجون شتاء، ويهيجون في القاهرة أكثر مما يهيجون في الإسكندرية، إن شئت مصداق ذلك فانظر ما كان بين من يسمونهم أدباء الشيوخ وأدباء الشباب، وانظر ما كان بين أدباء الشيوخ بعضهم وبعض، وأدباء الشباب بعضهم وبعض، أليس هذا كله فعل الحر؟ أو ليس من كان في الإسكندرية على شاطئ البحر كان يعجب من فعل الحر في أدباء القاهرة؟ ولئن كان الحر يؤاخذ على ما جنى من تعريض العلاقات بين بعض الأدباء لخطر، فإنه يشكون على أنه استطاع أن يستخرج من الأدباء قطعًا فنية بديعة أكملت أبواب الأدب، فإن القدماء قد عدوا من أبوابه باب الهجاء كما عدوا باب المديح - كما أنه يشكر إذ لم يسلط ناره الحامية على الأدباء طويلاً فقد حوّل عدسته إلى غيرهم ليتنازعوا فنجا الأدباء من ثورته، وهدأت عواطفهم وتصافت نفوسهم.

وأخيرًا خطرت لي محمدة جلييلة للحر القائظ، والبرد القارس، وقلت إن هذه المحمدة تفوق كل ما كان للحر والبرد من سوء، ولولاها لما تقدمت الإنسانية، ولما رقي النوع البشري هذا الرقي، ولظل هائمًا على وجهه كالوحوش؛ ذلك أن الشمس بتارها اللافتحة، والحر بشدته اللاذعة، والبرد بحدته القاسية، وأمطاره المنهمرة، وبرده وثلوجه، والطبيعة العنيفة بعواصفها ورياحها، كل ذلك هو الذي ألجأ الإنسان قديما إلى أن يبحث له عن ملجأ يأوي إليه من الحر والبرد فسكن الكهوف في نشأته الأولى وظل يرتقي في ضروب من الارتقاء حتى أسس البيت، وأسس الأسرة، وكونت الأسر القبائل والمدن، وكونت هذه القبائل الأمم، ثم تعاونت

الأمم على ترقية النوع الإنساني، فلولا الحر والبرد ما أظن أن قد كان بيت، ولولا البيت ما كانت أسرة، ولولا الأسر ما كانت أمم. أليس الحر والبرد إذن كانا أفعل في ترقية النوع الإنساني من كل مظاهر الحياة وظواهر الكون؟ فإذا قلنا إن تقدم النوع البشري مدين في تقدمه لرداءة الجو، وشدة الحر والبرد، لم نُبعد.

خطر لي كل هذا حينما حاولت أن أكتب في الحر فبدأ الضجر يقل، والألم يحتمل، والنفس تهدأ، والعاصفة تسكن والاحتمال يقوى. فهل هذا يستمر؟ سأجرب. على كل حال قد هزئت بالحر ونسيته - ولو إلى حين - بكتابة مقال فيه.

الشخصية

أعجب ما في الإنسان شخصيته، وقد تنوعت الشخصيات بعدد ما على الأرض من أشخاص، فترى الشبه الكبير بين الحجر والحجر، حتى يصعب عليك أن ترى بينهما فرقا، وترى المطبعة تخرج ألافا من الكتب تتشابه وتتماثل، لا تميز بين أحدها والآخر؛ وترى الشبه الكبير بين الوردة والوردة في رائحتها ولونها وكل شيء فيها؛ وترى الحيوانات من فصيلة واحدة تتشابه وتتقارب حتى ليلتبس بعضها ببعض؛ أما الإنسان والإنسان فلا، حتى ليكاد يكون كل إنسان فصيلة وحده؛ فإن كان علماء «الأثنولوجيا» استطاعوا أن يقسموا الإنسان إلى أنواع، وأن يضعوا لكل نوع خصائصه ومميزاته، فلذلك عمل تقريبي محض؛ أما إن أرادوا الدقة التامة فلا بد لهم أن يضعوا كل فرد في قائمة وحده، له مميزاته الخاصة في جسمه وعقله، وروحه وخلقه؛ فإذا أردنا أن نحصي الشخصيات في هذا العالم فعلىنا أن نحصي عدد الناس فنضع ما يساويه من عدد الشخصيات - وكانت اللغة عاجزة كل العجز عن أن تضع لكل شخصية أسما خاصا، فاكثفت في الجسم بأن تقول طويل أو قصير، وسمين أو نحيف، وأبيض أو أسمر؛ مع أن كل كلمة من هذه تحتها أنواع لا عداد لها، فهناك آلاف من أنواع الطول، وآلاف من أنواع القصر، وآلاف من الألوان؛ ولكنها عجزت فقاربت، ولو حاولت أن تضع اسما خاصا لكل نوع من أنواع العيون وحدها، على اختلافها في الألوان واختلافها في النظرات، واختلافها في السحر، واختلافها في السعة والضيق لوضعت في ذلك مفعجا خاصا، وهيئات أن يغنيها.

وعجز علماء الجمال فاكتفوا بقولهم جميل وقبيح، مع أن هناك آلاف من درجات الجمال، وآلاف من درجات القبح، بل إنك لا تستطيع أن تُنزل إنسانين في منزلة

واحدة من الجمال والقبح، فلما أعياهم الأمر قنعوا بقبيح وجميل؛ واكتفوا بالإجمال عن التفصيل.

وعجز علماء الأخلاق فوقفوا في ذلك مثل موقف إخوانهم علماء الجمال، فقسموا الأعمال إلى خير وشر، وقسموا الصفات إلى فضيلة ورذيلة، وسموا الإنسان خيرا أو شريرا، وهيهات أن يكون ذلك مقنعا؛ فالخير والشر يتنوع بتنوع الأفراد، ولو كان للأخلاق ميزان دقيق لاحتاج إلى سنج بعدد ما في العالم من إنسان.

الحق أن علماء كل علم عجزوا عجزا تاما عن أن يجاروا الشخصيات في كل مناحيها، وأن يسيروا وراء تحديدها تفصيلا، ووجدوا العمر لا يتسع لهذا ولا لبعضه، فعنوا بوجوه الشبه أكثر مما عنوا بوجوه الخلاف، وعنوا بالموافقات أكثر مما عنوا بالفروق، وفضلوا أن يضعوا مسميات شاملة، وإن شملها الخطأ، وأن يضعوا قواعد عامة، وإن عمها الغموض والإيهام، وقالوا ليس في الإمكان أبدع مما كان.

هذه الشخصية لكل فرد هي التي ميزته عن غيره من الأفراد، وجعلتني أنا أنا، وأنت أنت، وهو هو؛ ولولا هذه الشخصية لكان أنا وأنت وهو شيئا واحدا. هذه الشخصية هي مجموع صفاتك الجسمية والعقلية والخلقية والروحية، تتكون من شكلك ونظراتك ونبراتك، وطريقة حديثك، ودرجة صوتك من الحسن أو القبح، وإيمائك وإشارتك، كما تتكون من عقليتك وكيفية قبولك للأشياء، وحكمك عليها ومقدار ثقافتك - كما تتكون من تصرفاتك، وموقفك نحو المال، ودرجة حبك له؛ وعلى الجملة كل علاقتك بالحياة، وكل علاقة الحياة بك. وإذا كان الناس مختلفين في هذا كله اختلافا يسيرا أو كثيرا كانت الشخصيات كذلك مختلفة، وبين بعضها وبعض وجوه شبه في بعض الأشياء، ووجوه خلاف في بعضها، وكانت بعض الشخصيات تتجاذب وتحاب، وتتباغض وتتنافر. وفي الواقع إن معنى أحبك أو أبغضك، وأعرفك أو أنكرُك، أن شخصيتي تحب شخصيتك أو تكرهها، وتعرفها أو

تنكرها، وصَدَقَ الحديث: «الأرواح جنود مجنّدة؛ ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وليس معنى حب الشخصية لشخصية أخرى أن الشخصيتين من جنس واحد، وأن ميولهم متقاربة، بل إن ذلك يرجع إلى قانون أكثر تعقيداً مما نظن، فقد يتحاب الشخصان لأن ميلهما العلمي في اتجاه واحد، أو ميلهما إلى كيف من الكيوف متحد، وقد يتحاب الشخصان لأنها مختلفان ويكمل نقص أحدهما الآخر، كما يجب أحياناً كثيراً الكلام قليل الكلام، وكما يجب الساكن الهادئ المتحفظ المريح النشط المتحرم، وكما تتعاشق الكهربائية السالبة والموجبة. على كل حال ليس قانون تجاذب الشخصيات وتنافرها قانوناً بسيطاً سهلاً يمكن الفصل فيه بكلمة.

هذه الشخصيات الإنسانية تختلف قوة وضعفاً اختلافاً أكثر مما بين الآلات الميكانيكية والمصابيح الكهربائية، فهذه شخصية عاجزة ضعيفة ذليلة، لا يكاد يتبينها الإنسان إلا بعسر، ولا يكاد يراها إلا بمنظار، ولا يكاد يحسها إلا بمجهود، هي «كاللمبة» قوتها شمعة واحدة، بل هي فوق ذلك مغبشة لتضعف قوتها، هي من جنس ما يستعمل في حجر النوم، نور كلا نور ووجود كعدم، لا تتعب نظر النائم لأنه لا يشعر لها بوجود، ولا تستهلك مقداراً يذكر من التيار لأنها كامنة الحياة، مسكينة في فعلها وانفعالها، ضعيفة في تأثيرها وتأثيرها، وهذه شخصية أخرى قوتها ألف شمعة أو ألفان أو ما شئت من قوة، تضيء فتملأ البيت نوراً، بل هي أكبر من أن تضاء في بيت، إنها تضاء في شارع كبير أو ساحة عامة، إذا وضعت في بيت أقلقت راحة أهله بقوتها، وأعشت الناظر بضوئها، وعد وضعها غير ملائم لجوها، وكان مثل ذلك مثل من وضع «فناًراً» في بيت، أو أشعل أكبر وأبور ليصنع عليه فنجان قهوة - وبين الللمبة الأولى الضعيفة الخافتة والثانية القوية الباهرة درجات لا تحصى، فكذلك الشخصيات بل أكثر من ذلك. ولكن هناك فروقاً بين الشخصيات واللمبات، أهمها أن الللمبة الكهربائية لا يمكنك أن تنقلها من قوة إلى قوة، فاللمبة

التي قوتها شمعة واحدة هي كذلك أبدًا، والتي قوتها مائة أو مائتان هي كذلك أبدًا، والتي قوتها مائة أو مائتان هي كذلك أبدًا، وكل ما تستطيع أن تفعله أن تنظف اللبنة وتجلوها حتى لا يضعف غبش من قوتها، ولا يقلل غبار من ضوئها؛ أما الشخصية الإنسانية فقابلة للتحول، بل هي قابلة للطفرة صعودًا وهبوطًا، علوا وانحطاطًا؛ فبينما هي خاملة ضعيفة إذ اتصل بها تيار قوي أشعلها وقواها حتى كأنها خلقت خلقًا آخر، وكأنه لا اتصال بين يومها وأمسها، هي اليوم مخلوق قوي فعال يلقي أشعته إلى أبعد مدى، وكانت بالأمس لا يؤبه بها، ولا يحس بضوئها. كذلك ترى شخصيات أخرى يخبو ضوءها، فإذا هي مظلمة بعد نور، وضعيفة بعد قوة، ليس لها من حاضرها إلا ماضيها. وكذلك شاء الله: يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويخلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم يردّه أسفل سافلين. وتاريخ الإنسان مملوء بالأمثال، فكم من نابغ بعد خمول، وخامل بعد نبوغ، وميت في الحياة الأدبية والاجتماعية حيي، وحي مات؛ وهكذا شخصيات الناس في مد وجزر دائمًا.

وهذا التغير المستمر في الشخصيات هو الذي أبقى على أمل المصلحين في إصلاح الناس، وباعد بينهم وبين اليأس.

وكل شيء يواجه الإنسان في حياته يؤثر في شخصيته أثرًا صالحًا أو سيئًا؟ فالغني بعد الفقر، والفقر بعد الغنى، واليأس بعد الأمل، والأمل بعد اليأس، وما يعتره من شدائد وكوارث، وما يبذله من صراع الحوادث، وما يلاقيه من رخاء ونعيم، وما يبعثه ذلك من هدوء واطمئنان - كل هذا وأمثاله له أثر في تكون الشخصية يختلف ضعفًا وقوة، وأهم غرض للتربية الصحيحة في نظري أن تجعل ممن تربيتهم شخصيات هي أقوى ما يمكن أن يكون الأشخاص من حيث استعدادهم وأهليتهم، فأنجح مرب هو الذي يستطيع أن يصل بطلبته إلى أقصى ما في استعدادهم من رقي، ويبلغ بشخصياتهم إلى آخر حدودها الممكنة - ولكن بجانب

هذا التأثير العادي اليومي تحدث حوادث بارزة في تاريخ الإنسان وخاصة العظماء يكون لها الأثر البالغ والتغير الخطير، وهذه الحوادث يصعب ضبطها وتحليلها وحصرها؛ فقد تنقلب شخصيات الأفراد فجأة على أثر عقيدة دينية تملأ نفوسهم حماسة وقوة وعظمة كما رأينا في فعل الإسلام في رجاله أمثال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، فلولا الإسلام ما كانت لهم هذه الشخصيات البارزة، ولكانت عظمتهم محدودة محصورة، ولو سبقوا زمنهم بسنين لامتوا كأمثالهم من عظماء الجاهلية، وقد يكون بروز الشخصية وظهور النبوغ في الإنسان على أثر مقابلته عظيمًا، فيحس بعدها كأن عود ثقاب أشعل في نفسه فألهبها، وأضاء ما بين جوانبه وحفزه للعمل، وهون عليه الأخطار، بل قد تكون العظمة نتيجة لشيء أنفه من ذلك، فقد يقرأ جملة في كتاب، أو يسمع عبارة من خطيب، فكأنها كانت مفتاح عظمتهم، وكاشف حيرته، بل قد تكون العظمة لم تأت من شيء خارجي بل أتت من تفكير الشخص في نفسه وتحليلها وتبين موقفها من العالم، وموقف العالم منها، وتساؤله لها ما رسالتها إلى العالم وكيف تؤديها - فإذا هو يشعر بعد طول التفكير كأن قبسا من نور إلهي ألهب نفسه، وأضاء العالم أمامه، فهو يسير على هدي، ويؤدي رسالته كما بلغ، إلى كثير من أمثال هذا مما لا يستطيع حصره.

ويظهر أن النفوس إذا نضجت تلمست الوسائل المختلفة لبروزها، وظهور عظمتها، والصوفية يقولون: «صاحب الخصوصية لا بد أن يظهر يوما ما» ولكن كم في العالم من شخصيات كامنة لو هيئ لها عود الثقاب لاشتعلت، ولو أتيح لها القبس لأنارت، وكم من بذرة صالحة قوية لم تجد تربتها اللائقة بها، فغلبتها على الحياة بذرة فاسدة، وكم من زهرة بدأت تتفتح فأصابها ريح هوجاء عصفت بها. وعمل المصلحين والشخصيات القوية في كل أمة أن يستكشفوا هذه الكوامن فيقدموا لها الغذاء، ويتعهدوها بالنماء.

ثروة تضييع

هي ما خلفها لنا الجيل الماضي القريب، وتسلمناها منه يدًا بيد، ولست أعني ما خلفه من شعر ونثر وكتب في مختلف العلوم والآداب، فهذه قد حفظناها ونشرنا بعضها وعيننا بها إلى حد ما، إنما أعني ما صدر عنهم من قول وعمل، وما كان يدور في مجالسهم من حديث ظريف أو نافع، وما وقع لهم من أحداث وكيف تصرفوا فيها، وأنماط مجالسهم وأحاديثهم ومجتمعاتهم، ونحو ذلك مما يدلنا على حقيقة شخصيتهم، ويفيدنا في تعرف مجتمعاتهم، ويعين المؤرخ بعد على رسم صورة صحيحة صادقة لحال المجتمع في ذلك العصر وقدر نابغيه.

كان لعلّي باشا مبارك «صالون» كبير في بيته بشارع «المظفر» يغشاه عظماء الرجال والشبان وطلبة المدارس، وكان يدور فيه كل ليلة من ألوان الحديث وشتى المقترحات ما ينبغي أن يسجل، ومثل ذلك في منزل عبد الله باشا فكري ومحمد باشا قدرى ورفاعة بك وأمثالهم، وكان نوع أحاديثهم ومباحثاتهم شيقا ممتعا يصور عصرهم خير تصوير، ثم كامن صالون كصالون الأميرة نازلى هانم «بعبادين» يختلف إليه قادة الفكر وعظماء الرجال في العصر القريب، يتحدثون فيه عن الشرق والغرب، وتثار فيها أفكار لها قيمتها وخطرها، وكان نمطهم في أحاديثهم وتفكيرهم يخالف ما كان عليها رجال علي باشا مبارك وأمثاله. وكان غي هذه الصالونات مجتمعات وأحاديث ونوادير وفكاهات في البيئات المختلفة من بيئة فلسفية كبيئة السيد جمال الدين، أو دينية اجتماعية كبيئة الشيخ محمد عبده، أو فكاهية كبيئة الشيخ حسن الآلاتي، أو بيئة المغنين أمثال عبده الحامولي ومحمد عثمان، وكان يجري في جميعها أقوال وأفعال هي أدل على الذوق المصري والتفكير المصري والخلق المصري من كل ما خلفوا من مؤلفات ومجلات وصحف.

هذه الثروة التي لا تقدر - آخذة - مع الأسف الشديد - في الضياع، وليس يدون منها - فيما أعلم - شيء يذكر، وأكثر الذين عنوا بالترجمة هؤلاء الرجال أساءوا إليهم وإلى التاريخ كل الإساءة، إذ كانت ترجمتهم «ترجمة رسمية» اقتصرُوا فيها على اسم المترجم له والمولد وتاريخ الولادة، والمعاهد التي تعلم فيها والأعمال التي تولاهَا، والكتب التي ألفها وغير ذلك ما يعد من الأعراض فأما الجوهر وأما شخصية الرجل، وأما حياته الاجتماعية التي تدلنا على من هو من قومه، ومن هو في نفسه، فلا يعرضون لها بشيء. وقد كان السابقون الأولون - على تقدم عصورهم - أصبح نظرًا، وأحسن أداء وأوفى للتاريخ فبين يديّ الآن جزء من كتاب الأغاني فتحت حيثما اتفق فوق نظري على ترجمة إبراهيم الموصلي فذكر نسبه ونشأته وذكر حكايات عدة حدثت له مع غلمانه وجواريه وأصحابه، وما وصل إليه من الأموال وما ورثه أهله، وأحاديث عن مروءته، وأحداثًا حدثت له مع الرشيد وبمحيى بن خالد، وكيفية تعليمه الغناء للجواري، واتصاله بالخلفاء وسيرته معهم، وعدد الأدوار التي غناها، وعشقه ومن عشق، وأثر أصواته في الناس، إلى آخره مما يستطيع الأديب أو المؤرخ أن يضع له صورة دقيقة تمثله، ويضع لمجتمعه رسمًا واضحًا بيّنه، وبين يدي كذلك الجزء الأول من كتاب جامع التواريخ المسمى «نشوار المحاضرة» للتتوخي، يقول في سبب تأليفه: إنه قد اجتمع قديمًا مع مشايخ فضلاء، علماء أدباء، قد عرفوا أحاديث الملل، وأخبار الملوك والدول؛ وأحاديث البخلاء والظرفاء، والعلماء والفلاسفة، والأغبياء وقطاع الطريق والمتلصصين، (وعُدّد كل أصناف الناس) وكانوا يوردون كل فن من تلك الفنون على حسب ما تقتضيه المحادثة، وتبعثه المفاوضة، فلما تناولت السنون، ومات المشيخة الذين كانوا مادة هذا الفن، ولم يبق من نظرائهم إلا اليسير الذي إن مات ولم يحفظ عنه ما يحكيه، مات بموته ما يرويه، عمد من أجل ذلك إلى تدوين هذه الأحاديث في كتابه، والتزم أن يذكر فيه فقط ما يدور في

المجالس مما لم يذكر في كتاب- ويقرؤه القارئ فيجده يصور عصره أجمل تصوير، وكتب الجاحظ لم تترك صغيرة ولا كبيرة من أخبار عصره وأحداثه الاجتماعية من الخصيان والغلمان، والبخلاء والظرفاء، والنبات والحيوان، إلا أحصته وشرحته في دقة وإسهاب.

وما لنا نذهب بعيدا والعصر الذي نسميه مظلمًا أنتج مثل «الجبرتي» الذي دون من الأحداث وتاريخ الرجال في عصره ما لم نفعله نحن لعصرنا.

أما كتبنا نحن فقد عَمَدْتُ إلى خيرها وأخرجت منه ترجمة رفاة بك، فوجدته يسرد ولادته وتاريخها والمدارس التي دخلها ورحلته إلى أوربا، والوظائف التي تولها بعد عودته، وأسماء الكتب التي ألفها أو ترجمها، وسنة وفاته- ولكنك تتساءل بعد قراءتها: من رفاة بك؟ ما معيشته الاجتماعية؟ ما شخصيته؟ ما علاقته بقومه! فلا تجد شيئا من ذلك- هذا حال رفاة بك الذي ملأ اسمه كل مكان، فما بالك بأمثال المغمورين ظلما، أمثال الشيخ حسن الطويل والشيخ حسين المرصفي.

بل بالأمس القريب مات حافظ إبراهيم، وكانت حياته الاجتماعية أغنى ما تكون حياة، كل ليلة يغشى جمعا أو يغشى بيته جمع، فيملأ المجلس بأحاديثه العذبة، وفكاهاته الحلوة، وهي- في كثير منها- تفوق ما دونه الأقدمون من ملح ونوادر- ولعلها إن جمعت ودونت أفادت تاريخ الأدب وتاريخ الاجتماع أكثر مما يفيد ديوانه، ومع هذا لم ينشط أحد لتدوينها، ولم يلتفت لقيمتها، وسيبقى عليها الزمان الذي عفا على ملح المويلحي والبابلي، وفي ذلك خسارة لا تقدر، ولقد حدثت بعض الأدباء في ذلك ورجوته في هذا العمل، فاعتذر بأن أكثر النوادر إنما تحسن إذا أديت باللغة العامية، وتفقد قيمتها إذا حكيّت باللغة الفصحى ولكن ما هذا لكبر على اللغة العامية، والسابقون من أعلام الأدب لم يكونوا يتخرجون من ذكر النادرة

الحلوة باللغة العامية، إذا لم يحسن الأداء إلا بها، كما فعل الجاحظ في البيان والتبيين، وابن زولاق في أخبار سيبويه، والأبشيهي في المستطرف.

إن في ذمتنا للجيل القادم عهد أن نسلم إليه تاريخه كاملاً متصل الحلقات كم تسلمناه، فإذا نحن لم نفعل فقد أضعنا الأمانة وُخِّنَّا العهد - وفينا بحمد الله رجال شهدوا الجيل الماضي، وكان لهم من المنزلة ما استطاعوا معها أن يخالطوا البيئات المختلفة، ويطلعوا على خفاياها ودخائلها، ولهم من الذكاء وحسن النظر وصدق الرواية وقوة الحافظة وبلاغة اللسان والقلم، ما يمكنهم من الأداء على أحسن وجه، أمثال الهلباوي ولطفي السيد وعبد الوهاب النجار، والسيد محمد البيلوي، فهل يشاركوننا في الشعور بما لديهم من ثروة حافلة، وفي الشعور بما عليهم من تبعة، فيقدمون للجيل الحاضر والقادم أئمن عمل تاريخي؟ كما فعل أحمد باشا شفيق؛ فإن لم يفعلوا فهل للشبان أن يدركوا قيمة ما عندهم فينشطوا للاتصال بهم، وتدوين ما يأخذون عنهم، قبل أن تضيع الثروة، وتفلت الفرصة؟ أطل الله في أعمارهم.

النقد الأدبي

أوازن بين النقد من نحو عشرين عامًا والنقد الآن، فأجده ليس خاضعًا لسنة النشوء والارتقاء، بل لسنة التدهور والانحطاط، حتى وصل إلى حالة من العجز يرثي لها.

فقد كان الكتاب إذاً ظهر هبت الصحف والمجلات لعرضه ونقده؛ فاللغوي ينقده نقدًا لغويًا، والمؤرخ ينقده نقدًا تاريخيًا، والأديب ينقده نقدًا أدبيًا؛ وتثور معركة حامية بين أنصار الكتاب وأعداء الكتاب، وتظهر في التأييد والتفنيد مقالات ضافية، وبحوث عميقة شائقة. ولست أنسى ما كان يقوم به الأستاذ إبراهيم اليازجي من نقده «لمجاني الأدب» و«أقرب الموارد» ونحوهما من الكتب، كما لست أنسى ما نُقد به كتاب «التملن الإسلامي» والأخذ والرد اللذين قاما حوله؛ وكان شوقي أو حافظ يقول القصيدة، فيقوم ناقد معترض يبين معاييبها، ومادح مقرظ يبين محاسنها؛ ومن هذا وذاك يستفيد الأديب، ويرقى الأدب، وتتجلى حقائق كانت خافية، وتتهذب أذواق كانت نائية. وكان يؤلف الكتاب الديني مثل كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فتتشب معارك حامية، وينقسم المفكرون إلى معسكرين، وفي كل معركة شحذ للأذهان ودرس للمتعلمين، وتمحيص للحقائق. قد كان في تقديمهم أحيانًا هُجر وقذع، وهجو وسباب؛ ولكن كان بجانب ذلك حقائق تذاع وبحوث تنشر؛ وكان كل من السباب والنقد العفيف علامة حياة أدبية، وثورة فكرية، وعقل باحث، وقلم نشيط.

تعال فانظر معي الآن إلى ما وصلنا إليه! لقد كثرت الكتب يخرجها المؤلفون وأصبح الإنتاج الأدبي أضعاف ما كان، في كل ناحية من نواحي الأدب، من قصص وقصائد وموضوعات اجتماعية، وكتب تاريخية؛ وكثر الكلام في الأدب وخصصت

أكثر الصحف صفحات للمقالات الأدبية، وكان معقولا أن يساير النقد هذه الحركة فيرقى معها، ويتسع باتساعها، وتتعد نواحيه بتعدددها، ولكن كان من الغريب أن تحدث هذه الظاهرة، وهي رقى الأدب وانحطاط النقد.

نعم، اعتقد أن الأدب العربي ارتقى عما كان عليه منذ عشرين سنة في جملة لا في كل ناحية من نواحيه، فقد يجوز أننا لم نجد من يخلف «شوقي» و«حافظ» في ناحيتهما الشعرية، ولكن الأدب - بمعناه العام - أصبح خيرا مما كان، فغزرت معانيه بعد أن كان لفظيا، وعمق بعد أن كان سطوحيا، وجادت القصة فيه نوعا ما، واتسع أفقه وموضوعاته قدرا ما، وتأثر الأدب الغربي وقلده في مناحي رقيه. أما النقد فانكمش وانكمش حتى ضمر وذبل وأشفى على الهلاك.

وحسبك دليلا أن ترى أشهر الكتاب في العالم العربي يخرجون الكتاب تلو الكتاب فلا تكاد تجد ناقداً يعتد به، وتقرأ ما يكتب عن ذلك في أشهر الصحف والمجلات فلا تجد إلا سرايا، وأكثها يكتب باسم الكتاب وعرض موضوعه والاستعانة على ذلك بفهرسه ومقدمته ثم صيغة محفوظة متداولة من المدح والتقريظ، فإن كان نقد فمظهر لا مخبر، هو نتاج فقر عقلي وخود ذهني، ثم ينتهي الأمر ويغلق الباب، فلا معارك ولا مساجلات ولا بحوث حول الكتاب، ولا أخذ ولا رد، ولا مظهر من مظاهر الحياة الأدبية. لا يشعر الناقد أن عليه واجبا يؤديه للقراء، وأن منصبه يتطلب منه قراءة عميقة وآراء صريحة، وتقديرا دقيقا، وأن ذمته لا تبرأ إلا ببحث شامل واف ثم إبداء لرأيه في غير تحيزي ولا مواربة، ولكن كل ما يشعر به أن المؤلف أهدى إليه الكتاب؛ فهو يلقي عن عاتقه العبء بكتابة كلمة خاملة، ووصف فاتر، ونقد سطحي.

ليس النقد مجرد استحسان الناقد أو استهجانته. فكل ما كان مبنيا على ذوق الناقد وحده، ومجرد ادعائه أن هذا بليغ وهذا غير بليغ وهذا راق وهذا غير راق لأنه

يتذوقه أو لا يتذوقه، واكتفاؤه أحيانا بأن يصوغ عبارته في الاستحسان أو الاستهجان في قالب جميل، كل ذلك ليس من النقد في شيء. إنما النقد ما عُلِّلَ وبيئت فيه أسباب الحسن والقبح، وأسس على قضايا ثابتة. فهذا يستفيد المنقود، ويرقى الأدب، ويسمو الذوق؛ وبهذا وحده لا يكون النقد فتاتاً لموائد الأدب، ولا متطفلاً على نتاجه، إنما يكون هادياً للأديب ومرشداً للجمهور وموجهاً للأدب نحو الكمال.

ولكن ما علة هذه الظاهرة في الأدب العربي، وليس من الطبيعي في الأمم أن الأدب إذا رقى ضعف النقد، فإننا نرى الظاهرة في الأدب الغربي أن يرقى الأدب فيرقى النقد ويؤثر كلاهما في الآخر تأثيراً محموداً - فيجب أن تكون علة ضعف الأدب العربي علة محلية لا علة طبيعية.

يظهر لي أن هذا الضعف في النقد يرجع إلى أسباب عدة:

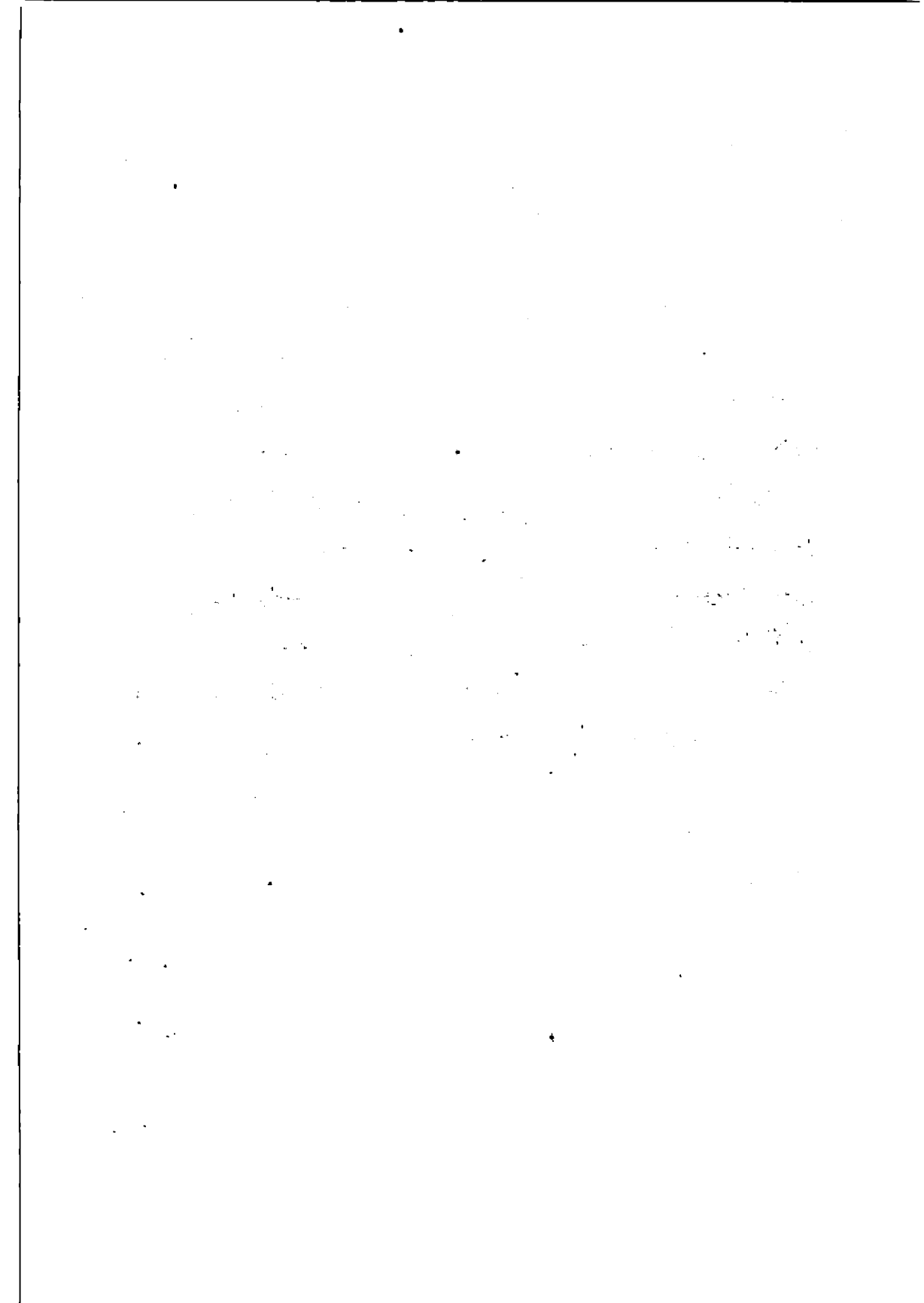
أهما أن النقد الصريح الصحيح يحتاج إلى شجاعة أدبية قوية من الناقد، ورحابة صدر من المنقود، وقد حدث في تاريخ مصر الحديث أن جماعة تسلحوا بالشجاعة الأدبية فأظهروا آراءهم في صراحة تامة ولم يبالوا الرأي العام سواء في ذلك بحوثهم ونقدهم؛ وكانت هذه البذرة الأولى للشجاعة الأدبية في مصر، فألفوا كتباً عبروا فيها عن آرائهم في جلاء ووضوح، وكتبوا مقالات تعبر عما يختلج في نفوسهم وإن لم تكن على هوى الجمهور، ونقدوا أدب الأدباء وإن بلغوا القمة في نظر الناس، فكان صراع بين القديم والحديث، وبين التفكير الحر والتقاليد، وبين الأدب الناشئ والأدب الموروث. ولكن هذا الصراع انتهى بغلبة الجامدين، ونال الأحرار من العسف والعت فوق ما ظنوا، وهذا يحدث مثله في كل أمة من الأمم الأوربية، ولكن هناك فرق كبير بيننا وبينهم، ذلك أن أصحاب الرأي الجديد في البلاد الراقية إذا أودوا في العصر الحديث رأينا من مقلديهم وأتباعهم في الرأي من يمدونهم بالمال وبالمعونة.

وكم رأينا من المال يجمع ليستعين به من نكب في منصبه بسبب رأيه أو بسبب سياسته، يتبرع به أغنياء اعتقدوا صحة رأيه أو وجهة سياسته، فعطفوا عليه، وتحول عطفهم إلى اتخاذ وسائل لدرء الخطر عنه، فاستمر في شجاعته، وشعر بأن تضحيته يقابلها عطف، وأنه إن ضحى بالكماليات لا يصاب في الضروريات؛ بل وإن أصيب في الضروريات فقد ضربت له أمثلة عدة أيام الثورة الفرنسية وقبلها وبعدها، فتأصلت الشجاعة الأدبية، ونمت بذرتها وأصبحت غير قابلة للفناء. أما في مصر فكانت بذرتها هي البذرة الأولى، وشعر القائمون بهذه الحركة الجديدة أنهم أصيبوا في سمعتهم، ثم رأوا أن أتباعهم تخلوا عنهم في أوقات الضيق؛ ومن عطف عليهم منهم فعطف أفلاطوني، عطف يتبخر، عطف لا يمكن أن يتحول إلى مال أو مجهود. وكان الرأي العام قويا مسلحا فتغلب وانتقم وأصبحت له السلطة التامة، وانهمز أمامه فريق المفكرين الصرخاء هزيمة منكرة؛ ولم تكن له أمثلة كثيرة في تاريخه القريب فاضطر إلى التسليم، وتعود المجازاة بدل المقاومة، والمداواة مكان الصراحة، فلم يعد هناك معسكران ولم يعد صراع، إنما هو معسكر واحد ولا قتال. وتعلم الجيل اللاحق من الجيل السابق فاخطط خطته ونهج منهجه وأخذ الدرس عن أخيه الأكبر ففضل السلامة. وبذلك اختنق النقد الأدبي في مهده، وأصبح الأدب مدرسة واحدة يختلف أفرادها اختلافا طفيفا، في العرض لا في الجوهر. لا مدارس متعددة تتناحر وتتعاون، وتتعادى وتتصادق وفي عداوتها و صداقتها الخير، ولا أمل في عودة النقد الصريح إلا ببذرة جديدة وروح جديد على شرط أن تكون البذرة صلبة تتحمل حوادث الدهر وعوادي الأيام.

ويتصل بهذا أن الأدباء عندنا صنفان: صنف نضج وتكوّن واستوى على عرش الأدب، وهؤلاء هم القادة، وهم أفراد معدودون تسالموا وتهادنوا وحرمنا ما بينهم من خصومة أدبية وعلمية، وأصبح كل منهم كالعُشراء، لا تميل إلى النطاح ولا ترجو

إلا السلامة. وصنف ناشئ هو في طور التكون، وهو يخشى أن يتعرض لمن استوى على العرش، فيبطش به بطشة جبارة تقضي عليه، فلما جامل الكبراء بعضهم بعضاً، وخاف الناشئون من الكبراء؛ ضاع النقد بين هؤلاء وهؤلاء.

ولعل من أسباب ضعف النقد أيضاً السياسة قاتلها الله، فقد تداخلت أولاً فنصرت الجمهور على القادة، وعاونت الرأي العام على المفكرين؛ وما كان الجمهور والرأي العام ينتصران هذا النصر لو وقفت السياسة على الحياد، ولو فعلت لكانت الحرب سجالات، ولظل المعسكران في قتال؛ وفي هذا تمحيص كبير للآراء فيصد الرأي العام المتطرفين، ويدفع القادة غلاة المحافظين، والأمة من هذا وذاك في استفادة دائمة. وأما أن تدخل السياسة فتبيد معسكرًا بأكمله، فكان الضرر كل الضرر. ثم إن السياسة -ثانياً- دخلت في الأدب وقومت الأديب بلونه السياسي، ولم يستطع الناس التفرقة بين موازين الأدب وموازن السياسة، فأفسد ذلك الأدب والنقد معاً. قد تقول إن السياسة تلعب هذا اللعب في الأمم الممدنة ولم يكن لها هذا الأثر، ولكننا نقول إن الأمم الناشئة تتضرر من تدخل السياسة أكثر مما تتضرر الأمم القوية، وأكبر مظهر في ذلك أنه ليس بين أحزابها تنافر كالذي بين أحزابنا؛ ولا ينكل حزب بالأحزاب الأخرى كما يحدث بيننا؛ فالخصومة السياسية عندهم لا تفقد الصداقة في أغلب الأحيان؛ وكذلك الشأن في الخصومات الأدبية. أما الأمم الناشئة فلا تفهم من الخصومة السياسية والأدبية والعلمية إلا العداء العنيف؛ وفي العداء العنيف قتل للحرية.



فهرس

٣	مقدمة
٥	الرأى والعقيدة
٨	الكيف لا الكم
١٢	صديق
١٦	مشروع مقالة
٢٠	أدب القوة وأدب الضعف
٢٥	من غير عنوان
٢٩	الإشعاع
٣٤	حلقة مفقودة
٣٩	شاعر
٤٦	الذوق العام
٥١	كيف يرقى الأدب
٥٧	بين اليأس والرجاء
٦١	سيويه المصري
٦٦	القلب
٦٩	الجامعة كما أتصورها
٧٤	سلطة الآباء
٨١	والراديو أخيراً!
٨٧	عدو الديمقراطية
٩١	الموت والحياة ^٥

٩٥	الضحك
١٠٠	سَيِّدُنَا
١٠٦	نعمة الأم
١٠٩	ديمقراطية الطبيعة
١١٤	ما فعلت الأيام
١١٨	لذة الشراء
١٢٣	صندوق الكتاكيت
١٢٨	الأحنف بن قيس
١٣٤	أكاذيب المدنية
١٤٠	المصالحة
١٤٦	المادة لا تنعدم
١٥٠	نجار ونجار
١٥٤	عاطف بركات
١٥٤	في مدرسة القضاء
١٦٠	محضر جلسة
١٦٦	أدبنا لا يمثلنا
١٧١	ولود وعقيم
١٧٦	مقياس الرقي
١٨١	كتابة المقالات
١٨٧	الراحة في التغيير
١٩١	في المسجد
١٩٥	منطق اللغة
١٩٩	ظاهرة وتعليلها
٢٠٤	أمس وغدا

٢٠٩	ما نعلم وما لا نعلم
٢١٥	في رأس البر
٢٢٠	بين الصحف والكتب
٢٢٥	إلى أخي الزيات
٢٢٨	إنسان ناجح
٢٣٣	امتيازات من نوع آخر
٢٣٩	على بك فوزي
٢٤٧	الشمس
٢٥١	الرجولة في الإسلام
٢٥٨	قيمة الثقافة
٢٦٢	الرجل والمرأة
٢٦٨	فن الحكم
٢٧٣	مقياس الشباب
٢٧٨	نظرة في النجوم
٢٨٤	صفحة سوداء
٢٨٩	هُما
٢٩٤	الصدق في الأدب
٢٩٩	لحظات التجلي
٣٠٣	أدب اللفظ وأدب المعنى
٣٠٧	ندرة البطولة
٣١٤	السكون في الظلام
٣٢٠	ملق القادة
٣٢٤	اللون الأصفر
٣٢٩	الليل

٣٣٣	فقدان الثقة
٣٣٨	كيمياء الأفكار والعواطف
٣٤٣	في الحر
٣٤٨	الشخصية
٣٥٣	ثروة تضيق
٣٥٧	النقد الأدبي